يوميات طبيب نفساني



الدكتور حسين هاشمي



دار الهادي

يوميات طبيب نفساني

بقلم
الدكتور حسين هاشمي

ترجمة: زهراء يگانه

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقتي الصغيرة

مع انفرادي بـ «ترانه»[1] شعرت انها انتكست في حزن بركن من الاريكة وهي تسرح في بحر أفكارها، كأنها يئست من كل شيء فاضطرها قنوطها للاستسلام لمصير مجهول.

كانت في الثانية عشرة من عمرها عندما جيء بها إلى عيادتي لتعودها على تنتيف شعر حاجبيها، رموشها ومقدمة رأسها.. كنت قد رجوت أمها قبل لحظات أن تتركني انفرد بابنتها فامتثلت لطلبي دون ان تكون «ترانه» نفسها راغبة في ذلك، فشيّعت أمها وهي ترمقها بنظرات تطالبها بعدم مغادرة الغرفة وترجوها بالامتناع عن الخروج.. لكنني التزمت موقفي بجد فتركت الأم الغرفة.

اختلينا نحن الاثنين، أنا وترانه، خلافاً لرغبة الفتاة. مرت لحظات في صمت. كانت الفتاة تشعر باضطراب واكتئاب شديدين ومظهرها وسلوكها يوحيان بأنها تعاني من لون من الاكتئاب يدعىٰ «العجز المتعلم»[2]. فوازين

---

١ ـ تعني «نغمة».

٢ ـ helplessness: يتسم به الأطفال. وعند هورني أن الطفل يولد عاجزاً في عالم الكبار وينمي

←

عقلها الطفولي أو بالأحرى الغض، تشير عليها بأن عيادة الطبيب النفساني هو محل يتردد عليه المجانين أو من يحتمل القاء القبض عليهم لإلحاقهم بدور المجانين.. ربما كان يخيل إليها ان المتواجدين هنا سيعرضونها مثل الكثير ممن يحيطون بها إلى وابل الانتقاد والمؤاخذة على مثل هذا التصرف الأبله أو سترغم على الأقل على تعاطي حقن مؤلمة أو دواء مر يوصف لها هاهنا. ومن ثم سيناديها الجميع بعد ذلك «مخبولة» بالضبط كما كان أبوها يصف أمها لابتلائها بآلام الصداع النصفي أو كما كانت أمها تخاطب أباها بهذه اللفظة بسبب تعاطيه الأدوية المنومة.

كانت «ترانه» غير راغبة في مراجعتي لأنها ليست مخبولة.. كانت الفتاة تصطخب هذه الأفكار خلال اللحظات التي ساد فيها السكوت.. إنها أفكار ترسخت في مخيلتها خطأً خلال السنوات الماضية. وحتى أمها كانت تؤمن بهذه الأفكار إلى ما قبل أيام قليلة. وهذا ما جعلها راغبة في معالجة «ترانه» بمساعدة طبيب أخصائي بالامراض الجلدية. وقد حاولت فعلاً تحقيق ذلك بمراجعة طبيب أخصائي أزعجها بقوله: علاج ترانه يحتاج إلى استشارة طبيب أخصائي بالأمراض النفسية.

ثم أن الدكتور «م» صارحها قائلاً:

«سيدتي، ابنتك مصابة بمرض نفسي ومعالجتنا لها سوف لن تجدي نفعاً. لا مفر من معالجتها تحت إشراف طبيب نفساني».

إن القرابة الوشيجة نسبياً بينهم خولته أن يشدد على ضرورة مراجعتي من قبلهم وهو يدفع إليها خطاباً سرياً مختوماً لتسلمه لي. جاء فيه:

← فيه عجزه القلق المتزايد وهو نوع من العجز السوي المتوقع. ولكن هناك عجز آخر عندما يهفو الطفل الى الدفء والحنان والحب ولا يجد إلّا العداء والخلافات الأسرية عندئذ تبدأ مرحلة تكوين القلق العصابي أو العصاب نفسه.

زميلي العزيز

أقدم لك الآنسة «ترانه يوسفي» البالغة من العمر اثني عشر عاماً وهي من أقاربي، على أمل تشخيص ومعالجة حالتها، ففحوصاتنا لم تثبت أية أعراض باثولوجية (مساوئ جسمية)، علماً بأن أبويها قد انفصلا منذ عامين وأن ترانه أصيبت بهذه الحالة بعد شهرين بالضبط من ذلك الحادث. أرجو أن تبلغني نتائج مبادراتك.

مع خالص شكري وامتناني

الدكتور م.م

التفتّ إليها بود وحنان وقلت حسناً جداً.. الآنسة «ترانه يوسفي».. طالبة في الصف الثاني من المرحلة المتوسطة. بالمناسبة كم هذا الاسم جميل.. ترانه. من اختاره لك؟

قالت مرغمة وهي تسحب بانفعال غطاء شعرها حتى عاد يغطي حاجبيها، ورموشها أيضاً: أبي.

ـ يبدو أن أباك في منتهى حسن الذوق وأنه يفرط في حبك. ترانه، أي نغمة ايقاعية وجميلة ولطيفة تداعب الروح والنفس. على فكرة، أنتِ فتاة جميلة. هل قيل لك ذلك من قبل؟

ـ أجل، أعلم ذلك، ولكن ما الفائدة؟

قلت ضاحكاً أمازحها: ماذا تقصدين بما الفائدة؟ إن جميع الفتيات يتمنين أن يحبوهن الله بالجمال وانت تقولين ما الفائدة؟! إنني في الواقع لا أفهم ما تقولين!

تسمرت في زاوية من الغرفة. لم يكن لديها الرغبة في مثل هذه الأحاديث، لكنها استلطفتها نوعاً ما لأنها أزاحت عنها هواجسها تقريباً فهي على غرار سائر الفتيات يسرها سماع عبارات الاطراء والمديح.

أردفت: إصغي إليّ يا ترانه، دعينا نتحدث. أعدك أن أقدم لك العون، فإنني

أرى أن بوسعي الأخذ بيديك على خير وجه على أن تواكبيني في مسيرتي.. كوني صادقة معي وحدثيني بمكنونات قلبك.. ثقي بأن حديثك سيكتم في هذه الغرفة. لن يطلع عليه أحد حتى أمك إلّا اذا سمحت أنت لي بذلك. فبهذا يمكنني أن أشخص حالتك المرضية وأعالجها على أفضل وجه. إن كنت تعانين من شيء آخر أخبريني به فأنا طبيبك بل الأهم من ذلك: صديقك. ربما أنجح في التفاهم مع أبويك أكثر منك.. إنه لا يضرك على اية حال.. وفي البداية لي عندك رجاء.. علينا إخضاعك لاختبار نفسي، الرجاء أن تجيبيني على اسئلة الاختبار بوضوح.. اكتبي كل ما يجول في خاطرك ولا تخفي شيئاً.

أرشدتها إلى غرفة الاختبار.. فجرى لها اختبار الشخصية الخاص بالأطفال والناشئة دون السادسة عشرة من العمر، والذي يحدد جميع خصائص شخصياتهم. لقد مهد هذا الاختبار طريقنا إلى التشخيص أما أساس تقييم الشخصية من قبل الطبيب فهذا ما ينبغي القيام به من خلال المحاورات الدقيقة والفحوصات النفسية الصحيحة.

أجريت كل هذه التدابير لترانه. استغرقت هذه المرحلة اسبوعاً كاملاً كنت أعقد خلالها مع الفتاة جلسة بين اليوم والآخر. وفي عصر اليوم التاسع عزمنا على تدارس نتائج الفحوصات والاختبارات، أنا وترانه.. كنا قد غدونا كزميلين نساهم في تنفيذ خطة مشتركة. كنت أتحدث وتصغي إليّ أو تتحدث وأصغي إليها.

ـ آنستي الموقرة.. إنك مصابة بحالة تدعى «هوس شد الشعر»، وهي حالة يفرزها الاكتئاب. أما سبب اكتئابك فيعود إلى طلاق أبويك. إنك تحبين كليهما كما أنك تشعرين بالتذمر من سلوك كليهما أيضاً.. وقد تراكمت أحزانك وآلامك في أعماق نفسك وأدت بك إلى ما أنت عليه.

إن أية فتاة ذكية في سن الثانية عشرة تفهم وتدرك أكثر بكثير من أقرانها من الفتيان من نفس الخصائص وهذا ما دعا كبار علماء الروح والنفس أن

يحددوا سن الثامنة عشرة لتكامل عقل الإناث وسن الأربعين للذكور! كنت قد شعرت بأنها تفهم كل ما أقول. وكنت إلى جانب ذلك قد اتخذت معها خلال الأسبوع الأخير سلوكاً يشحنها بثقة عـالية بـالنفس ويشـعرها بـالمسؤولية وبحيوية دورها في المساهمة معي في اتخاذ هذه الخطوات. كانت هذه هي خطتي وقد نجحت في تحقيقها. وهذا ما أشعرني بالاعتزاز، فردها عليّ وأنا أخـبرها بتشخيصي لحالتها اتسم بغاية الروعة.. لقد أجابتني وهي تبتسم بتهكم: عقدت معي كل هذه الجلسات لتفهم هذا الشيء فقط؟!.

ـ نعم ولا.

لمحت عينيها تبرقان ببريق ينم عن روح المشاكسات الأنثوية ثم عـادت تضحك وتتمتم مع نفسها: نعم ولا.. نعم ولا.. ماذا تقصد؟!

اجبت وأنا أشعر باللذة لما أثرته من ثـقة بـالنفس لديهـا ولانـطلاقها في الحديث معي: أقصد بـ «نعم» أنك على حق فقد كنت أبحث عـن تشـخيص دقيق لحالتك مستنداً إلى اختبارات ووثائق لا مجال للطعن فيها، وأما «لا» فقد كنت أعني بها انني تنبهت للحالة منذ البداية مثلك. ولكنني كنت بحاجة إلى أدلة ووثائق أدلي بها لأبويك إثباتاً لما أذهب إليه. فكثير مـن كـلامي كـان سيواجه بالتأكيد الرفض والانكار من أمك فيما لو كنت أتحدث إليها شفاهياً إلّا أنه بوسعي الآن أن أقدم لها ومن ثم لأبيك هذه الاختبارات والتقارير، واقول: «سادتي الكرام، إن ابنتكم مصابة بهذه الحالة المرضية والسبب يعود لطلاقكما. إنه ليس حديثي أنا بل نتائج تدلي بها الفحوصات، المحاورات والاختبارات».. فما هو رأيك؟! أليس هذا هو الأسلوب الأفضل؟ هل يمكننا أن ندفعهما لمواجهة ضميرهما على هذا النحو؟ إنني أفهم الطريق الذي أسلكه أكثر منك، ففوضي إليّ بقية المهمة منذ الآن...

أطرقت وشردت هنيهة ثم قالت بصوت خافت كأنها تحادث نفسها: «أبي وأمي ما زالا طفلين حقاً».

قلت لها: عليك أن تمتنعي فعلاً عن اطلاعهما على أي شيء من نتائج عملنا.

ألقت إلي نظرة تخفي وراءها هذا السؤال: وهل هنالك أي أمل؟

أجبتها بنظرة بأنني آمل ذلك.

بعد أن تركت «ترانه» الغرفة، استدعيت أمها ثم قلت بعد لحظات: «إن ابنتك يا سيدتي وكما تشير الأدلة والوثائق وحصيلة جميع الفحوصات والاختبارات والمحاورات...».

شرحت للأم جميع التفاصيل حتى تأججت، وبشدة، عواطفها واتقد شعورها بالمسؤولية. أوضحت لها أن أبوي الفتاة هما سبب إصابتها بهذا المرض. لم أطل الجلسة فقد نويت أن أتركها لتنفرد بنفسها وتواجه هذا العبء العاطفي والضمير المستيقظ في نفسها فلم يكن هنالك من حديث أجدر من السكوت في تلك اللحظات.

كتبت وأنا مكفهر الوجه، بادي الانفعال، والأفكار تتزاحم في رأسي، خطاباً دفعته إلى الفتاة. طلبت فيه من أبيها أن يراجع عيادتي بأسرع ما يمكن في ساعة معينة حددتها له للتشاور حول حالة ابنته. وأخبرت «ترانه» أيضاً بهذا الموضوع.

قررنا أن تسلم «ترانه» الخطاب لأبيها دون أن تفصح له عن أي شيء. وأن تتظاهر بسوء حالتها بما يكفي لإثارة هواجسه.. طلبت منها أن تتصرف مع أبويها منذ تلك اللحظات على نحو يستشفان منه أنها تلقي مسؤولية مرضها على عاتقيهما. كان عليها أن تعرب عن ذلك من خلال سلوكها.. كنت قد قلت لها: عندما يتملكهما القلق بشأن مرضك تظاهري بضيق الخلق وبعدم الاكتراث مهما حاولا التحدث إليك وإدخال السرور إلى نفسك لتلقينهما بأن هذه الأمور فقدت قيمتها بالنسبة لك.

على أية حال تركت السيدة موسوي غرفتي باكية. كنت قد أشعرتها بذنبها واثبتت لها قصورها في هذا الموضوع.

وأخيراً جاءني السيد «يوسفي» (والد ترانه)، كان رجلاً في الثالثة والأربعين من العمر، حسن الهندام والمظهر، وفي غاية الأدب وحسن المعاشرة، توحي بدلته البنية عموماً بأنه مغرور للغاية وعيناه تنمان عن مشاعره وعواطفه الصادقة.

لقد استجاب لدعوتي بسهولة. كان القلق الشديد بادياً عليه. قلت له: صديقي العزيز، أعتذر لإشغال وقتك ولكن الموضوع يتعلق بابنتك وكان يفترض عليّ أن أقابلك. ثم طفقت اشرح له التفاصيل وأخبرته بصراحة بأنه ووالدة ترانه مسؤولان عن حالتها المرضية. علقت على هذه الملاحظة أهمية أكبر من قدرها لعلني أهز مشاعره القلبية كما اهتزت مشاعر زوجته السابقة، وأنبه ضميره لمسؤوليته إزاء ابنته. واصلت حديثي بعد أن نجحت في إثارة مشاعره، فقلت: لك الخيار يا سيدي كيفما تواصل حياتك.. تتزوج ثانية، تفضل حياة العزوبة أو العودة ولكن عليك أن تعلم أن ضميرك سيعذبك مدى الدهر، فليس من مفر فقد أطلعتك اليوم وبالأمس زوجتك السابقة وبصراحة بأنكما مسؤولان عن كل ما تعانيه «ترانه» وترزح تحت وطأته.

لم يكن بودي أن أتدخل في حياتهما فذلك ما كان سيلقي بي في المتاهات الأسرية وفي مغبة صراع دام ثلاثة عشر عاماً لا يعينني على انتشال نفسي منه إلّا الله.. ورغم ذلك لا يتم تحقيق أدنىٰ تحسن في الوضع، فقد اثبتت لنا التجارب أن استعادة ذكريات المصائب والخلافات سواء أندلعت لسبب أو دونه لا يأتي علينا إلّا بإحياء ذكراها المؤلمة..

استمررت في الحديث إلى السيد يوسفي حتى اردف يقول: وما العمل الآن برأيك؟

ـ لا أعلم. ربما تكونان أجدر مني باتخاذ القرار. ولكنك إن تسألني عن رأيي فإنني على استعداد أن أعقد معكما جلسة مشتركة لأسوي الخلاف بينكما دون تحطيم كبريائك والاستهانة بك أو المساس بعواطفها النسوية مستغنين عن

التباحث والاستدلال الطويل حول ما بدا من كلاكما وعن تحديد الآثم منكما، اتركا هذه القضية لي...

وافق السيد يوسفي على ذلك.. كان يحب ترانه ويرغب في مواصلة العيش مع «بروين» (ام ترانه) أيضاً. غادر الغرفة وأنا أشعر بسروره المستتر خلف قناعه البني المغرور. وقبل ترك العيادة دخلت «ترانه» غرفتي تودعني فأومات لها بإشارة صغيرة وأنا أقول برفق: «الأوضاع على ما يرام».

عقدت أول جلسة مشاورة مع السيد يوسفي والسيدة موسوي بعد ثلاثة أيام تاركين «ترانه» تنتظر خارج الغرفة. استأنفت الكلام بالقول: أعزائي، لا وقت لدي أكثر من خمس عشرة دقيقة إلّا أنني أود أن التقيكما وأسرتي لتضمنا صداقة أسرية. ولكنني باعتباري طبيباً وأخاً لكما أود أن أقول: إنكما بشخصيكما قد بعثتما بتذكرة السفر إلى ترانه ودعيتماها لحضور هذه الدنيا. وقد أسأتما الاستضافة بنبذها جانباً. ضعا ثلاثة مبادئ نصب أعينكما في الحياة: الأدب والتسامح والمنطق، فإنها تضمن تسيير الأمور كافة.. فكرا قبل اتخاذ أية مبادرة إن كانت في صالح «ترانه» أم لا؟ إن كان كذا فافعلا وإلّا فأحجما. أودعا الماضي كله هنا في هذا المكان قبل تركه.. إن اليوم هو أول يوم مما تبقىٰ من حياتكما.. ميلاد جديد.. إنكما مدينان لترانه.. الفتاة التي ايقظتكما من الغفلة ولقنتكما درساً لم تأخذاه قط من غيرها.. إنها كانت وما تزال مغرمة بكليكما وقد تمسكت بهذا الحب بروحها ووجودها.. وسيثمر حبها بالتأكيد.. إما أن تستأنفوا الحياة معاً أو ستفقدان ترانه.. ترانه الجثة أو ترانه المريضة.. إنها عاهدت نفسها أن لا تنسىٰ أياً منكما فهي تحبكما بوله وتضحي بنفسها في سبيل حبها لكما. فما هو موقفكما؟ هل يا ترى أجدكما مولعين بها بمستوى ولعها بكما؟.

صمت وأنا أنظر خلسة إلى مدامعهما المتألقة ببريق الدموع ووجهيهما الساهمين بعيداً.

تركوني ليواصلوا حياتهم.. تمت معالجة ترانه أيضاً خلال فترة قصيرة بتعاطي الأدوية الخاصة وكذلك العلاج النفسي.. لقد مضت أعوام ثلاثة على تلك الأيام و «ترانه» على أعتاب الفراغ من الصف الأول الثانوي وهي متقدمة تقدماً لامعاً في جميع دروسها. فترانه صديقتي الصغيرة وصداقتي معها أقوى منها مع أبويها. أنا معتز جداً بهذه الصداقة. إنها تقدم لي أنا أيضاً هدية بمناسبة يوم الأب من كل عام وقد أهدتني هذه السنة سنداناً صغيراً يحتوي أوراقاً خضراء يانعة أخبرتني أنها زرعتها بيديها، واستطردت: «ضعه أمام عينيك لتكون حياتك يانعة أبداً كما عادت حياتنا يانعة».

لقد فازت هذه الفتاة باصلاح شؤون أبويها. فهل يا ترىٰ ما زال هناك من يقول: أطمح إلى الفتى لأن حيازة الفتاة أمر مشين؟!

أحب نساء العالم

كان السيد والسيدة «م» مثقفين من أصحاب المؤهلات الدراسية. كانا قد أتما دراستهما العليا في إحدى ارقىٰ جامعات انجلترا. أعانهما العيش في تلك البلاد على التنعم بقمة الاكتفاء الذاتي، الخبرة والمعرفة بلغتين عالميتين. كان السيد «م» قد أحرز الدكتوراه في فرع التقنية والكامبيوتر وزوجته صاحبة شهادة الماجستير في هندسة زخرفة المباني وهما في الوقت نفسه ملتزمان بالمبادئ الخلقية والمعنوية وأدبهما الجم خلال حديثهما يجتذب كل مخاطب يصغي إليهما. كان السيد «م» في حوالي الأربعين من العمر يحظىٰ بمظهر متسق، مهذب وزوجته في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من العمر. لهما ولدان: ابنتهما في العاشرة وابنهما في التاسعة من العمر وكلاهما يشاطر أبويه نعمة الذكاء والمواهب. حضرا عيادتي ذلك اليوم في محاولة لحل مشكلتهما.. إنها مشكلة غريبة جداً.

طلب السيد «م» من زوجته أن تترك الغرفة وتفسح له مجالاً للتحدث معي. كأنهما اتفقا على إفصاح كل منهما عن أحاديثه على انفراد. لبت الزوجة طلب زوجها دون أن تبدي أي اعتراض.. ولما اختلينا نهض ثم جلس على الاريكة الموضوعة إلى جانبي. قال هامساً كي لا يتسرب أي صوت إلى خارج الغرفة: يا دكتور، إن زوجتي امرأة في غاية الطيبة. لا يسعني أن أقول أن لها أدنىٰ

تقصير أو تساح في توفير الراحة لي ولأبنائي، ولكنها أصيبت منذ ستة أعوام بحالة غير طبيعية. إنها تبدي رغبة لا يمكن كبحها لإجراء عمليات التجميل لمختلف أعضاء جسمها. إنها بغض النظر عن السنين العشر الأولى من حياتنا الزوجية والتي قضتها منشغلة بالدراسة وادارة شؤون العيش، انكبت خلال الخمس أو الست سنوات الأخيرة على إجراء تعديلات لأعضاء جسمها.

لقد كانت خلال السنوات الأولى أيضاً تتطرق بين الفينة والأخرى للحديث عن هذه المواضيع وكنت أحسبه أمراً طبيعياً فمثل هذه الأحاديث تنساق على لسان الكثير من السيدات وتراهنّ يبادرن لاجراء عمليات جراحية لأنوفهن وبطونهن أو حتى نهودهن. كنا في كل مرة نتناقش حول الموضوع ونتوصل بعد طول نقاش إلى ان أعضاء جسمها في الظروف الراهنة طبيعية جداً وأنها في غنى تماماً عن تغيير مظهرها، فتقتنع بدورها بذلك وينتهي الموضوع. ولكن وسواسها هذا خرج عن طور الضبط بعد ولادة ابننا «نيما». جاءتني يوماً فقالت: «لقد فقدت أعضاء جسمي تناسقها مع بعض إثر الانجاب. ينتابني الخجل كلما ألقيت نظرة على بطني. كل من يراني أمشي في الطريق يتصورني حبلىٰ. إنني أشعر بالخجل كلما نظرت إلى بطني. الجميع يحسبونني حاملاً عندما أسير. إن مظهر بطني يستوقفهم. إنني أشعر بمدىٰ تهكم الناس بي. إنهم يومئون إلى بعض واصابعهم موجهة إلى بطني. أنوي أن أجري عملية تجميل لموضع العمليتين القيصريتين اللتين أجريتا لي لتزال خلالها طبقات الشحم من تحت جلدي. لقد انهارت أعصابي جراء هذا الموضوع. سوف لن أعود للتحدث عن هذا الموضوع أو الاستماع إلى نقاش حوله».

استطرد السيد «م»: ولكن وضعها لم يكن يثير أي ملاحظة من وراء الجلباب، كل ما في الأمر كان يمكن التغلب عليه بممارسة الرياضة. ومع هذا فكرت بأن الأمر لا يتطلب الاعتراض ما دامت تصر على موقفها إلى هذا الحد، فالكثيرات من النسوة يقدمن على مثل هذا. وسيعيد لها إجراء العملية

الهدوء. قد يكون الحق إلى جانبها، إنها حالة سادت في أيامنا هذه، ولابد لي أن لا أتمادى في التعامل مع هذا الموضوع بتحجر. هكذا أجريت لبطنها عملية تجميل.

نالت قسطاً من الهدوء لعدة أشهر حتى شعرت بها تقف طويلاً أمام المرآة وهي تتفحص أنفها وتنظر إليه من زوايا مختلفة ثم تتحدث أحياناً عن قبح أنفها. لم يكن في أنفها كما يبدو لي أي نقص إلّا أن الايمان بهذا الموضوع كان قد ترسخ في مخيلتها. كانت تقول: «كأنني استمع إلى عبارات الاستهزاء والضحكات التي يطلقها الآخرون بملء وجودهم وهم ينظرون إليّ. تجدهم أحياناً لا يتمالكون أنفسهم فتنفرج شفاههم عن ضحكات مكبوتة أمامي.. كأن أنني شيء إضافي معلق بوجهي أو أن الله قد خلقه لرجل فأخطأت الملائكة بربطه على وجهي» وما إليها من أحاديث لا ينطق بها غيرها. يا دكتور! لقد فكرت مع نفسي إن اجراء عملية تجميل الأنف قد غدت موضة سائدة وهي زوجتي ولها رغبة على غرار الكثيرات من النساء.. لم أفكر في الموضوع على أنه أمر شاذ. وبهذا أجريت لها عملية التجميل الثانية.

بعد عدة أشهر صار التفكير بعقبي قدميها شغلها الشاغل وصارت تقول: «إنهما مشوهان. لا أستطيع السير عليهما براحة. إنهما يؤلمانني. يتبادل الناس نظرات ذات معنى عندما تقع أبصارهم على قدمي. ماذا أفعل؟».. أجريت العملية الثالثة رغم أن عقبي قدميها كانا ـ وكما قال حتى الجراح الاخصائي الذي أجرى لها العملية ـ بعيدين عن أي تشوه.. وبعد الجراحة غديا أصغر مما كانا عليه على نحو أفقدهما كما يبدو لي ولأسرتها مظهرهما وانسجامها الطبيعي والأولي مع قدميها.

لم تنقض فترة طويلة حتى عادت تفكر في أنفها لتقول: «مناخيري واسعة أكثر من اللزوم. أقاسي من الهواء البارد الذي يدخل منها مباشرة. أصبحت عرضة للتهكم وغدوت أداة للسخرية في الشركة. سوف أترك العمل لو

استمرت هذه الحالة»، وبهذا أرغمتني على الموافقة.. لم أعد أطيق..

اقترحت مراراً أن نزور معاً طبيباً نفسانياً ونتشاور معه فأبت. كانت تقول: «إنك ساذج جداً وأفكارك رجعية. إن هذه الجراحات أصبحت في حياتنا العصرية أمراً متداولاً شائعاً، فجميع الإناث يلجأن الى مثل هذه الأساليب لاستزادة جمالهن. لقد تطور العلم ولنا نحن السيدات الحق أن نضفي على أنفسنا جمالاً وإناقة بمعونة هذه العلوم. ثم أنني لا أفكر على الإطلاق بالجمال. إنها تشوهات في جسمي تعرضني للإهانة والاستخفاف وتحط من شأني ولا بد لي أن أتغلب عليها. إنني لا أسعىٰ لزيادة الجمال بل أجهد لتفادي تشوهات أعضاء جسمي وإعادة المظهر الطبيعي لها، لا غير».

إنها كانت صادقة. إن الحياة المشتركة لفترة خمسة عشر عاماً، الدراسة، اجتياز مرحلة الدراسة الجامعية في خارج الوطن وتحمل عناء قسوة العيش والغربة، الرعاية الثنائية للأطفال وتناوب وجباتها بيننا زادنا قرباً من بعض، فكل منا يعرف الآخر حق المعرفة. كانت صادقة فأنا بدوري شعرت إن ما يملي عليها هذه السلوكيات حالة نفسية تعاني منها لا الاندماج مع الموضة، وهذا كان يقلقني. لم أكن أعلق على الموضوع مثل هذه الأهمية لو كان تأثراً بحمى جراحات التجميل الشائعة بين النساء في أيامنا هذه. لا أطيل عليك يا دكتور. لقد أجرت الجراحة الرابعة لتعرج بعدها على الأساليب التقليدية للتجميل، مثل: الوشم و.. ولم تكن غايتها التجميل بل لإيمانها بقبح حاجبيها أو شفتيها بما يخرج عن الحد المعقول مما يفرض عليها إصلاحهما فلجأت الى الحقن الموضعي وانشغلت لفترة بهذا الإجراء. وذات يوم عادت تقول: «لقد سادت طريقة حقن نوع من الفطريات تحت جلد الجبهة مما يمنع تعرج بشرتها أثناء التكلم!» وكانت تنوي بالفعل اتباع هذه الطريقة أيضاً لولا أنها طالعت في مكان ما أن هذه الفطريات قد تتسبب في الإصابة بالسرطان. فتغاضت عنها لحسن الحظ. ثم أخذت تفكر في جراحة تجميل لوجنتيها وتبرهن على حاجتها

لمثل هذه الجراحة بأن تجميل أنفها قد غيّر مظهرها فلم يعد أنفها ينسجم مع محياها وعليها أن تعيد الانسجام بين وجنتيها ومظهرها الجديد. رقدت في المستشفى من جديد. أنهكني وضعها فتركتها وشأنها، فلم يعد لكلامي أنا، أبويها، إخوتها وأخواتها وحتى صديقاتها أي وقع لديها.

على أية حال، أجرت الجراحة الخامسة، ثم السادسة لنهديها لتبدأ من بعد بالتفكير ببشرة وجهها. كانت تقول: ترتسم حول شفتي ومناخيري أثناء الضحك تعاريج قبيحة يتم التغلب جميعاً بشد بشرة وجهي نحو أذني. لم يمض على ذلك أكثر من أشهر قلائل وهي الآن تهتم بجفنيها لاعتقادها بضيق أطرافها الخارجية وضرورة إجراء جراحة تجميلية لها يضمن توسعها لتبدو عيناها أكبر حجماً. ما ينغصها هو شعورها بأنها عرضة للاستهزاء في الطريق وفي محل عملها. إنها تفكر بأن الجميع يتبادلون نظرات ساخرة بمشاهدة عينيها الضيقتين. إنك يا دكتور قد شاهدتها بنفسك.. عيناها ليستا صغيرتين بل في حجم طبيعي وبمظهر جميل. ومع هذا فإنها ترى غير ذلك. تقول أنها تعاني من انخفاض الجفن الأيسر مقارنة مع الأيمن ولكنها ولله الحمد وافقت على مراجعة طبيب نفساني قبل تنفيذ قرارها الأخير. وضعها بلغ حداً مأساوياً أنهكها هي الأخرى. بدأت تفطن بأن الأمر يعود إلى موضوع غير ما تتصوره. إنها بحاجة إلى استشارة طبيب نفساني يتدارس وضعها النفسي ويقيمه. إن العلاقة بيننا ودية للغاية يا دكتور. وكلانا يكن حباً عميقاً للآخر. إني أعرفها حق المعرفة وأنا على يقين من أنها تعاني من أزمة نفسية لأنها ليست ممن يرغبن في مثل هذه القضايا بتاتاً. عندما تزوجنا كانت من زمرة الفتيات الفاتنات في الكلية. وهذا ما يقر به الجميع.. إنها تعاني من مرض ما، فلا أحد سواها يؤيد أقاويلها وما تذهب إليه.

صمت هنيهة. كان يبدو متعباً جداً. يعاني من إرهاق نفسي لا جسمي. لقد أنهكته منغصات الأزمة الأسرية والتخبط في بحر الهواجس والاضطراب اللا

متناهي والعمل الإداري وتربية الأطفال ورعايتهم وإدارة شؤون المنزل والأقسىٰ من ذلك التماشي مع التصورات العجيبة لزوجة يحبها ويشعر بأنها تعاني من مرض ما طوال ستة أعوام. ومع هذا كان متماسكاً لم يصده كل هذا عن المقاومة، وقد عقد العزم على تسوية هذه المشكلة بطريقة سوية. كان جديراً بالاحترام. راح يردد: إن هذا كله يسهل تحمله عليّ إلّا أنه أمر مضن جداً أن أرقب زوجتي وزميلتي الحميمة تذبل أمام ناظري.

أجبته قائلاً: تحدث عن بقية حالات زوجتك يا سيد «م»، هل سبق لها في السنوات الأخيرة أن تشعر بالاكتئاب، الاضطراب أو الأرق الممتد؟

ـ بالطبع يا دكتور، لقد احتد اكتئابها في هذه الأيام. أنا واثق أنك لاحظت ذلك على محياها. لكن إباءها الزائد يجعلها تجهد للتكتم والامتناع عن الافصاح به. كثيراً ما يحدث أن يحرمها الأرق النوم حتى أوقات متأخرة من الليل فتلجأ إلى الطابق السفلي وتبكي هنالك لساعات مديدة. إنها تعاني من الاضطراب والقلق أيضاً. ومع هذا تحاول التكتم على هذه المشاعر.

ـ هل تعترف بانحراف مسارها وخطأ آرائها عندما تتحدث إليها في أوقات تمتعها بالانشراح والهدوء؟.

ـ أجل، أجل، ولكنها تعود بعد فترة إلى التمسك بآرائها.. ثم أنني يتعذر عليّ شل حياتي وتكريس وقتي كله لمناقشتها والتحدث معها.

ـ هل لاحظت أنها تقدم على أعمال غير طبيعية أخرى؟

ـ ليس بما يلفت النظر. الموضوع يتلخص بما قَلت.

ـ أعني أن تتبنىٰ مثلاً آراء عجيبة وغريبة أو تسيء الظن بالمحيطين بها لاسيما أنت.

ـ لا، أبداً.

ثم استطرد: هل هي متوعكة برأيك أيضا يا دكتور؟

ـ في الحقيقة، كلامك يدل على وجود مرض ما. ومع هذا فأنا بحاجة للتحدث معها أيضاً لأجري بعدئذ الاختبارات النفسية. فعندئذ سيكون بوسعي أن أحدد الحالة بالضبط.

ودعني الزوج وتوجه إلى زوجته يدعوها للحضور. خلال هذه الدقائق فكرت في نفسي أن زوجته مصابة بحالة نفسية حقاً ولكن.. كأن بعض زملائنا الأطباء أيضاً..؟! فعندما يتوجه إليهم شخص ما لإجراء جراحة تجميل ويلحظون أنه في حالة غير طبيعية وأن رغبته هذه تنبثق من حالة نفسية، ألّا يحتم عليهم واجبهم أن ينبهوه إلى خطئه؟ ألا ينبغي أن يطلبوا من طبيب نفساني يحرز ثقتهم أن يؤيد تمتع مراجعهم بالصحة النفسية؟ فضرورة هذه البادرة لا تنحصر في وجهتها الإنسانية بل تعتبر من الأوليات المفترض الاهتمام بها ضمن إجراءات أخصائيي الجراحات التجميلية. ربما الأمر يعود عليهم منهجياً أيضاً بالفائدة. فمثل هؤلاء المرضىٰ تسلبهم عادة حالتهم النفسية الشعور بالرضا بعد اجراء الجراحة فيعاودون مراجعة طبيبهم الجراح مولولين معاتبين. ولكنني لم أواجه هذا السلوك من زملائي الأطباء على مر ممارستي الطبية سوىٰ أربع حالات تم عرضها عليّ بعد إجراء الجراحة وليس قبلها! وبهدف التخلص من المضايقات التي أوجدها لهم هؤلاء المرضىٰ.

جلست السيدة «م» قبالتي. شعرت من خلال تطلعي لها بأنها كانت جميلة يوماً ما ولكنها الآن...!

كانت قد جهدت بما وضعته من أصباغ غليظة فاقعة على وجهها، أن تخفي العيوب التي أوجدت في تقاطيع وجهها. ومع هذا لم توفق تماماً لما أرادت تحقيقه. كان الإعياء والاكتئاب باديين على محياها أكثر من زوجها. استمعت إلى حديثها وكان يتطابق مائة بالمائة مع كلام زوجها وهو ما يبين عمق الصداقة والعلاقة الوشيجة بينهما: تركزت ردود السيدة «م» على تساؤلاتي في العبارات: لا أعلم، ربما، يحتمل،... وهذا ما فند ظني في كونها مصابة بنوع من

الهذاء وحالة نفاسية مسية. تذبذب آرائها دعاني أرفض تشخيص مثل هـذه الحالة الهذائية، فالهذاء اعتقاد خاطئ لا يرتضي صاحبه التنازل عنه بأي شكل من الأشكال بينما كانت السيدة «م» تتراجع أمام استدلالاتي المنطقية. بـدأت بمعالجتها بعد اجراء الاختبارات النفسية التي أيدت تشخيصي التـالي للـحالة وهو اضطراب «تغيير شكل الجسم» وهي حـالة لم تـتضح أسـبابها إلى الآن وتظهر عادة لدى الإناث في العقد الثالث من العمر. يعاني المصاب باستمرار من انشغال باله بعيب وتشوه خيالي في جسمه وإن كان يـنعم بمـظهر أو يـتحدد الموضوع بأمر في غاية البساطة لا ينسجم مع قلقه العارم. والمـصابون بهـذه الحالة يقرون بانحراف أفكارهم وتماديهم فيها ولكنهم يعودون إلى مـا كـانوا عليه بعد فترة من الزمن.

ترافق هذه الحالة عادة أعراض الاكتئاب، الاضطراب والأرق المـمتد. أما امكانية العلاج فإنها تتحدد بمدى التزام المريض بتعاطي أدويـته ومـواصـلة العلاج النفسي. فبهذا تزول الأعراض ويعود الفرد إلى حياته الطبيعية إلّا أنه قد يكون بحاجة إلى تعاطي الأدوية على مر حياته.

تبنيت علاج السيدة «م» وعنيت بمعالجة اكتئابها واضطرابها. لقد تخلصت من اعتقاداتها الغريبة خلال ستة أشهر تقريباً فـعادت حـياتها إلى مسـارها الطبيعي. ومنذ سنتين وهي ما تزال تراجعني لتواصـل عـلاجها. لقـد اخـتفى اكتئابها واضطرابها ولم تعد تعاني من الأرق، كما اضمحلت اعتقاداتها الشاذة بدرجة ٨٠٪ أو ٩٠٪.. إنها تتذمر أحياناً من تعاطي الأدوية وتقول شاكـية متأوهة: «وإلى متى يجب أن أتعاطى الأدوية؟» فأقول لها: سيدتي الكريمة، كان عليك أن تتناولي من الأقراص واحداً أو اثنين فيما لو كنت تعانين من حـالة ارتفاع ضغط الدم، وعلى مر حياتك، هل كنت تـرفضين ذلك في حـينها؟ لا، بالتأكيد. فما الداعي للقلق وقد حددت لك في الوقت الحاضر قرصاً واحداً في اليوم لا غير؟ إنه لن يضرك حتى وإن اضطررت لتعاطيه على مدىٰ حياتك.

قلت لها ذلك وأنا أنوي السماح لها بقطع الدواء بعد ستة أشهر. أتصور أن علاجها سيتم حتى ذلك الحين. الموضوع الآخر الذي ينغص عيشها هو أسفها على ما أنزلته من بلايا على تعابير وجهها. تقول أنها أصبحت قبيحة. لكنني لا أرى ذلك. والأمر مهما يكن فهي سواء كانت قبيحة أو فاتنة فإنها تمثل بالنسبة للسيد «م» أحب نساء العالم.

الشيخ قرة أعيننا

كان الشيخ ملاذنا ومطمحنا. نشد الرحال إليه كلما عتت بنا أعصار الحياة، نحمل همومنا التي أثقلت كواهلنا إلى مدينته الصغيرة النائية. كان يكفينا مؤونة أن نلقاه ونصغي ساعة من الزمن إلى نصائحه. كأنه يسقي أرواحنا الظمأى حتى ترتوي فنلثم يده بسرور وراحة بال ونقفل عائدين من حيث أتينا. وشتان ما بين رواحنا ومجيئنا.. نذهب إليه مثقلين ونعود بخفة الطير. طاب بين الخلق ذكره وشمله الخالق برحمته. غابت عن أنفسنا الهموم وما تزال ما دام هو على قيد الحياة. كان قد طلق الدنيا ثلاثاً. وكنا نعده أسوة ودليلاً. أذكر أن خلافاً شب بيني أنا وزوجتي لقضايا بسيطة مردها كان غروري الذي صوّر لي بأنني طبيب ومحلل نفساني أقابل يومياً جمعاً من الناس يلجأون إليّ لاستشارتي والاستهداء بآرائي باعتباري أخصائياً في هذا المجال. إذاً لا مجال لمناقشتي في آرائي.

كنت أرى أن على زوجتي أن تثمن آرائي وتتقبلها دون نقاش. كنت أتهمها برغبتها في تحدي أفكاري لمجرد شعوري بعدم اعتنائها أحياناً بكلامي، حتى ضاقت بكلينا الحياة بما رحبت. ولهذا يممت وجهي نحو «الاستاذ» دون أن أطلع أحداً على ذلك. ولكنني لم أستقل في هذه المرة حافلة أو سيارة صغيرة استأجرها، فلم أعد ذلك الطالب الجامعي المفلس بل صار لي شأن يذكر في

المجتمع يخولني أن أملك سيارة من أحدث الموديلات. واصلت قيادة سيارتي نحو مدينته الصغيرة طوال الليل حتى وصلتها مع بزوغ الفجر.. كنت أفكر مع نفسي في الطريق: كأن أيام الجامعة والفقر كانت أحلى من أيامي هذه. كنت طليقاً خلياً من أية مسؤولية أما الآن.. ماذا سيكون حالي مع طفلين إن وقع الطلاق بيننا؟.

حتى إن كنت أملك الدنيا بما فيها فكيف سأضمن سعادتهما وأنا أعلم أن لا أحد يمكنه أن يحل محل أمهما الحقيقية؟

كنت على علم في تلك الساعة بأن «الأستاذ» يقضي ليله بأسره في الدعاء والتضرع ثم يلجأ ساعة من الزمن إلى الفراش بعد أداء صلاة الصبح. ولهذا قررت أن أقضي ساعات الصبح الأولى من شهر كانون الأول القارص وفي تلك المنطقة الشديدة البرودة حتى الساعة الثامنة وأنا أسير على قدمي في الشارع.

وأخيراً طرقت باب داره في الساعة الثامنة صباحاً. فتحت زوجته الباب.. لم تعرفني بادئاً، كنت قد غبت عنها فترة طويلة ويحق لها أن تنساني.. ربما الشيخوخة أو ضعف البصر حالا دون تمكنها من معرفتي. أردفت: «السلام عليكم يا حاجة، أنا...، إبن الحاج...».

ـ أيه يا..، أهذا أنت؟ مرحباً بك، سألت بالأمس الحاج عنك. كيف حالك؟ وكيف أسرتك؟ هل والدتك بخير؟ تفضل.. تفضل، ادخل.

ـ أرجو أن لا أكون قد أزعجتكم. هل «الاستاذ» موجود؟

ـ أجل، إنه يتوضأ.. تفضل ادخل وسأخبره بقدومك.

دخلت الدار.. كل شيء في تلك الباحة الواسعة الجميلة كان ذات يوم يانعاً يفوح بالحيوية والنشاط. وقد اكتسى في هذا الموسم من السنة حلته الشتوية. كتل الثلج متراكمة في الزوايا. الأشجار تعرت وغطاها الجليد.. انتظرته في الغرفة.. كان الجو بارداً نوعاً ما، الحاجة أوقدت المدفأة، كان الأمر يتطلب

الانتظار فترة حتىٰ تدفأ تلك الغرفة الكبيرة بنيران هذه المدفأة. كنت في وضع لا يسمح لي أساساً بالاهتمام بمثل هذه القضايا، كانت الآلام التي تعصف بي قد دفعتني لأقطع مسافة (٧٥٠) كيلو متراً أثناء الليل لعلني أهتدي لعلاجها فأنجو منها. فالمريض لا يأبه لمثل هذه الأمور إن كانت معاناته حقيقية..

جاءني حيث انتظره.. أبصرته قادماً فأحسست بحاجتي الشديدة للاستماع إلى كلامه. لما دخل عليّ أدركت تواً من هو القادم.. إنه جبل شامخ وبحر هادئ، واسع ومتواضع، رؤوف تعمه الحيوية، الأدب والشعور بالرضا.

كان ظهره قد انحنى قليلاً لكنه لم يشهد أي تغيير آخر. نهضت استقبله. أنهينا تبادل السلام والتحيات بسرعة. كانت علاقتنا أقوى من أن نهدر وقتنا بمثل هذه الأمور.

قال: يا للصدفة، بالأمس سألتني الحاجة عن أحوالك، قلت لها أن انقطاع الأخبار تعني دوماً حسن الأحوال. بالتأكيد الأمور على ما يرام. إن شاء الله.

ـ لا يا «أستاذ» لا يمكن أن نحسبها على ما يرام في هذه المرة بالذات. إنها في واقع الأمر ليست على ما يرام.

ـ الأفضل أن تتناول فطورك وتنال قسطاً من الراحة أولاً، ثم نتحدث بعد ذلك، وحتى ذلك الوقت سأذهب إلى خارج الدار لقضاء بعض أعمالي البسيطة ثم أعود إليك.

لم يكن ثمة مجال للرفض. قبلت اقتراحه رغم رغبتي في أن أبثه همومي وآلامي في تلك اللحظة لأنفس عنها ـ حسب اصطلاحنا النفسي ـ. نهض الشيخ وغادر الغرفة. شعرت في تلك اللحظة أن أملي ومطمحي، دليلي وملاذي قد غادر الغرفة.

***

ـ عصفت بحياتي الزوجية مشكلة ما. أتصور أن مواصلة حياتي مع زوجتي صارت أمراً متعذراً. لقد اتفقنا على الطلاق على أن أتولىٰ أنا شؤون الأطفال وننهي الموضوع بسلام دون صراع أو تلف أعصاب.

ـ إذاً، تفضل أخبرني يا سيدي أين هي المشكلة التي تشعرك إلى هذا الحد بالضيق؟.

ـ المشكلة ليست هنا يا «استاذ». لقد فكرت بكل شيء مسبقاً، لكن ما يضايقني هو فكرة الطلاق نفسها. ينتابني الحياء عندما أفكر بالإقبال عليه. أخجل من نفسي، وإلى جانب ذلك كله يقلقني أمر الأطفلين أكثر من أي شيء آخر، إنهما تماديا في التعلق بأمهما شديداً، لقد تحدثت إلى مؤسسة ما ومن المقرر أن يبعثوا إحدى أفضل مربياتهم وأكثرهن ثقافة ووعياً لتهتم على مر الليل والنهار أو على الأقل خلال النهار بشؤون الطفلين وتربيتهما. ولكن الأمر يتطلب فسحة من الزمن حتى يحين أوان ايلائهما الثقة بها، وسأهتم أنا أيضاً بالتأكيد وبملء وجودي برعايتهما. إنني لا أفكر بالزواج ثانية. وسترعاهما تلك المربية الخاصة المثقفة في الدار أثناء غيابي عنهما ولكنني أوجس خيفة من هذه الفترة الانتقالية.

إنني سلكت جميع الطرق يا «استاذ» ولكن محاولاتي باءت بالفشل.. علينا أن نسلك أقصر الطرق. أرى أن بوسعي أن أشيد حياتي التي أطمح إليها وأبنيها ما دمت أتمتع بالشباب والأطفال صغار. لن يعاني أطفالي من صعوبات كبرىٰ بحسب هذا البرنامج. إن الطريق ما زال طويلاً أمامهما ليحددا شخصيتهما ومواقفهما. لابد أن استثمر هذه الفرصة وأن أعالج وضعي ما داما لم يبلغا النضج بعد، فهذا ما سيضمن مصلحة الجميع.

أخذت أسرد على الاستاذ تفاصيل حياتي السابقة مع زوجتي وكيف أننا في صراع دائم معاً، نقضي حياتنا على مر اللحظات في غيّ وعناد، مما ترك آثاراً غير حميدة على أبنيّ.. لقد اكتسبا بدورهما طابع الانفعالية وأجدهما يسيئان

الخلق بشكل متواصل و...

كان «الاستاذ» يصغي إليّ طوال هذه الفترة بتمعن، كنت منهمكاً بسرد تفاصيل الأحداث بانفعال حزين. كان يرمقني بنظرات غائرة يطفو عليها الحنان، دون أن ينبس ببنت شفه.. وبعد فراغي من الحديث، قال: إن الهدم أسهل بكثير من البناء يا ولدي. لقد أشعل الاسكندر الملعون في تلك الليلة الغائمة النيران في «تخت جمشيد»[1] (مقر عرش الملك جمشيد) بأمر من عشيقته «ركسانا»، وفي الصباح لم يعد لذلك البناء العظيم الفريد أي أثر بينما تحمل اثنان من كبار الملوك ولمدة خمسين عاماً، المتاعب والنفقات الباهضة لبنائه. فأين الليلة الواحدة من الخمسين عاماً؟!. وهكذا حالك، فلا بأس عليك إن طلقت زوجتك، فالأمور المهملة يمكن المبادرة لانجازها مهما طال أمد تركها.. لكن حذاري من الخطأ! فالخطأ إن وقع لا يمكن تداركه بسهولة، دعني استعرض ما جرىٰ عليك بهدوء وبعيداً عن الانفعال.

ـ بدأنا حياتنا الزوجية منذ خمس سنوات، شعرت منذ الشهور الأولى بأنها لا ترغب في الانسجام معي بل أنها منسجمة مع أسرتها أكثر مني. كانت تميل لآراء أبويها متى ما خالف رأيهما رأيي، لجأت إلى كل ما أتمتع به من معلومات وخبرات وإلى مبادئ علم النفس والمشورة. قضيت ليال طوال أتحدث إليها حتى الصباح بلطف وهدوء وبمنطقية تامة دون أن أجني ثمرة لتلك المساعي. إنها تأبى الانصياع لكلامي وتسيء الظن بي لا من الناحية الأخلاقية بل لاعتقادها بأنني لا أكترث لمصير الحياة الزوجية، تقول أنني لا أعيرها وأطفالي اهتماماً. ترىٰ أنني لا أقيم وزناً لهم، قالت مراراً: إنك تخفي عني ما يدر عليك من دخل. إنك لست جاداً في حياتك. إنني واثق من أنها تتأثر بهذا الخصوص بمواقف غيرها، وأن هنالك من يثيرها ضدي. أقول: حسناً، لو أنني

---

١ ـ من آثار ايران القديمة، ما تزال قائمة في مدينة بشمال محافظة شيراز.

لا أقيم لكم وزناً فلِم أجهد نفسي منذ الصباح وحتى المساء؟ لأجل من أبذل كل هذه الجهود؟ من المستحيل أن أجهد نفسي إلى هذا الحد في طلب العيش لو كنت فريداً طليقاً. فدخل بسيط يكفيني. كل ما أبذله إنما هو من أجلكم. كيف يكون بوسعي أن لا أفكر بكم وأنتم أسرتي؟ على أية حال، لم تجد هذه المناقشات نفعاً، لقد وصلت جميع المساعي إلى طريق مسدود، أرىٰ أنني أهدر وقتي وهي كذلك.

أتيت بالحديث تلو الحديث وهو لا يسأم الاستماع حتى أفرغت همومي تماماً ونلت هدوءاً نسبياً كنت أحتاجه وكان يريده لي، عندئذ أطرق طويلاً ثم قال: وا عجباه! كنت أجهل أنك في ضيق إلى هذا الحد، وهي كذلك. كنت أتصور دوماً أن علي أن اتفاءل خيراً بانشغالك بحياتك عند انقطاع أخبارك عني، لم يكن بوسعي أن اتنبه من خلال اتصالاتك الهاتفية أو رسائلك إلى شيء من هذه الأحداث، ليتك جئتني قبل هذا ولم تعرض نفسك لكل هذه المعاناة، لا بأس فالماضي يطويه سجل النسيان. واليوم هو أول يوم مما تبقىٰ من حياتك، إذاً، إصغ إليّ جيداً لأقص عليك حكاية لم أسردها عليك إلى الآن، وهي قصة حياتي أنا، لم أحدثك بشيء عن حياتي السابقة حتى اليوم لأنني كنت أراك عندما تزورني ما تزال شاباً يافعاً تنقصه التجربة ولم يختبر الحياة الزوجية بينما أجدني ملزماً الآن ان أسرد عليك قصة مريرة للغاية يؤلمني تذكرها دوماً. فلولا رحمة الله ورأفته بعباده لا أحد يدري بأية نهاية مأساوية كانت ستختتم. فاستمع إليّ:

نعود إلى ما قبل حوالي أربعين أو خمسين سنة مضت، كنت شاباً في الثانية والعشرين من العمر، محملاً بالمواهب ومفعماً بالنشاط، كنت أملك دكاناً صغيراً والجميع يتوقعون لي مستقبلاً زاهراً، يقولون أن نشاطي ونباهتي التجارية ستعجل في تقدمي، كان لابد لي أن أقبل على تأسيس أسرة. شمروا عن ساعد الهمة واختاروا لي زوجة من عائلة عريقة فارتضيتها زوجة لنفسي و.. تم

الزواج واستأنفت حياة طيبة، كانت زوجتي ربة بيت بـارعة إلى جـانب مـا تتميز به من مواصفات ممتازة، تحسن رعاية الزوج. كنت أشكر الله وأحمده لما أغدقه عليّ من نعمة، كانت السعادة والسرور يهللان على حياتي وعملي قـد أخذ مجراه نحو التقدم. كنت أشعر بقدرتي على مواجهة الجبال أيضاً وأنا أرى أن في داري من تحبني وأحبها. مرت الأيام والأسابيع والشهـور كـنا نـنتظر خلالها قدوم طفل. خلال هذه الفترة كنت قد تـنبهت إلى صـفة لا تحـمد في زوجتي وهي اساءتها الظن بي. كنت في الوهلة الأولى أرد كـلامها ضـاحكاً ممازحاً، ولكن الحالة احتدت، حاولت أن أتجاهل الموضوع ولا أعـلق عـليه أهمية ما، ومع هذا كانت هذه الحالة تترسخ لديها وتتفاقم حـتى ضـاقت بي الحياة. كانت تختلق الحجج باستمرار وتزورني دوماً لسبب أو دونه في المحـل وتترصدني في الشوارع، تتحدث للجيران عن تصوراتها بولع وتشـمني عـند عودتي من العمل وتتفحص ملابسي، تتهمني بالتهور والاستهتار كلما تأخرت في العودة إلى الدار و... لم أكن أدرك سلوكها لغرابة هذه الأفكار لديّ.. لم يحدث أن أشهد تبادل مثل هذه المناقشات في حياتنا الأسرية قبل الزواج، لم أكـن آلفها.. بعد فترة تنبهت إلى تأزم الوضع ففكرت أن الانجاب سيشغلها فتتناسى هذه الأفكار الخاطئة، ولكن ولادة طفلنا الأول، وهو ذكر أسميناه محموداً، لم تحل المشكلة.

كانت تصول وتجول بقسوة تامة تفديني نفسها متى ما قررت البقاء في الدار وتسعدني في ذلك اليوم لأنها تشعر بفراغ بال. ولكن لم يكن بوسعي أن أمكث في الدار إلى الأبد، الحياة كانت تلزمني بمعاشرة المجتمع. عندئذ تـعود إلى مـا كانت عليه، حتى وصلت الحال الى أن تبدأ النسوة وفتيات الحي بالتهامس معاً وهن يشرن إليّ كلما سرت في طريقي، أصبحت آثماً من دون ذنب اقترفته، ثم ولد طفلنا الثاني وبرغبة منها لأنها تصورت أن تضييق الخناق عليّ يمكّنها من

أن تضبطني كما راق لها تصوره، وهكذا انضمت «بروانه»[1] إلى حياتنا البلهاء. تحولت حياتنا تدريجياً إلى جحيم سلبني القدرة على ممارسة عملي أو الاهتمام بنفسي أو بحياتي، كنا نقضي أيامنا في صراع دائم حول عشيقاتي الوهميات.

كانت تتهمني أحياناً بنساء هن أقرب إلى سن والدتي! كنت أنفجر ضاحكاً لحماقتها، ولكن مريم لم تكن حمقى بل مصابة بحالة نفسية ابتليت بها لشدة حبها لي وتعلقها بي.. كانت حالتها تزداد سوءاً مع مرور الأيام فتنهال أحياناً ضرباً مبرحاً على طفلينا البريئين لفرط انفعالها، إن تلك الأفكار لم تكن تبرح بالها قط لتدير شؤون بيتها فتعرض الأطفال لإهمالها الشامل حتى عادت يوماً واقترحت عليّ الطلاق دون مقدمة وأنا في ظروف فظيعة فقبلت اقتراحها وتم الطلاق بيننا.. تركتنا مريم فعدت برفقة أطفالي إلى بيت أبي. كان محمود يبلغ يومها السابعة من العمر و«بروانه» السادسة.. كنت مرتاح البال وأنا أجد ابنيّ ينشآن في كنف جدتهما، كانت أوضاعنا قد تحسنت وصرنا نتذوق طعم حياة أكثر هناء حتى ظهرت «مريم» ثانية في حياتنا باكية معربة عن ندمها طالبة الصفح، وألحت على طلبها حتى أبرمنا عقد الزواج ثانية.

الحق أنني كنت مغرماً بها وارتضيت العودة من صميم القلب، ولكنها عادت رغم ولادة طفلنا الثالث «أحمد» إلى ما سبق منها فتجرعت تصرفاتها السابقة لثلاث سنوات حتى تطلقت في نهاية المطاف وكنت في هذه المرة قد حرمت نعمة وجود أمي إلى جانبي لتسكن آلامي وتهدأ أحزاني، ألحت علي أختي وزوجها، وهو ابن عمي، لأودعهم أطفالي فقبلت حتى أتدبر شؤوني وكنت قد أصبحت رجلاً من الأثرياء المتنعمين مالياً بوضع مرموق مما يمكنني من أن أودع ابنائي في إحدى أرقى المدارس الداخلية في المدينة وكنت أزورهم يومياً، كان ولعي بأبنائي يجعل سعادتهم فوق كل شيء في رأيي، كنت أغدق العطاء

---

١ ـ وتعني «فراشة».

للمربيات وأتصل دوماً بالمسؤولين عن المدرسة ولا أبخل عن تقديم أية معونة مالية لها، كنت أقدم المعونات الثقافية وحتى المالية للمربين الفرنسيين في المدرسة تصوراً مني بأن أطفالي ينشأون في جو عصري أوربي، والحال لم تكن هكذا. كانوا يحسنون الأداء في ظاهر الأمور ويهملون الاعتناء بنفوس الأطفال، كان محمود في الحادية عشرة و «بروانه» في العاشرة وأحمد في السنة الثانية من العمر. لاحظت أنهم ولا سيما محمود وبروانه، وكانا قد بلغا مرحلة الإدراك، لا يستسيغان البقاء هنالك بل يكثران السؤال عن بيت عمتهما..

استغنيت عن المدرسة وفوضت أمر الاعتناء بهم في الدار إلى مربية مثقفة متمرسة، خصصت لها راتباً أعلى من الحد المألوف. ولكنها كانت هي الأخرى تعتني بمظهرهم وتولي اهتماماً كبيراً بنظافتهم وبدراستهم و...، وتخفي عني ما يتعلق بشؤونهم المعنوية النفسية لتظهر عملها دون نقص.. كنت ألاحظ عليهم إمارات الاكتئاب والهمود رغم أنني أرى كل شيء في محله وعلى أفضل ما يرام.. نظافتهم تامة، وضعهم الدراسي مرضي وقد غدوا أكثر أدباً.. ولكن شيئاً واحداً فقط قد تغير وهو نشاطهم وحيويتهم، تقصيت الأمر فاتضح لي أن مربيتهم قد فرضت عليهم جواً شبه عسكري خيم خلاله الخوف والهلع على قلوبهم وقد أرعبت المساكين بأنها ستنزل بهم كذا وكذا من البلايا فيما لو تجاوزوا الخطوط العريضة التي رسمتها لهم أو أخبروني بشيء ما.

اضطررت لصرفها عن خدمتهم فتركت الدار، قررت أن أتزوج ثانية فاخترت لي سيدة مثقفة ظاهرياً ومن أصحاب المؤهلات الجامعية تنتمي إلى عائلة نجيبة، كان زوجها قد رحل إلى الخارج وهو مدمن، كما أخبرتني، ولهذا تطلقت منه، شرحت لها قبل كل شيء مجريات الأحداث بحذافيرها وقلت لها أن الأطفال مقدّمون عليّ وأن عليها أن تشملهم بحنانها إن أرادت أن تحسن إلي وسأعوضها إحسانها أضعافاً. قبلت شرطي وانضمت إلينا بشوق ولهفة، سارت الأمور بادئاً بخير ولكنها بعد فترة من الزمن انجبت طفلاً بعد إلحاح

منها وخلافاً لرغبتي القلبية، فانقلبت الأمور، فبقدوم «سيمين» الصغيرة تغيرت أوضاع إخوتها وأختها فقد أخذت أمها تسيء التصرف مع الأطفال حتى وصلت بعد عامين درجة تشعر فيها بضيق لسماع صوت الأطفال يلوكون الطعام على المائدة ثم صارت تعلن صراحة أنها لاتطيق رؤيتهم وخيرتني بينها وبينهم. تفاقمت مشكلتي، فقد صار الأطفال أربعة.

لم يكن بوسعي التخلي عن أبنائي فاخترتهم، وهكذا تركتنا وسرعان ما تزوجت آخر، بقيت أنا والأطفال، كانت بالنسبة لي زوجة مثالية ولكن هذا لم يكن مطمحي فقد كانا اتفاقنا الأولي غير هذا. بعد فترة اخترت زوجة من طبقة متدنية وتقليدية، كانت لا تتمتع حتى بمظهر خارجي فاتن، اخترتها هكذا لعل تدني طبقتها الاجتماعية وكذلك مواصفاتها تدعوها لزيادة تكيفها فانضمت إلينا ومحمود في الخامسة عشرة وبروانه في الرابعة عشرة وأحمد في السادسة وسيمين في الثالثة من العمر. انتشلتها من حياة المعاناة والفاقة لتحيا حياة مرفهة في دار فخمة، وضعت كل شيء في متناول يدها فسائقها بانتظار أوامرها على الدوام والخادمة تخدمها على قدم وساق، شعرت براحة البال نوعاً ما. كنت أغدق عليها من المال ما يزيد عن حاجتها، تسلل وميض الأمل إلى قلبي حتى بدأت تترنم بنغمة النساء الأزلية: أريد طفلاً، كنت من الوعي بدرجة تمكنني من تقدير مشاعرها ولهذا لم أمانع عساني أوفر لها مستلزمات راحة البال. وهكذا ولد طفلي الخامس «محسن». كان محمود وبروانه قد كبرا وشرعا بانتهاج طريق اللا توافق، كان يؤذيان زوجتي «زهراء»، يخيفانها، يضايقانها بمزاحهم، يسخران منها، ولا يقيمان لكلامها وزناً و.. حتى ضاقت ذرعاً بمنغصات عصابة الأطفال! كانوا يهابونني ولكنهم اتبعوا معها أساليب غير مباشرة، لم يكن بوسعي صدهم، كنت أحياناً أعاقبهم بشدة وأخرى يشب الخلاف بيننا أنا وزهراء.

في الحقيقة لم تكن زوجتي بدرجة من الارادة وقوة الشخصية والوعي تؤثر

بها في أطفالي من جهة، ومن جهة أخرىٰ كان الأطفال يـعجزون عـن فـهم حقيقة كونها لم تحل محل أمهم، كانوا يحسبونها امرأة غير لائقة دخلت حياتهم وأوصدت أبواب العودة أمام أمهم فيخيل إليهم في عالم المراهقة والطفولة بأنها شردت أمهم التي كان يحتمل أن تكون إلى جانبهم لولا وجود «زهراء»، بينما كانت كلتا الأمين تعيشان حياتهما الزوجية في كنف زوجيهما، على أية حـال اضطررت إلى طلاق زهراء بالحاح زائد منها، جهدت كثيراً أن أقنعها لتمنحهم الفرصة الكافية لفهم الحقيقة، لكنهـا أبت ذلك، كل ما كان بمـقدوري هـو أن أدعها تعود إلى دار أبيها برفقة الطفل، كما اقترحت هي نفسها على أن أضمن نفقاته المالية على أفضل وجه.

قررت أن أواصل حياة جديدة إلى جانب بقية الأطفال ماداموا قد كبروا وأصبحوا يأبون تقبل زوجة الأب، وهذا ما تعذر عليّ تحقيقه. فتى في السادسة أو الخامسة عشر وفتاة في الخامسة أو الرابعة عشرة مـن العـمر إضـافة إلى طفلين آخرين. يعلم الله ما يجري بينهم عند انفرادهم، كل يوم أعود إلى الدار لأواجه حدثاً جديداً. يوماً أرى أحدهم قد تعرض لجرح في رأسه، يوماً آخر حطموا المرآة الكبيرة في البيت وفي يوم ثالث تشاجروا مع أبناء الجـيران. لا أطيل عليك الكلام، هذا ما كان من أمري حتى تزوجت الحاجة، وكـان لهـا طفلان من زوجها المتوفىٰ أثناء مهمة انتسب إليها، كانت لبيبة رشيدة وفي قمة الايمان والتقوى؛ فلمت شمل الأطفال الذين ترعرعوا ونجحوا في حياتهم بفضل صبرها وحلمها وضبطها للنفس رغم أنهم لا يواجهون متاعبها من أجلهم كما ينبغي وهم يقرون بأنها لم تدخر وسعاً من أجل رفاه الأسرة، وأنا بدوري أرى أنها زوجة واقعية بعثها الله لانقاذنا، لقد سلمت عقبانا بوجودها معنا، ولكن أسفي على الشباب الفائت، كنت عند زواجي منها قد بلغت الخمسين من العمر دون أن أنعم بنصيبي من راحة الحياة ونعيمها. الآن استنتج بعد طول تـفكير أنني كنت سأتحمل ظروفي مع زوجتي الأولى رغم المعاناة فيما لو كنت أتمتع بما

أنا عليه الآن من نضج عقلي، ففي تلك الحالة كنت سأخفف من وطأة هذه الصدمات التي تعرضت لها أنا وأطفالي، إن هذه الزوجة ملاك واقعي بما في الكلمة من معنى. آمل أن يرضى الله عنها كما رضيت أنا عنها.

صمت «الاستاذ» هنيهة مطرقاً ثم استطرد: عزيزي، إن الحياة المثالية اسطورة. لم تتحقق لأي أحد تلك الحياة المثالية التي نتقصاها جميعاً. راجع نفسك واستحكم ضميرك. ماذا فعلت إلى الآن؟ لقد حاولت أن تفرض رأيك دوماً. صحيح أنك قضيت ساعات طويلة تتحدث إليها بحلم ولطف وبما أوتيت من امكانات علمية وعملية، ولكنك فعلت ذلك لاثبات صحة آرائك لا لإدراك الحقيقة. لم تنو أبداً العمل على تبيين الموضوع وتحليله بعيداً عن الانحياز.. أنت واثق من الموضوع قبل البدء في تحليله ولم تبدأ مناقشته معها إلّا بهدف إرغامها على الاعتراف بصحة رأيك.. وهذا هو سبب فشلك، استهدفت في كل محاولاتك تحطيم كبريائها، اتهمتها بالغباء غافلاً عن أن الزوجة المحطمة الكبرياء لن تنجح كأية زوجة مثالية في النهوض بأعباء حياتها الزوجية أو كأم جديرة بتربية أبنائها. فالزوجة المستهانة تنشئ أطفالاً أذلاء. إنني خبير في كل الأمور التي تشعر بحاجتك للاستشارة حولها، فأمعن التفكير فيما أقول.

افترض أن زوجين قد توجها إليك اليوم للتغلب على مشكلة يعانيان منها على غرار مشكلتكما. فبم تنصحهما؟ ألا تقول أنه يجب على كليهما أن لا يبرئ ساحته تماماً وأن لا يتصور نفسه بريئاً من أي تقصير وأن يتحادثا دون هدف أو رأي مسبق؟ ألا تخبرهما أن أيهما يرى الحق كله بجانبه فهو مخطئ؟ ألا تنصحهما بتناسي كل ما مضىٰ وأن يفترضا أنهما بحاجة إلى معرفة البعض منذ هذه اللحظة؟ ألا تقول لهما أن تناسي مواقفهما ضد بعض والإقبال على مواصلة الحياة بنية خالصة هي الطريقة الوحيدة للتغلب على مشكلتهما؟ هذا ما سيكون من أمرك بالتأكيد. فلماذا يا ترى لا تنصح نفسك بمثل هذه النصائح؟ تجرد عن فرضياتك الأولية وتنبه لانوثتها.. حاول أن تنظر إلى الحياة بمنظار سوي.. إنها

تحبك وتواصل الحياة بطريقتها الخاصة بها ولها توقعات خاصة من زوجها على غرار سائر النسوة.. تنبه لهذا الأمر وافهمه جيداً. سيكون بامكانك عندئذ معرفتها وستتنبه هي بدورها إلى أنك تجهد لتفهمها وستتغير الأمور رأساً على عقب ويسري التغير إلى آرائكما بشأن البعض.

كنت ترغب حتى الآن في امتلاك إنسان آلي، إنسان مكوك لا هم له سوى الانصياع لأوامرك دون نقاش. لم يكن هدفك اتخاذ زوجة، صديقة وشريكة حياة. وهذا ما ينغص عليك حياتك. نفرض أن أهلها غير محقين وأنهم يسيئون إليك أمامها. إنها محقة في التفكير بالاحتفاظ بمكانتها لديهم على الأقل تحسباً ليوم حاجتها إليهم، لما كانت قد يئست منك، وأن تحرص على وجودهم إلى جانبها لو قدر لها أن تفقدك يوماً ما. امنح قلبها الاستقرار والثقة بحبك لها لا بأسلوب التحكم والهيمنة بل بأسلوب حر طليق. فبتحولها إلى جارية منصاعة لا تكون تلك الزوجة التي ترغب أنت فيها. تصور أن تطالعنا الصحف العالمية أو وكالات الانباء العالمية بنبأ يتم فيه الاعلان عن حاجة زوجين شابين، يعانيان من مشاكل أسرية جمة، إلى تحليل نفسي ومشاورة، وعن تخصيص جائزة نوبل الطبية أو السلمية لهذا العام بأي طبيب نفساني يتمكن من توجيه هذه الأسرة بنحو صحيح والأخذ بأيديهم إلى شاطئ السلام.. ثم تصور أن تكونا هذين الزوجين، فماذا ستفعل؟ ألا تجهد بما اوتيت من طاقة علمية، فكرية، تجريبية ومعنوية لنيل هذه الجائزة العالمية الكبرىٰ؟ ستحاول بالتأكيد مائة بالمائة! فماذا دهاك؟ ألا تقيم لحياتك، مستقبلك ومصير ابنائك وزناً أكثر قيمة من تلك الجائزة؟ إن الإنسان لا يولد ليواصل الحياة لأكثر من مرة واحدة. فابذل جهودك لتوفير السعادة لك ولأسرتك وهم أعلى شأناً وأكبر قيمة من أعظم الجوائز أيضاً. صحيح أن اسمك وذكرك سوف لا يرد صفحات الصحف وتقارير وكالات الأنباء العالمية كما يحدث للفائزين بجوائز نوبل. صحيح أنك لن تحظى دولياً بمكانة الأبطال إلّا أنك ستغدو بطل أسرتك. وهذا

ما تستشعر حلاوته أفضل من أي شخص آخر لأنك أقبلت على تدبير قـد يفشل حتى الكثير من أبطال العالم من اتخاذه، ألا وهو تشييد بيت سعيد وهذا هو أثمن جائزة ينالها الإنسان في حياته.

مع تعالي صوت الأذان خيم صمت أخاذ وملذ على أجواء الغرفة. رمقني بنظرة باسمة من وراء نظاراته السميكة. قال بلحن شيق: انبذ الشيطان واستعد للصلاة.

تلك الأخرى

كان القطار يشق طريقه على عجل نحـو طهران. كان الشاب صامتاً، لكنه شحذ همته وعزز ارادته لتحقيق غايته رغم ما يشوب قلبه من الحزن والأسىٰ. مرت الساعات وهو سامد في الصحراء الجرداء دون أن يترك مكـانه خـلف نافذة العربة من الدرجة الثالثة. كأن تمثالاً استقر به المقام بين ستة أحياء من بني الإنسان. كان يفكر في الماضي وبما عاهد به أبا «ليلىٰ» و.. عاهد به ليـلىٰ نفسها.

بالأمس زار أبا ليلى واستمهله مدة خمس سنوات ليعود إليه بعدها مـعتزاً بوضعه المالي فيخطب منه ابنته. كان أبو الفتاة قد عاهده على الانتظار باستياء وفي منتهى اللا مبالاة لا لشيء سوى التخلص مـن إلحـاح الشـاب وليمـنحه ظاهرياً راحة البال وفراغه.

كانت قصة حبهما قد اخترقت مسامع الجميع في تلك المحـافظة الصـغيرة. فليس هنالك من لا يعرف أن ستاراً قد غدا قيساً والفتاة ليلاه. كانت الفـتاة تبادله عواطفه الجياشة ولا يخفى على أحـد أن أبـاها يـعارض هـذا الزواج. فالشاب ذو العشرين من العمر يبدو في رأيه غير لائق بمصاهرته لأنه لا يمتلك أية مهنة ولا ينتمي إلى عائلة معروفة عريقة يكون بوسعه الاستناد إليها. كان أبوه قد ركب البحر يوماً منذ سنين خلت دون أن يعود، وأمه تبيع السمك في سوق الميناء لتؤمن نفقات حياته وأُختيه الاثنتين.

من الحقائق المسلم بتأثيرها ودورها في الحياة هي الوضع المالي.. لم يكن لستار مهنة محددة. كان طيلة حياته لا يجتذبه ما ألفه سائر الناس من الأعمال بل يهيم دوماً في بحر أفكاره ومشاريعه العظمى. كان رأسه محملاً بذكاء حاد تؤازره ارادته الفذة. إلّا أن كل هذه المزايا كانت لا تزال خفية تقبع في أعماقه ولم تفسح أمامه فرصة استثمارها. لقد قرر بعدما حصل على جواب مؤمل من أبي «ليلىٰ» أن يغادر المدينة ويعمل على ترسيخ شخصيته وتعزيز قواه، ليعود في وقت يقوىٰ فيه على تحقيق طلبه وهذا ما دعاه ليستمهل والد ليلىٰ فترة خمسة أعوام.

كان في تلك الساعات يتجه نحو طهران، أجل، نحو طهران. الأفاعي الرابضة على كنوز الخير في هذه المدينة تدعو كل شاب يقدم إليها بهدف حيازة كنز من هذه الكنوز أن يجالد ويكافح مقاوماً الفشل.. وطريقة الاستحواذ على هذا الكنز مجهولة و.. لا يخفى أن شخصاً من بين مائة شخص لا يمكنه اجتياز حاجز الأفاعي المرعبة دون أن يفتك به، وإن حالفه الحظ فإنه في أفضل حالة سيتمكن من انتشال نفسه والعودة إلى داره مثقلاً بالجراح.

ساقته أفكاره نحو السيد «شريعت» صديق والده منذ مرحلة الشباب، والذي كان يزورهم من وقت لآخر. إنه اقترح عدة مرات على «ستار» أن يأتي إلى طهران ويشتغل عنده. كان قد أعجب به وهو بحاجة إلى شخص ذكي وصالح يعمل عنده، كان «ستار» في كل مرة يتهرب بحجة وأخرى وإحداها فراق «ليلى». ولكن الاوضاع انقلبت الآن.. سيتوجه إليه ويشتغل لديه في ورشته لصياغة الذهب. رزقه الله من البنين ثلاثة لم يبق منهم في ايران إلّا أحدهم وقد ألف الدخان وانكب على الإدمان أكثر من العمل والمثابرة. تنبهت بصيرة «شريعت» الثاقبة إلى أن ستاراً خليق لاستئمانه على أعماله. وهذا ما أدركه في السنتين التي قضاها يسكن غرفة في دار «الخال قاسم» (أبي ستار) في ذلك الميناء الجنوبي بعد نفيه إليها. الحق يقال أن الخال قاسماً شمله بمنتهى حبه

ومروءته. كان حب ستار وهو صبي في الثامنة أو التاسعة من العمر قد تسلل إلى قلب الرجل. كان يقول لأبي ستار فيما بعد: دعني اصحب ستاراً معي. والخال قاسم يجيبه دوماً بالقول: ستار رجل بحري. وعليه ان يترعرع إلى جانب البحر.

أما الآن فلم يعد الخال قاسم حياً ولا ستار ذلك الصبي الناعم ولا العهد ذلك العهد الفائت. لم يبق أمام ستار طريق لإحراز التقدم إلّا الاستعانة بالسيد «شريعت».

***

السلام عليك يا سيد «شريعت».

حدق فيه الرجل بنظرات مرتابة ألقاها اليه من وراء نظاراته الطبية. قال مندهشاً: السلام عليك يا ستار! ماذا تفعل هنا؟.

ـ جئت لأبدأ عملي عندك.

رمقه الرجل بنظرة وقال مبتسماً: حسن ما فعلت.. لقد جئت أخيراً. ألفتك ناضجاً. كيف حال أسرتك؟ لمن أودعتهم؟

ـ لله.

هز الرجل رأسه قائلاً: حسناً جداً. مقامهم آمن، سيكون بوسعك بعون الله أن تلحقهم بك حالما تنسق أمورك وأوضاعك.

ـ ليفعل الله ما يشاء يا حاج.

أصلح الحاج هندام الشاب ومظهره في ذات اليوم ثم حدد له عمله ومكانه ومحل سكناه خلال أسبوع واحد ثم طفق يركز همه في تعليمه الاجراءات المصرفية والدقة في شؤون البيع والشراء لمدة ثلاثة أشهر وراح يستدرج في تفويض الأعمال الجزئية في هذا المجال إليه شيئاً فشيئاً.

لم يكن يعرف للتعب والإعياء معنى بل يحسن أداء الأعمال إلى حد بعيد. وسرعان ما أظهر مواهبه وقابلياته والصائغ مسرور لتبين سداد رأيه قبل

سنوات بشأن صلاح الشاب. كان حبه لليلىٰ والعهد الذي قطعه على نفسه أمام أبيها يعززان دوافعه أضعافاً مضاعفة.

مرت الأشهر ثم السنون وستار ينمى ويتطور مع انقضاء الأعوام، وكان يجهد لتحقيق ما يرنو إليه بنظراته، مشاعره، عقله، روحه وبكل جوارحه. تعلم كل شيء. حدد ترفيهه بالعمل والتعلم ولم يشغل باله سوى فكرة التطور ثم التطور ثم التطور.

مرت سبع سنوات اجتاحتها أحداث كبيرة فقد التزم الحاج الفراش إثر سكتة دماغية تعرض لها، فسلم ستاراً مسؤولية إدارة الورشة برمتها لأنه إلى جانب ما اكتسبه من خبرة إثر ممارسته العملية فقد اجتاز عدة دورات في المحاسبة والإدارة و... بعد فراغه من دورة عالية في «علم المصوغات» ولهذا حاول تحويل جزء من الورشة إلى محل لصياغة مختلف المجوهرات، ورغم أن الحاج كان يصدف عن الإخلال بسنة آبائه وأجداده إلّا أنه وافق على اقتراح ستار ما دام قد عهد إليه بكافة شؤون الورشة شرط أن يتكفل هو ذاته بالعمل وأن يلوحه هو كل ما يحققه مشروعه من نفع أو ضرر. كان الشاب يعمل بما أوتي من قوة، يحسن إدارة ورشة الحاج وورشته ويقسم الدخل بين نصيب الحاج ونصيبه وأجرة العمال بانصاف وورع. أحبه الجميع. لقد غدا رجلاً ناجحاً ورث الاستقامة عن أبيه والنباهة ومهارة المعاملة من أمه. والحق أن الحاج لم يدخر وسعاً في تعليمه جميع فنون المهنة وأسرارها.

وفي هذه الأوان كانت رسائل ليلى تتوافد عليه الواحدة تلو الأخرىٰ تعلن فيها عن نفاذ صبرها. كتبت إليه في أحد خطاباتها: «لقد بلغت الثانية والعشرين من عمري ويتعذر علي مجابهة ضغوط أبوي. إستمهل أبي عدداً من الخاطبين حتى نهاية هذا العام وسوف يوافق على خطبة أحدهم وأكون مرغمة على الطاعة عندئذ».

لم يستجِز التروي أكثر من ذلك. رحب الحاج السيد «شريعت» بدوره

بالموضوع لأنه يرىٰ فيه صيانة للشاب. فتوجه برفقة الحاجة زوجته رغم معاناته الصحية إلى الميناء ليخطب الفتاة ثم لحق بهما ستار بعد يومين، استمرت حفلات العرس ثلاثة أيام بلياليها في مراسيم حضرها جميع سكنة تلك المنطقة. نجح ستار أخيراً في لقاء زوجته في بيتهما في أفضل الظروف، بالضبط كما كان يريد ويحلم به. بعد سبعة أيام توجه العريسان إلى مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بمدينة مشهد ليؤكدا ميثاقهما عند ضريحه ثم عادا إلى طهران وبدآ حياتهما الأسرية الجديدة فيها.

تبلورت أمانيهما التي طال عهد التفكير بها أحياناً والقنوط من تحقيقها، في أحلىٰ أيام حياتهما وعلى أفضل وجه ممكن.

كانت ليلىٰ تقضي أيامها في الدار تترقب اللحظات حتى عودة ستار عند المساء فيما تشغل نفسها بأداء مسؤولياتها بمنتهى الذوق. والشاب يتحمل أعباء مضنية من المسؤوليات المهنية خلال نهاره على أمل لقيا زوجته مما يسهل عليه التغلب على جميع الصعاب في كل مرة.

قضى الحاج نحبه في العام التالي فاضطر ستار أن يدفع نصيب الورثة من أموال أبيهم ويستقل في عمله. كان تدبيراً حرجاً لابد منه، ألزمه دفع أموال طائلة للورثة. ففعل وإن اضطره الأمر لتحمل عناء مضن على مر سنة أو سنتين انتهت بتملكه كل شيء: الشهرة في السوق، الثروة، السعادة الأسرية وزوجة وفية تمده براحة البال.

انجبت ليلىٰ في السنة التالية طفلة سموها «دريا»[1] إحياء لخواطر بحار الجنوب الزرقاء. كانت الطفلة ثمرة حبهما، فترعرعت في جو دافئ مفعم بالحيوية، في حضن ليلىٰ أسعد نساء المعمورة. وستار أيضاً يشاركها هذه المشاعر السارة التي تعمقت في تلك الأيام بلم شمل أصدقائهما القدامى حولهما

---

١ ـ وتعني «البحر».

وايلاء كل منهم عملاً من الأعمال التي يتعذر تفويضها إلى الغرباء و...

مضت خمس سنوات أخرىٰ عندما لاحظت ليلى تأخر ستار في العودة مساءً إلى الدار وهو منهك يفتقد حلمه وطول باعه. لم يعد يداعب «دريا» كعادته وقد أهمل «ليلىٰ» أيضاً. تنبهت الزوجة لتغير سلوكه وحتى ابنتهما لاحظت أن سلوك أبيها طرأ فيه التغيير حديثاً. كل هذا وليلى تحاول وضعه في حساب عمل زوجها وإرهاقه وإن أنذرها شعورها الأنثوي بأن امرأة أخرى قد وطأت حضن أسرتها المقدس. لم تعلق على هذا الهاجس أهمية لكنها اضطرت تدريجياً للتفكير به بجد. كان انحراف سلوك ستار الذي يحاول جاهداً إخفاءه، قصر باعه، العطور التي تفوح من ملابسه والشعرات الذهبية الطويلة التي تلتصق بها أحياناً كلها تشعر «ليلى» بالخطر الداهم. لجأت مراراً إلى أصدقاء ستار الذين يعود تاريخ صداقتهم معه إلى مرحلة الصبا وتساءلت منهم عما دهىٰ زوجها فتبثها تعابير وجوههم الواجمة وعبارات تعاطفهم الودية الجوفاء مفهوماً آخر. «تلك الأخرى»! أجل، كانت هنالك سيدة أخرى في حياته، سيدة ذات سطوة غالبته وأفقدته استقامته بها.. والحقيقة كانت هكذا بالضبط.

كانت «الكونتس دوباري» أرملة كونت فرنسي فقير لم ترث منه سوى لقب «الكونتس». كان اسمها الحقيقي «مهستي»، وهي امرأة رحلت إلى فرنسا قبل سنوات مديدة فتعرفت على الكونت العجوز وتزوجته. وهي الآن أرملة فاتنة تتهافت بشكل مرضي على المجون وتمارسه بمهارة فائقة. كانت الكونتس تحقق من مهنتها هذه منافع لا ترقىٰ إليها أية وراثة أو ثروة. كانت متمرسة في مهنتها تصطاد الأثرياء من الرجال لتنبذهم بعد أن تستحوذ على كل شيء فتختفي ذات صباح وتتركهم يصطلون بنار حبها والولع بها.

استنزفت الكونتس رويداً رويداً عقل الرجل حتى عاد لا يسأم معاشرتها.. ترك الاهتمام بعمله وبليلىٰ.. لقد نسي حتى «دريا» رغم ولعه الشديد بها.

فالحفلات باهضة التكاليف التي تقام على حساب ستار، الهدايا الثمينة، والأكثر من هذا كله الأموال الطائلة التي يخسرها على طاولة القمار بسبب التعليمات التي توجهها الكونتس إلى منافسيه وهي واقفة خلفه، أمور أودت به للسقوط في وادي الخذلان.

لم يكن أمام ليلىٰ، تلك المخبولة المصابة التي لا ترتضي الاعتراف بمثل هذه الأمور إلّا أن تتقبل هذه الحقيقة المرة. لم تجد دموعها، تأوهاتها وصرخاتها فائدة حتى قررت يوماً أن تذهب للقاء الكونتس.

***

أطلت من أعلى السلم وبغرور وأنفة لا حدّ لها سيدة جميلة، حسنة الهندام، أبصرتها ليلىٰ ذات الجمال البسيط المتهشم الذي نهشت مخالب معاناة وآلام الشهور الماضية محياها فشعرت بقدر من الخجل.. لكنها تذكرت مهمتها. نهضت من مقعدها تسارع الخطىٰ نحو السلم. شهدت الصالة في تلك اللحظات مواجهة سيدتين في عنفوان الشباب. إحداهما كأنها ملاك مضطهد والأخرىٰ إبليس مارد. قالت ليلىٰ للكونتس بلحن يشوبه منتهى البساطة والمشاعر العاطفية النقية: «إنك أجمل وأكثر أناقة مما سمعته عنك.. إصغي لي يا كونتس. إنك تملكين كل شيء وهناك الكثير من الرجال على أتم الاستعداد للتهافت عليك ولكنني لا أملك غير رجل واحد. امنحينيه.. لا أملك غيره. فابنتي بانتظاره وأنا أعلم أنه بالنسبة لك ألعوبة لا غير، ولكنني أحسبه كل شيء في حياتي..».

تشبثت ليلىٰ بفستان الكونتس إلى درجة لم تتمكن السيدة المغرورة من تخليصه من أيدي الشابة إلّا بصعوبة. صفقت عدة مرات وهي تحدق في عيني «ليلىٰ» بنظرة شيطانية مغرورة تطلب من الخدم الانصراف. ثم قالت للزوجة: «أنا لم أفرض عليه البقاء لأحرره ذات يوم. لقد جاءني من تلقاء نفسه ولا يتركني وشأني مهما أتمادىٰ في تحقيره وطرده. فالموضوع إذاً لا يتعلق بي».

نطقت بهذه العبارات وهي تشير للزوجة أن تقف في مكانها. اتجهت نحو باب وفتحته لتطل منه صالة أخرى.. وما أن وصلت الكونتس أعتابه حتى تهافت على قدميها رجل يستجدي منها الحب والحنان وهي تلقي عليه من فوق رأسه نظرات الغرور والأنفة وكأنه كلب. ثم قالت بلهجة شيطانية «لقد حضرت زوجتك يا ستار لتأخذك معها، الأفضل أن تصحبها».

وجل الرجل وأصابه الذهول.. دخل الصالة والتقى ليلىٰ. سألها بعصبية عن سبب قدومها. لم تطق ليلى البقاء بعد ما شاهدته من مشهد فظيع فراحت تهرول نحو باب الصالة باكية وخرجت من دار الكونتس.

وبعد دقائق كانت الكونتس قابعة خلف البيانو بفراغ بال وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حقيرة وأخذت تعزف شيئاً من اوبرا «كارمن» بمهارة تامة، وستار يجثو على ركبته إلى جانبها مثل حيوان مدرب وهو يحدق في عينيها المشدودتين كعيني القطة.

بعد أيام قلائل شدت ليلى الرحال إلى مسقط رأسها ترافق ابنتها تاركة ستاراً وداره. ثم تركه بعد حين لم يطل أصدقاؤه فقد استاؤوا من تصرفاته الشاذة ونالهم النصب من تحججه وانفعاله ثم نبذته الكونتس لأنها في غنى عن رجل منتكس مفلس مثله، فقلما صارت تستقبله في دارها بل حاولت اشغاله بأعمال أخرى.. ذات صباح فطن ستار إلى أن الكونتس قد رحلت في الليلة الماضية وفق برنامج مسبق إلى باريس دون رجعة.

فقد ستار القدرة على استيعاب الموقف لهول الصدمة التي أصابته جراء سماع هذا النبأ. كان يحاول ملياً أن لا يتذكر هذا الموضوع بتاتاً لأنه لا يطيق تذكره. كان يقود سيارته في شبه غيبوبة متجهاً نحو مدينة «جالوس» وهو يجتاز المنعطفات كأنه انسان ممسوخ لا يدرك ما يفعل.

وفي صباح اليوم التالي عثر في أكرة إلى جانب طريق (طهران ـ جالوس) على جثة شاب تلطخت الصخور بالدماء الغزيرة التي نزفت من رأسه. وفي

أكرة أخرى تقع على بعد عدة أمتار سيارة سوداء منقلبة.

التحليل النفسي لقصة «تلك الأخرىٰ»:

دونت قصة «تلك الأخرىٰ» بناء على طلب من السيدة «ليلىٰ.ك» وبالاستناد إلى الذكريات التي سردتها خلال جلسات العلاج النفسي التي خضعت لها.. انها اضطرت إلى الزواج ثانية وانجاب طفل آخر وهي الآن في مرحلة متقدمة من العمر تتمتع بحياة ناجحة إلى حد كبير.

إن الخسارة الحقيقية مُني بها ستار لأنه أخطأ التصور بأنه يمكنه التصرف إزاء جميع القضايا التي يواجهها بأسلوب واحد دون أن يميز بين الوقائع الاجتماعية ـ المهنية من جهة والظواهر الشعورية ـ الشخصية والأسرية من جهة أخرىٰ. كان يخيل لستار أنه قادر على مواجهة مشاكله الشخصية بنفس القاعدة والطريقة التي تمهد له التغلب على مشاكله الأخرىٰ. وهذا هو خطأه الوحيد و «العظيم». كان يعرف بالضبط الطريقة التي يخلص بها نفسه من أي مأزق يلقىٰ فيه بحيلة تجارية على صعيد عمله المهني وكيف يمكنه تلقين الجانب الآخر درساً لن ينساه، ولكنه لم يعرف أن هذه الطريقة تفتقد فاعلية المواجهة فيما لو وقع في شراك امرأة. فالمرأة تتبع أساليب خاصة بها وينبغي التعامل معها بنحو آخر. وماذا عن ستار؟ لقد واجه الموضوع بطريقته المألوفة ولم يكن في هذه المرة يواجه رجلاً محتالاً، ماكراً من طلبة الرزق ليتنبه لطينته منذ النظرة الأولى ولم يكن موضوع المواجهة قضية مهنية. لقد واجه هذه المرة امرأة تأخذ الألباب استحوذت على قلبه بادئاً بتظاهرها بحنانها النقي ثم اتخذته ألعوبة بعد شل منطقه. على هذا ينبغي على المرء أن يعرف جانبين من ذاته ويعززهما وأن يفصل بين شخصيته الاجتماعية وشخصيته المهنية أو الشخصية الأسرية والشخصية الفردية. وأن يدرك عدم إمكانية التشبث بأساليب متماثلة في كلتا الحالتين.

إننا لو كنا نطلب تتبع الجذور العامة لأحداث هذه القصة بشكل عام يتحتم علينا الإشارة بايجاز إلى الدور الهام لربة البيت. الجدير بالذكر أن حديثنا هذا يدور حول الأسوياء من الرجال لا المصابين بعقد نفسية أو المتورطين بحالات غير سوية، فهؤلاء قلة قليلة يتحتم معالجتهم لتخليصهم من أمراضهم.

فما هو يا ترىٰ دور المرأة في الحيلولة دون تبلور مثل هذه الأزمات؟

ما يحظىٰ بغاية الأهمية برأينا هو أن الوقاية خير من العلاج، أي أنه ينبغي على الزوجة أن تعرف زوجها بالتزود بقدر من المعلومات في مضمار علم نفس الرجل. فبحيازة جزء يسير من كل من نمطي هذه المعلومات، ونعني بهما العامة والفردية، تنجح المرأة في صيانة حياتها.

لابد للزوجة أن تعرف أن الرجال يميلون للتنوع وإلى رعايتهم من قبل الزوجة بالضبط كما تعامل أطفالها. لا يروق الرجال بتر حقهم لصالح الابناء، شؤون المنزل، القضايا المهنية و...، فليس من الصحيح أن تنكب ربة البيت على شؤون المنزل وتتمادى في رعاية الأطفال بشكل يسلبها القدرة والفرصة للاهتمام بزوجها، وهكذا بالنسبة لادارة شؤون البيت والقضايا المهنية. الزوجة اللبيبة تفهم أن لكل شيء حقه وحدوده: الزوج ومطالبه، الابناء، العمل والشؤون الاجتماعية، أسرة الأب، العناية بالنفس و... وعليها أن ترعى كل أمر دون الإساءة إلى آخر. إن بذل الزوجة اهتماماً كافياً ووافياً بالزوج، الابناء و... دون إيلاء أية عناية بجسمها ونفسها لا يعتبر ايثاراً وتفانياً بل رعونة لا غير. إذاً، يتحتم عليها بذل العناية التامة وداخل الأطر المألوفة بمظهرها وكذلك بالقضايا النفسية والمعنوية الخاصة بها أيضاً. في هذه الحالة تسير جميع الأمور على خير ما يرام.

إذاً، يترتب على الزوجة أن تستشف من اغتراب الزوج السوي عن أسرته أنها ربما أساءت أداء دورها في حياتها الأسرية.

ذات مرة توصلت بعد تحليل الخصائص السلوكية لسيدة من مراجعاتي

كانت تتمتع بالشباب، المؤهلات العلمية، الجمال والانسانية ولكنها في شجار دائم مع زوجها بأن الزوجة تتسم بمنتهى الجد أو أنها تبدو كذلك. لقد دفعت صرامة السيدة (الوقورة جداً!) زوجها لقضاء جل أوقاته خارج الدار.

إذاً، اهتمي سيدتي برغبة زوجك في التنوع ويمكنك استعراض هذا التنوع بشكل ملحوظ في خصائص الذات والبيت. إن ظهور الزوجة بمكياج من طراز جديد أو سلوك من نوع جديد (وفي إطار الالتزام الخلقي) أمام الزوج يشعره كأنه يواجه حالة جديدة أخاذة. وعلى هذا يتوجب على كل زوجة أن تجهد كذلك في تعلم الأساليب الصحيحة والمتنوعة لرعاية الحقوق الزوجية.

توخي الدقة في اختيار الوقت المناسب لتحقيق مآربك. فعلىٰ سبيل المثال لا يصح التقدم بأي طلب إلى الزوج عندما يشعر بالتذمر أو الضجر بل يفترض على الزوجة في مثل هذه الظروف أن تبذل عناية خاصة بزوجها كما تتعامل مع أطفالها الصغار وأن توفر مستلزمات شعوره بالهدوء والارتياح تاركة تقديم طلبها إلى حينه. تذكرن سيداتي أن الرجال يحسنون التقدير ولا ينسون تودّدكن إليهم. قد لا يفصحون عن تثمينهم لكنّ، إلّا أنهم يشعرون دوماً بالامتنان إزاءكن. إننا لا نعني بالتأكيد أن تلتزمن الصمت أو تحنين رؤوسكن احتراماً لهم عند مواجهة اخطائهم بل تقتضي الضرورة في مثل هذه المواقف أن تواجهنهم عدة مرات بعدم الاكتراث وكأنكن لم تتنبهن للأمر ثم اكتفين بتلميح بسيط (وجاد في الوقت نفسه). فإن لم تجد هذه الأساليب لا سامح الله، عندئذ يمكنكن اتخاذ أي أسلوب صارم.

يجدر بنا أن نذكر أن كلاً من القضايا الأخيرة يتطلب استشارة أخصائي ضليع متمرس تحسباً من الوقوع في ورطة الخطأ وسوء الظن. فقد يكون الزوج المسكين بريئاً في واقع الأمر مما تلقين مسؤوليته في أعناقهم.

استاذي ودرسه الأخلاقي

كنت طبيباً مطبقاً في إحدى المستشفيات ـدورة الأمراض الباطنيةـ اتصلت بي ممرضة الخفر في الساعة التاسعة ليلاً تدعوني للتوجه فوراً إلى القسم. كان المريض الراقد في السرير رقم (٢٢) يعاني من النزف. كنت أعرف أنه من المصابين بضرب من اللوكيميا المتفاقم. كان الشاب ذو التسعة عشر عاماً، من مرضاي حيث عرضت علي حالتهم وملفهم الطبي منذ أن جيء به من مدينة «خرم آباد» قبل شهر. كنت أعرف تفاصيل حالته وأن هذا النزيف هو بمثابة آخر نوبات المرض أي أنه يزفر أنفاسه الأخيرة! سارعت في الحضور إلى جانبه. وجدته في شبه إغماءة. يحيط به جو مزدحم. جميع الممرضات منهمكات في إسعافه. مقدار كبير من الدم تجمع في الكيس. أخذت إحداهن تنظف الدماء المنهمرة من أنفه بالشاش والقطن. والأخرىٰ تحاول إسعافه بالاوكسجين والثالثة تنقل بقية المرضى إلى مكان آخر. كنت الطبيب المطبق في تلك الليلة والأمر يتطلب مبادرات في مستوى الاختصاص، وهذا ما لم أرق إليه بعد. اتصلت فوراً بالطبيب المقيم الخفر فحضر على عجل. وكان ما يزال في السنة الأولى من دراسته في حقل الاختصاص. وبعد الفحص ايقن أنه في حالة احتضار وأن وضعه متأزم يتطلب ابلاغ الطبيب الأخصائي المسؤول (الطبيب الأخصائي المتكفل بالحضور فوراً إلى المستشفى عند الاتصال به في الحالات الضرورية) لعله يحضر أو يسدد توجيهاته عبر الهاتف. طلبنا من

قسم تأمين الدم في المستشفى تزويدنا بعبوتين من الدم وثم توصيل الماء المغذي من حجم اللتر به. كان الدكتور «ورقائي» الاخصائي المسؤول في تلك الليلة، طبيباً ضليعاً تعم فائدة مرافقته جميع من رزقوا الدنو منه. يبدو أنه وعبر الهاتف أصدر تعليماته للاهتمام به ريثما حضر بأقصى سرعة ممكنة.

هكذا حضر الدكتور إلى جانب المريض بعد نصف ساعة وهو يتساءل: حسناً ماذا فعلتم؟

اندفع المقيم الرئيسي يشرح تفاصيل الاجراءات المتخذة ثم أردف أخيراً: ولكن يا دكتور، لم يتوفر لدى منظمة تامين الدماء، دم من الصنف (O)، طلبوا منا التروي ريثما يتم اعداده.

قال الطبيب: لعل الأوان يفوت!

أجاب المقيم الرئيسي: وماذا عسانا أن نفعل يا أستاذ؟!

قال المقيم المبتدئ: وأي أوان يفوت يا دكتور؟ إنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة خلال ساعات ثلاث أخرى على أكبر تقدير حتى وإن تم حقنه بالدم.

هز المقيم الرئيسي رأسه قائلاً: «هذا صحيح!»

يبدو أن أفكار الدكتور انجرفت نحو موضوع آخر وهو ينظر إليهم ويستمع إلى آرائهم في ظاهر الأمر. تركهم يعربون جميعاً عن آرائهم ثم تمهل للحظات رمق فيها وجه الفتى الباهت بنظرة أسف وقال: «حسناً جداً» ثم التفت إلى مسؤولة الممرضات في القسم وقال: «أرجو أن تطلبوا من دائرة تأمين الدماء الحضور لتزويد المريض بـ(٤٠٠) سانتميتر مكعب من دمي فإنه من الصنف (O) لحسن الحظ!». ثم بدأ يستعد لتنفيذ ما قرره كأي شخص عادي يقضي مهمته الطبيعية على انفراد وفي ركن اختاره دون اكتراث للمحيطين به أو التظاهر بالاكتئاب والحزن أو بمظهر الأبطال. حدثت هذه الأمور بدرجة من السرعة عجز فيها الجميع عن درك ما حدث بشكل صحيح. أصابني الذهول وبهت طلاب الاختصاص وزملاؤهم الذين لحقوا بهم من باقي الأقسام أيضاً.

الجميع أخذوا عن الاستاذ درساً. وأي درس عظيم؟! وجدنا مسؤولة المرضات في وجبة الخفر قد أعدت الأدوات.. كانت قد ألفت هذا الموضوع، فهي سيدة محنكة قد تقدم بها العمر. يبدو أنها لم تستغرب هذا السلوك من الدكتور بل واجهته كأمر اعتادت عليه من قبل.

قالت باسمة لطلاب التخصص وصوتها يرنو بنغمة الأمهات: إنه سيرحل بالتأكيد. وجه الدكتور إليكم أنتم الشباب هذا الدرس لأنكم ستواجهون في المستقبل الكثير من المرضى يترتب عليكم معالجتهم.

لا ينعم الدكتور «ورقائي» ببنية قوية أو هيكل ضخم بل قوامه يوحي بأنه فتى في الرابعة عشرة من عمره. وتقلص حجم الدم بهذا المقدار لدى شخص بمثل قوامه أمر في غاية الصعوبة.

توفي المريض في السرير رقم (٢٢) في الساعة الخامسة صباحاً ولكن الدكتور قضىٰ ليلته ساهراً إلى جانب المريض حتى آخر لحظة من حياته. وفي الساعة الثامنة صباحاً كان الدكتور قد انضم إلى الأطباء والطلبة والاساتذة في الصف الأول من القاعة التي يعقد فيها الاجتماع الصباحي لتقديم تقارير قسم الأمراض الباطنية، حيث تقدم المقيم الأخصائي الرئيسي بتقرير مسهب حول جميع الاجراءات المتخذة. سألته: ولماذا لم تتحدث عن موضوع الدكتور «ورقائي»؟!

انفرجت شفتاه عن ابتسامة تنم عن احترام عظيم وقال: عزمت على التحدث عن ذلك ولكن الاستاذ أشار إلي يأمرني بالسكوت. ثم انحنىٰ برأسه وانصرف غارقاً في بحر أفكاره.

العسل المر

قبل سبع سنوات ولما عقد قرانهما تألفت منهما وحدة زوجية رائعة وفي منتهى الانسجام والتناسق مع البعض على مختلف الأصعدة: المؤهلات، العمر والوضع والظروف الأسرية.

وبعد انقضاء مدة من الزمن ظل السيد «كمالي» (والد سارة) يتذكر كلاماً نطق به السيد «نخجوان» (والد بجمان) ليلة الخطوبة. كان والد الخاطب قد أشار وفيما يكيل المدح على محاسن ولده إلى ملاحظة ما فقال: «ولدي يتمتع بكافة المحاسن فيما لو استثنينا انفعاله أحياناً».

ردت السيدة «نخجوان» على كلام زوجها الذي بدا لها أنه أخطأ التصريح به تماماً، وأردفت تبرر الموقف: إن «بجمان» ليس شخصاً انفعالياً. إن أي انسان يستفزه الاستماع لكلام غير منطقي أو سلوكيات غير لائقة. ومن الطبيعي أن يبدي انعكاساً إزاءها. إن نفسه تأبى الكلام البذيء والتصرفات الشاذة. ولهذا يصرح برأيه عن مثل هذه القضايا عندما تواجهه ولا يمكنه أن يمر عليها مرور الكرام. لا يسمىٰ هذا انفعالاً بل مزية حميدة يتصف بها ولدنا. فليس فيه أدنى انحراف عن الأخلاق السوية. ما يستقبح هو أن ينفعل المرء ويتشاجر مع هذا أو ذاك للا شيء ودون سبب.

بعد هذه المحاضرة الوجيزة أيد أعضاء أسرة «سارة» (سوى والدها) كلام السيدة «نخجوان» بدورهم وقالوا تجنباً لفوات هذا الخاطب المناسب: أجل،

إنها من خصائص الشباب. إن خبرات الحياة تضفي النضج على الزوجين الشابين تدريجياً. هكذا تصلح الأمور جميعها.

ذات ليلة اختلى الأب بابنته ليحادثها. كان هذا الرجل اللبيب المثقف يرصد كل شيء بنظراته الواعية فقال لابنته: «ابنتي العزيزة، إنك قضيت من عمرك أربعة وعشرين عاماً في كنفنا ونحن نرعاك بأرواحنا. فلم ندخر وسعاً في سبيل إسعادك. وقد حان الأوان أن تستلمي لقانون الخلق وتفكري عاجلاً أم آجلاً بمصيرك فتبدأي حياة مستقلة. وسيتم لك ذلك بخير وتنالين السعادة والهناء إن شاء الله. إن الله منحنا فرصة العيش في عالمنا هذا لمرة واحدة في الحياة. إننا سنحظى بسعادة الدنيا والآخرة فيما لو اغتنمنا هذه الفرصة ببصيرة وتعقل. ولكن الخذلان والفشل مصيرنا في الدنيا والآخرة لو أسأنا التعامل مع هذه الفرصة.. إن اختيار الزوج هو أهم حدث من أحداث حياتنا فالكثير من الأمور تجري رغماً عنا ولا يمكننا التحكم بها بل ينبغي التوافق والتكيف معها مثل الحياة مع أب، أم، إخوة وأخوات معينين أو خصائصنا الجسمية والعقلية كالذكاء، فهي أمور جبرية. إن الإنسان عاجز عن أن يستبدل أباه أو يختار بحرية أفضل الآباء. ولكن هنالك أمور كثيرة مثل اختيار الزوج، المهنة ونهج الحياة يمكننا التحكم بها مباشرة، بارادتنا، وبعقلنا».

استطرد السيد «كمالي» يحدث ابنته: إنك تعرفين أنني شخصياً لا اؤمن كما يؤمن الناس بالقسمة والنصيب. برأيي أننا إنما نحاول تبرير تصرفاتنا الرعناء باعتماد مثل هذه الآراء والتخفيف من المعاناة العاطفية الناشئة عن سهواتنا وأن نخلص أنفسنا من عناء تحمل تبعاتها. أي أن نحمل أنفسنا على الثقة بأننا لم نكن مسؤولين عن هذه الحماقة بل أرادها لنا نظام الخلق والخالق. والله العادل لا يزجي عباده في مثل هذه المظالم ليتخبطوا في متاهات معاناتها وعنائها. لقد خلقنا لننعم بالسعادة وننال الفلاح وحسن العقبى في الحياة بما وهبه لنا من مواهب مثل العقل والمنطق تمهد لنا سبيل النجاح فيما لو اتخذناها نبراساً يضيء

دربنا بينما يكون الفشل والإخفاق نصيبنا لو كنا ممن يركن في اتخاذ قراراته واجراءاته إلى عواطفه. إصغي لي يا ابنتي، إن المظهر الخارجي، المؤهلات، الوضع الاقتصادي، الأخلاق، الأسرة والمروءة كلها أمور ضرورية دخيلة في تحديد الزوج ولكنها غير وافية. تصوري إناء كبيراً من أجود أنواع العسل تلوث بعدة قطرات من السم. هل يمكن تناول هذا العسل والتمتع بحلاوته؟.. إذاً، وصيتي إليك أن تقضيا مدة من الزمن خطيبين لتتعرفي على جزئيات أخلاق وطباع «بجمان» وسنسعفك أنا وأمك في تحليلها. لا مانع من زواجكما ولكن تروي قليلاً لتبدأي حياتك الزوجية عن وعي وبصيرة.

في تلك الليلة ورغم عجز سارة عن ان تفند آراء أبيها ولكن الحب كان قد أسدل غشاوته على بصيرتها وسلبها حكمتها ففكرت في نفسها: أبي يبالغ في إساءة الظن. لقد أحسنت اختياري. إنني بالطبع لست كغيري أخذل في الحياة. ثم أن الأوضاع قد انقلبت. ولم يعد في عصرنا مجال لوقوع مثل هذه الأحداث. فقد صار مفهوماً للجميع أن اتخاذ القرارات في الحياة الزوجية أمر يتحكم به كلا الزوجين وأن الزوجة ليست جارية تحت إمرة الزوج. كانت ترىٰ أنها ستصلح حال «بجمان» وإن كان في أخلاقه ما يشوبها من انحراف بسلوكها وحديثها الصائب المنطقي. فالإنسان طوع للتدريب. ثم لماذا وضع الطلاق؟ سنحل وثاق الزواج إن تعذر علينا تحقيق النتيجة المرجوة.

كانت سارة رغم إحرازها شهادة الماجستير في الكيمياء سنة قبل الموعد المحدد إلى جانب ذكائها الحاد، شابة تفتقد الخبرة. فالخبرة ليست أمراً يمكن استزادته بالذكاء العالي بل أنها تنبثق عن العقل، وعقلها كان آنذاك أسير حبها ومشاعرها الجياشة.

في الأيام التالية.. أوحت سارة بسلوكها، المقصود، إلى الجميع بأنها قادرة على تقرير مصيرها أفضل من أي شخص آخر وستتحمل مسؤولية مستقبلها أيضاً.

وبهذا تنحى السيد كمال وزوجته التي أفاقت هي الأخرى من سذاجتها إثر إيضاحات زوجها. الهواجس راحت تقلق مضجعهما ولكن..

تمت مراسيم العرس بعد شهرين. كان السيد «نخجوان» الشاب قد حقق ذاته وبدأ حياة سارة دافئة.

***

ـ إنني عندما أعود بذكرياتي إلى تلك الأيام يا دكتور أراني أتنبه إلى أنه كان منذ البداية يكشف بين الفينة والأخرى عن أعراض هذا الغضب والانفعال العارم غير المكبوح الذي يخرج عن إطار تحكمه.

ـ ايمكنك أن تذكري لي عدة نماذج من سلوكياته لأحدد بدقة نمط انعكاساته؟

ـ أجل، يا دكتور. كان يعاملني في مطلع حياتنا الزوجية بشيء من المجاملة والخجل. ولهذا لم أكن تقريباً عرضة لغضبه بل كانت حالاته تتعلق بنمط تعامله مع المجتمع. فعلى سبيل المثال.. ذات يوم ونحن في بداية حياتنا المشتركة كنا ننتظر دورنا في محطة للبنزين.. أبطأ سائق السيارة التي تتقدمنا في أداء عمله أو ربما تماطل في دفع المال. استفزه الأمر وثارت أعصابه بدرجة أنه ترجل من سيارته ونشبت بينهما مشادة كلامية ثم اصطدام. وفي مرة أخرى كنا نرتاد مطعماً. تأخروا في إحضار الطعام. فقد بجهان زمام أعصابه ثم ترك المطعم بعد تعامله بفظاظة مع صاحب المطعم وتوجيهه الإهانات إليه. أذكر أنه ذات يوم أراد نصب ساحبة الهواء في المطبخ وبعد شيء من الجهد استنتج أن الفسحة المحددة لا تتناسب مع حجمها وفجأة حطم الساحبة وكل ما في المطبخ وتركها هشيماً متناثراً هنا وهناك. يتعذر علي النظر إلى وجهه في مثل هذه المواقف لفظاعة مظهره المخيف حقاً.. احمرار عينيه المتسعتين الواجمتين، امتقاع لونه، لسانه المرتعش وفمه الطافح بالسباب والثورة الانفعالية التي تعم وجوده

كلها أمور ترعبني.

بالطبع كل شيء يعود بعد لحظات إلى حالته الطبيعية، فيندم على سلوكه أيما ندم ويعوضني عما حطمه بأصناف أجود منها. كان يكرر الاعتذار عند كل مرة يتشاجر فيها مع الآخرين مراراً ومراراً حتى أنه يحاول أن يطيب خاطرهم بتقديم هدايا ثمينة لهم. مشكلته الحقيقية تتركز في هذه الدقائق القليلة، دقائق يخيل إليّ خلالها ورغم قلتها أن أبواب جهنم انفتحت لتصب نيرانها على رؤوسنا. إنني أتصور يا دكتور أن «بجمان» لو كان سيئ الخلق يتطبع على الدوام بأخلاق ذميمة على غرار الكثير من الرجال لكان أفضل مما يعانيه من اختلال عصبي مؤقت فالمرء أقدر على التكيف مع النمط الأول. ولكنه...، لا أعرف كيف أسلك معه! قد يستفزه إلى أبعد الحدود كلام أعجبه قبل أيام وأشعره بارتياح وفير فيبدي عند سماعه تذمراً واستياء جنونياً. قد يستقبح من ثيابي ما أطرى عليه بالأمس وكال المديح لي وأنا أرتديه.

ـ كأنك يا سيدة «نخجوان» أم لصبي في الخامسة من العمر.. لماذا فكرت في الانجاب رغم أنك تنبهت منذ البداية لوضع زوجك الخلقي؟ لماذا لم تتروي حتى تستيقني إن كانت حياتك الزوجية سيكتب لها الاستمرار أم لا؟.

كأنني ضغطت على موضع الجرح الأساس في قلبها. انكمشت تعابير وجهها، فقالت: إنني أنا المسؤولة عن هذه الحالة. فكرت في نفسي، دون أن أحدث أبوي عن مجريات أحداث حياتي أو أن أتشاور مع أي شخص، إن مشاعره الأبوية ستتأجج مع ولادة الطفل وإن شعوره بالمسؤولية سيرغمه على التفكير بعاقبة الأمور وعلى التخلي عن هذه الانفعالات الهدامة غير المتوقعة. لكن حاله ساءت مع ولادة الطفل لأن هذا الحدث أثقل من عبء مسؤولياته وكان يترتب عليّ أنا أيضاً أن أقسم طاقتي العصبية إلى قسمين امنح قسماً منها إلى بجمان، والآخر للطفل. ولهذا كنت لا أطيق أحياناً أخلاقه العنيفة أو كلامه غير المنطقي وفي مثل هذه الظروف تجرف عاصفة غضبه واندفاعه الهدام كل شيء

وكل شخص يواجهه.

ـ أحدث إلى الآن أن يفصح عن انزعاجه من هذه الحالة المرضية؟ أو أن يعترف بأنها حالة مرضية ويعرب عن رغبته في المعالجة؟.

ـ أجل، قبل ثلاثة أعوام وعندما أصابته إحدى النوبات العصبية أصابه الهلع ثم عاد بعد يومين ليقول: «كدت أصاب أول أمس بسكتة قلبية شعرت للحظة أن قلبي قد توقف عن العمل». وهكذا لجأنا إلى طبيب نفساني لكنه أهمل تعليمات الطبيب بعد فترة مبرراً تصرفه بأن الأدوية الكيميائية تتلف كبده.

ـ وما الذي أصابه بالهلع واضطره لمراجعة الطبيب؟

ـ كنا عزمنا على حضور مأدبة. تأخرت قدراً في التأهب. كان ينتظرني مع الطفل في داخل سيارته وفجأة عاد إلى داخل الدار بوجه مكفهر واعصاب متقدة، عيناه كانتا متسعتين تبرزان من حدقتيهما.. قذف الطفل نحو سريره وانهال علي بكل ما يعرف من الشتائم والسباب ثم دخل غرفة النوم وأقفل الباب وراءه. كنت أعرف طباعه. حاولت إعادة الهدوء إليه باستمالته والاعتذار منه. طرقت الباب عدة مرات. فتح الباب وتحامل علي بانفعال عجيب.. لاحظ ما لاحني من خوف شديد فقد كدت يغمى عليّ.. اتجه إلى المطبخ وحطم كل ما فيه من أوان زجاجية.. ثم عاد إلى غرفة النوم وأقفل الباب وراءه. كنا أنا والطفل نرتعش خوفاً ولكننا لا نتجرأ على النظر إليه فقد تثيره نظراتنا أكثر. صرفنا النظر عن تلبية الدعوة... وفي عصر ذات اليوم غادر الغرفة مكدوداً في حال يرثى لها. وبدأ يقدم لنا الاعتذار.

ـ هل تساءلت منه إن كان يذكر شيئاً من وضعه وما يحيط به خلال النوبات العصبية أم لا؟

ـ سألته عن ذلك. يقول أن تصرفاته تتم عن وعي منه ولكنه يعجز عن التحكم بها. ويتذكر بعض الأمور دون بعضها. يقول: «إن قوة شيطانية تحرضني

ولا أهدأ إلّا بعد تفريغ مشاعري ثم أندم دوماً على ما فعلت ندماً يؤجج النيران في قلبي حتى يلتهب عقلي. ولكنني أعجز عن التحكم بنفسي».

زادتني استفساراتي الدقيقة إحاطة بحالته ولكنني كنت بحاجة إلى لقاء المريض نفسه لتقييم وضعه ولهذا عقدت الجلسة التالية بحضور كليهما.

كان بجمان شاباً في الثانية والثلاثين من العمر، حسن المظهر، مثقف وفي منتهى الأدب. كان يتعذر على من يراه أن يصدق أنه بطل هذه الحكايات المدهشة. سرحت في أفكاري وأنا أتخيل كثرة الفتيات اللوائي يحسدن «سارة» لامتلاك مثل هذا الزوج. كان يقول: حقيقة أمرنا تكاد تقتلنا وظاهره يقتل الناس!.

غدت الحال بالضبط كإناء العسل الملوث بقطرات من السم. أيد بجمان نفسه كل ما أخبرتني به زوجته ثم أنه اعترف عندما اختليت به في الغرفة بأنه قد عرض «سارة» والطفل مراراً أثناء نوباته العصبية إلى الضرب المبرح. الخجل كان قد منع الزوجة من التحدث عن عنفه على هذا النحو.

أجريت الاختبارات، الفحوصات النفسية، المخطط الكهربائي وتفريسة الدماغ. كان التصوير التفريسي طبيعياً والمخطط الكهربائي يشير إلى اختلالات غير واضحة إلّا ان الاختبارات والفحوصات والمحاورات النفسية التي أجريت معه أثبتت معاناته من اختلال انفعالي دوري يدعى «التنفيس الانفعالي» الذي يكون أحياناً في شكل انفجاري. يعاني المصاب بهذا الاختلال من فرط الانفعال الواضح إزاء المحفزات العصبية التي قد تثير الآخرين نوعاً ما. تتبلور أعراض هذه الانفعالات خلال عدة دقائق أو لساعات من الزمن ثم تختفي تلقائياً بغض النظر عن طول فترة النوبة. ويعود المصاب بعد كل نوبة للاعتذار ولوم الذات لوماً حقيقياً. يكون الشخص في الفترات التي تفصل هذه النوبات طبيعياً تماماً لا تبدو عليه أية إمارات للفظاظة أو السلوك الانفعالي. كان يطلق سابقاً على مثل هذه الشخصيات «شخصية شبه صرعية» (Epileptoil

personality) لأن الفرد يصاب بنوبات فجائية تماثل نوبات الصرع الخفيف وغير القابل للضبط والتحكم.

ولصعوبة علاج هؤلاء المرضىٰ لا يمكن إسداء أية خدمة إليهم فيما لو صدف المريض عن المعالجة. ولحسن الحظ نجد أن أعراض هذه الحالة تدعو المصاب بها للنفور منها. ولنا أن نحقق نجاحاً كبيراً في علاجهم باطلاعهم على نوع ومسار المرض وطريقة علاجه إلى جانب الحاجة إلى مؤازرة أسرة المريض.

إلتزمنا في علاجه منهجاً ثلاثياً يتضمن معالجة المريض بالدواء وكذلك اخضاعه لأساليب العلاج النفسي وأخيراً اعتماد المنهج التثقيفي للأخذ بيده نحو بناء الذات وسبر أغوار خصائص النفس الإنسانية. المنهج الأول كان يتطلب اقناعهم بأن تعاطي الأدوية لا يسبب أي ضرر بل أنه ضروري ومنقذ للغاية.. شرحت لهما حتى الامكان آلية ونمط تأثير الأدوية. والمنهج الثاني شمل اساليب العلاج النفسي وأحدها تنفيس الانفعالات المكبوتة في نفس «بجمان» باستخدام «كيس تدريب الملاكمين» بأن يقضي نصف ساعة من الصباح يسدد الضربات بما اوتي من قوة وطاقة إلى «كيس الملاكمة» المعلق أمامه بعد أن يرتدي قفازي الملاكمة، فينفس بذلك عن نسبة عالية من انفعالاته السلبية إزاء الذات والآخرين بتفريغها على «كيس الملاكمة». ومن أساليب العلاج النفسي الأخرى المقررة له هو أن يتجه بسيارته عصراً قبل العودة إلى الدار الى منطقة معزولة من ضواحي طهران كغابات «شايان» أو الهضاب الغربية وأن يغلق هناك نوافذ سيارته ثم يطلق لمدة خمس عشرة دقيقة الصرخات بملء وجوده وطاقته المكبوتة وهو يحاكم في تلك المنطقة النائية المعزولة الأشخاص الذين عرضوا نفسه للضغط فرداً فرداً ويصرح لهم بكل ما تعذر عليه الافصاح عنه على مرأى منهم.

وبهذا كان بجمان يفرغ مشاعره المكبوتة صباحاً قبل التوجه إلى محل عمله باستخدام «كيس الملاكمة» وباطلاق الصرخات عصراً قبل العودة إلى

الدار. ولا يخفى الدور الايجابي البالغ لمطالعة الكتب ذات الاتجاه الداعم والمرسخ للمبادئ الدينية ـ العرفانية في تقويم وضع «بجمان».

لقد واظب بجمان على تطبيق التعليمات الموجهة إليه على مر العام الماضي. إنه وزوجته يشعران بالارتياح في حياتهما بنسبة ٨٠٪ فلنحسب الـ ٢٠٪ على حساب أنه ليس هنالك زوجان يشعران بالرضا التام عن بعضهما في هذه النسبة الضئيلة تكمن حلاوة العيش.

أشباح الجحيم

في ماض ليس ببعيد كان هنالك في القسم الغربي من مبنى سجن «قصر» قسم صغير يتم فيه فحص وعلاج السجناء النفاسيين. كنت آنذاك الطبيب النفساني المنتسب إلى السجن.

تمكنا رغم قلة الامكانات وعدم توفر المستلزمات الكافة أن نقدم باستخدام هذا القدر اليسير من الامكانات وفي ذلك المكان الضيق خدمات مفيدة لا بأس بها للسجناء بفضل جهود المسؤولين ولا سيما الطاقم الصحي في السجن. تحددت مهمتي بفحص المرضى النفسيين ومعالجتهم. كان فحص السجناء النفاسيين يحظىٰ بأهمية على صعيدين، الاول: فرز المرضى الحقيقيين عن المتمارضين أو المتظاهرين بالخبل والجنون. والثاني: تحديد نوع ونمط الحالات المرضية ومقارنتها مع الإثم والجنحة المرتكبة من قبل الجانحين.

كنت كعادتي في سائر الايام أستعد في ذلك اليوم لفحص حالة أُخرىٰ لالحاق تقريري حوله بملف المريض. قدم لي مساعدي السيد «نوروزي» تقريراً عن اجراءات القسم في الأربع والعشرين ساعة الفائتة وهو يشير إلى حالة جديدة أمر مسؤول مستوصف السجن شخصياً في الليلة الماضية بإرقاد المصاب بها في قسم الأمراض النفسية. ثم قال: إنه شاب، اقترف القتل في جريمة فظيعة.

سألته: من الضحية؟

قال: أمه.

فزعت لهول الصدمة والتفت إليه مبهوتاً. راح السيد نوروزي يؤكد ثانية: أجل، يا دكتور، لقد قتل أمه.

رغم أنني كنت قد واجهت من قبل مثل هذا الموقف أي قتل أم بيد ولدها إلّا أن استيعاب هذه القضية كان يصعب على ضميري اللا واعي (عقلي الباطن).

تساءلت: هل أنه متهم بهذه الجريمة أم اعترف بها؟

قال: بل معترف بها. أقر أنه قتلها. ثم أردف دون تريث: وبأي أسلوب بشع؟! بالفأس!

استغرقت في أفكاري. إنها حالة مرضية قطعاً. فالقضية تبدو في غاية الغرابة، ومبادئ وقواعد علم الطب النفسي تنص على المبادرة لقتل شخص ما بأسلوب غريب أو حتى قتل النفس بمثل هذه الأساليب (الانتحار) يعزز احتمال ابتلاء القاتل بحالة نفسية.

قلت: حسناً جداً، أين هو الآن وكيف حاله؟!

ـ لقد أمر رئيس المستوصف بإلحاقه بالغرفة الانفرادية. إنه الآن يرقد فيها. لكننا لم نلاحظ حتى الآن قيامه بأي عمل غريب أو عنيف.لم يتناول طعامه إلّا أنه طلب الذهاب إلى المرافق الصحية مرتين. وكان سلوكه في كلا المرتين طبيعياً جداً.

ـ أحضروه رجاء. وليحضر معه أحد الحرس في الجلسة ولكن دون سلاح.

شرحت له أن المرضى النفسيين يتسمون عادة بالهدوء وبقلة الحركة ولكنهم قد يبادرون أحياناً وبشكل فجائي إلى اجراءات عنيفة، ثائرة. وهذا ما يحتم حضور الحارس متجرداً عن سلاحه في الجلسة. أردته متجرداً عن سلاحه تحسباً من مبادرة المريض السجين وبحركة فجائية لاختطاف السلاح والقيام باجراء من نوع خاص لا يحمد عقباه.

جيء به بعد دقائق. كان شاباً في العشرين من العمر، ناعم البنية، ممصوصاً وقد حلق رأسه.. تبدو ملابس السجن فضفاضة عليه أما محياه فلا تظهر عليها أي من امارات الاضطرابات السلوكية واختلالات الشخصية. لنا أن نفهم أنه ينتمي إلى عائلة نجيبة عريقة. وأنا أنظر إلى وجهه المكفهر المتألم استشعرت شدة وثقل ما خيم على نفسه من حزن وأسىٰ. كان يطأطئ رأسه وينفث نفثات حارقة في السيجارة المستقرة بين أنامله.

كنا أربعة أشخاص في الغرفة.. أنا أجلس خلف المكتب وإلى جانبي مساعدي السيد «نوروزي» يتولى مهمة إتمام الملف أثناء المحاورة. السجين جلس أمامي في وسط الغرفة وحارس السجن يقف خلفه. ساد الغرفة للحظات صمت ثقيل.

قطعت الصمت قائلاً: يا سيد «أمير»، إنك الآن في قسم الأمراض النفسية في سجن «قصر» وانا الدكتور «هاشمي» الطبيب النفساني في السجن، والسادة من طاقم القسم. إننا لم نعقد هنا جلسة محاكمة بل غايتنا من عقد هذه الجلسة تقديم العون إليك. أريدك أن تشرح لنا تفاصيل جريمتك. ولنا أن نقدم لك عوناً كبيراً فيما لو سردت علينا حقيقة القضية، فسيكون بوسعنا أن نقدم تقريراً حولها إلى الجهات المعنية في السجن. وهذا ما يخفف حكمك بدرجة ملحوظة.

شرحت له هذه الأمور ليحسن التعاون معنا. كانت المسؤولية الجنائية سترفع عنه بالتأكيد ويتم تدارس ملفه على نحو آخر فيما لو تم إثبات كونه مصاباً بحالة نفسية وأنه كان يمر بنوبة من نوبات الجنون عند اقترافه الجريمة. كان هذا الموضوع يحملنا متاعب أخرىٰ أيضاً فكثير من السجناء وفي أتم الصحة النفسية والعقلية كانوا يتظاهرون بالجنون عند تنبههم لهذه الحقيقة لعلهم ينالون فيضاً من هذا الغيث ولكنني كنت أتوخى دقة بالغة في هذا المضمار ويؤازرني في هذه المهمة طاقم متمرس يرصدون الحالات ويقيمونها بشكل غير مباشر أثناء غيابي ليقدموا لي تقارير وافية بشأنها. كان فرز المتمارضين

عن المرضىٰ إجراءً بسيطاً، فقد ابتدعت تحاليل طبية نفسية كثيرة لتحديد كلا الصنفين ولكن الأمر كان أكثر بساطة من ذلك في هذه المرة. امسك المـريض وبمنتهى السهولة والصدق بحبل الكلام وقال: «أنا أمير.. وقد قتلت أمي».

ـ أيمكنك أن تشرح لنا تفاصيل أكثر عن مجريات الحادث؟

كان يرنو برأسه نحو الأرض عندما بدأ يتكلم بصوت مبحوح وكأنه يطوف في عالم الخيال، قال: كان الوقت تقريباً منتصف الليل عندما وصلت باب دارنا. لم يفتحوا الباب مهما قرعت الجرس. لم أفهم كم قضيت من الوقت في الزقاق وأنا أصارع برودة الطقس في تلك الليلة لفرط ثمالتي. وكل ما أذكره أنني كنت أحلق في الفضاء وأحسب الساقية في وسط الزقاق نهراً عـظيماً والثـلوج التي تتساقط من السماء مظليين حربيين. تحول السور العتيق لدارنا في مخـيلتي إلى أبراج وسور قصر تاريخي، سور شاهق يناطح الأجرام السماوية.. حتى تنبهت لنفسي وأنا أجلس إلى جانب المدفأة في الغرفة وأمي تتحدث إلي. كنت أُعي أنها تتكلم ولكني لم أفهم ما تقول. كنت تماديت في تعاطي المخدرات. تراءت لي أشباح مختلفة الصوت واللون، تتردد أمامي. كنت أرىٰ أمي تحدثني تارة وتارة أخرى الشيطان وأحياناً شبح مخيف. الوجوه كانت تتوافد أمام ناظري.

يسعني أن أتذكر وأنا أفكر بتلك الليلة الآن، بأن أمي وكما يخيل إلي قشرت لي خياراً وقدمته لي. تراءىٰ لي وهي تحدثني ويداها ممدودتان إلى الأمام تقدم لي الخيار كأنها شيطان تتطاير منه النيران، كأنها شبح مخيف، وأن الخيار الذي مدت يدها تقدمه لي، هراوة حديدية. كأن ذلك الشيطان الملتهب يتحامل علي بهراوته الحديدية. تصورته يتجه نحوي ليهشم رأسي بها. كان علي ان ادافـع عن نفسي. ماذا كان علي أن أفعل؟ كان يدنو مني أكثر فأكثر ومحياه يـتغير أمامي بشكل متواصل: أمي، الشيطان، الشبح المخيف و...، عندما كانت أمـي تتوسل إلي ضاحكة أو ربما باكية أن أترك هذه التصرفات، تحولت أسنانها في خيالي إلى أسنان حادة ملطخة بالدماء لشبح يتقدم نحوي. تذكرت الآن إنها

كانت تبكي، بالطبع كانت تبكي كعادتها، تتوسل إلي أن أهتدي لسبيل الرشاد، أن أكف عن الإساءة لسمعتي وسمعتها في الحي وأمام الأهل والأقارب. كانت قد سخنت لي الطعام ولكنني أحسب شعلة المدفأة شرراً من نار جهنم. قدمت لي فاكهة ولكنني تصورتها شيئاً آخر. كل شيء غدا بالنسبة لي في غفوتي المشحونة بشبه كوابيس، شيطانياً: الشيطان وهراوته، فم وشفاه مدماة تنفرج عن ضحكة مشمئزة كريهة و...، كلما زحفت متهرباً نحو الوراء فوق السجاد، كان الشبح لا يتوانى عن التقدم نحوي.. لماذا لم يتركني وشأني؟ كان يتبعني بعينين دمويتين تبرزان خارج حدقتيهما.. الدماء.. الدماء.. كل شيء اصطبغ بلون الدم. كل شيء تلون بلون الدم. أسنان الشبح كانت تتقاطر دماً. كانت أمي قد قطعت سكراً جامداً في ذلك اليوم. وتركت وسائل عملها من مطرقة وما إليها في ركن من الغرفة. كان الشبح يدنو مني ولابد لي من الدفاع عن نفسي. مددت يدي وتناولت المطرقة وكان أحد طرفيها يشبه الفأس. كنت تخيلت أنني قتلت الشبح بضربات قوية متتالية و...، لم أعد أفهم ما جرىٰ.. ولم أفق من غفلتي إلّا وأنا أجد دارنا قد ازدحمت وتعالت أصوات البكاء والنحيب، ورجال الشرطة قد كبلوا يدي بالوثاق.

سكت أمير. كان ولشدة وجومه وحيرته يطأطئ رأسه طوال فترة تحدثه إلينا ولم يرفع رأسه لينظر إليّ ولو لمرة واحدة. جاء دوري وأنا أنوي معرفة تفاصيل أكثر وأكثر عنه. صرت أسأل وأمير يجيبني، فعرفت أنه طالب في كلية الآداب، فرع اللغة الفارسية وأنه يدمن على الحشيش منذ أربعة أو خمسة أعوام ويدخن (٣٠ـ٤٠) سيجارة في اليوم. ويتعاطىٰ أحياناً مادة (L.S.D). كان في ليلة الحادث قد تعاطىٰ من هذه المادة أيضاً إلى جانب نوعين آخرين من المخدرات المهلوسة.

تحدث عن أسرته قائلاً: كان أبي بناء. توفي قبل سنتين. كان مدمناً يتعاطى الترياك ولأجله أفنىٰ كل وسائل معيشتنا. لم يكن يخلو من الطيبة. كان يوصيني

دوماً: إنني تعيس فلا ترضَ لنفسك بذلك. لا تتبع خطأي. ولكنه كان دليلي وأسوتي. كنت أسرق في غفلة منه من مخدراته لأتعاطاها مع رفاقي. لقد أدمنت على المخدرات منذ طفولتي لأنني استأنست لمظهر الدخان يتعالى في بيتنا منذ الصغر.. وبعد ذلك صرت أتعاطىٰ نوعاً آخر من المخدرات فلم أعد أستذوق ما يتعاطاه أبي. ذات مرة قدم لي صديق مادة مهلوسة فأعجبتني فتهافت نحوها.. هكذا وقعت في ورطة الإدمان وتبدد كل شيء في حياتي.

ـ وعلاقة أبويك كيف كانت؟

ـ كانا في شجار دائم. يتبادلان الضرب والسباب. كانت حياتنا دماراً منذ البداية. كانت أمي تنتمي إلى عائلة من الطبقة الراقية وأبي إنساناً يتمتع بشخصيته، لكن كل شيء تغير منذ غدا أسير الإدمان. في الواقع كانت أمي تدير شؤون معيشتنا بما ورثته من أبيها ويكفينا أن يسدد أبي بمجهوده نفقات تدخينه وإدمانه.

ـ تحدث عن إخوتك وأخواتك.

ـ لا أملك أكثر من أخت واحدة متزوجة تعيش مع زوجها. كانت قد حضرت إلى دارنا لتزور أمي في الصباح عندما واجهت ذلك المنظر.

كان الفتى الشاب قد تحمل عبئاً ثقيلاً وضغطاً عصبياً قوياً. كاد يغمىٰ عليه لشدة ما ناله من إرهاق نفسي مفرط. طلبت منهم إعادته إلى مكانه فقد حصلت في الواقع على ما يلزمني من معلومات وما تبقىٰ هو إجراء الاختبارات المتممة والفحوصات الطبية الأخرىٰ وقد أجلتها إلى الجلسات التالية.

مع ذهاب أمير ساد الوجوم أجواء الغرفة. كانت النتيجة واضحة بالنسبة لنا ولأي إنسان رشيد. كانت مسؤولية هذا الحادث الرهيب ملقاة على عاتق أبوين أساءا إلى ابنهما بأنهما كانا شر الأمثولة بالنسبة له. عندما تكون الأسوة سيئة ينتهي أمر المتأسي إلى أسوأ من ذلك، فقلة من الناس فقط يتمتعون بقوة تخولهم أن يفهموا اساءات وانحرافات أبويهم ويتجنبوها بإرادة راسخة وعقل

متزن. وثلة أخرى يبلغ ضعفهم ورعونتهم درجة تؤدي بهم إلى الضياع والانحراف رغم تنعمهم بأبوين طيبين ولبيبين. ومن المسلم به أن أكثرية الناس ينتمون إلى الفئة المتوسطة فنجدهم عادة يطبقون في حياتهم نهجاً ارتسمت خطوطه أمامهم وتهيأت لهم ظروف تعلمه.

انتهت الجلسة. كانت شخصية أمير الشاب المتقاطعة مع واقعه قد تعرضت في ليلة قارصة تتساقط فيها الثلوج إلى تحامل أشباح وهميين من صنيعة خياله فبادر إلى قتل أمه بفظاعة وقسوة مستخدماً فأساً صغيراً وهو في ذروة هلوساته الناشئة عن تعاطي المخدرات.

تم انتقال أمير بعد علاجه من أعراضه الهذائية والنفسية الناتجة عن الإدمان إلى سجن آخر ولم أعد أراه ولكنني لن أنسى قط محياه الكئيبة وما كان من أمره ليلة ذلك الحادث المهيب البشع.

صبية في قبضة الاخطبوط

أربعة أشهر كانت قد مرت على حضور السيدة (ع) إلى عيادتي تشكو سوء سلوك زوجها. حضرت هذه المرة ترافق ابنتها.. قالت في المرة الأولى: زوجي بذيء الكلام، سيئ الفعال. بخيل لاحد لبخله، قاس لا معنى للتسامح في حياته. ينشغل منذ الصباح حتى المساء بأعماله الشخصية ولا يعلم إلّا الله من أي نمط من الناس هو. ماذا ينبغي عليّ أن أفعل برأيك؟

قلت لها: لابد أن ترافقيه إلى العيادة في الجلسة اللاحقة لنتدارس الأمور سوية.

أجابت بأنه لن يرضىٰ بذلك قط.. إنه لا يعترف أساساً بالطب النفسي وعلم النفس والمشورة.

اقترحت عليها مرغماً: من الأفضل أن تتركيه وتستقري مع أبنائك لشهر أو شهرين في بيت أبيك مادام أطفال المدارس في عطلتهم الصيفية. اقضي وقتك خلال هذه الفترة بالتفكير بماضيك وتصرفاتك. زوجك بدوره سيفعل ذلك لا محالة. ستشعران الارتياح النفسي. ستكون الفرصة متاحة أمامك لتتنبهي إلى أخطائك وسهواتك بعيداً عن الغرور والكبرياء. عندئذ راجعاني.. سنتطرق إلى الموضوع آنئذ برؤية أكثر شفافية. إن خالف زوجك ذهابك.. إمكثي في البيت ممتنعة عن الشجار بعد اعلان (وقف إطلاق نار المشاحنات) لمدة شهرين. استعرضي بتمعن فيهما الماضي بحذافيره. والخطوة الأولى تتلخص في اطلاعك

على واجباتك خلال الأزمات ليكون بوسعك بعد ذلك التأمل في القضية وايجاد الحل المناسب لها على أفضل وجه.

انصرفت السيدة (ع). ولكنها لم تعد تراجعني حتى ذلك اليوم الذي حضرت فيه برفقة «نداء» إلى العيادة بعد أربعة أشهر. كانت في الثانية أو الثالثة والثلاثين من العمر ولها بنتان: نداء ذات السبع سنوات ونرجس في الثانية من عمرها. لم تصحب ابنتها الصغيرة معها. حضرتا إلى العيادة هي ونداء.

كنت أرىٰ فتاة صغيرة وجميلة تجلس أمامي وعيناها اغرورقتا في حزن شق طريقه في نفسها إلى ما لا نهاية. كانت تغالب دموعها وتجهد لتمنع تساقطها بأنفاسها العميقة. كانت قابعة على الأريكة قبالتي تتطلع إليّ دون اكتراث وقد عم الاكتئاب كيانها. كانت تصطخب عالماً من الأحزان في عينيها. تأثرت لرؤيتها على هذه الحال. قالت أمها: «لقد تركنا الدار منذ أيام ونحن الآن نقيم في دار أبي. قال أبوها: لا أريدك بعد الآن ولا أريد أطفالك. اتركوني بلا رجعة. جئتك يا دكتور لتخبر ابنتي كم هو أبوها انسان بذيء وأن عليها أن لا تحبه ولا تنصاع لكلامه».

صعقت في الوهلة الأولى لسماع كلامها الذي بدا لي غريباً جداً. تقدمها بمثل هذا الطلب أمام ابنتها «نداء» وهي على تلك الحال لم يكن منطقياً أبداً. ففي مثل هذه المواقف تزورني الزوجة أو الزوج على انفراد بادئاً. يعربان عن آرائهما ثم نحدد موعداً مناسباً للقاء الأطفال. أذهلني الأمر إنها إهانة كبرىٰ أن يأتيني شخص ما ويصرح دون تكلف بأنه يريدني أداة لتلبية أغراضه الشخصية. ومع هذا كنت أخمن دون حاجة للقاء الأب أنه لا يتحمل بمفرده مسؤولية هذه الأوضاع. استطردت السيدة (ع): «تطبيقاً لنصائحك قبل عدة أشهر يا دكتور، اتخذنا هذه الخطوة. ولكن ابنتي هذه لا تريد أن تفهم الحقائق. إنها مشوشة، تعذب نفسها بشكل مستمر». ثم التزمت الصمت وهي تحدق بي لعلني أؤيدها.

قلت وضحكة تنم عن دهشتي ترتسم على شفتي: إنني لم ألتق زوجك أبداً يا

سيدة (ع) فكيف يكون بوسعي تشخيص طيبته أو عدمها. ولكنه كان من المقرر كما ذكرت أن تبتعد عن بعض لفترة من الزمن. ثم تأتياني معاً. لم أعد أذكر أنني أعربت عن رأي آخر.

مرت لحظات عسيرة. لم أنو الاعتراض على سلوك الأم ومعاتبتها على ما بدا منها من حماقة كما لم أرض لنفسي أن أزيد من عذاب ابنتها بمواصلة هذا البحث. ولهذا كنت أثناء حديثي أكرر الإيماء للأم عساها تفهم أنه لا يصح التحدث بمثل هذا الموضوع أمام «نداء». ومع هذا يبدو أن الأم كانت لا تفهم مفهوم هذه الايماءات بل تواصل أحاديثها التي تتمحور حول ما يتعلق بالموضوع الأساسي.

ـ أرجوك يا دكتور، إنصح نداء بأن تنسىٰ أباها ولا تستغرق في أحزانها.

كان الحاحها المتمادي يزيد من سخطي المكبوت. جاءتني لتتحدث بمثل هذه الأمور أمام صبية مكتئبة لم تبلغ من العمر أكثر من سبع سنوات. تعمق لدي في تلك اللحظات الشعور بروعة الوعي والمعرفة! يا ترىٰ إلى أي مدىٰ يتمكن عقل طفل في السابعة من العمر من فهم هذه القضايا؟ كنت أتهرب من استزادة الثقل النفسي الذي تتعرض له في هذا الجو الذي بدا كأخطبوط يحكم قبضته على روحها ووجودها، والأم تصر دون كلل أن تسلمها له. قالت: لقد اتصل صباح هذا اليوم أبوها يطلب أن نأخذ إليه نداء ليراها. أقول لها أن لا تذهب. لقد امتنع هذا الرجل الممسوخ عن ارسال مستلزماتها المدرسية. إنها لم تحضر إلى المدرسة منذ عدة أيام...

نظراتي تعلقت بنداء. كان الألم يعتصرها.. كانت تصارع عبراتها بتأوهات عميقة وبائسة. كنت منذ بداية حضورها فشلت في رسم الابتسامة على شفتيها مهما بذلت من مساع. كانت الأمور قد تعمقت أكثر من هذا. غلبني التذمر من تصرفات الأم حتى أرغمت أن أطلب منها بأن تترك الغرفة بحجة أنني أريد أن أتحدث إلى الفتاة على انفراد. سادت الغرفة بعد انصرافها أجواء هادئة

وممتعة. تطبعت بالود والقرب. لم يكن هنالك غيري أنا وهذه الفتاة الصغيرة. كنا قد تبادلنا الكثير من الكلام من خلال النظرات منذ أن دخلت الغرفة. كانت جسور علاقة طيبة قد امتدت بيننا من خلال الصمت. كنت أتلهف طوال فترة تحدث أمها لاحتضانها. شعرت إن هذا الإجراء سيؤثر فيها أكثر من أي حديث كما أدركت شعورها بمثل هذا الإحساس وبأنها تبحث عن مكان تذرف فيه دموعها بعيداً عن أنظار أمها.

بإشارة مني توجهت نحوي واستدارت حول مكتبي وألقت نفسها في حضني باكية بصوت مرتفع. ويا له من بكاء مرير! وأي شهيق مؤلم! لم أواجه مثله من قبل. صوت الفتاة تعالى وهي تبكي وأضعاف صوتها تذرف دموعاً ساخنة، دموعاً تسرد حكاية ألم قاتل بالنسبة لطفلة في مثل هذا العمر. كنت أرغب أن لا أتركها أبداً ولكن لم يكن بمقدوري ذلك.. وددت أن أخفف عنها حتى تنتهي من بكائها وهذا ما تعذر أيضاً فقد كانت العيادة مكتظة بالمراجعين.

تريثت إلى أن نالت هدوءاً عاطفياً نسبياً فسألتها: عزيزتي نداء، هل تحبين أباك؟

ـ أجل.

ـ وأمك أيضاً؟

ـ أجل.

ـ ومن المسؤول؟

ـ أبي.

لم يكن بوسعي أن أثق بكلامها فقد كانت تشاطر أمها العيش ولم تبلغ مرحلة تحليل القضايا كما كانت تفتقد الجرأة لمثل هذا التصريح. لم يكن بإمكاني ان اتخذ كلامها حجة ودليلاً. يحتمل أن تكون محقة ولكن مبادئ علم النفس لا تسمح لنا بمثل هذا الاجراء.

أكدت لها أنني سأبذل ما في وسعي من أجلها ورجوتها أن تبعد الأحزان

عن نفسها. قالت الفتاة مستاءة: سأفعل وغادرت الغرفة. وهل كان بوسعها أن تؤدي دوراً لتحسين هذه الأوضاع؟! كانت كالحمام المكبل الجناحين. المنصاع لذويه. حتى أنها سلبت حق البكاء بحرية. قالت: سأفعل وغادرت الغرفة. لحنها البريء والبائس وهي تنطق عبارتها الأخيرة كان يؤجج نيران الشفقة في القلب. تناهىٰ إلى أسماعي صوت بكائها ثانية بعد خروجها من الغرفة. دخلت أمها وقد أربكها الموقف ولكن.. دون أن تتنبه تماماً لخطئها.

تذكرت إحدى زبائني السابقين. كان زوجها بذيئاً حقاً ولكنها حتى في جلساتها الأسبوعية معي بعد طلاقها لم تنطق بما يسوء لزوجها بل كانت تذكره دوماً بخير. وتقول أمام أبنائها: «افتقدنا أنا وأبوكم التفاهم المشترك فارغمنا على الطلاق. وإلّا فإنه لم يكن إنساناً خبيثاً فثمنوا أتعابه معكم». كانت تؤكد على الدوام: «إن أسلوب أبيهم في التربية ينحرف عن السواء التام إلّا أنني مضطرة لمثل هذا التصرف فأسوأ الأنماط التربوية أفضل من الافتقار إليها جميعاً». ولهذا كانت تسدد النصائح لابنائها للتعامل مع أبيهم بلطف والتعاون معه.

إن هذا الاسلوب هو بالضبط ما ينص عليه المنهج العلمي والنفسي لأنه يقلص تبعات الأزمات والعقد الناشئة عن الطلاق إلى حد كبير. فالآباء والأمهات ومهما تمادوا في أخلاقهم البذيئة فانهم يكنون الحب والمودة لأبنائهم، والأبناء هكذا. فالإساءة لأحدهما يصيب الأبناء بالاكتئاب النفسي ويحملهم الأحزان والآلام فيختارون أخيراً اللجوء إلى من يندر لقاؤهم به. فهذا قانون الخلق. يا ترى ما الذي يرغمنا على مثل هذه الأعمال؟ وهل يعتبر العش الأسري ساحة لاستعراض القوىٰ؟ إنه موضوع جدير بالاهتمام. إن الفئة التي تبرئ ساحتها وتصف الجانب الآخر وكأنه شيطان مارد يتحملون عادة القدر الأكبر من المسؤولية ونجد في المقابل فئة يواجهون أناساً في غاية السلبية ولكنهم يأبون تشويه سمعتهم ويتجنبون انتهاز أية فرصة تسنح أمامهم

لوصفهم بالبذاءة وتعريض الأبناء لغزو اخطبوط نفسي يعيث في مستقبلهم إفساداً. فلهذا الصنف الأخير من المسؤوليات ما يولون أداءها اهتماماً كبيراً، ومبادرات تشغلهم أكثر قيمة بكثير من الجلوس والاساءة إلى شخص معين.

جلست السيدة (ع) أمامي، ونحن نستمع إلى نحيب «نداء» التي فقدت السيطرة على نفسها. سرحت هائماً مع أفكاري. ثم أردفت: لا يمكننا التوصل إلى نتيجة والأوضاع على ما ترين. أرجوك أن تنصرفي الآن وتحاولي تهدئة ابنتك على أن تأتيني غداً لنتدارس قضيتكم.

رضخت لاقتراحي دون اكتراث وتركت الغرفة ببرود. وبعد لحظات خيم صمت مؤلم على جميع أرجاء العيادة. دخلت السكرتيرة تحمل إليّ ملفاً آخر. راحت تقول بعينين مدمعتين ساهمتين: لقد تأثر جميع من في غرفة الانتظار بالموقف والشعور بالأسىٰ خيم عليهم.

انصرفت السيدة (ع) ولم تزرني بعد ذلك. ولكن سواء أن غدت «نداء» ضحية رعونة والديها أم لا، لابد أن نعرف أن هنالك الكثيرات من أمثال نداء يتخبطون يومياً وفي مختلف اصقاع الأرض تحت رحمة اخطبوط النزوات الأسرية و... وقد تكون واحدة من هؤلاء الفتيات إلى جانبنا..

والسؤال الذي يبرز هنا هو: هل تقتضي الحتمية على الزوجين فيما لو تعذر عليهما مواصلة الحياة الزوجية أن ينجرفا في لجج الوصمات الخلقية أو أن يكيل كل منهما أسوأ النعوت إلى الآخر ويتبع معه أبشع السلوكيات؟ ألا يمكنهما إنهاء الموضوع بمروءة وبطريقة ودية عسىٰ أن يتمكن الأطفال الأبرياء من تجرع وبال المصاب المفروض عليهم بأقل التكاليف المعنوية النفسية؟ تشير المبادئ النفسية إلى أن الأطفال ممن تجاوزوا السابعة من العمر وفي أفضل الظروف النفسية بحاجة إلى خمسة أعوام من عمر الزمن حتى يستوعبوا الصدمة المعنوية المترتبة على الطلاق. لكنهم كيف يواجهون هذه الأساليب السائدة؟ إنهم سيشبون يوماً لا محالة ويحاولون الكشف عن الحقائق. لمن ستشير عندئذ

أصابعهم بالاتهام؟ سيتضح لهم حينئذ كل شيء وسيعلمون من كان المسؤول عن هذا الحدث ومن وقع الظلم عليه. بم سيجيب أبناءه المسيء الذي شوه بكلامه صورة الآخر لديهم؟

إن الطريقة المثلى للأزواج الذين يفتقدون التفاهم المشترك وتنتهي جميع محاولاتهم إلى طريق مسدود أن يلتزموا المروءة والنجابة عند اللجوء إلى الطلاق، أن يدفع الزوج حقوق الزوجة وأن لا يتناسىٰ حقوق الأبناء أيضاً إن فوض إلى الزوجة أمر رعايتهم وتربيتهم، أن يخاطبوا الأطفال بالقول: «إننا فشلنا في التوافق معاً ولكن كلانا نحبكم وسنبذل من أجلكم ما بوسعنا» أن يكفوا عن بث السموم في عروق الأبناء أثناء اللقاءات الأسبوعية أو الشهرية لتأليب الأوضاع ضد البعض وعن تسخير نفس أطفالهم لتحقيق مآربهم، أن يغدقوا عليهم بمحبتهم ويمتنعوا عن الزواج فوراً بعد الطلاق لفترة سنة أو سنتين على الأقل فقد تمحو بعض المشاكل وقد تتهيأ فرصة أخرىٰ لإعادة المياه إلى مجاريها وبناء حياة جديدة عذبة.

انتظار طويل

انقضت الأعوام تلو الأعوام والمارة يبصرون على الدوام سيدة تقف في ساحة الشاعر «فردوسي» تحدق في نهاية الشارع المؤدي إلى الساحة وكأنها بانتظار شخص ما، ترتدي معطفاً أحمر اللون أكل الدهر عليه وشرب وقبعة بالية صنعت من قماش أبيض وتمسك باقة من زهور القرنفل الحمراء.. كان أصحاب المحلات يتداولون عنها حكايات وحكايات دون أن يعرف أي منهم بالضبط من هي؟ وماذا تريد من وقوفها في ذلك المكان؟ كل ما يعرفونه هو أنهم متى ما قادهم الطريق إلى هناك بين الساعة الثالثة والسادسة مساء فإنهم يلمحون سيدة ذابلة كئيبة تنتظر شخصاً ما.. استمرت هذه الحكاية ثلاثين عاماً على مر أيامها..

كانت «بريجهر» طالبة تتمتع بجمال وحيوية وافرين، تذاكر دروسها على أتم وجه وتحظى بمكانة رفيعة بين الأهل والأصدقاء بفضل ذكائها الحاد وحيويتها ووجهها الباسم. لا تلتئم أية مجموعة أو تقام أية مأدبة أسرية دون حضورها. كان أبوها موظفاً بسيطاً وأمها ربة بيت ولها أختان وأخ واحد تكبرهم جميعاً. إحدى أخواتها تركت الدراسة بعد الفراغ من مرحلة الابتدائية وانشغلت بالعمل في ورشة للخياطة عساها تعد بدخلها من عملها جهازها حتى يحين وقت زواجها. أختها الصغيرة كانت ما تزال في مرحلة الابتدائية وأخوها يدرس في المرحلة الثانوية. كانت «بريجهر» قرة عين الأسرة ومصباحها

الوضاء وكبرى الأخوات وأكثرهن جمالاً واهتماماً بالدراسة أيضاً. لم ينعم أبوها بحظ وفير من الثقافة إلّا أنه كان متمكناً من القراءة والكتابة اللتين عجزت عنهما الأم لانها لم تلتحق قط بالمدارس. كانوا يواصلون حياة فقر ولكن بهدوء وبعيداً عن الهواجس. لم يضطرهم الله للاستمداد بغيرهم وهذا ما حسبه الأب النزيه نعمة بليغة.

كانت بريجهر وهي ترىٰ نفسها في السنة الدراسية الأخيرة من المرحلة الثانوية، وعلى أعتاب احراز شهادة البكالوريا بحسب قوانين ذلك العهد، تشيد صروح الآمال كبقية أترابها في حنايا قلبها. كان ينعشها مظهرها الفاتن، ذكاؤها الحاد وحيويتها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. فتحلق بآمالها إلى الآفاق البعيدة المنال أكثر من أي زمن آخر. خيّل إليها أن القدر منحها حق التوقع أكثر من غيرها من الفتيات ما دامت تتقدمهن في هذا المزايا وأن تنعم بالسعادة والهناء أكثر منهن.

رفضت الكثير ممن طلبوا يدها. كانت تنتظر فارس أحلامها يأتيها على غرار القصص ليحملها على جواده الأبيض المجنح ويطير بها نحو السحاب والكواكب الفضائية فيجتازها ليحط في نهاية المطاف في الجنة التي تطمح إليها و... أخيراً.. جاءها هذا الخاطب.

كان «بيجن» هو الخاطب الذي تنتظره، وسيماً، حسن الهندام، لبق الكلام و... معسول الوعود... إدعىٰ أنه مهندس قد عاد لتوه من باريس وأسرته تعيش في فرنسا ولم يعد يقطن في ايران أي من أقاربه ومعارفه. كان يتحدث باسلوب فصيح يذهل أسرة «بريجهر» البسيطة. كان «بيجن» يضحك مراراً في سره ساخراً من سذاجتهم. كان سوء الحظ قد ألقىٰ بالفتاة في طريق هذا الرجل الماجن القاسي.

أغرمت الفتاة بـ «بيجن» أيما غرام حتى عافت نفسها الدراسة والمدرسة. تركت الكتب جانباً وصارت تغيب عن المدرسة في أكثر أيام الأسبوع. تركت

معاشرة صديقاتها وصارت لا تتفاعل حتى مع أسرتها كما عودتهم من قبل. إنها لا تفكر إلّا به. شارع «نادري» وكافتريا «نوبخت»، شارع «لاله زار» ومتنزه المدينة، كلها شهدت لقاءاتها اليومية مع حبيبها. كان الشعور بالغرور يستحوذ عليها وهي تسير في الشارع جنباً إلى جنبه. لاسيما وأن «بيجن» كان يدفعها للاعجاب بعلومه (الوافرة!) بما يبذله من جهد لتلفظ بعض الكلمات الفرنسية أحياناً.

وحقيقة الأمر أنه لم يكن قد أتم دراسته في الدول الغربية بل لم يسافر إليها قط وحتى أنه لم يحرز أي مؤهل علمي ذي شأن يذكر. لقد كان أبواه يسكنان إحدى القرىٰ في ضواحي مدينة «كرج» غرب طهران. قدمهما «أكبر خان» صاحب تلك القرية إلى أحد أصدقائه الفرنسيين ليعملا خدماً في بيته مما وفر لبيجن إمكانية تقليد طباعهم وتلقف عدة جمل فرنسية بسيطة منهم. أحاطهما سادتهما الجدد بمنتهى الرأفة والمودة وأحسنوا إلى أبنائهما ولكن إساءة التصرف من قبل بيجن وسرقاته من بيت رب العمل دفعهم لطرد هذه العائلة ولهذا كانت أسرته قد نبذته منذ سنوات ولجأت إلى حيث لايهتدي إليها بيجن. مرت حوالي سبع أو ثماني سنوات على هذه الأحداث. كان بيجن يدير شؤون حياته بالاحتيال والابتزاز.. يتظاهر بأنه من الشخصيات الوجيهة التي اعتادت على ارتياد الدول الخارجية، فيبتز الفتيات الساذجات من بنات الأسر الثرية. أما موضوع «بريجهر» فقد كان من نوع آخر. عرف أنه من المتعذر ابتزازها إلّا أنه فكر أن يتسلىٰ بها فترة من الزمن. وكان قد عثر في ذات أيام انشغاله بـ «بريجهر» على فتاة ثرية أيضاً، وفر له استنزافها ظروفاً مالية ممتازة.

تمت مراسيم الخطوبة بينهما في ضيافة حضرها أقارب بريجهر ودون مشاركة حتى شخص واحد من أقارب الخاطب. كان يقول: «ماما وبابا في باريس ولا يسعهما المجيء إلى إيران لحضور حفلة خطوبة بسيطة، فالموسم الآن موسم العمل هناك. عاهدني (بابا) أن يزورنا في الصيف لحضور مراسيم

العرس. ماما تؤكد أن لا تقبل على شراء أي شيء ريثما يحضران وتقبل بريجهر من بعيد وتهنئ الجميع بهذه المناسبة، ثم أردف يوضح للمدعوين الذين أدهشهم، وبشدة، كلام هذا الخاطب المتغرب: لبابا مكتب محاماة هناك ولماما عملها أيضاً. لا يمكنهما الحضور في هذا الموسم. إنهما يلحان علي ان أسافر إلى هناك مع بريجهر لنعيش إلى جانبهما و...».

نفقات مراسيم الخطوبة أمنها والد بريجهر. لم ينفق بيجن كما قال أزهد مبلغ لأن (بابا وماما) قد أوصياه: لا تهدرا أموالكما. «أتركا المشتريات التي لا طائل لها في ايران سنبتاع كل شيء من هنا ونأتي به».

منذ ذلك اليوم لم يعد بوسع أحد أن يلقى «بريجهر» في البيت أبداً. كان «بيجن» قد استأجر شقة أنيقة يكثر إقامة المأدبات الفاخرة فيها على حساب الآخرين. أصبحت خطيبته الجديدة ترافقه فيها أيضاً. حذره أصدقاؤه الحميمون مراراً بالقول: «لا تتلاعب بعواطف هذه الفتاة. إنها تختلف عن غيرها من الفتيات اللواتي صحبتهن حتى الآن. إنها مولعة بك حقاً. إنها سوف لن تقاوم مصابها إن تركتها على حين غرة واختفيت. دعها تنساك. هناك الكثيرات ممن يستأنسن بصداقتك دون أن يولين الموضوع اهتماماً جاداً. ولك أن تستنزف منهن أموالاً طائلة. اترك بريجهر». ولكنه لم يكترث لهم وكان يجيبهم في كل مرة: «إنها فتاة كسائر الفتيات. ستنساني بعد فترة قصيرة».

كانت بريجهر تترقب موعد عرسها في الصيف فتركت المدرسة والتحقت باختها وانشغلت بعمل بسيط في ورشة الخياطة لتؤمن منه نفقات عرسها. كل ذلك كان يجري دون علم من بيجن لأنها تخشى أن يستحقر عملها. كانت تعمل في الورشة منذ الصباح وحتى العصر لتنطلق عصراً كالطائر المتحرر من قفصه فتلتحق بحبيبها. كانت الأشهر تمر على هذه الشاكلة دون أن يتحدث بيجن عن العرس. وقد اقترب الخريف وفي كل مرة يتشبث بيجن بحجة ما تتقبله الفتاة. كان ماهراً في سلبها لبها وفي ارغامها على الانصياع له نظراً لتمرسه

في هذا الاجراء. تعالت احتجاجات الأسرة تدريجياً ودب القلق في قلوب الصديقات اللواتي ما زلن على اتصال بها. ولكن أياً منهم لم يتجرأ على التحدث بشأن هواجسه مع بريجهر. كانت تحب بيجن بجنون وتقدمه على أي شخص آخر حتى أبويها. استمرت لقاءاتهما في الساعة الثالثة عصراً من كل يوم وفي المكان المألوف: ساحة الشاعر «فردوسي».

بدأ الرجل يشعر بالملل من علاقته المحفوفة بالمتاعب مع بريجهر فطفق يبحث عن زهرة أخرى يمتص رحيقها والفتاة غارقة في بحر أوهامها لا تشعر أبداً بشيء من هذا. فمهارة بيجن في أداء دوره ببراعة منعها من السماح لأدنى شك بأن يتوغل إلى قلبها حول حب بيجن لها.

وأخيراً اضطر بيجن للرضوخ لطلب الفتاة تحت وطأة إلحاحها وبكائها الدائم على أن يتم عقد قرانهما دون حضور أبويه. قررا أن يبرما عقد الزواج بينهما دون علم أبويه أو إقامة أية حفلة أو نفقة شيء من الأموال على أن تقام مراسيم العرس بعد قدوم الأبوين إلى إيران وأن يكتفيا فعلاً بالذهاب إلى كاتب العدل ليعقد قرانهما.

كانت الفتاة الفاتنة تنتظره كعادتها في الساعة الثالثة عصراً في ساحة الشاعر «فردوسي»، وهي ترتدي في ذلك اليوم البارد من فصل الخريف، معطفاً أحمر اللون، انيقاً وثميناً جداً. كانت تغطي رأسها بقبعة قطنية بيضاء صنعت له شفرات في منتهى الدقة والجمال حسب الموضة السائدة في تلك الأيام وتحمل بيدها باقة من أزهار القرنفل الحمراء.

ثورة صاخبة تعم وجودها: اللهفة، النشاط، الوسواس، القلق، الهياج، السرور، الضحك، البكاء، الخوف و... كلها مشاعر إنسانية تتأجج في وجودها وهي لا تعرف أهي مسرورة وبخير أم لا؟ بعد مضي ساعة ستصبح زوجة لبيجن ويتحقق أملها العتيق. كانت بريجهر تنتظر قدوم زوجها المستقبلي لتستعرض عليه ملابسها الفاخرة وهي حصيلة ما جنته خلال جميع أشهر

عملها في ورشة الخياطة. كانت قد انشغلت بمزاولة عملها ستة أشهر حتى تمكنت من شراء هذه الملابس وحذاء أحمر قانياً.

كانت تنتظر قدوم الشخص الوحيد في حياتها ليأخذها إلى جنة أحلامها.

اجتازت عقارب الساعة الرقم (٣)، ولم يحضر بيجن. لا بأس، لقد تأخر قليلاً.

دقت الساعة الثالثة والنصف. راحت تشغل نفسها بالنظر في واجهة المحلات حتى يلتحق بها.

الساعة الرابعة: سيحضر لا محالة. ربما أمر ما قد طرأ. اليوم يوم زواجنا، وهل يمكنه أن يتغيب؟

الساعة الرابعة والنصف: أنا واثقة أن لتأخيره دليلاً منطقياً.

الساعة الخامسة: لقد قلقت عليه. وهل يكون قد تعرض لحادث ما؟

الساعة الخامسة والنصف: إلهي! ما الذي حدث؟! إنه لم يتأخر على هذا النحو أبداً.

الساعة السادسة: ماذا أفعل؟ الأفضل أن أتجه إلى شقته لاستفسر عن حاله.

اتجهت مسرعة نحو محل سكناه في شارع «منوجهري»، لم يجبها أحد مهما قرعت الجرس. تملكها القلق. يداها ترتعشان. رمت باقة الورد جانباً وضغطت بأناملها المرتعشة على جرس صاحبة الدار. هبطت العجوز السلالم بتأن وفتحت الباب. سألتها الفتاة: عفواً يا سيدتي، أنا خطيبة المهندس. ألا تعرفين أين هو الآن؟

أجابت العجوز بأنفاس لاهثة ووجه شاحب منهوك تقاوم سعالها الممتد وهي تقول متأوهة والألم يعتصر قلبها: المهندس؟ المهندس ترك الدار ليلاً دون أن يدفع لي ايجار الشهرين الفائتين.

ثم ثار سعالها من جديد ولم تطق مواصلة الكلام فأغلقت الباب وانصرفت بينما بريجهر ترمقها بنظرات مبهوتة. إنها لا تصدق. صعقها النبأ ثم أثابت إلى

وعيها تدريجياً. لا، يستحيل، إنه غادر إلى مكان آخر بالتأكيد وسيخبرني عن ذلك. لقد ضيقت هذه العجوز ومنذ عدة أشهر الخناق عليه. لقد أخبرني مراراً أنه ينوي تغيير محل سكناه.

كانت تسعف نفسها بهذه العبارات وهي تتجه إلى البيت. لقد عجزت عن درك الحقيقة لأن ذلك كان يعني فناءها. فكرت في نفسها: سيأتي غداً بالتأكيد حسب الموعد وسيشرح لي كل شيء. سيقنعني وتعود المياه إلى مجاريها و...

وفي اليوم التالي كانت «بريجهر» تقف في الموعد المحدد وفي المكان المألوف مرتدية ذات الملابس وهي تنتظره ممسكة بباقة من أزهار القرنفل الحمراء. ولكن... قد يكون تعرض إلى حادث ما أو أنه الآن في ظرف حرج يتعذر عليه الاتصال.. سيأتي غداً.

توالت الأيام والأسابيع والأشهر ولكنه لم يحضر الموعد. واظبت بريجهر على الحضور يومياً لتنتظر حبيبها وهي ترتدي ذات الملابس. كانت تريده يلمحها من بعيد وهي ترتدي تلك الملابس، أجمل ملابس حياتها وأثمنها. لم تيأس من مجيئه. كانت تحضر الموعد يومياً ولم تتغيب ولو ليوم واحد. استمرت هذه الحكاية ثلاثين عاماً.

منذ عشرين عاماً لم يعد أحد يراها. ربما أصابها مرض ما ألزمها الفراش أو أنها ماتت أو... ومن يعلم ربما حضر بيجن الموعد ذات يوم!

ضحايا سوء الظن

كانتا تعيشان معاً منذ أن رحل أبواهما عنهما. خولهما وضعهما المالي ان تواصلا العيش دون معونة أحد. الأمر آنذاك تحدد بإلحاح الأقارب على أن تعيشا في كنف أحدهم. لكن اقتراحهم لم يرق لـ«بهناز» الأخت الكبرى وهي في الثامنة والعشرين من العمر. ولما كانت تتعهد بمسؤولية اختها «مهناز» ذات الستة عشر عاماً، انتهى القرار إلى ان تعيشا معاً في بيت أبيهما تحييان ذكرى فقيدهما العزيز. باع عمهما «محمود» محل أبيهما وأودع مبلغه في حساب الودائع الطويلة الأمد في المصرف وباسم كلتيهما لتتقاضيا عنه مرتبهما الشهري دون متاعب وتواصلا الحياة براحة.

لم تكن بهناز تطيق العمل خارج الدار لأنها أساساً إنسان متقوقع ولها عقائد خاصة بها. لم ترغب في البحث عن العمل رغم حيازتها شهادات تأهيل مهني عديدة في الخياطة، التطريز و... كانت تشغل نفسها بالأعمال الفنية في الدار فتعد لوحات جميلة بين الفينة والأخرى ليعرضها أحد الأقارب للبيع وكان صاحب محل لبيع المنتوجات اليدوية. قلما تبادلت الزيارات مع الآخرين وعلاقاتها مع صديقاتها الحميمات قد انقطعت منذ سنوات خلافاً لمهناز، فقد كانت على اتصال مع مجموعة من صديقاتها في إطار صداقات يتحدد مجالها بخارج الدار لأن هذه الصداقات وتبادل الزيارات أمور لا تحبذها بهناز. في البدء حاول الأقارب استدراجهما نحو معاشرة الناس ولكنهم تركوهما وشأنهما

عندما لاقوا العزوف من الفتاتين ثم أن العادة جرت على ازدحام المواسين والمتهافتين على خدمة الإنسان في بحبوحة الحوادث ثم يتم تناسي العهود والوعود بعد مضي فترة من الزمن. فالجميع ينشغلون بأمورهم الشخصية و... يدرج الموضوع في سجل النسيان وتعود الأمور إلى ما كانت عليه سوى الوضع المتأزم للمنكوبين.

كانت الأخت الصغرى تستأنس المعاشرة والاختلاط بالأقارب ولكن مقاليد الأمور بيد بهناز باعتبارها الأخت الأكبر والأكثر ذكاء إلى جانب تمتعها بالإرادة والصرامة مما يخولها رسم الخطوط العريضة لحياة أختها الصغرى. كانت مهناز منقادة ليس لها أدنى دور في تحديد نهج حياتها فعندما تعارض أمراً ما بعض الأحيان تقنعها أختها بذكائها الحاد وأدلتها الدامغة بأنها على خطأ والصواب هو ما ينطوي عليه رأيها هي. قضت مهناز السنتين المتبقيتين من دراستها الثانوية وهذه الارتباطات الاجتماعية تشحنها بالأمل وبحيوية نسبية. ولكنها ما لبثت أن أتمت المرحلة الثانوية والتزمت الدار إلى جانب أختها التي صارت تتمادى في بثها أفكارها الغريبة تدريجياً حتى غدت هي الأخرى انطوائية منزوية. وبمرور السنوات كفت الأختان عن الارتباط حتى بالجيران. وفقدت مهناز صديقاتها الثلاث اللواتي احتفظت بهن منذ مرحلة الثانوية بسبب تصرفات أختها وتعاملها المشين معهن.

كانت المسكينة لا تتجرأ حتى على الاعتراض إزاء الأخت الكبرى المتطبعة منذ الصغر بالانطوائية وبقلة الكلام. كانت هائمة في أفكارها في أكثر الأوقات. حباها الله بذكاء عال وبمواهب فنية أيضاً ولكن رغبتها في الشؤون الغيبية مثل الحاسة السادسة، علم النجوم، التفؤل، الشعوذة و... تجاوزت الحد المألوف. كانت منشدة نحو القضايا الغيبية، لابد لنا من الاعتراف بأن بني الإنسان لاسيما النساء يسرهم أن يتقصوا مثل هذه المعلومات كتسلية عابرة ثم يتناسونها وتعود حياتهم إلى مسيرتها المنطقية. لكنها لم تكن هكذا بالنسبة لبهناز التي

كانت تؤمن بمثل هذه السلوكيات وتحبها بولع. كان بوسعها اجتياز اختبار الانتساب إلى الجامعة بسهولة لولا هذه الأفكار والعقائد والانطوائية التي ألجأتها إلى زاوية الغرفة لتستغرق في مطالعة كتب سيكولوجية الظواهر الخارقة[١] والعلوم الماورائية وما كان التحاقها بالدورات الفنية إلّا تلبية لولعها بالفن أولاً ومن ثم استجابة لالحاح أمها الزائد ومع ذلك كانت تهمل الحضور في أغلب الأيام ولكنها كانت، بفضل ذكائها وقدرتها الواسعة على التعلم، تتعلم جميع الدروس التي يلقيها المدربون مكتفية بالكتب والموديلات والتمارين العديدة.

أبواهما كانا في فترة حياتهما يمنعان بهناز من التمادي في الاستدماج مع هذه الأفكار والمطالعات وقد خلا لها الجو الآن ولها أن تعيش كما يحلو لها. كانت تحب اختها كثيراً وتحرص عليها أكثر من حرصها على سلامة مقلتيها وهذا يجعلها تغالي في رعايتها وصيانتها فهي أملها الوحيد في هذه الدنيا. أحبتها على طريقتها الخاصة دون أن تدرك احتياجات اختها الصغرى أو أن تتفهم مطالبها ليكون بامكانها تلبية احتياجاتها. فتتصور أن ما تحبه هي تعتبره أختها مثالياً. وهذا ما ينبثق من حبها وتعلقها الشديدين بها رغم كونه أمراً غريباً. إنها مشكلة نواجهها يومياً في حياتنا. الأمهات يحبذن لأبنائهن الأطعمة التي يفضلنها والآباء يفرضون على أبنائهم مزاولة المهنة التي كانوا يطمحون إليها و... إن المحيطين بنا طيبون طالما يتماشون معنا وينصاعون لنا وما أن يتحدثوا عن آرائهم ويرفضوا آراءنا يتجردون عن طيبتهم. وفي مثل هذه الظروف تتبلور الخلافات.

لابد لنا أن ننظر إلى الحياة بمنظار الجانب الآخر. هل نحاول إطعام طير

---

١ ـ Parapsychology: فرع من علم النفس يبحث فيما لايمكن تفسيره بالقوانين العلمية الطبيعية مثل الاستشفاف والتخاطر وسواهما.

جميل نحتفظ به في البيت ونكرس له جزيل حبنا الطعام الذي نلتذ من تناوله رغم ولعنا بذلك الطعام؟ لماذا نطعمه «الحب»؟ لأننا ننظر إليه باعتباره طيراً.

فلماذا يا ترىٰ نتعامل مع أطفالنا وأبنائنا الشباب على نحو آخر؟ أو نتبع مع أزواجنا أسلوباً مغايراً؟ الدليل واضح.. الأنانية.

كان حب بهناز لأختها من هذا النوع. كان يخيل إليها أن الناس يتحينون الفرص للنيل منها وأنها سيؤمّنان راحتها وسلامتها كلما أعتزلنا المجتمع. كانت تؤمن بأنها ستصون حياتها بحصن منيع إن أوصدت أبواب الدنيا حولها. لا تفكر بما تقوله أختها لأنها قادرة بمنطقها المعزز وايضاحاتها الناشئة عن كثرة مطالعتها أن تقنعها بسهولة متى ما أفصحت مهناز عن اعتراضها. كانت قد نجحت في تحويل أفكار أختها إلى نسخة من أفكارها. شخصية الأخت الصغرى الأضعف بكثير من شخصية بهناز سلبتها قدرة تحدي أختها بل غدت هي الأخرى إثر تلقيناتها المتواصلة ضحية تلك الأفكار العجيبة والغريبة. منذ سنة وهما تعلقان ستائر سميكة على النوافذ من مغبة تسلل نظرات غامضة إليهما وخط الهاتف مقطوع منذ أشهر بسبب امتناعهما عن دفع الفاتورة فاستبشرا خيراً بذلك ولم تريا وجود ضرورة لاستعادته.

كانت بهناز قد فرضت حظراً على التلفاز والمذياع لأنها ترى أنهما يبثان كلاماً موجهاً إليهما. كانت تقول: «مهناز يا عزيزتي، لو امعنت في كلام المذيع فسيتضح لك أنه كان يقصدنا في كلامه. إنه ينوي تمرير خطط أفراد معينين بشكل أو آخر ضدنا». ومهناز تصدق كلامها دون أي نقاش. كانتا تتركان الدار سوية مرة واحدة فقط في كل أسبوع. تخرجان في الصباح الباكر وتبتاعان مستلزماتهما على عجل وباعتماد الحيطة لتعودا بسرعة فائقة إلى الدار.

كان سقف زاوية إحدى الغرف ومنذ عام كامل يتقاطر ماء أثناء هطول الأمطار والثلوج لكنها لا تثق بأي شخص لتستدعيه لاصلاح الوضع. منذ سنتين ومكيف الهواء عاطل عن العمل ولكن بهناز لا تثق بأي عامل تصليح

بل تتصور أن ذوي النوايا الخبيثة قد تلاعبوا بـه ليشـقوا طـريقهم إلى الدار ويسببوا لهما المضايقات بحجة تصليحه. كانت حالة بهناز المرضية تتفاقم بمرور الزمن ولكن قوة شخصيتها حدت بها للتأثير في أختها الصغرى وفرض قيود تلقيناتها وأفكارها السقيمة عليها. خمسة أعوام مرت على مهناز بعد حـيازة شهادة البكالوريا. ولكنها كانت تفر من كل شيء وكل شخص وكأنها إنسان آلي يؤدي مهمته تحت إشراف أختها. منذ فترة وهـي تـفكر: مـاذا دهـاني؟ ولكنها ما أن تتفوه بهذا الكلام حتى تلاقي مجابهة شديدة من مهناز فـتسارع للاعتذار دون تلكؤ وتعود المياه إلى مجاريها. كانت تنصاع لاختها رغماً عنها لأنها تعلم جيداً أنها مأواها وملجأها الوحيد.

حدث مراراً أن تصاب إحداهما بمرض جسـمي. في مـثل تـلك الظـروف ترفض بهناز مراجعة الطبيب بل تحاول معالجة نفسها أو أختها بـاللجوء إلى كتب الأعشاب الطبية والشعوذة والطلاسم التي تملكها. ولكن.. لم تتماثل مهناز في هذه المرة إلى الشفاء رغم مرور فترة طويلة على مرضها.. منذ شهر تعاني من حمى دورية، آلام قاسية وانخفاض ملحوظ في الوزن أدت جميعاً إلى انهيار قواها.. لم تجد معها أساليب أختها العلاجية.. ومع هذا لا تكـف بهـناز عـن إلحاحها في تطبيق هذه الأساليب. وأخيراً طرق الجيران بابهما إثر سماع صوت التأوهات والمناقشات الطويلة بين الأختين والمتعالية أحياناً. ألحوا على بهناز وهم يرون مهناز على تلك الحال ليتوجهوا بها إلى الطبيب. وعندما واجـهوا اعتراضها أرغموها أخيراً أن تبلغهم رقم هاتف عمها «محمود».

صحب العم محمود مهناز إلى الطبيب.. لقد شخص الحالة على أنها الحمى المالطية وأنها بحاجة إلى الرقاد في المستشفى.

كان الطبيب الأخصائي بالأمراض الحموجية (العفونية) قد لاحظ أفكارها وعقائدها الغريبة فطلب مني إجراء الفحوصات للـفتاة. أثـبتت الفـحوصات معاناتها من حالة الجنون الثنائي. أبلغت عمها أني بحاجة للقاء بهـناز لأقـيم

وضعها فنجح في أداء مهمته رغم عسرها.. استطاع أن يقنعها بالمجيء بحجة ضرورة لقائي معها لتستمع إلى تقرير حالة أختها فرضخت له. نتائج الفحوصات والاختبارات المطلوبة أشارت إلى ابتلائها بمرض هذائي.. وهكذا رقدت بهناز أيضاً في المستشفى.

ونفاس «الجنون الثنائي» يحدث نتيجة انتقال الأفكار الهذائية (الغريبة) بين شخصين وثيقي الارتباط، من شخص يعاني من هذه الأفكار إلى الآخر. إنها حالة نادرة تحدث في أكثر الأحيان لشخصين وربما لأكثر من شخصين، حيث وردنا تقرير عن تبلور هذه الحالة لدى جميع أعضاء عائلة تتكون من إثني عشر عضواً.

والإناث لاسيا من الفئات الاجتماعية والدراسية المتدنية أكثر عرضة لهذا الاختلال. ولكن هذا لا يمنع ظهوره بين جميع الفئات الاجتماعية والدراسية. والمعانون من هنات جسمية أكثر عرضة لخطر الإصابة به لتسببها في اعتمادهم على الغير.

السبب الأساسي للإصابة بهذه الحالة هو وجود شخصية قوية ومهيمنة في جانب وشخصية ضعيفة ومنقادة في جانب آخر فيتم انتقال الأفكار من الجانب الأقوى المصاب باختلال نفسي مسبق أحد أعراضه الهذاء والأفكار الغريبة، إلى الأضعف خلال علاقة وثيقة تتسم بالعزوف النسبي عن العالم الخارجي. والعرض الأساسي فيه هو الانقياد العشوائي لهذاءات الجانب المهيمن، هذاءات تتمحور حول إساءة الظن أو تخيل إصابة الذات بالأمراض وتكون مصحوبة عادة بأعراض اختلالات مسبقة في الشخصية.

تركت مهناز المستشفى في نهاية الشهر الثاني بعد تحسن وضعها العام واستغرق علاجها الدوائي والنفسي سنة كاملة حتى أثمرت النتيجة المتوخاة التي مكنتها من العودة إلى الحياة الاجتماعية. أما الأخت الكبرىٰ فقد استوجبت حالتها البقاء مدة ثلاثة أشهر في المستشفى ثم بدأنا بإجراء العلاج النفسي لها

إلى جانب مواصلة علاجها الدوائي. مرت خمس سنوات على ذلك الزمن تزوجت خلالها مهناز ولها ابن يبلغ ستة أشهر من العمر. إنها تتمتع بحياة طيبة. لقد انشغلت بابنها الصغيرة «آرش» وبرعاية زوجها. أما بهناز فقد انتقلت بعد ترك المستشفى للسكن في الطابق الثاني من دار عمهما.

كانت في تلك الأيام تعيش واختها تحت إشراف أسرة عمها ثم عادت بعد زواج مهناز للعيش منفردة في ذات الطابق، وكما سلف، تحت إشراف العم محمود. إنها ما تزال تتعاطى الأدوية والعلاج النفسي. ومع هذا فقد عاد سلوكها إلى حالته الطبيعية تقريباً. إنها تصدف عن الزواج وتشغل نفسها بالأعمال الفنية. وصار لها عدد محدود من الصديقات. عادت حياتها لتتسم إلى حد مقبول بالطابع الاجتماعي. لقد تمكنت من خلال جهودي التي بذلتها أن أنقل طاقتها النفسية العارمة من التركيز في الأفكار والعقائد الخرافية والماورائية لتنفس عنها في مجال الفنون والآداب. إنها تكرس وقتها الآن للأعمال الفنية وفي مطالعة الكتب الأدبية وتحقق عن هذا الطريق وتحت اشراف زوجة عمها عائداً جيداً لابأس به. ومع كل هذا ما زالت تعتقد بان مهناز أخطأت بزواجها، لأن الرجال.. كلهم أنانيون.

السيدة متوعكة وليست مخبولة

لا يتمالك الناس أنفسهم من الضحك عند مواجهة إنسان أصم، ولكنهم يذرفون الدموع على البصير. تثار مشاعر تعاطفهم إزاء المصابين بالأمراض الجسمية إلّا أنهم لا يشعرون عادة بمثل هذه الأحاسيس إزاء المعانين من حالات نفسية بل ربما يسلكون معهم سلوكاً مهيناً. وقد يسخرون منهم أو يندفعون لتسديد النصائح إليهم بان: تمالك أعصابك، أترك هذه الفعال والأقاويل جانباً و...، لأنهم يحسبون حالتهم استعراضاً تمثيلياً لا غير وأنه يتم بمحض ارادتهم. ولكنهم.. على خطأ بالتأكيد.

لابد لنا جميعاً أن نثق أن الحالات النفسية وكما هو حال المصاب بالحمى الذي يتعذر التغلب على ارتفاع حرارته بالنصائح أو العقاب وليس من شأنه قتل الجرائيم المتحاملة على دمه بقوة ارادته أو بانفعاله، فإن المصاب بها لا يمكنه هو الآخر كبح حالته بهذه الأساليب. إنه بحاجة إلى معالجات عملية ودوائية بالضبط كالمصاب بمرض جسمي، فحالته تشبه تماماً الآلام الجسمية لأنها تنشأ عن اختلال في وظيفة الخلايا الدماغية لا يعالج بالنصائح والإرشاد.

قالت السيدة الشابة باكية: يا دكتور، لقد سئمت من الحياة، من زوجي، من أطفالي، وحتى من نفسي. كنت سأنقذ نفسي من وبال هذه الحياة المقيتة لولا خشيتي من الله. ماذا أفعل؟! إنني أخاف نار جهنم. أخاف سخط ربي. صرت أتهرب من جميع أهلي وأقاربي لكثرة ما تعرضت له من سخرية زوجي

ونصائح الأهل والأصدقاء. إنه أمر يخرج عن نطاق ارادتي. يخيل إلي بأن الوساخة قد عمت كل شيء. أقضي وقتي منذ الصباح وحتى المساء وأنا أغسل وأنظف دون أن أتوصل إلى قناعة كأن القذارة قد استفحلت في كيان جميع الأشخاص والأشياء التي تحيط بي وأن التنظيف لا يجدي نفعاً. بلغ وسواسي حداً بحيث أنني أغسل على الدوام حتى الأدوات الكهربائية. تهرأت السجاجيد وملابسنا أيضاً. لم يعد لابنائي ملابس جيدة يرتدونها. أغسل كل ما أشتريه من الملابس فور عودتي من السوق، وقبل كل شيء، لأقتنع بإمكانية ارتدائها. لا أتجرأ على استضافة أحد في دارنا. القلق والاضطراب يخيمان علي منذ أسبوع قبل الموعد. كلما اضطررت لإقامة مأدبة طعام يصيبني الأرق. حتى الضيوف يتنبهون لما يعتريني من توتر ووسواس فيسيء إليهم ذلك مما يدعوهم للانصراف دون رجعة.

الأنكىٰ من ذلك أن الرزية العظمىٰ تبدأ بعد انصرافهم، فكل شيء لابد أن يُغسل: السجاجيد والبسط، أدوات المطبخ وحتى الأدوات الكهربائية وقطع الأثاث. أشعر أنني أعرض أسرتي للعذاب. ولكن ماذا أفعل؟ إنني أعجز عن ضبط نفسي. كل هذه الأعمال أقوم بها دون تعمد. اضطر لغسل الغسيل المعرض للهواء إن ارتطمت بها يد. لم يعد لدينا أية شراشف جديدة، لقد تهرأت لكثرة غسلها. لابد للأطفال أن يخلعوا ثيابهم عند العودة من المدرسة والتوجه فوراً إلى الحمام. والوضع هكذا بالنسبة لزوجي أيضاً. كره الجميع الماء والحمام. أطفالي أصيبوا بالاكتئاب والانفعال. زوجي صار يتفوه عند تحدثه معي بأكثر الكلمات استخفافاً واستهانة. أصبح يكرهني. لا أعلم؟ لا أعلم ماذا أفعل؟ بالله عليك خذ بيدي. سيؤول مصير كل شيء إلى الفناء.

ألقت إليّ نظرة. كانت المسكينة تستغيث كالغريق وهو ينغمس في الماء.. كانت تستقر على أريكة العيادة وكأنها مرغمة على الجلوس عليها كيفما يمنع تلوث ملابسها. يخيل للناظر إليها أنها تجلس على صندوق مفرقعات.

ـ كم سنة مضت على معاناتك من مرض الوسواس يا سيدة «محمودي»؟

ـ حوالي ثماني سنوات.

ـ وكم يبلغ عمرك الآن؟

ـ ثلاثة وثلاثين عاماً.

ـ أي منذ كنت في الخامسة والعشرين؟

ـ أجل يا دكتور، بالطبع كنت أعتني بالنظافة كثيراً قبل ذلك، ولكن ليس إلى هذا الحد. أي أنني كنت في الواقع اعتبر ربة بيت منتظمة ومنضبطة. لكل شيء في حياتي نظامه. ولكن الأمر لم يعد على هذا المنوال. أتمادىٰ في التفكير بالنظافة حتى صار يسلبني فرصة إعداد طعام مناسب أو الاهتمام بدروس أطفالي أو قضاياهم العاطفية أو تلبية احتياجات زوجي. لم أعد أهتم بنفسي أيضاً، فكيف بالآخرين؟ صرت على صعيد علاقاتي الاجتماعية أتهرب من الآخرين. أتراجع إلى الوراء إن عزمت سيدة على تقبيلي فيتصورن أنني استنكف منهن في غفلة منهن عن دافع تصرفي.

ـ أتعنين أن تفكيرك بالنظافة والطهارة صار يسلبك القدرة على أداء واجباتك؟

ـ بالضبط يا دكتور. إنني أعجز عن ضبط نفسي. الأفكار تداهمني دون ارادتي، دون أن أقوى على تحديها. تراودني رغماً عني وأنا واثقة من خطئها. أعلم أنني على خطأ في تصوري بأن الوساخة تعم الجميع أو أن كل شيء ملوث. ولكن فكرة احتمال مثل هذا الشيء تسلبني الراحة والهدوء على مر اللحظات.

***

يعتبر مرض الوسواس من أكثر الأمراض النفسية شيوعاً ويتمحور عادة حول النظافة وعدمها، ولكن قد تظهر حالات أخرى منه. مثل ضبط الأمور

والأشياء فيتخيل المـريض أنه لم يغلق صنبور الغاز في منزله فـيعود إلى داره ثانية بعد أن قطع مسافة كيلومترات مبتعداً عنها. والوسـواس الفكـري هـو ضرب آخر من ضروب هذا المرض. في هذا النوع من الوسواس يفكر الفرد باحتمال وقوعه في الخطأ عند القيام بعمل قام به ويتمادى في التفكير حتى يضطر لإهمال حياته بأسرها. التقيت ذات مرة سيدة مصابة بهذا النوع الأخير مـن الوسواس. كانت هذه السيدة تتصور أنها عندما كانت تعمل مربية أطفال إبان إقامتها في كندا، لم تحسن الاعتناء بأحد الأطفال المرضى. وهذا مـا يـعرضها لعذاب الضمير بشدة لأنها ترى أنها تستحق العذاب والعقاب.

عندما شرحت لي طريقتها في الاعتناء بتلك الطفلة الصغيرة تنبهت إلى أنها لم تسئ العناية بها بل برعت في أداء واجبها. كانت تعجز عن نبذ هذه الأوهام رغم أن منطقها كان يستوعب ايضاحاتي ويصدقها. والآن كنت أواجه حالة أخرى.. وسواس النظافة.

يصنف هذا المرض إلى قائمة الاضطرابات النفسية التي تظهر عادة في أواخر العقد الثاني. وتستمر طوال العقد الثالث من العمر. وتصاب به الإناث أكثر من الذكور. يذهب الباحثون إلى احتمال تدخل عدة عوامل في بروز هـذه الحـالة المرضية: الوراثة، الطفولة المشحونة بالاضطراب، لاسيما في الفترة ما بين السنة الأولى والثالثة من العمر و...، والأمر الذي تجتمع آراء أكثر العـلماء في مجـال الطب على القول به هو وجود فترة في ماضي المريض صاخبة بالتوتر أو بمعاناة نفسية أو جسمية. أي أن الإصابة تبدأ لديهم بعد اجتياز مرحلة شاقة مـثل مرض جسمي مضن أو مخاض عسير. وربما أزمات نفسية مبرحة وحادة. كما يتم التأكيد على تعرض ذوي التاريخ الأسري المتضمن لمثل هذه الأزمات إلى الحالات المذكورة أكثر من غيرهم.

تمحور سؤالي التالي حول هذا الموضوع. فأجابتني: أجل يا دكتور، لقد ولد طفلي الثاني بعد مخاض عسير جداً. تحملت آلاماً فظيعة لمدة أربع وعـشرين

ساعة حيث تعذرت الولادة الطبيعية. كنت أخاف الجراحة والتخدير. قبل أشهر من ذلك أجرت إحدى صديقاتي جراحة للمعدة ولكنها لم تعد إلى وعيها. كانت قد توفيت. يقال أن أخصائي التخدير هو المسؤول عن وفاتها. كنت أخاف أن لا أعود إلى وعيي أبداً بعد التخدير. والولادة الطبيعية بدورها كانت غير ميسورة. قال الأطباء أن الحوض صغير والطفل أكبر حجماً من الحد المألوف ولابد من إجراء الجراحة.

التزمت السيدة الشابة الصمت هنيهة. كأن أنفاسها تحشرجت في صدرها. أخرجت عبوة الماء من حقيبتها وتناولت جرعة منه. تحسن حالها قليلاً. فاستطردت قائلة: لم تتوفر في المدينة التي كنا نسكنها امكانيات التخدير النخاعي أو الموضعي. تحتم إخضاعي للتخدير العام. كنت أعارض ذلك. لا تعرف يا دكتور، أي وضع تحملته خلال الأربع والعشرين ساعة. الآلام الفظيعة من جهة ورهبة التخدير وهواجس تعرض الجنين للسوء إثر تأخر الولادة، من جهة أخرىٰ، أمور انهكتني، آه، يا لها من ساعات. اضطربت غرفة العمليات، إشارة الجهاز إلى تباطؤ نبض قلب الجنين أشعرني كأن قلبي أنا في طريقه إلى التوقف عن العمل. على أية حال، أبت نفسي التلاعب بمصير طفلي فرضخت للتخدير بعد أربع وعشرين ساعة. ولكن في أية حال؟.. اتخذت هذا القرار وأنا قد نفضت يدي من الأمل في الحياة. قلت في نفسي لينجو طفلي. كنت قد ضحيت بروحي. طلبت لقاء زوجي وأخبرته بوصيتي. ذكرت الشهادتين و.. تم تخديري أخيراً.

رغم انني عدت إلى وعيي والطفل أيضاً ولد متمتعاً بالصحة والسلامة وكل شيء يسير على ما يرام إلّا أنني كنت أعاني من حالة غير طبيعية لفترة طويلة. كنت أشعر كأنني عدت من العالم الآخر. صرت منذ تلك الأيام وحتى الآن أشعر بضرورة توخي الحذر والاحتياط مع كل شيء لأنني أشم رائحة غرفة العمليات الجراحية من كل شيء وأحس كأن القذارة قد عمت كل شيء يحيط

بي. ربما يعود ذلك إلى أن الممرضات أخبرنني مراراً أن سلي الجنين قد تمزق وقد تلوث الطفل بالجراثيم أو لشدة ما عانيت من نزف متواصل تلوث إثره كل شيء أو إلى ما لاحظته من انتظام ونظافة جميع المحيطين بي والبادية على ملابسهم النظيفة فلقنتني هذه الحالة فكرة حتمية التخلص من القذارة بأساليبهم. لا أعلم، لا أعلم. تذكرت تواً إثر سؤالك عن هذا الموضوع أن مثل هذه التصرفات لم تصدر عني قبل ذلك.

ـ اتخذت أياً من الأساليب العلاجية إلى الآن؟

ـ إنها في الحقيقة المرة الأولى التي أراجع فيها طبيباً نفسانياً. إنني لست مخبولة. سأصبح أضحوكة لأقارب زوجي مستقبلاً ثم أنني أتحسس من الأدوية الكيميائية. أرىٰ أن هذه الأدوية تضرني. ومع هذا اقتنعت عدة مرات بضرورة مراجعة أخصائيي الأمراض الباطنية وقد أوصوني بتعاطي أدوية معينة، كانت تشعرني بالدوار والنعاس أكثر من العلاج ولهذا تركت تعاطيها فقد كان يتحتم علي إدارة شؤون معيشتي ولا استطيع أن أقضي وقتي كله في النوم. زوجي أكثر الشكوى بأنني أنام جل وقتي كالمدمنين و...

ـ حسناً، لنفرض أنني كتبت لك وصفة وسلمتها لك، ماذا ستفعلين؟.

ـ لا أعلم. سأتناولها شرط أن لا تشعرني بالنعاس.

ـ وإن اشعرتك الأدوية بالنعاس؟

ـ سوف لن أتناولها.

ـ وماذا عن العلاج؟ أتنوين أن تتركي نفسك تكتوين بهذه النار، متجلدة، صابرة على رؤية كل شيء يفنى على مرأى منك؟

طأطأت السيدة رأسها وقالت بصوت بائس: «لا أعلم».

رأيت أن الصواب أن ألتقيها خلال جلسة أخرىٰ مع أسرتها. كان زوجها، كما وصفته، رجلاً واعياً من العاملين في سلك التعليم، وأمها ذات تأثير واضح فيها ولهذا طلبت منها مرافقتها في الجلسة التالية عساني أتوصل في جو أسري

ايجابي إلى معالجتها بدعمها لي ومساهمتها في ضبط الوضع. حددت لها موعداً في الأسبوع القادم بعد احراز موافقتها. كنت قد نجحت في نيل ثقتها في هذه الجلسة وهذا ما أشعرني بأنني تقدمت خطوة ثمينة إلى الأمام.

***

كنت أرىٰ أمامي رجلاً وقوراً في متوسط العمر، قضى عشرين سنة من عمره على الأقل في تعليم وتنشئة أبناء بلادنا. وفي الجانب الآخر سيدة في حوالي الخامسة والخمسين من العمر. تبدو عليها وإلى حد بعيد إمارات الشفقة والرأفة والوعي التام بمشاكل ابنتها. كان كلاهما قد تقبل دعوتي.

شرحت لهم في ذلك اليوم مسببات مرض الوسواس وطرق علاجه. لم تقتض الضرورة تعريف المريضة نفسها على مسببات ونوع ومسار مرضها بل تعدتها إلى اطلاع مرافقيها على ذلك أيضاً، لأن مؤازرة أعضاء الأسرة وتشجيعهم يلعب دوراً هاماً في نجاح العلاج. والعكس صحيح أيضاً. أي أن اعتراض المحيطين بالمريض وإهمالهم له يؤدي إلى تهاون المريض بعلاجه أو تركه له أساساً. أوضحت لها أن هذه الأحداث تتسبب في هبوط منسوب مادة «السروتنين» في دماغ الوسواسيين. وصنع العلماء أقراصاً تمد جسم المريض بهذه المادة بالضبط كما يتعاطى المفتقرون لفيتامين ما، أقراص المولتيفيتامين. والأقراص المضادة للوسواس وإن كانت تشعر متعاطيها في بداية الأمر بالترهل، الدوار وحتى النعاس. ولكن تحمل أعراضها الجانبية يتيسر للمريض بعد فترة من تعاطيها فتضمحل هذه الأعراض وقد تختفي تماماً في الكثير من الحالات.

لابد أن نستبشر خيراً بتلك الأعراض الناشئة عن تعاطي الأدوية وأن نحسبها مؤشراً لحسن تأثير الدواء تماماً كما يصاب متعاطي اللقاح بالحمىٰ كمؤشر على تفاعل اللقاح.. أكدت لهم أن هذه الأدوية ليست مما يدمن عليها

المريض كما أنها لا تأتي عليه بأعراض جانبية خطيرة. مع أن عدم تعاطي الأدوية أفضل من تعاطيها ولكن منافع هذه الأدوية هي أكثر بكثير من أعراضها الجانبية إلى جانب كون تحمل نمط حياة السيدة محمودي أكثر قساوة من تحمل نار جهنم. لابد من انقاذها والسبيل الأصلي لذلك هو تعاطي هذه الأدوية. ثم أوصيتها بمطالعة كتاب تم اختبار أثره الفاعل ودوره المؤثر في توجيه المريض نحو تنفيذ تمارين تعينه على التغلب على الأفكار الوسواسية عند تحاملها عليه. كان الكثير من مراجعيّ يعربون عن رضاهم من تنفيذ تمارينه. ثم نصحتها أن لا تكتفي بهذه الأمور بل لابد لها من ممارسة الرياضة لنصف ساعة أو ساعة يومياً بهدف تعزيز قوة إرادتها. ثم ارتأيت في نهاية المطاف أن أزف لهم البشرىٰ بأن السيدة «محمودي» مصابة لحسن الحظ بلون من حالات الوسواس يتفاعل ايجابياً وعلى خير وجه مع العلاج وإننا سنواجه بعد ستة أشهر إن شاء الله، فيما لو تم تنفيذ العلاج بشكل دقيق، سيدة هادئة وطبيعية جردت عن نفسها هواجس النظافة والقذارة.

قالت السيدة محمودي وأنا أشعر بقلبها يخفق وجسدها يرتعش لفرط سرورها: إن شاء الله يا دكتور، كنت قد يئست من الشفاء.

ثم استطردت: أرجوك أن تقول لزوجي أن يقلص من توقعاته مني عندما أتعاطى الأدوية وليتحملني فترة أخرىٰ لعلني أشفىٰ بفضل من الله ومنك.

لم يترك لي السيد محمودي فرصة للتحدث فأجاب زوجته بنفسه وهو ينظر إليّ: لم يكن رأيي أساساً يدور حول مثل هذه الأمور. أنا لا أعارض معالجتها بل أقاسي من إهمالها للعلاج. تصور، هذه السيدة ما زالت منذ ثماني سنوات تعذب نفسها وتعذبنا دون أن تفكر بمراجعة طبيب نفساني. كلما طالبتها بذلك، تجيبني: وهل أنا مخبولة.؟ تراجع بين الفينة والفينة أخصائيي فروع الطب الأخرىٰ يصفون لها أدوية أعصاب. من البديهي أنها لا تنفعها في العلاج من هذه الحالة. حسبك أن الأطباء أنفسهم أوصوها مراراً بضرورة مراجعة طبيب

نفساني. ولكنها بعد الحاح طويل تأخذ عنهم وصفة. إنني يا دكتور، أعنف عند مواجهة هذه المواقف. وهل يوجد رجل يروق له رؤية زوجته تعاني من مرض وأطفاله يتجرعون هذا الوضع؟

لقد صدق في كلامه. إن أكثر الأسباب شمولية في امتناع المرضى النفسانيين عن العلاج هو بالضبط الاعتقاد السائد بين عامة الناس على أن مراجعي الأطباء النفسانيين هم مجانين أو مخبولون. إن ارتفاع المستوى الثقافي والمعلوماتي للناس بنسبة كبيرة في الوقت الحالي فند التصور بأن من يراجع طبيباً نفسانياً مجنون أو مخبول نفساني فاصطلاح النفساني الذي يرادف المجنون في بعض اللهجات العامية لا يطابق مفهومه العلمي. إن هذه الكلمة في واقع الأمر تتعلق بمن يعاني من أحد الاختلالات النفسية على اختلاف درجاتها المتراوحة من الطفيفة وحتى الحادة جداً وتتركز ٩٠٪ أو ٩٥٪ منها في أعراض الأنواع الطفيفة أو المتوسطة. وتتضمن حالات: الاضطراب، الاكتئاب، الوسواس، الأمراض النفسية ـ الجسمية، القضايا الجنسية، اختلالات الشخصية و...، وهذه الحالات وإن اتسمت بحدتها فإنها لا تدخل في إطار الحالات التي يطلق عليها العامة الجنون أو الخبل. فهذه الحالات تشكل أقل من ٥٪ من الأمراض النفسية. وهذه المجموعة الأخيرة هي الأخرى يمكن علاج ٨٠٪ منها بالأساليب المستحدثة. ثم أننا جميعاً نتعرض في حياتنا إلى قضايا تؤلم روحنا ونفسنا فتقتضي الحتمية عندئذ مراجعة طبيب نفساني أو محلل نفساني أو خبير نفساني بفواصل زمنية معينة للتغلب على هذه القضايا. فمراجعة الطبيب النفسي يعجل معالجة تلك المشاكل قبل ابتلائنا بالعقد النفسية التي تمثل فيما بعد النواة الأساسية لمرض نفسي. اعتادت شعوب البلدان المتقدمة في الوقت الحالي أن يحدد كل فرد منها طبيباً مشاوراً في القضايا النفسية ويحسبون ذلك مزية تزيد من ثقلهم الاجتماعي مقارنة مع الآخرين.

شرحت لهم كل ما كان يدور في خاطري حتى غدت المريضة وكذلك

أسرتها على أهبة الاستعداد لتحطيم طوق وسواس السيدة «محمودي».

أحسنت السيدة الشابة وإلى حد بعيد التفاعل معي لسنة كاملة وكان زوجها يحثها برأفة وبأكبر قدر من الشعور بالمسؤولية على مواصلة العلاج وهو يراها تحرز تقدماً ملحوظاً. لقد تماثلت للشفاء تماماً خلال الأشهر الاثني عشر الماضية. سمحت لها بقطع الدواء وسدّدت لها النصائح الضرورية في نهاية مرحلة العلاج. مرت على تلك الأيام ثلاث سنوات لم أعد أسمع أي نبأ عنها.. إنني كغيري من الناس أرى ان انقطاع الأخبار يدل على حسن الأحوال.

النجم السينمائي

شارك في مأدبة حضرها السيد والسيدة (ع) أحد نجوم السينما من ذوي الوجاهة الاجتماعية. كان صاحب المأدبة، وكما جرت العادة، يقدم الضيوف إلى البعض. من البديهي أن السيد الممثل كان يعتبر من أبرز الشخصيات التي حضرت تلك المراسيم. مجموعة كبيرة من الضيوف التفت حوله. والجميع كانوا يرغبون أن ينتهي بهم المقام إلى أقرب ما يكون إليه لنيل قسط أكبر من اللذة بكلامه. لم يقم له السادة وزناً ثقيلاً خلافاً للنساء فقد تهافتن عليه. أما الفتيات فحدث ولا حرج أخذن يتخبطن جاهدات لاستقطابه.

الحق يقال أن هذا الفنان كان رجلاً وقوراً وفي غاية الرزانة. لم يسيء الأخلاق والأدب قط. كان قليل الكلام، فمثل هذه الشخصيات يتسمون أساساً بحرصهم الشديد على وجاهتهم الاجتماعية لاطلاعهم بأنهم موضوعون وبقسوة تحت المجهر. ولهذا يحاولون تجنب التلاعب بمتاعب بذلوها على مر سنوات عديدة. زد على ذلك أنه كان رجلاً ناضجاً يبلغ من العمر خمسة أو ستة وثلاثين عاماً، لا تترك له أعماله ومشاغله التي انغمس فيها حتى فرصة التظاهر. كان ينعم بالاحترام البالغ والاطراء الوفير حتى سئم منهما.

أتذكر أنني سألت يوماً مخرجاً مشهوراً زارني بهدف المشاورة: لماذا تستعمل نظارة سوداء، ألا ترهق عينيك؟. أجابني: «يا له من عالم هزلي! نسعى للشهرة ما دمنا مغمورين ثم نجهد للتستر عندما ننال الشهرة». كان يعاني من الاكتئاب

الكبير.

تمحور الحديث في تلك المأدبة حول شخصية بطل فلم من أفلام الضيف العزيز، كانت دور السينما تعرضه في تلك الأيام وقد حظي باستقبال فريد. سئل وكيف تمكنت من أداء هذا الدور المتضارب مع شخصيتك؟. أجاب بتواضع: إنها على أية حال مهنتنا.. إننا نؤدي هذه الأدوار حباً لمهنتنا ورغبة فيها.

في هذه الأثناء قال صاحب المأدبة بسرور، وكانت تربطه بالممثل الضيف علاقة قديمة مضىٰ عليها تاريخ طويل: تذكرت أن أزف إليكم هذا الخبر السار. من المقرر أن تشارك ابنتي «سولماز» أيضاً في أحد أفلامه.

مع إعلان هذا الخبر زفرت بقية الفتيات زفرات حارقة.. ليتنا نحل محلها. وانطلاقاً من معرفته الواسعة بفنون علم النفس أيضاً، قال السيد الفنان على الفور: على أية حال، بوسع جميع الشباب والشابات من المدعوين أن يشاركوا في اختباراتنا لاختيار الممثلين. أتوقع أن يكون لكثير من الشخصيات التي التقيتها الليلة مستقبل زاهر في حقل التمثيل.

في أعقاب الضجيج الصاخب الذي أثير حوله، تم الاتفاق على أن ينتقي السيد الفنان بعد الفراغ من تناول العشاء أصحاب الوجوه التصورائية والموهبة الفنية، برأيه..

نفذت هذه المرحلة وتم اختيار مجموعة من الفتيات والفتيان وكذلك (سواء على سبيل الجد أم الهزل) عدة من السيدات والسادة.. وأحدهم صاحب المأدبة.. انفجر المدعوون ضاحكين وهم ينظرون إلى صلعته الظاهرة.. ومن بين المنتخبين كانت السيدة (ع).

انتهت مراسيم المأدبة في تلك الليلة بخير وسلام وترك المدعوون المكان وهم يحملون ذكريات طيبة عنها بعد أن تقدموا لصاحب الدار بالشكر وهنأوه ممازحين بمناسبة اختياره نجماً لامعاً! تم كل شيء على خير ما يرام.

أما السيدة (ع) فلم يغمض لها جفن في تلك الليلة. راحت تصطخب

الأفكار حتى الصباح، تسرح مع اقتراح السيد الفنان. كانت تتطلع بعناية وجدية إلى اقتراحه.. لم يكن ما شغلها تفكيرها بالتمثيل بل ايمانها الواهي بأن لحنه كان ينم عن شعور خاص ينبثق من ولعه. كانت ترى أن اقتراحه بشأنها لم يتماثل مع بقية اقتراحاته. عجزت عن الاستقرار في مكان واحد لشدة فرحها واضطرابها. خيّل إليها أنها كانت الوجه الفاتن الوحيد في تلك المأدبة وهذا ما اجتذب السيد الممثل إليها.

وفي صباح اليوم التالي طلبت من زوجها إقامة مأدبة فاخرة يدعوان إليها النجم السينمائي. وافق السيد (ع) على طلب زوجته وكان قد اعتاد أن لا يتناقش معها أبداً. استقبل الموضوع دون استغراب.

اقيمت مأدبة السيد والسيدة (ع) بعد عدة أسابيع ضمن مراسيم فاخرة منقطعة النظير، الغاية منها استضافة ذلك الفنان بالذات. أذهل التكلف وتصور النفقات المخصصة لهذا الحفل، المدعوين دون استثناء.. ومنهم السيد الفنان في غفلة منه بأن كل هذا إنما يستهدفه هو وأنه في اللقاء الأول إنما أعرب بنظراته ومن ثم بنمط سلوكه عن حبه الشديد للسيدة (ع)!! وهذا ما لم يتنبه له أحد سوى السيدة (ع) نفسها.. حتى السيد الفنان ذاته غفل عن ذلك!

بخلت شفتا السيدة (ع) في تلك الليلة عن اطلاق الضحكات أو البسمات وبدت أقل اندماجاً مع الآخرين حتى أنها أهملت إلى حد ما آداب الاستضافة وواجباتها إزاء الضيوف. تركز جل اهتمامها على ذلك الرجل. لكن السيد الفنان كان يجهل كل شيء.

وثقت السيدة (ع) منذ ذلك اليوم من أن الرجل يعرب عن حبه لها ولكنه التزم سلوكاً خاصاً للإعراب عن هذه القضية لتعذر إفصاحه عنها على مرأى الآخرين.

تنبه السيد (ع) إلى حد ما إلى مجريات الأمور ولكنه لم يلتفت إلى عمق القضية. وضعها على حساب إحدى خصائص زوجته النفسية. إنها تتصور أن

الدنيا بأسرها مغرمون ومتيمون بها وأن المدعوين في أية ضيافة لا يبصرون أحداً سواها. قال في نفسه: قضية تـنقضي كـغيرها، ليس فـيها مـا يسـتحق التفكير. ثم تصور أنه على غرار ما سبق سيغير رأيها باللجوء إلى المـال، لأن المال برأيه مفتاح لجميع المشاكل، وأنه يمكنه من تملك عواطف الزوجة والأهل. بدا له أن إهداء سيارة مرسدس من الطراز الحديث إليها يختم جـميع الأمـور بسلام. لم يكونا في الحقيقة متناسبين. كان التباين شاسعاً بينهما: اختلاف كبير في العمر، ثقافة متقاطعة وآراء وأفكار مـتضاربة، كـلها مـؤشرات إلى عـدم تناسقهما. تم الزواج بينهما قبل ثماني سنوات وهي لا تبلغ أكثر من عشرين عاماً والسيد (ع) في الثانية والأربعين من العمر ومن أسرة تقليدية تسكن إحـدى المحافظات الصغيرة. بينما ترعرعت هي في العاصمة وعلى مبادئ أسرة تشغلها ظواهر الأمور ويأسرها بريق الماديات. فاقت في حبها لحضور المآدب والسفر حتى أغلبية فتيات العاصمة. حاول السيد (ع) حثيثاً وبدافع حبه لزوجته أن يتقمص ثقافتها وطباعها ويتجرد عن جذوره وهويته.

كان يتصور طالما أنه نال نجاحاً باهراً في حياته المهنية والاجتماعية وبدأها من اللا شيء وقد غدا الآن تاجراً من الطراز الأول فإن نظرياته وآراءه تتمتع بنفس الدقة والفاعلية في حياته الأسرية أيضاً. ولكن.. يبدو أنه وصل الآن إلى طريق مسدود دون أن يرضخ للواقع. لقد شب الشجار بينهما لمرات ومـرات طالبته السيدة (ع) في كل مرة أن يطلقها وهو يرفض طلبها.. إنه يمـلك مـنها صبياً في السادسة من العمر، صبياً يقضي حياته كلها مع مربيته.. لأن السيدة (ع) ليست ممن يروق لهن رعاية طفلها.

كانت السيدة (ع) من الشخصيات التي تتصور دائماً أن جميع الناس مولعون ومغرمون بهم، وأنه لابد للجميع أن يعيروا اهتمامهم في كل اجتماع بهم. كانت تفتقد الطاقة والباع النسوي الطبيعي وتصدف على الدوام عن أداء واجـباتها الزوجية أيضاً وإن أُرغمت على ذلك فبغاية البرود والانفعال ولكنها ترغب إلى

اجتذاب الرجال. كانت ترىٰ أن هذه الأفكار لا تخالف بأي شكل من الأشكال المبادئ الخلقية لأنها لا تطلب من اجتذاب الآخرين (ولا سيما الرجال) وحبهم لها سوى الالتذاذ لا غير. والأمر مهما كان لا يكترث لذلك ويحسب أنه قادر على ضبط جميع الاختلالات السلوكية التي تعاني منها زوجته بارخاء حبل العطاء المادي.

بعد عدة أسابيع.. التقيا ثانية في ضيافة أخرىٰ. كان السيد الفنان قد تنبه إلى مؤشرات من سلوك السيدة (ع) الغريب ويحاول ملياً أن يبعد نفسه عنها ما أمكن وأن يحول دون التقاء نظراتهما.. أما السيدة (ع) فقد كانت تركز انتباهها عليه بشكل واضح للغاية حتى التفت الجميع تقريباً في تلك الليلة إلى هذه الحالة الغريبة.

تحولت الأيام إلى جحيم بالنسبة للسيدة (ع). كانت تقول على الدوام: «إنه يعرب عن حبه لي. يحبني ولا يمكنه أن يصارحني بذلك مراعاة لمكانته الخاصة». وقد بلغ بها الأمر أن تقول: «إنه يحاول دوماً من خلال كلامه في الأفلام التي يمثل فيها أن ينبهني بالإشارات والإيماءات إلى مدىٰ حبه لي».

ثم أنها مراراً وبعد تقصي محل تسجيل فلمه ذهبت إليه والتقت به ذهل الرجل في المرة الأولى إلّا أنه راعى الصداقة والمعرفة التي تجمعهما ولكنه اضطر في المرات التالية أن يطلع أصدقاءه على الأمر ويستمد منهم العون. بعد إحدى المضايقات ولما أبعد عن محل التسجيل، فقدت (ع) زمام أعصابها واعترضت أمام الجميع على محاولاته الكاذبة المحتالة للاعراب عن حبه لها!. الأمر الذي لم تشهده أرض الواقع أبداً واقتصر على كونه وليد هذاءاتها هي.

من جهة أخرىٰ عم الاضطراب حياتها. كان السيد (ع) يتجنب الفضيحة ويعرف أن الجميع قد أحاطوا علماً بالموضوع كما يعلم أن زوجته خرجت عن حالتها الطبيعية وأنها تكيل الاتهامات المشينة إلى الرجل دون مبرر.

فقدت السيدة (ع) القدرة على ضبط النفس ولكنها كانت ترىٰ أن الحق إلى

جانبه نوعاً ما لأنها تفكر بأنه لا مفر له غير هذا. إنه مضطر لإنكار هذا الواقع حفاظاً على سمعته وإلّا فانه كان سيخبر الجميع بأنه يحبها.

سنتان تقريباً انقضيتا على لقائهما الأول في أول مأدبة وهلوسات «مـينا» المرضية تحتد يوماً بعد يوم حتى سلبتها القدرة على النوم، وعلى تناول الطعام.

شلت حياة السيد (ع) تماماً. لقد ضاق ذرعاً ولكنه يحب زوجته. ماذا يفعل وقد صار الوضع إلى ما لا يمكن تحمله؟!

***

كنت أتطلع إليها وهي تجلس أمامي. سيدة شابة في الثامنة والعشرين من العمر.. إنها نحيفة ومكدودة للغاية، يصحبها سيد في عامه الخمسين تقريباً، كان يشعر بالحيرة بما في الكلمة من معنى. وبعد التحدث عن تفاصيل الأحداث التي مرت بها الزوجة والمحـاولات الانـفراديـة مـع كـليهما واجـراء الاخـتبارات والفحوصات النفسية. بدأت بمعالجة السيدة (ع). شخصت حالتها على أنه نوع من الهذاءات يدعىٰ «الهوس الشبقي».

اقترحت عليها الرقاد في المستشفى ولكن السيد (ع) رفض اقتراحي مطالباً بتنفيذ جميع التعليمات في الدار بمعونة ممرضة يتم توظيفها لهذا الأمر.

يدور هذا المرض الذي نسميه «الهوس الجنسي» أيضاً حول حب الشخص من قبل شخص آخر ويتمتع العشيق الخيالي عادة بشخصية أسمىٰ وأرقىٰ من الأول. تتعلق هذاءات المريض في أكثر الحالات بحب مأساوي نموذجي والتقاء معنوي أكثر من الاجتذاب الجنسي. والمتورط بهذا الهذاء يكون عادة شخصاً مشهوراً أو أكثر شهرة على أقل تقدير من الشخص المـريض، وتـتم محـاولة الاتصال به هاتفياً أو عن طريق الرسائل، الهدايا، اللقاء وحتى رصده وتـتبع خطاه. ويحاول المريض أولاً التستر على حبه ولكنه يفلت الزمـام عـند تأزم الحـالة.

يثبت الطب العدلي أن الرجال أكثر إثارة للأحداث بينما تسجل أغلبية الحالات السريرية معاناة النساء عادة من هذه الحالة. يوقع بعض المعانين من هذا الاختلال ولاسيما الرجال منهم نفسه أثناء مراقبة الجانب الآخر أو محاولة إنقاذه من خطر خيالي، في ورطة مخالفة القانون. لم تثبت إلى الآن بواعث هذه الهلوسات الجنسية.

تماثلت السيدة (ع) للشفاء تماماً بعد ستة أشهر، فقد تمكنت بعد شهر من بدء العلاج من ضبط هلوساتها وسلوكها الغريب إلى حد ما ثم خفت وهج هذاءاتها وتحسسها من الجانب الآخر حتى صارت تلك الأفكار لا تتحامل عليها إلّا أحياناً ثم اضمحلت رويداً رويداً خلال ستة أشهر ولم يبق منها بعد ذلك إلّا ذكريات تلك الحكايات.. المرحلة اللاحقة من العلاج استغرقت سنتين وتضمنت أساليب العلاج النفسي.

كان لزاماً في هذه المرحلة أن نعرض كليهما: الزوج والزوجة للعلاج فقد كان السيد (ع) بحاجة إلى فترة طويلة من الزمن ليفهم أن النجاحات الاجتماعية والمهنية لا تعتبر بالضرورة دليلاً على نجاح الحياة الأسرية وأنه لابد له أن يتخذ أساليب أخرى ليحصد ثماراً من نوع آخر. مع أن حياتهما كانت تقوم على أسس خاطئة إلّا أنهما كانا يعلنان عند استفساري منهما عن رغبتهما في مواصلة حياتهما المشتركة. لقد كان السيد (ع) متيماً بحب زوجته منذ أمد بعيد ولم يتقلص حبه لها قط. والسيدة (ع) هي الأخرى تشعر إثر أحداث العامين الماضيين بأنها بحاجة إلى زوجها وأن أفضل حياة لها هي أن تبقى إلى جانب والد طفلها. تفاءلت خيراً بهذا الموقف وأوضحت لهما النهج الصحيح والطبيعي للحياة وزودتهما بمعلومات كانا يجهلانها.

مرت خمسة أعوام على ذلك الزمن، واظب الزوجان خلالها على زيارتي شهرياً بهدف المشاورة والضبط وكل شيء في حياتهما على ما يرام تقريباً.

زوجة لم تحسن رعاية زوجها

فور دخول السيدة (ج) إلى الغرفة عمت الغرفة رائحة تنفر منها النفوس، رائحة مشمئزة، خليط من رائحة البصل، الخل والتوابل المستخدمة في صنع المخللات. كأنها قضت يومها كله في صنع المخللات ثم جاءت تزورني دون أن تصلح وضعها. جلبابها أبيض اسودت أكمامه لشدة ما لاحته من الوساخة ويغطي رأسها غطاء أبيض تظهر عليه بقع مختلفة وترتدي حذاء رجالياً متهرئاً. كانت في الثانية والثلاثين من عمرها ويعود نسبها إلى أسرة هاجرت منذ سنين طوال من قفقازستان. كنت واثقاً أنها لا تمشط شعرها حتى مرة كل أسبوع! عندما جلست على الأريكة قبالتي تملكني شيء من الأسىٰ في الواقع على غطاء الأريكة.. سيتصور المرضى اللاحقون بأن الدكتور يقضي بقية أوقاته خارج ساعات التطبيب بصنع المخللات! لم يكن من مفر.. كانت قد احتجزت موعداً لفترة نصف ساعة.. كنت قد فرغت تواً من لقاء سيدة تعاني من حالات وسواسية.. كانت كأنها هدية قد انتزعت تواً من ورق السلوفان.. لما أرادت الجلوس على هذه الأرائك وكنت قد ابتعتها حديثاً، تفحصت مكانها عدة مرات تحسباً من وساختها. والآن جاء دور هذه الأخرى...! عجبت من شأن مخلوقات الله. فلو أدمجنا هاتين السيدتين ثم قسمناهما إلى نصفين كانتا ستغديان انسانين طبيعيين. عدت ألقي نظرة على الملف. السيدة (ج)، متزوجة ولها من العمر إثنان وثلاثون عاماً، أم لطفل واحد. خريجة معهد الكامبيوتر

ورعاية شؤون الأسرة. فكرت أنها انغمست إلى درجة في الشؤون الأسرية حتى أنستها الحاسوب بل ونفسها أيضاً. كنت أجهد لتناسي تلك الرائحة الكريهة.. قلت باسماً: «أنا في خدمتك يا سيدتي».

قالت وفي محياها إمارات الكآبة والوجوم: أشعر منذ فترة يا دكتور بضيق صدري وبالأسى. أشعر أنني إنسان فارغ لا ثمرة لحياتي. أرى أنني لست جديرة بأداء أية خدمة. لا أحد يكترث لي. لا أنعم بمحبة المحيطين بي و...

انفجرت باكية بصوت جهوري ثم استطردت: لا أحد يريدني، لا زوجي، ولا طفلي ولا الأصدقاء والأقارب. لا أكترث للآخرين.. ابني ما زال طفلاً تشغله مشاكساته ولهذا لا يكترث لكلامي. القضية الهامة هي زوجي. إنه لا يفهمني. يسيء التصرف، يتأخر في العودة ليلاً إلى البيت. وعند عودته لا يعيرني أي اهتمام. وفي النهار ينشغل بالرياضة والترفيه أو بالعمل والارتزاق.. سلوكه سيئ وكلامه بارد لا روح فيه. يقطع علاقته معي لأسابيع.. لقد اعتزل غرفتي. لا أعرف لماذا؟ ولكنني أفهم أنه يتعامل معي كأنني مخلوق مشؤوم ومعتل، يأخذ عليّ في أمور عجيبة وغريبة. يطعنني دوماً بمقايستي بنساء الأقارب والأصدقاء. لا مجال للراحة لدي، ألهث منذ استيقاظي من النوم صباحاً وحتى منتصف الليل كأنني خادمة مطيعة ولكن هيهات أن أسمع ثناء أجوف، كلمة رؤوفاً. لا أطالبه بمشاعر الحب والحنان. ولكن كيف أتحمل سلوكه المهين؟.. أقاسي من الاكتئاب منذ فترة من الزمن. أعاني من الأرق طوال الليل. أقضي الليل باكية، عافت نفسي العمل وكذلك الطعام. إنه لا يبصر أي شيء. أزين مائدته بمختلف الأطعمة والمخلفات ولكنه لا يتذوقها قط. يتناول غداءه في محله وعشاءه خارج الدار في أغلب الأوقات وإلّا فإنه يقوم بإعداد طعام بسيط بنفسه. ألا تعتبر ذلك أعظم استخفاف؟!

صمتت هنيهة ثم أردفت في برود: لم أراجعك لتصلح حالي لأنني إنسانة بائسة. وكنت طوال حياتي بائسة، فالأنوثة تعني الذلة، تعني الاستكانة. النساء

في مجتمعنا الذي ساده نظام هيمنة الرجال لا يمثلن أكثر من ضحايا. أكتب لي رجاء وصفة تمنحني اللا مبالاة، لأنسىٰ كل شيء وجميع الناس. كي لا أتألم من سلوكه. هذا ما أريده منك، وليس أكثر من هذا.

سرحت في أفكارها.. بم كانت تفكر؟ لابد أنها قاست ماضياً عسيرتً. وأن تاريخ حياتها حافل بتحقير النساء، تاريخ يعود إلى طفولتها أو على أقل تقدير إلى ما قبل زواجها.. لم أعِ ما يجول في خاطرها ولكنني كنت واثقاً بأن جذور هذه السلوكيات والأفكار تغور في أعماق ماضيها.

خولتني أسفاري إلى أصقاع مختلفة من العالم وكذلك اختصاصي المهني أن أجري أبحاثاً كثيرة في المجتمعات الغربية وأتدارس تاريخ وطبيعة المجتمع في بلادنا جيداً. لم ألتق مع السيدة (ج) في أفكارها. استنتجت من خلال جميع أبحاثي ومشاهداتي أن النساء في مجتمعنا يهنأن بحظ أوفر من السعادة والاعتزاز مقارنة معهن في المجتمعات الغربية.

يتعهد القانون في تلك المجتمعات وبقوة بالغة بالدفاع عن حقوق المرأة ولكنها تعتبر في ثقافتهم ومكنونات قلوبهم (بعيداً عن الشعارات الزائفة) إنساناً من الطراز الثاني. والوضع عكس ذلك في مجتمعنا. فالقوانين ربما لا تدعم النساء بشكل تام أما ثقافتنا فإنها تمنحهن مكانة أسمى من الرجال من وجهات نظر عديدة، لاسيما الثقافة الإسلامية ـ الايرانية فانها تكرس لشأن المرأة قيمة مدهشة. قد يتبادر إلى أذهاننا في الوهلة الأولى ونحن نطالع قانون الشعب الايراني أن المرأة الايرانية معرضة للظلم إلّا أن حقيقة الأمر تفيد أن النساء هن عادة قادة جميع الأسر وسلاطينها، سواء خفية أو علانية.

كانت السيدة (ج) لا ترغب في التحدث كثيراً، كانت سامدة نحو الأرض تنتظر وصفتها يداخلها غرور عات رغم اكتئابها. غرور خولها إسداء الأوامر والنواهي حتى لطبيبها. كانت تستبعد أي تقصير عن نفسها وهذه هي المشكلة الأساس. كان لابد لي أن أحيطها علماً بحقيقة وضعها ثم أدعو زوجها ليحضر

جلسة ثلاثية. ولكن كيف لي أن أقنعها بذلك، هذا ما كنت لم أهتد إليه بعد.

تجاهلت الأمر وقلت ضاحكاً: لا اعتراض لدي. من شأن الأدوية أن تمنحك لا مبالاة تامة كما ترغبين ولكن المشكلة في مفعول هذه الأدوية أنها تجردك من الاهتمام بكل شيء: بشؤون المنزل، الأطفال، الحياة المعنوية و...، فلا يهمك احتراق الطعام كما لا يعنيك تأخر ابنك في العودة إلى الدار. إننا عموماً لا نجد أدوية تتفاعل بشكل إنتقائي بأن تحدد لا مبالاة الشخص ببعض الأمور فقط وتقلص تحسسه إزاءها. إن أدويتنا ستضفي عليك اللا مبالاة إزاء كل شيء. وهل هذا ما ترغبين به؟

سحبت غطاء رأسها نحو الأمام، وقالت بتأن: كلا، ليس إلى هذا الحد.. بل أريد التخلص من هذا العذاب والعناء.. ولكنني لا أعرف كيف؟ هذا ما ينبغي أن تحدده أنت.

ـ لا يمكن ذلك بطريقتك يا سيدتي. إنك تتوقعين مواصلة العيش بشكل طبيعي لأربعين أو خمسين سنة أخرىٰ على الأقل. وقد أشرت إلى أن وضع معيشتك يزداد سوءاً يوماً بعد يوم وهكذا دواليك. أترضين مواصلة بقية حياتك على هذا المنوال؟.. وبقوة الدواء؟ أيمكنك ذلك؟

ـ لا يخيل إلي يا دكتور أنني سأبلغ مثل هذه المرحلة. إنني أطلب الموت من الله عشرات المرات يومياً.

ـ لا بأس.. فالطموح إلى الموت هو أحد المؤشرات العامة لمرض الاكتئاب. لقد خرجت أفكارك عن السواء لابتلائك بهذه الحالة المرضية. لا تفكري بذلك. إنها أفكار تتزايل بمعالجة المرض. ولكن سؤالي منك هو: لماذا لا تتدارسين الموضوع من جانبه الآخر؟

أدهشها سؤالي فتساءلت بدورها ضاحكة: وأي جانب تعني؟

ـ جانبه الأكثر سهولة. أقصد أن نتدارس لماذا وصلت حياتك إلى هذه الحالة؟ إنها معرضة إلى فناء عاجل بشكل أو بآخر.

ـ لا أرغب في التفكير بهذه القضية. لقد فكرت بما فيه الكفاية. سأكف عن التفكير، لا.. لن أفكر.

ـ حسناً جداً، ولكن اللا مبالاة سوف تزيد الطين بلة. لقد أخطأت عند تحديد مسيرة تفكيرك. كان لابد أن تطلبي المشورة من خبراء المشاورة. أو من صديقة لبيبة على أقل تقدير. لا أن تسرحي في أفكارك كما يحلو لك. فالإنسان عندما يقصد القاضي على انفراد يعود مسروراً دون ريب....

التزمت الصمت. لقد حان الأوان لاخترق حظر التجول في سماء أفكارها.

ـ أرجو المعذرة. وزوجك أي نمط من الرجال هو؟ هل هو ماجن؟

ـ لا، أبداً.

ـ أو منقاد للأصدقاء؟

ـ ليس تماماً، ولكنه منذ فترة يقضي جل أوقاته مع أصدقائه.

ـ هل هو مدمن؟

ـ لا، إنه رياضي، يصدف عن كل عمل مشين حتى عند مسامرة أصدقائه.

ـ هل هو شكاك أو بخيل؟

ـ ليس بخيلاً. أما عن سوء الظن فلابد أن أقول أنه بالعكس بدرجة من اللا مبالاة تؤلمني.

ـ هل يؤمن بأفكار غريبة؟

ـ لا بل هو انسان مؤمن متدين، ولكن دون تزمت.

ـ حسناً، السؤال هو: فلماذا يتصرف على هذا النحو؟ مثل هذا الشخص لا يسلك قطعاً مثل هذا السلوك عن نوايا شيطانية خبيثة. لابد أن هنالك ما يزعج مشاعره.

ـ لا، إنه لا يتكلم أساساً ليقول ماذا يريد أو لا يريد...

ـ ولكنني أعرف أهم ما يرنو إليه.. وأنت كذلك تعرفين. فأي موضوع يثير من يقابلك لابد أنه يترك نفس الأثر في نفس زوجك.. وهل تعرفين ما هو؟

ـ لا، لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. قلت لك ذلك من قبل، وأعود لأقوله الآن.

ـ وهل الأنوثة مزرية إلى هذا الحد؟

ـ أكثر مما تتصور. إنك لست امرأة ولا يمكنك أن تدرك ذلك. إننا لسنا ألعوبة بيد الرجال ولسنا عرائس ووسائل لعب توضع في واجهة الحوانيت لاستعراضها على الآخرين. إن المرأة إنسان، ولها حق العيش ومواصلة الحياة. ولماذا يحظى جمال المرأة أو قبحها بمثل هذه الأهمية. أتعرف يا دكتور، إنني أعرف ما يتوقعه زوجي مني. يريدني أن اهتم بنفسي تاركة جميع أعمالي وشخصيتي ومؤهلاتي جانباً وأغدو امرأة تغريها المظاهر، شغلها الشاغل الموضة والمكياج والتسريح والإثارة. أن اركز تفكيري في جسمي وفي انوثتي. أن أحاول أن أجره ورائي، وأتعامل معه بغنج ودلالٍ غرامي. وهذا ما يتعذر علي. أنا لم أنشأ على مثل هذه السلوكيات. ليفعل ما يشاء سواء أعجبه وضعي أو أثار حفيظته!

كانت تتحدىٰ ماضيها وإلّا فإن زوجها المسكين لم يحدد مطالبه بمثل هذه الأمور. القياس رسّخ في مخيلتها هذه المفاهيم. وقد ترسخت لديها قطعاً قبل الزواج. كانت الفرصة مواتية للعودة إلى الماضي. فقد تولدت لديها الحوافز للتحدث.

قلت بحنان يشوبه منتهى الجد: إن كانت أمك تفكر مثلك لم تكوني أنت هاهنا الآن.

ـ ليتها فكرت مثلي ولم تلق ما لاقته من بؤس. لقد تنبهت بعد فوات الأوان إلى أنها لم تكن أكثر من ألعوبة. أتعلم ما قالته لي ولأخواتي في الأيام الأخيرة من حياتها؟ قالت: لا تفسحوا المجال لأزواجكن ليسلكوا معكن كالجواري، أن يستغلوا مفاتنكن الجسمية، لأن هذه المغريات ستفقد إثارتها بالنسبة لهم. عندئذ سيلجأون لغيركن وقد مسخت شخصياتكن ولم يتبق منها الشيء

الكثير. ثم سددت إلينا هذه النصيحة: «كنّ كجبال لا يمكن ارتقاؤها ليجري الرجال وراءكن دوماً». كانت محقة. وأنا أتذكر كلامها وألتزمه إلى الأبد. أذكر أن أبي قد تعامل معها بهذا الشكل حقاً. كانت ثمرة مجون أبي ابناء متبايني الشكل والشمائل من نساء مختلفات.

أثار استعادة هذه الذكريات انفعالها. كأنها لم تصرح بها لأحد أبداً. إثارتي أججت عواطفها ففقدت حفيظتها ثم عادت فوراً لضبط نفسها وامتنعت عن مواصلة الكلام. ولكن بعد فوات الأوان. لقد كشفت عن كنه شخصيتها. ولكن دون أن يغالبها شعور سيئ. كانت واثقة أنها في مكان آمن وكلامها سيدفن هنا في هذا المكان. ربما كانت تشعر بالارتياح لأنها نفست عن ألم دام أربعة عشر عاماً فأزاحت عن كاهلها عبئاً ثقيلاً.

أجبتها بالقول: إنني اشاركك بالتأكيد بعض آرائك ولكنني لا أقر نمط تفاعلك. فهذا أحد الخبراء في علم الأخلاق وعلم النفس ينصحنا بأن لا نتقصى المواهب التي لم ينعم بها الله علينا مما يؤلمنا بل لنتأمل في المواهب التي وهبها الله لنا لنستثمرها في سياق تنامينا. لا تهدري وقتك بالتفكير بأن الله خلقك أنثى. تجنبي هذه الآلام. سوف لن تهتدي السبيل بهذه الطريقة كما لم تهتدي إلى الآن. تأملي في مبادرات النساء الناجحات وكيف أنهن حققن لأنفسهن السعادة. لقد حققن شخصيتهن على خير وجه على الأصعدة العلمية، السياسية، الأدبية، الفنية والتربوية إضافة إلى تمتعهن بهويتهن الأنثوية. كتبت السيدة «انديرا غاندي» في خواطرها: «إن أكثر اللحظات لذة بالنسبة لي هو عندما أتولى مهمة تجميل العروس عند إقامة حفل عرس أقاربي أو عندما تسنح لي الفرصة أن أقوم بطهي الطعام بنفسي لأسرتي».

إن ثلة كبيرة من نساء مجتمعنا وإلى جانب اعتزازهن بانوثتهن حققن لأنفسهن شخصيات تتسامى وتتعالى على شخصيات الكثير من رجال عصورهن. بوسعك أن تكوني أنثى وتمنعي تعرضك للإهانة والتحقير بل أن

تصبحي سيدة بيتك المطلقة السيادة كما هو حال الكثيرات من النساء. لماذا وصلتِ إلى طريق مسدود إن كانت مسيرتك صائبة؟ تأملي بيئتك بمَ تتمتعين؟ الاحترام؟ الاعتزاز؟ الشخصية؟ القدرة على الأخذ بيد أبناء النوع الإنساني؟ إنك عجزت حتى عن التوصل إلى تحقيق الذات واحترام النفس.

وهل ينبغي الانقياد في هذا الطريق للتخلص من الأنوثة؟ بهذه الهيئة الخارجية؟ بهذا المظهر المضطرب الغريب؟ ومن يتمكن الاستهانة بانسان نظيف ومنتظم، أم رشيدة، لبيبة، زوجة وفية ناضجة، سيدة من هواة المطالعة تحيط علماً بالعلوم والفنون العصرية، امرأة فاتنة تتحلىٰ بأخلاق شيقة وتصرفات أنثوية، ربما تمهد لها رغبتها الفردية الاسترزاق والحظوة بالاكتفاء الذاتي؟ وأي مذهب أو دين نص على ضرورة إهمال المرأة لمظهرها بهذا النحو للتهرب من واقعها الأنثوي؟ صحيح أن المظهر ليس كل شيء، ولكن لابد أن يكون مظهر الإنسان مقبولاً مثيراً للاحترام. إنني أجهل حقيقة علاقة أبيك مع أمك.. ولكنني استشففت من كلامك أن أباك أخطأ في تعامله معها. وقد اتخذت أمك بدورها موقفاً ثورياً طوال حياتها أو أنها، أقولها مع الاعتذار، كانت ضحية رجل أناني وخبيث. ولكن كان ينبغي عليها أن لا تسدد مثل هذه النصيحة إليكن. إنها إنما بادرت لمثل هذا التصرف انطلاقاً من انطباعاتها المتناسبة مع مستوى إدراكها ومعلوماتها. وكان عليك أن لا تنصاعي انصياعاً عشوائياً لكل ما قالته دون دليل مقنع.

لاثبات صحة كلامي تساءلت: هل بادر زوجك خلال فترة الاثني عشر عاماً إثر مواجهة اخلاقياتك وازدراء مظهرك إلى خيانتك؟

ـ لا.

ـ وهو كرجل هل سلك مثل أبيك رغم ايفائك دوراً عكسياً في حياته باعتبارك زوجة؟ إنك تعرفين جيداً أنك لم تحسني رعاية حقوقه الزوجية. بل كنت مديرة لشؤون منزله. خلافاً لما ترفعينه من شعار لمنهجك. فصار الوضع

إلى ما هو أسوأ منه في حياة أمك. إنني أعارض قطعاً فكرة ضرورة خضوع المرأة لطاعة الرجل عشوائياً لأنني أومن أن الزوجة اللبيبة الرشيدة هي خير صديق للزوج وأن الزوج المتفهم المتعقل يفخر بمثل هذه الزوجة و...

نجحنا بعد ساعة ونصف الساعة أن نقيم علاقة طيبة معاً وكانت هذه هي الانطلاقة. لقد وجهتها في تلك الجلسة ذاتها إلى كل ما من شأنه تهدئة الأوضاع خلال تلك الأزمة الأسرية أو بالأحرى ذكرتها بمثل هذه الأمور. كان لابد لي أن أتحدث خلال خمس جلسات أخرىٰ إلى كلا الزوجين لأهديهما السبيل لخوض الحياة بعيداً عن الحاجة لتوجيهاتي. طلبت من السيد (ج) إعانة زوجته لتتمكن من الانسجام مع منهجها الجديد في الحياة. كان شاباً طيباً يقارب زوجته في عمرها ويحبها من صميم القلب. وهذا ما مهد لنا التقدم بسرعة فائقة.

مرت ثلاثة أعوام على ولادة طفلها الثاني وقد انتسبت السيدة (ج) إلى شركة تابعة للقطاع الخاص فوضت إليها مهمة البرمجة الكامبيوترية. إنها تشعر بالرضا من حياتها.. وقد غابت عنها بالطبع رائحة البصل والمخلل!.

حادث بسيط

يوم وطئت قدما السيد والسيدة «يكتا» أرض طهران لم يكونا يحملان لقب الدكتور والدكتورة «يكتا». كانا زوجين شابين ضاقت بهما الحياة بما وسعت في قريتهما فرحلا عنها بحثاً عن حياتهما التي يطمحان إليها. كان محمود في الثانية والعشرين من عمره، قد فرغ لتوه من خدمة العلم عندما اختاروا له زوجة ثم انتسب إلى دائرة حكومية يخدم في أحد أعمالها المتدنية جداً فقد كان مؤهله شهادة المتوسطة. وراتبه الذي يتقاضاه لا يهيئ له أكثر من عيشة ضنك، التزم بتقديم قسم من راتبه أيضاً لأمه ليعوض إخوته الصغار الثلاثة جزءاً من حرمانهم من الأبوة. كان يفترض عليه أن يقضي المسافة بين القرية التي يسكن فيها ومحل عمله متحملاً عناء السير على الأقدام لمدة ساعتين ويعود لممارسة هذه الرياضة الشاقة ثانية عند العودة. امتاز طوال فترة دراسته بتقدمه بين أقرانه وبذكائه الحاد.. كان يلتذ من مذاكرة دروسه لكن شظف العيش والفقر والفاقة أرغمته على ترك الدراسة. ورغم ذلك لم يتمكن من تناسيها لشدة ولعه بالدراسة وطموحه في نيل المؤهلات العلمية العليا.. كانت تتراءى له صورته في أحلامه وهو طبيب حاذق ومتعاطف يخدم نفسه وأسرته وكذلك المرضى والفقراء.

كان هنالك نداء باطني يستصرخه للتحرر من قيود الاستغلاليين الأدنيين. تحدث عدة مرات إلى أصدقائه، وهم قلة قليلة، بشأن أفكاره وفي كل مرة لم

يعثر في جعبتهم على أكثر من ضحكات ساخرة أو نصائح أبوية. لم يكـن له صديق حميم غير ذاته. فكلما خلا إلى نفسه وأطلق آهات أعماقه، سمـع نـداء يقول: لا تتأوه كالعجائز. انهض. اتخذ قراراً مصيرياً. إما إرضَ بهذا أو اسع إلى ذلك. لاتعد للتفكير بما تنكرت له إن مضيت في سبيلك. لا تدع الميول تتقاذفك من هنا وهناك. كن صلباً شامخاً و...

كان معرضاً إلى ضغوط أسرته وأسرة «طوبىٰ» للتعجل في الانجـاب لأن بيئته تعتبر الانجاب عد الزواج مباشرة من أهم واجبات الزوجين. ماذا يفعل؟ إن ولادة الطفل تعني النأي عن طموحاته. ولكن التحدي يعكر بدوره الأجواء الأسرية. كان يواجه في محل عمله أيضاً سلوكيات كثيرة يـشم مـنها رائـحة التحقير والاستهانة، يتحملها جميعاً مرغماً.

كانت «طوبىٰ» فتاة متماسكة ولبيبة وتاريخ معرفتهما ببعض يعود إلى مرحلة الصبا فقد كانا كغيرهما من القرويين مرتبطين بـضرب مـن أواصر القـرابـة. شعرت وهي تترصد استغراقه في أفكاره بأنه مستاء من وضـعه الحـالي. في البدء حسبت أنه يتذمر منها ولكنها تنبهت تدريجياً إلى أصل الموضوع.

كانت قد شغلت تواً مكانة الصديق الحميم لمحمود، فصارت صديقة بوسعه أن يبثها همومه في بعض الحالات. كانت نعم الزوجة المتفهمة وخير المسـتمع لأحاديثه. لا تعرب عن رأي قط بل تصغي بلهفة. هكذا نالت ثقة زوجـها.. كانت أفكارها البعيدة تتقاذفها يمنة ويسرة وهي تؤدي أعمالها المنزلية. فكيف كان يسعها أن تقدم العون لزوجها؟ كانت قد شاهدت أبـويها يـتحادثان في بعض الليالي.. أبوها يتحدث عن مشاكله وأمها تتعاطف معه وتهديه السبيل كأي صديق وفيّ. كـان حـديثهما يـتمحور غـالباً حـول المحـاصيل والأرض والحيوانات أو القضايا المالية وشؤون الأطفال.. ولكن.. موضوعات حـديثهما مع محمود أكثر تعقيداً من هذه الأمور فقد كان عليهما أن يبتّا في موضوع البقاء أو الرحيل في انطلاقة حاسمة على الطريق الطويل الهادف لتحقيق آمال محمود.

ورغم أنها كانت تحمل شهادة المتوسطة كزوجها إلّا أنها وبفضل مطالعة ما يتوفر في متناول يديها من الكتب المختلفة كانت أكثر وعياً مما يمنحه لها مؤهلها الدراسي. زد على ذلك أنها كانت أساساً فتاة ذات أفكار خصبة معطاء. لقد ورثت هذا الطابع من أمها.

ذات يوم خريفي ممطر ترك محمود داره كعادته في الساعة الخامسة والنصف صباحاً على أمل أن يصل محل عمله وفق حساباته اليومية في السابعة والنصف. كان يوماً ليس كغيره من الأيام، فالجو ممطر عاصف والأرض مليئة بالأوحال اللزجة. والرياح بدورها تدفع جسمه بقوة عاصفة إلى الوراء. دار صراع عنيف بينه هو من جهة والرياح والأمطار من جهة أخرىٰ حتى وصل الجسر الحجري القديم المعروف بجسر «شاه عباسي».. اجتاز الجسر.. لمح عند نهاية الجسر شيخاً غاصت بغلته في الأوحال.. تريث هنيهة. فليتوقف ويُعنِ الشيخ للتخلص من ورطته. ولكن.. يا إلهي.. لقد انزلقت قدماه وهو يغالب هذا الحيوان فوقع في مياه النهر الجارفة.. وبعد معاناة طويلة تمكن من انتشال نفسه بمساعدة أغصان بعض الأشجار. كانت أسنانه تصطك لشدة ما أصابه من البرودة. ذهب الشيخ إلى حال سبيله ثم عاد هو ليواصل مسيرته نحو مركز الناحية بما تبقى لديه من أنفاس لاهثة.

وصل محل عمله في الساعة التاسعة صباحاً.. منهك القوىٰ تغطي الأوحال جسمه المثلج المتبلل.. توجه إلى غرفة الملابس لاصلاح حاله وجلس قليلاً إلى جانب المدفأة يستجدي الدفء من شعلتها المعطاء.. لم تمر أكثر من لحظات عندما انبئ أن الرئيس يستدعيه.

توجه وهو على تلك الحال إلى غرفة الرئيس.. كان رجلاً بديناً في متوسط العمر يجلس خلف مكتبه ويستند بعجرفة مبالغ فيها إلى المقعد وأمامه قدح من الشاي الساخن يتصاعد منه بخار معطر. غرفته جميلة، دافئة وأنيقة، حظها من طقس ذلك اليوم الممطر إطلالتها على مفاتنه فقط.. إلّا أن نفس محمود كانت

تصطخب مشاعر أخرىٰ. إنه يرىٰ أمامه رجلاً بديناً، محيا وجهه الدائري توحي بغبائه وخبثه، يلقي عليه نظرات استنكاف، خاطبه الرجل قائلاً: إننا هنا لا نقدم الرواتب إلى أحد دون مقابل ليتجرأ كل أجير تافه أن يحضر محل عمله في الساعة العاشرة ثم ينصرف في الساعة الثانية عشرة.. عليك فيما لو رغبت في البقاء هاهنا، أن تفهم أنك لست في اصطبل يكون بوسعك أن تطاطئ رأسك كالأبقار وتلتحق به متى ما شئت ثم تنصرف على وتيرة البغال. إذهب وفكر ملياً بما أقول ولتكن هذه المرة الأخيرة التي أذكرك فيها بوظائفك. إن وضعك المأساوي هو الذي دعاني لأبقي عليك حتى الآن.

في تلك الأثناء لم يستوعب محمود كلامه لشدة شعوره بالبرد. وبعد ساعة بدأ رويداً رويداً يفيق من غفلته وتمكن من التفكير بما سمعه! راح يستعيد في ذهنه كل شيء ثم حمل متاعه بعد انتصاف نهار ذات اليوم، دون ان يشعر بأدنى ضيق جراء ما حدث ورحل عن ذلك المكان إلى الأبد وهو يشعر بالاستنكاف من الرد على كلام الرئيس.

لقد لعبت المشيئة الالهية دورها.. أوصدت سبل الخلاص شتى أبوابها بوجهه سوى إحداها.. إنها طريق الدراسة الطويلة.. لم يكن هنالك ما من شأنه صده عن ذلك عدا الظروف المالية العسيرة، ونفقات معيشته هو وإخوته وزوجته!

مكث في الدار عدة أيام، كانت الفاقة تعرقل مسيرته أينما ولى وجهه. كانت «طوبىٰ» تراقب كل شيء بنظراتها الثاقبة.. أدركت معاناته جيداً. وقد حان الأوان للفتاة أن تؤدي دورها على أفضل وجه. كانت تتحين الفرصة وقد توفرت الآن.

ذات يوم جمعة توجهت «طوبىٰ» برفقة زوجها إلى مرقد السيد عبد الله (وهو من أحفاد أحد الائمة) وبعد أداء مراسيم الزيارة، التفتت إلى محمود وخاطبته قائلة: عزيزي محمود، أريد أن أتحدث إليك.

ـ خيراً يا طوبى.

ـ سيكون خيراً إن شاء الله.

أمسكت «طوبىٰ» يد زوجها وهي تسحبه نحو إحدى غرف المزار التي يتم استئجارها من قبل رواده في مواسم الاصطياف. ثم قالت له: إنك ضيفي اليوم.. لقد ادخرت شيئاً من مصرف البيت وبوسعي أن استضيفك لتناول طعام الغداء في المقهى المقابل. أدعوك لوجبة فاخرة مع مخلفاتها، ثم نتحدث معاً بعد ذلك.

ذهل محمود وهو يواجه «طوبى» بشخصيتها الجديدة.. إكتشاف الوجه الجديد لزوجته أشعره بمنتهى السرور. هام في أفكاره.. لقد تحولت الفتاة إلى سيدة متكاملة، صارمة في قرارها، رؤوفة في عواطفها، تنهاه مثل أي أم حميمة وثقة عالية بالنفس.. تناول الزوجان غداء لذيذاً مشحوناً بالخواطر في تلك الظهيرة الدافئة المشمسة من فصل الخريف في مرقد الإمام «عبد الله» بمدينة «آمل» وتحت ظلال أشجاره.

***

مع وصوله إلى هذه المرحلة من حكايته سرح الدكتور «يكتا» في أجواء تلك الأيام.. انفرجت شفتاه عن ابتسامة شاردة وهو يحلق بعيداً إلى ما قبل خمسة وثلاثين عاماً. كان يصطخب رغبة شديدة للبقاء في تلك الأجواء. راح يتمتم: «إنها أحلىٰ ذكريات حياتي».

كنا قد تناسينا الزمن فسبرنا ثلاثتنا في أغوار ذلك التاريخ، كل منا على نحو خاص.. الدكتور «يكتا» يستعيد ذكرياته وزوجته الدكتورة تنتعش لحسن عقبى عنائها وجرأتها في اتخاذ القرار وأنا أفكر بهما. ألقيت نظرة على الدكتورة «يكتا». كانت تقبع جالسة أمامنا على الأريكة وهي تحوك صوفها وابتسامة ذكية ترتسم على شفتيها.. كانت وبأسلوبها الأنثوي تشمل كل شيء بعنايتها ونباهتها حتى في تلك اللحظات دون كلل. لقد اعتادت على هذا الأمر وتمرست

فيه تماماً منذ أمد طويل. راحت تحلق في سماء تلك الخبرات المضنية وتفانيها العذب على بساط أفكارها وكأنها تتذوق حلاوة تلك الذكريات الطيبة بملء وجودها.

ذات يوم قال لي شيخ لبيب: العمل المضني يمضي إلى سبيله وتبق ذكراه العذبة للغاية.. وهذا ما كنت أراه في وجه هذه السيدة.

***

في ذلك اليوم، تريثت طوبىٰ بعد تناول الغداء والشاي حتى تهدئة عاصفة التوترات النفسية التي لاحتها هي وزوجها وتبلور بينهما جو ودي.. عندئذ قالت: انظر يا عزيزي محمود، إنني أفهم صعوبة معاناتك في هذه الأيام. كما أنني على علم بما جرىٰ لك في دائرتك ولم يفتني التنبه لطموحاتك المتعالية أيضاً إضافة إلى إحاطتي الوافية بفاقتنا. ومع كل هذه المصاعب أرى أنك جدير بخوض الصراع حتى تزيل عن دربك كل هذه العراقيل.. إنني أعاهدك اليوم وفي مرقد هذا الإمام الذي أكنّ له منتهىٰ احترامي أن أُقف إلى جانبك حتى النهاية فيما لو كنت على استعداد لمثل هذه القفزة.. أما إن كنت تحدد طموحاتك في إطار آمال جوفاء غير ناضجة، فمن الأفضل أن تصرف بالك عنها وتهتم ببيتك وحياتك وعملك السابق. لو كنت عزمت على القفز والتحليق فإنني لا أعارض ذلك بل سأعينك بما في وسعي على تحقيق أملك أيضاً. أما إخوتك وأمك فلا تبتئس عليهم.. إنهم لا يعتمدون عليك اعتماداً تاماً وسنقدم لهم عوناً بسيطاً. يمكنك أن تطرح عليهم مشكلتك. فبمعونتهم وبتحمل قدر من العناء ستضمن مستقبلهم أيضاً لأنك ستأخذ بيدهم لا محالة مهما بلغ شأنك. سنرحل إلى طهران ونعمل بجد ومثابرة. بوسعك أن تلتحق بالمدارس الليلية وتمضي قدماً في مراحل دراستك.

حملت طوبىٰ في ذلك اليوم عبئاً ثقيلاً عن كاهل محمود. حررته من القيود أطلقته ليحلق في فضاء أمانيه.. وأخيراً تم له ذلك.. التحليق نحو ضياء الشمس.

بعد شهر واحد وفي يوم شتوي قارص شديد المطر حمل الشابان القرويان جميع متاعهما ولم يتجاوز أكثر من حمولة عربة، حملاها ورحلا إلى مصيرهما. وما هي إلّا دقائق حتى اختفيا عن أنظار مودعيهما.

***

تحمل الزوجان في طهران عناء شاقاً، لم يثنهما عن مواصلة الدرب حتى تحقيق هدفهما النهائي. كانت عزيمتهما بقوة تضاهي أفكارهما ليتميزا بذلك عن حملة أفكار جميلة عالية لا يدعمها إلّا همم ضعيفة قصيرة. لقد وثقا أنه لابد لهما من بذل الجهود واجتراع المعاناة لتحقيق مآربهما. استأجرا غرفة صغيرة متواضعة في أحد الأحياء الشعبية بجنوب العاصمة. وقد قدم لهما صاحب الدار وهو من أصدقاء عم محمود عوناً كبيراً. كانت زوجة صاحب الدار سيدة محسنة، متقية، تعقد هنا وهناك اجتماعات دينية تصحب «طوبىٰ» إليها حتى غدت الفتاة شخصية معروفة بين تلك المجاميع. كانوا يكيلون جميعاً الإطراء على أخلاقها، مروءتها ورزانة عقلها. جرت العادة في مثل هذه اللجان الدينية أن تجهد دوماً لتقديم المساعدات للفقراء والمعوزين. وقد اجتمعت آراؤهم حول جدارة طوبىٰ. كانت ضليعة بمثل هذه المهمة.

كانت عزة نفسيهما هي وزوجها بدرجة تصدهما عن تقبل أية مساعدة خيرية تقدم إليهما ولكنها كانت تتقاضىٰ أجراً عما تقوم به من أعمال سواء خياطة الملابس للأيتام، تقديم المساعدة للنسوة من أعضاء اللجان لأداء نذورهن و...، كانت طوبىٰ قد حازت مكانة كريمة وثقة عالية من قبل جميع أعضاء هذه اللجان الخيرية فاختاروها هي على سبيل المثال عندما تبلورت لديهم الحاجة إلى من تفوض إليه مهمة تقصي أحوال المطالبين بالمساعدة باعتبارهم فقراء والتثبت من صحة ذلك أو عدم صحته. كانت إلى جانب دقتها وتمحيصها، ذكية وفطنة.. هكذا تولت طوبىٰ بعد عام واحد مسؤولية إدارة

الشؤون التنفيذية لتلك اللجان الدينية.

من جهة أخرىٰ كان محمود يواصل دراسته بجد.. يقضي نهاره في العمل بأحد محلات بيع السجاجيد والمفروشات، وليله بين الدراسة في المدارس الليلية ومذاكرة الدروس. كان لا ينعم من النوم إلّا قليله ليستثمر هدوء الليل في مذاكرة الدروس. كان الحاج السيد «إسلامي» صاحب المحل يرعىٰ مع «محمود» جانب اللين إلى حد بعيد، وهو يراه شاباً سديد الخطى متفهماً لوظيفته ويأخذ ظروفه الدراسية وانهماكه بمواصلة الدراسة بالحسبان. كان له من وراء مساعدته لمحمود دافعان هما: الإنسانية ومراعاة المصلحة الذاتية، فأين له أن يعثر على مثل هذا العامل. كان قد سلمه جميع حساباته وسجلاته المالية ولم يلتفت أبداً لاختلاف ريال[١] واحد في محاسباته.. كان الله قد رزقه بثلاثة أبناء لم يكن أي منهم جديراً بتسليمه مسؤولية إدارة هذا المحل التجاري. وقد غدا محمود المتصرف الوحيد في ذلك المحل. لم يكن الحاج شخصاً معطاء ولم يخصص لمحمود راتباً عالياً فنبض قلبه يضطرب بمجرد فكرة دفع راتب باهض لأي شخص ومع هذا كان رجلاً طيباً كما أنه لم يمانع دراسة محمود بل يتغاضىٰ عن تغيبه ويحثه على الدراسة لإيمانه بما في مساعدة الشباب في مرحلة الدراسة من أجر وثواب.

أنهىٰ محمود مرحلة الثانوية خلال سنتين بدلاً عن ثلاث وحصل فوراً إثر نجاحه الباهر في امتحان الانتساب للجامعات على مقعد في كلية الطب بجامعة طهران. وفي احتفال ثنائي بهذه المناسبة قدم محمود شهادة البكالوريا وورقة الانتساب إلى كلية الطب وهدية صغيرة لزوجته بمشاعر تعمها النزاهة وقلب مفعم بالتقدير والامتنان. قالت «طوبىٰ» باسمة وهي تلقي إلى زوجها نظرات ذات معنى: سأضع هذه الوثائق في صندوق صغير لألحق بها الوثائق اللاحقة.

---

١ ـ عملة زهيدة جداً على غرار الفلس.

لم يعد بوسع محمود مواصلة العمل في المحل لالتزامه بحضور محاضرات الكلية أثناء النهار فعثر بمعونة الحاج «إسلامي» على عمل في مستوصف بالقرب من السوق يواصل عمله في وجبة الخفارة. صار ملتزماً بالعمل في قسم التحاليل في المستوصف بين ليلة وأخرىٰ لقاء راتب أكبر من راتبه في المحل وعن عمل أقرب إلى فرعه الدراسي.

انقضت ست سنوات على هذه الوتيرة وتخرج محمود طبيباً من شأنه أداء مهام الطبابة في ذات المستوصف. ولكن تحت إشراف طبيب آخر وبراتب مضاعف. وبهذا تمكن الزوجان من استئجار غرفة أكبر من الأولى ملحقة بالمرافق وفي حي أرقى.

عملت طوبىٰ خلال تلك السنوات الثماني على توسيع عملها الخيري على ذات المنوال ولكن بنمط جديد.. أسست مؤسسة صغيرة تولت إدارتها بنفسها ولاقت استقبالاً طيباً من قبل الخيريين الذين كانوا قد تنبهوا لحسن تصرفها في مساعداتهم للفقراء. كما أنها والى جانب ذلك واصلت دراستها ونالت شهادة البكالوريا.

وفي نهاية العام ١٩٦٦، حاز السيد الدكتور «محمود يكتا» درجة دكتور في الطب العام ثم رشحته إحدى الدوائر الحكومية نظراً للدرجة الممتازة التي حازها في الامتحانات النهائية ليمثلها في البعثة المتوجهة إلى أميركا لحيازة الاختصاص في فروع الباثولوجيا.

كان لا يتجاوز الاثنين والثلاثين وزوجته الثلاثين من العمر إلّا أنهما كانا من النضوج بدرجة ذوي الستين عاماً.. لقد حازا درجة الدكتوراه أولاً من جامعة الحياة الإنسانية وهذه هي ثاني درجة دكتوراه يقدمان على نيلها..

بعد ثلاثة أشهر استقلت طائرة لوفتهانزا الدكتور «يكتا» وزوجته وحلقت بهما نحو الولايات المتحدة الاميركية.

لقد عادا بعد عشرة أعوام إلى إيران.. الزوج أخصائي في الباثولوجيا العامة

وبروفيسور في علم الوقاية ويتمتع بخبرة تدريس في أفضل جـامعات العـالم لعدة سنوات، والدكتورة «يكتا» دكتوراه في علم الكيمياء الحيوية ولها خبرة في مجال التدريس وإجراء البحوث في إحدى أرقى جامعات أميركا.. عادا إلتزاماً بعهدهما ليواصلا العمل لخدمة أنفسهما وشعبهما وهما الآن أبوان لابنتين سمياهما «زهرة» و «أناهيتا».

هكذا لعب ذلك الحدث البسيط دوره في تقرير مصير إنسانين وغيّر مسيرة حياتهما.. أمطار خريفية شديدة.. قرية غطتها الأوحال، مدير جاهل و....، شاب ذو إرادة فولاذية لا تنثني..

الصبر مفتاح الفرج

جمعت الصداقة بيننا أنا وعلي منذ عهد الصبا. وذكريات الصبا لا تمتد إليها يد النسيان قط. مدرسة «اكباتان» الابتدائية ببنائها القديم وباحتها الفسيحة والطوب الأحمر الذي يغطي أرض الصفوف وتفوح منه رائحة الفخار أو الكلس عند رشه بالماء.. الألواح السوداء القاتمة القبيحة المظهر. الطباشير الصلدة التي يأتينا بها السيد «بابائي» فراش المدرسة صباح كل يوم ويضعها في حافة اللوحة. السيد «علي نجاد» مدير المدرسة بفخفخته الاسطورية التي تدفعنا لنعتبره آلهة القوة والسلطة. السيدة «فرخندة كيش» معلمة الصف الأول. كانت تضرب بعصا تمسك بها على يدي كلما لمحتني أكتب باليد اليسرى بمعنى: اكتب باليد اليمنى. السيدة «كوثري» معلمة الصف الثاني، ما زلت أذكر صوتها الانسيابي الرنان وهي تدعوني بلحن خاص ممسكة بدفتري كلما أسأت أداء الامتحان: «السيد هاشمي». أفهم من ذلك أنها تقول لي: تعال استلم مذكرة إدانتك.. السيدة «فرزاد» معلمة الصف الثالث والسلك الكهربائي الذي أعدته لمعاقبتنا به. السيدة «مشكين قلم» وعصاها المؤلمة (غصن شجرة الكرز الاحمر). الآنسة «مروي» معلمة الصف الخامس الانفعالية المحبوبة..

شارع «اميريه» وساقيتها العريضة وبلاطها المواج على الدوام بمياه قناة «امير بهادر» الصافية.. اشجار الصفصاف الهرمة على جانبي الطريق وطيورها البرونزية المهاجرة التي تقيم الدنيا ولا تقعدها في أوقات الغروب من فصل

الخريف.. الأرصفة النظيفة بمنظرها الأخاذ وكافيتريا «لادن» بمرطباتها الخاصة. سينما «فلور» وافلام العصابات.. وآلاف العوائل التي تسكن ذلك الحي.. ترعرعنا أنا وعلي في مثل هذه الأجواء. وتذوقنا حب الحياة بملء وجودنا. كنا نقضي فصل الربيع منذ بدايته في البحث عن أوراق شجرة «التوت» لما جمعناه من «دودة القز» ذوات الشرنقات الملونة الفاتنة التي تصنعها في أرجاء الدار بعد التخلص من علبة الأحذية الضيقة والمظلمة. والسيد «اسماعيل» المتعهد بشؤون المسجد المجاور لدارنا والذي اعتاد على إعداد ما يلزمه من الفحم لسماوره الفحمي الكبير في منقل يضعه أمام باب المسجد عصر كل يوم من أيام الصيف ليصنع الشاي في إبريقه الضخم المعرض للالتحام لمرات ومرات.. مازلت أجهل سبب كفه عن تحضير الفحم أمام المسجد في فصل الشتاء.

كانت دار علي على بعد عدة دور من دارنا.. دار قديمة وباحة مليئة بأزهار جميلة وحوض كبير يزدحم ماؤه الرقراق بأسماك حمراء وسوداء صغيرة.. وكم كان علي يختلق القصص المثيرة عنها. كان يقول: أبي يصطاد عصر كل يوم واحدة منها ويشويها لنأكلها. كنا نصدق حكاياته فنتمنىٰ أن تكون لنا باحة ذات حوض كبير ليفعل أبي ما يفعله أبوه. كنا نجلس إلى حافة الحوض فيبدو لنا أن أكبرها حجماً من ذوات البطون المليئة بالبيوض، قد ابتلعت شيئاً مهماً.. كانت أمه في منتهى الطيبة. تعد لنا دوماً أطعمة لذيذة وتنصحنا بقولها: حاولا أن تذاكرا دروسكما جيداً يا أطفالي، كونا مهذبين، امتنعا عن التحدث إلى عديمي الأدب من الأطفال عندما تخرجان من الدار. إن أخبركما أحد أن أمكما أو أباكما ينتظركما في مكان ما، حذاري أن تصحباه و... كانت تسدد لنا مثل هذه النصائح ونحن نصغي إليها فيداهمنا الشعور بالخوف تارة ونضحك أخرى وقد نتعجرف ونقول ساخرين: وكيف لهم اختطافنا؟!! سنلقي القبض عليهم ونعرضهم للويلات. ثم كنا نتحامل على البعض في حركة تمثيلية نستعرض فيها

خطتنا وطريقتنا لتعريضهم للويلات! كانت تطلق ضحكاتها وهي تقول: حسناً، حسناً، ستتنبهون حينئذ إلى مدىٰ خبثهم.

أما أبوه فقد كان لين العريكة ورؤوفاً للغاية. يتبارىٰ أطفال الحي لالقاء التحية إليه لعذوبة رده على سلامنا.

ترعرعنا أنا وعلي سوية وعلاقتنا تتوطد يوماً بعد يوم. كان كلما نواجه مشكلة يبسط يديه بحركة خاصة به ويشير إلى الأرض براحة كفيه ثم يدعوني إلى التزام الهدوء قائلاً: ترو، فالصبر مفتاح الفرج. وكنا بالفعل نصلح جميع أمورنا بما نبذله من جهود ومساعي. كان مشحوناً بطاقة وحيوية هائلة. يبدو دوماً في غاية المرح والنشاط. ألفته متفائلاً وراسخ العزم أبداً. يشعر بمنتهى اللذة من كل شيء. من سير دودة القز على أوراق التوت اليابسة وهو يستمع إلى صوت حركتها، من صنع الطائرات الورقية وتركها تحلق في الفضاء. كان يطري علي كثيراً لنجاحي في هذه المهمة ويبلغ سروره ومرحه حداً يربكني فتفلت زمام الأمور من يدي ثم يشب النزاع بيننا. أقول له: تربكني وهذه هي النتيجة. كان يعود للقول: ترو، فالصبر مفتاح الفرج. وماذا كان يسعني أن أقول لشخص لا يعنف أبداً ولا يترك للغضب والكراهية مجالاً للتسلل إلى نفسه. فأبدأ العمل من جديد لأصنع طائرة أخرىٰ.. كان محقاً دوماً فكل شيء يعود إلى حاله بطباعه وأخلاقه الحسنة. كنت متعلقاً به كتعلق السمكة بالماء دون أن التفت لذلك. كنت أنا المدير في ظاهر الأمور، وفي الواقع كان علي هو الذي يمد صداقتنا بالحيوية والنشاط. كانت نفسه تأبىٰ قطع العلاقة أو الشعور بالكراهية. صارت عباراته تنساق على ألسنتنا على قدم وساق. فعند تأزم الأوضاع أو شعورنا بالضيق أو عندما نراه يعزم على التفوه بشيء ما نعاجله بالقول: نعلم، نعلم، تروّوا فالصبر مفتاح الفرج.

خلال مرحلة المتوسطة ترك كلانا ذلك الحي. أنا سكنت مع أهلي شرق طهران وهو شمالها. وكم كنا نتقد شوقاً إلى لقيا البعض. كم ذرفت من الدموع

وربما.. هو أيضاً فعل ذلك. يقال أن الأطفال سريعو النسيان ولكنني لم أكن أنساه بل أعيش ذكراه على الدوام فأتخيل المشاهد التي تحلو لي على ذكره. ليس على صعيد الأحلام والخيالات بل كنت أجدني أعيش إلى جانبه مستقبلاً. هدأ روعي تدريجياً وأنا أجد نفسي إلى جانب أصدقائي الحديثين وفي مدرستي الجديدة. وقد يكون هذا إحساسه هو أيضاً. ثم التحقنا بالمدارس الثانوية: ثانوية «الهدف» بطلبتها المدللين المتميعين ومدرسيها المتشددين ودروسها الصعبة.

ذات يوم أبصرته في ساحة «بهارستان» يهز لي يده وهو جالس في المقعد الأخير من حافلة تقلّه. كان يضحك والهياج باد عليه.. لم يتغير فمه الكبير ووجنتاه المعلقتان، وجهه الدائري الأبيض الذي ينم بمعاني الرأفة وقد ازدانت بعدة شعرات من إمارات البلوغ وزادته تلويحاً لبراءته. حاولت الالتحاق بالحافلة جرياً ولكن السائق كان يأبىٰ التوقف وسط الشارع لكل من هب ودب و.. هكذا افترقنا مرة أخرىٰ.

وبعد امتحان الانتساب إلى الجامعات، سارعت فوراً بعد العثور على اسمي بين النائلين بالنجاح للبحث عن اسمه. كنت أريد أن أعرف هل شارك في هذا الامتحان؟ وهل نجح فيه؟ «علي مجد آبادي» أجل، لقد عثرت على اسمه ولقبه وتبقىٰ أن استوثق من اسم أبيه. أجل وهذا اسم أبيه.. إنه هو.. هكذا انتسب إلى جامعة طهران، فرع الفيزياء من كلية العلوم. إذاً، ما زال كعادته متفوقاً في درس الرياضيات. كان يدرسني هذه المادة التي لم أرغب فيها منذ الوهلة الأولى. كانت معلمتنا في الصف الخامس تحيط علماً بما بيننا من صداقة فتفوض إليه مهمة تدريسي. كنت أعجز عن الإصغاء إلى معلمتنا في حصة الرياضيات، لا أعلم السبب! ولكن علي كان يقول أنه يفهم المادة. كان تلميذاً متفوقاً. وكنت ضعيفاً في هذه المادة.

ذات يوم وبعد توليه مهمة تدريسي جل الكتاب قبيل امتحان منتصف

السنة أحرزت درجة أعلى من درجته. لكم كانت تعابير وجهه مضحكة. وكم سخرت منه. كان قد شعر بالضيق ولكن ضيقه كان يزول بمزاح بسيط مني أو بأدنىٰ تصرف رؤوف أشعره به. كان ملاكاً لا يعرف للألم النفسي معنى. تناهى النبأ إلى أسماع الآنسة «مروي» معلمتنا فوجهت لكلينا ذات يوم شكرها وامتنانها باعتبارنا قد أحسنا التعاون وأداء الامتحان. كنت أنوي أن أواصل تهكمي به وأنا أشعر بالامتنان له من صميم قلبي، ولكن لساني ينطق بكلام غير ما أكنّه. بدا لي أنه لا ينبغي أن أكشف له عن مكنون قلبي. ومع هذا كنت أقدر معروفه في حينه.. ذات يوم كتبت في حصة الإنشاء عن صداقتنا، عن صديقي ومكانته لدي. كان انشائي باعتباري تلميذاً في الصف الخامس بدرجة من الجودة لم تتمالك الآنسة مروي، معلمتنا الرؤوف والمثيرة للاعجاب، نفسها من البكاء عند الاستماع إلي وأنا أقرأه. بدا لبقية تلاميذ الصف أنني ما زلت أهزأ به بهذه الطريقة. كانوا يطلقون الضحكات تلو الضحكات، فالتلاميذ وبحسب قول المرحوم «رسول برويزي» يضحكون حتى لرؤية تصدعات الجدران. لم يستوعب كنه ما كتبته إلا نحن الثلاثة. أحرزت درجة تامة على انشائي. بعد انتهاء الحصة قال لي علي: «أيها المعتوه!» وكان يعني أيهما أصدق مزاح الإيذاء أم كلمات الحنين؟ كان ذلك الانشاء والدرجة العالية التي أحرزتها في مادة الرياضيات مدعاة لاعتبارنا صديقين نموذجيين من قبل تلاميذ الصف. هكذا نلنا مكافأة «أفضل الأصدقاء» من قبل معلمتنا الآنسة «مروي».. كان إبداعاً ملفتاً توصلت إليه هذه الفتاة المثيرة للإعجاب. توليت بعد ذلك تدريسه مادتي التاريخ والجغرافيا، وواصل هو تدريسي الرياضيات. كان قد أثار شعور أخته الكبرى بالحسد لكثر ما تباهى بي على أسماعها قائلاً بأن صديقي يحفظ أسماء كافة عواصم العالم عن ظهر قلب. كنا نشعر كأن ما نحيط به علماً لا يرقىٰ إليه فهم الآخرين. لم يكن هنالك فرق بيننا.. لما أحرز الدرجة الثانية في مادة الرياضيات بين تلاميذ جميع مدارس منطقتنا فاق اعتزازي به اعتزازه بنفسه

وهو كذلك صار يفخر بنفسه بدلاً عني عندما أحرزت الدرجة الثالثة في مسابقة المعلومات العامة بين تلاميذ المنطقة.

في أول يوم من أيام الدراسة الجامعية توجهت إلى كلية العلوم باحثاً عنه فعثرت عليه.. كان يتحدث إلى إحدى زميلاته فغلبني الحياء.. لم أتقدم نحوه.. أبصرني هو فترك الفتاة ولم يتمالك نفسه وصار يعدو نحوي.. إنها كانت لحظة اللقاء بعد فراق دام سبع سنوات. ما كان أكثر الأحاديث التي يفترض تحدثنا عنها.. كان نال من النضوج أكثر مما نلته بكثير وقد ترسخت لديه لهفة الحياة، الأمل بالمستقبل وحيويته التي تعم وجوده بل وزاد عليها.. كان لا يزال يكرر عبارته المألوفة: ترو فالصبر مفتاح الفرج.

ومنذ ذلك الوقت عدنا نلتزم بعضنا: في النشاطات الثورية عام (٧٨ـ١٩٧٩)، انتصار الثورة الإسلامية، أحداث شارع «بيروزي» وساحة الشهداء ونشاطات منظمة جهاد البناء وفيروزكوه ومياندواب و...، كان قد فقد أباه منذ سنتين أو ثلاث. وحال أبي لم تكن أفضل من حاله فقد كان يقضي الشهور الأخيرة من حياته لإصابته بالسرطان، ذلك المرض اللعين الذي قرر ابتلاعه وقضم زهرة حياته. ولكننا أنا وعلياً استفدنا الكثير من خبراته في الأشهر الأخيرة. كان مؤمناً بالله عاملاً في سبيله. لم يهب الموت. احتفظ بمعنويات عالية حتى في تلك الظروف.

إثر إحياء صداقتنا سعدت والدتانا بلقيا البعض من جديد رغم الاختلاف الكبير بين عمريهما فقد كانت أمه تقارب أختي الكبرى في عمرها. كانت تخاطب أمي «سيدتي»..

وفي خضم تلك الأحداث أعلنت الثورة الثقافية وتم إغلاق الجامعات لسنتين لم تفتر علاقتنا خلالها. كنا نقضي نهارنا بالتدريس في المدارس الثانوية ولياليناً في دورات تعلم اللغة الانجليزية. افتتحت الجامعات ثانية في عام ١٩٨٢ وعادت الأمور إلى مجاريها. وفي تلك الأيام قررت أمه البحث عن

زوجة له. فقد كان ابنها الوحيد وأسرته تعتبره ربها. ولكنني كنت أكثر تبجحاً منه حيث لا أرتضي أية فتاة زوجة له، وقد منحت نفسي مثل هذا الحق. كنت أخشىٰ أن أفقده بزواجه ولهذا نأخذ على كل فتاة يتم اختيارها مأخذاً ونتقصى فيها عيباً ما. كانت السيدة «ميناييي» ترد علينا ضاحكة: «تعال يا علي واعثر أولاً على زوجة لصديقك الحميم ليرضىٰ بالتنازل عنك». كنت أجيبها: لابد أن تفهم أنه لا يحق لها مضايقتنا في شؤون صداقتنا. كانت أخته الصغيرة «أناهيتا» تبتسم ابتسامة خفيفة وترنو برأسها نحو الأرض. كنت أحبها، لا رغبة في الزواج منها بل باعتبارها أُختاً لي. ولا أعلم. ربما أخطأت.. أما علي فكان يقول ينبغي أن تكونا أختين لنرتضيهما زوجتين. ولكنني لم أكن أتمتع بظروف تؤهلني للزواج.

ذات يوم قال لي علي: أشعر كأن هنالك انتفاخاً في بطني، لا أفهم ما هو؟ مر على الموضوع مرور الكرام ولكنني تقصيته فقد كنت في السنة الثانية من دراستي وكنت درست شيئاً حول الباثولوجيا. كنت أراه يذوب يوماً بعد يوم. تملكني القلق عليه. كنت أحس بأشياء لا تحمد عقباها. احتجزت موعداً لدى أحد أساتذتي وزرناه في عيادته. أجريت لعلي الفحوصات، التحاليل والصور الاشعاعية المختلفة التي حملت لنا أخباراً سيئة عن إصابة خبيثة. كنت بدرجة من الإحاطة العلمية بمثل هذه الحالة تمكنني من تقييم الوضع. رحت أطالع كتباً كثيرة واستفسر عما يجول في خاطري من اساتذتي. لم تطيّب ردودهم خاطري. كانت أسرته قد أنبئت بحالته. وهو كذلك. كان حاذقاً جداً والدليل على ذلك حيازته الدرجة الثامنة والأربعين من بين جميع المشاركين في أداء امتحان الانتساب إلى الجامعات. لم يكن ممكناً خداعه. ولكن حيويته كانت تفوق ما بدا لنا. كان ما يزال يقول: ترو، فالصبر مفتاح الفرج.

أجريت له عملية جراحية تم خلالها استئصال الغدد من بطنه واستلزم خضوعه للعلاج الكيمياوي ومن ثم العلاج بالأشعة. تساقط شعره خلال

مراحل علاجه القاتلة والمؤلمة فلم يتبق من قوامه سوى رأسه الكبير يعلو جسمه النحيف. كان ملتزماً بطباعه حتى عند رقاده في المستشفى، متفائلاً، مرحاً.

كان يمسك بعبوة الماء المغذي ويتجول بين غرف المستشفى غرفة غرفة. صار صديقاً للجميع: المرضين والمرضى والأطباء. بدا لي أنه يجهل مصيره أو أنه يتجاهل ذلك في آلية «الانكار» الدفاعية كما يسميها علماء النفس. إلّا أنه قال لي ذات يوم: إنني أعرف مرضي ولكن.. لابد لنا أن نتروى، فالصبر مفتاح الفرج. وقال لي في يوم آخر: الحياة كقطار يمضي إلى سبيله يتركه فريق في كل من محطاته ويلتحق به فريق آخر. إننا نلتحق بقطار الحياة يوماً ولابد أن نتركه في موعد محدد. ما يحظى بالأهمية ليس المدة التي نقضيها في القطار ولكن الأعمال التي تصدر عنا في هذه المدة.

في يوم من الأيام ارتجزت له أشعاراً للشاعر «فريدون مشيري»[1]، ضاق صدراً بهذه الأشعار. وقال: «إن الناس ليسوا خبيثين بل توقعاتنا هي التي تتجاوز الحد المألوف».

كان في حقيقة أمره لا يحسب أي إنسان بذيئاً. كان طافحاً بطاقة الحياة والأمل في الحياة لأنه لا يرى الموت نهاية بل تحولاً فيزيائياً بسيطاً، لا غير. لم

---

١ ـ جاء في شعره الحر ما معناه:

لماذا تخافون الموت؟

لماذا تهابون الأزل،

في هذه البرهة التي غابت عنها المروءة،

في هذه البرهة التي صارت القوة لمن يملك الثروة؟

اتركوا الحياة لهذه الزمرة اللا إنسانية المتلونة..

اتركوهم يريقوا دماء بعض ويزهقوا أرواح بعض..

دعوهم يتيهوا في ضجيجهم ويفتعلوا الضوضاء ما شاؤوا.

يكن ينوي التراجع عن موقفه. أخذت حالته تتحسن يوماً بعد يوم خلال الأشهر الستة التالية ونما شعره ثانية. تحسنت صحته. بدأ يحضر محاضراته بمجرد شعوره بتحسن حالته وعادت إليه معنوياته العالية التي كان يتسم بها من قبل. ولكن الغدد بدأت بالظهور ثانية بعد ثلاثة أشهر وصار بحاجة لإجراء جراحة ثانية. أجريت له بالفعل وكان من المقرر اخضاعه للعلاج الكيميائي والعلاج بالأشعة. ولكنه لم يرضخ لذلك. كان يقول باسماً: «ترو فالفرج سيأتي دون هذه الأمور».

كنت أتحسس راحتيه بين راحتيّ وهو يرقد على سريره في المستشفى. لم يتبق من هيكله أكثر مما كان عليه ونحن في المرحلة الابتدائية. كنا نتغطى سوية في تلك الأيام بغطاء واحد. ونحن مجتمعان لا نبلغ حجم إنسان راشد. كانت أمي تمازحنا فتقول: «لا تبلغان نصف الإنسان مجتمعين ولكن مشاكستكما وايذاءكما يضاهيان ما يصدر عن عشرة أشخاص». لم يكن علي مشاكساً وإن بدت منه مشاكسة فإنها تهدف للتغطية على أخطائي وإسهام نفسه معي للتخفيف من وزري. ولكنه.. في هذه المرحلة كان وحيداً. كان لابد له أن يمضي إلى سبيله على انفراد. فقد تعذر على المروءة التي أدعيها على الدوام أن تسعفني للقيام بأي عمل من أجله.. كم كانت رغبتي شديدة أن أرقد كعادتي تحت غطائه. أن أكون مثله وأتعاطف معه. بالضبط مثلما كنا نتقاسم همومنا وكذلك أفراحنا ونحن صغار. ماذا كان بوسعي أن أفعله؟ كان يقول: قلبي يعتصر ألماً عليك، فروحي قادرة على أن ترافقك وتكون إلى جانبك متىٰ ما شئت ولكنك غير قادر على ذلك. أطرق هنيهة ثم قال: «لا عليك، فالصبر مفتاح الفرج». رحت أفكر وهل يمكن ذلك؟.. لكن علياً كان يقول: «يمكن بالتأكيد».

طاب ذكره، كان استاذي الدكتور (ك) يقول بشأنه: أمارس مهنة الجراحة منذ أربعين عاماً ولكن هذا المريض يثير دهشتي حقاً. من أين يستمد كل هذه اللهفة للحياة والأمل بها؟ لا لجهل منه بحالته بل رغم إحاطته علماً بما حدث

له؟.

أقيم حفل ميلاده الخامس والعشرين وعلي راقد في تلك المستشفى. وضعنا قبعة طربوشية ورقية على رأسه وعلى رأس جميع المرضى الراقدين، الممرضين ومقيمي الاختصاص والطب العام في ذلك القسم. حضر الحفل استاذ القسم أيضاً. باركنا له هذه المناسبة وقرأنا له الأناشيد، ما أسعدها من ليلة. كان يضحك ويقول: إنها أفضل ليالي حياتي. كان الجميع يبكونه في غمرة فرحتهم بمرحه ولكن في غفلة منه. لم يضحك أحد سواه من صميم القلب.. انفقع أحد البالونات فعزم على نفخ آخر ليحل محله إلّا أن أنفاسه لم تسعفه فأخذته عنه وقلت ممازحاً: «لا تضغط على نفسك فستتمزق عضلاتك». أجابني ضاحكاً: «لم يبق لي عضلات لتتمزق». ثم استطرد: أرأيت أنك قادر على اصلاح الأمور متى ما عجزت أنا!!.

بعد اثنين وعشرين يوماً من ذلك الحفل المثير قضىٰ علي نحبه في ليلة ربيعية جميلة. كنت إلى جانبه وهو يحتضر. كان ينوي في لحظاته الأخيرة أن يتحدث معي بذات المظهر الذي ألفته منه ولكن قواه خانته. فقال متمتماً: لا بأس عليك، ترو، فالصبر مفتاح الفرج. أطرقت أفكر وما الذي سيفرج عنه؟

صرت أشعر بعد وفاته أنه يرافقني على مر اللحظات ويشحنني كعادته بالأمل إبان مصاعبي، قائلاً: ترو، فستصلح الأمور جميعاً. كان يغيثني حقاً لاصلاح أموري. في عام ١٩٨٦ وفي بحبوحة الحرب انتسبت إلى منطقة «كردستان». وفي يوم من أيام الصيف الملتهبة. ضاق صدري لشدة الحر في المستشفى الميداني المتنقل. فقصدت نهراً طافحاً بمياهه في منطقة «نوسود» لأسبح فيه. كانت أمواج النهر بدرجة من الشدة غلبتني وراحت تجرفني معها بين مياه متلاطمة وأمواج عاتية. امتلأت رئتاي بالمياه التي كنت أتخبط فيها بين الموت والحياة فأخذت استعيد ذكريات حياتي كشريط سينمائي.. لمحت علياً إلى جانبي وهو على ذات المظهر والحركات، ذراعاه مفتوحتان وهو يشير

براحة يديه نحو الأرض، ويقول: ترو، فالصبر مفتاح الفرج. كأنه كان يحاول انقاذي. وبعدئذ لم أعد أعي ما حدث. لم أفق من غـيبوبتي إلّا في المسـتشفى الصحراوي. قيل أن المياه تقاذفتني نحو جرف النهر. وربمـا يكـون عـلي قـد انتشلني إلى هنالك، وقد.. أصلح الأمور كما كان يعاهدني.

مازلت أتردد عليه مرة شهرياً.. إنني أشعر بوجوده إلى جانبي دوماً وهـو يشير براحة يديه إلى الأرض أن اهدأ.. فالصبر مفتاح الفرج وستصلح الأمور جميعاً. بهذا يمدني بطاقة معنوية أكون قادراً بها على إصلاح الأمور جميعاً.

ألوان وظلال

زارتني في عيادتي الصغيرة أم ترافق ابنتها في الحادية عشرة من العمر وابنها في الثامنة.. كانت الأم تعاني من الاكتئاب الكبير.. البراءة تلوح على محيا الفتاة الشاحبة المكدودة. وأخوها يحدق في وجهي من وراء نظارة سميكة يضعها على وجهه النحيف لشدة ما يعانيه من ضعف باصرته. كانوا من الطبقة الفقيرة، تسير شؤون معيشتهم براتب أمها العاملة، يبدو أن أباهما تركهما. منذ خمس سنوات انقطعت أخباره عنهم تماماً فهم لا يعلمون أميت هو أم حي؟.. كتبت للأم وصفة دفعتها إليها.. استلموها وانصرفوا وقد ترك ذلك الطفلان في نفسي مردوداً غير طيب.. كانا ضحية حياة زوجية فاشلة لا يمكن إلقاء تبعاتها في ذمة الرجل. ربما لم يعد حياً. فمن هم اذاً يا ترىٰ هؤلاء الثلة الكبيرة التي يقضون آجالهم في أرجاء البلاد على نحو أو آخر دون أن يتم التوصل إلى معرفة هوياتهم؟ وقد يكون بينهم عامل بسيط لاقىٰ حتفه إثر حادث سيارة ولم يتم التعرف عليه. كان الاحتمال ضعيفاً أن يكون على قيد الحياة. أن يكون حياً يرزق ولا يحاول الاستفسار عن أخبار ابنيه طوال خمس سنوات.

زارتني الأم بعد ذلك عدة مرات. وكانت تزورني في أغلبها وحيدة وأنا أتقصىٰ في كل مرة ألقاها أوضاع طفليها. ثم تركت زيارتي بعد أن تماثلت نوعاً ما للشفاء.

وبعد خمسة أعوام

دخلت غرفتي اثنتان من منتسبات الادارة العامة للشؤون الاجتماعية تصحبان فتاة في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، ليست على مايرام.. تعاني من أعراض مثل: الضحكات الممتدة بصوت مرتفع، صرخات تصم الآذان وحركات غريبة. قالت إحدى مرافقتيها: «لقد ظهرت هذه الأعراض لدى الفتاة التي تقابلك يا دكتور منذ عدة ليالي. لا نعرف كيف نسلك معها؟ لقد أوصانا السيد الدكتور (هـ) مدير الشؤون الاجتماعية بمراجعتك فقد يكون بوسعك معالجتها».

نظرت إلى الفتاة.. كان الهدوء قد تسلل إليها نوعاً ما.. كانت تنظر إلي وهي جالسة. نعم، إنها هي.. (معصومة. ب).

تساءلت بدهشة: ماذا تفعل هذه الفتاة في القسم الداخلي؟ إنني أعرفها، وماذا حدث لأمها؟

أجابتاني: أُمها على قيد الحياة، ولكن حكايتها مسهبة سنقصها عليك فيما بعد.. حالياً الفتاة تحت وصايتنا. لا يخفى أنها كانت طيبة الخلق منصاعة طوال الأربعة أشهر التي قضتها عندنا. لا نعرف لماذا انقلبت أوضاعها فجأة منذ عدة ليالي؟

بعد الاسئلة التي طرحتها وسماع ردودهما عليها شخصت حالتها إثر مراقبة سلوكها وحركاتها التي كانت قد ظهرت ثانية، إنها مصابة بضرب من الجنون الانفعالي وبدأت معالجتها على هذا الأساس. كانت دائمة الهذاء. يخيل إليها أنها زوجة نجم سينمائي لامع وأن اسمها «جلايل» ولها ابن اسمه «اميد». يسود بين الفتيات في مثل سنها وبدرجات متباينة هذه الأوهام والخيالات بأن لهن كذا زوج وكذا أطفال ويلجأن أحياناً إلى تغيير اسمائهن في مخيلتهن ليسمين أنفسهن

بأسماء أكثر عصرية. وقد يندمجن مع هذه الخيالات حتى يـواكـبنها وكأنهـا حقيقية رغم تثبتهن من كونها غير واقعية ثم يـتراجـعن عـنها بـعد لحـظات ويمسكن بزمام أمور معيشتهن من جديد. ولكن الحالة هذه كانت تختلف عن تلك لأنها هذاء والهذاء اعتقاد باطل يتمسك به الفرد تماماً ولا يمكنه التحرر منه بأي شكل من الأشكال.

عالجت الحالة وكانت غير مستعصية بل تتماثل للشفاء عادة دون عـلاج. أوصيت بتعاطي العلاج أثناء الأزمة فقط تحسباً من مبادرة المريض في تـلك اللحظات العصيبة إلى إلحاق أضرار جسمية بالنفس أو بالآخرين.

اتصلوا بي من دائرة الشؤون الاجتماعية في اليوم التالي وأنبأوني بأن الفتاة على خير ما يرام.

وبعد عامين

دخلت غرفتي شابة فاتنة جميلة القوام تناهز الثامنة عشرة من العمر وهي تمسك بباقة من الأزهار في يدها.. «معصومة. ب».. ضاحكة مرحة.. زارتـني لتقدم لي شكرها الجزيل لمتاعبي التي عظمتها. وراحت تعرب عن امتنانها لي لما لم يبلغ ما وضعته في حسابي.

قلت: إنني أشعر منذ عامين بالقلق إزاءك. فلقاؤنا الأخير لم يرق لي.. هل تذكرين تلك اللحظات؟..

ضحكت ورنت إلى الأرض بوجهها الذي علته الحمرة لشعورها بالخجل. لم أعرف أتذكرت ذلك أم كانت قد أخبرت بمجريات الحالة. والأمر مهما يكـن فإنني لم أتقصَّ ذلك الموضوع. وقلت: «حسناً، أخبريني، ماذا تفعلين؟ وكـيف حال أمك، أخوك و..». أرتأيت أن لا أسألها عن أبيها، فسرعان ما تمـالكت

نفسي وأحجمت عن إتمام عبارتي.

قالت: دعنا نترك التفاصيل يا دكتور، لقد أحرزت شهادة البكالوريا وأعمل حالياً سكرتيرة لأحد الأطباء. ضحكت ثانية. كان ذات الوجه البريء يزدان في هذه المرة بالجمال والمرح. لقد تحولت إلى سيدة متكاملة بما في هذه العبارة من معنىً. وقد أحرزت مؤهلاً جيداً بين أمثالها. لم تطل زيارتي. قالت: «ينبغي أن أعود إلى الدار فأمي بانتظاري».

استنتجت أنها ما تزال تعيش مع أمها. قلت: أكثري من زيارتي وأطلعيني دوماً على أحوالك.

قالت: سمعاً وطاعة. ثم انصرفت.

وبعد سنة واحدة

دخلت غرفتي سيدة في متوسط العمر تضع على رأسها «تشادر»[١] ملوناً بالياً.. لم يرق لي مظهرها منذ النظرة الأولى.. معاني الخبث كانت لائحة في عينيها، فالعينان مرآتا الروح والنفس. قد يكون من المقدور التغطية على الملامح السلوكية والكلامية وبمستوى أي ممثل بارع، قد يمكن إرادياً ضبط تعابير الوجه بهدف خداع الآخرين ولكن يتعذر ذلك فيما يخص العينين.. اصطحب أحد أصدقائي في زياراته لي عدة مرات رجلاً اضطره الإفلاس والتعرض لأزمة مالية شديدة إلى استئجار غرفتين في داره.. كان صديقي المحسن يقدم له معونات مالية ومعنوية جمة، وهو دائم التفكير به وبأسرته والرثاء لحالهم. لم أنجح في جميع هذه الزيارات من إقناع نفسي بأن الضيف، كما يصفه صديقي، رجل بسيط، طيب القلب، مفلس. كانت في نظراته لمحة تشعرني بعدم الارتياح

---

١ ـ غطاء يشبه العباءة تستخدمه النسوة في إيران.

كأنها نظرات أفعى: مستقرة، ثاقبة، لا روح فيها ولا رأفة. لم أكن أعرف حكايته ولم أرغب في معرفتها فوقتي لا يسع لتحليل وضعه وموضوعه. لم يكن شأناً يعنيني. كل ما كنت أعرفه هو أنه يخفي شيئاً مريباً.. وفي قضيته نقطة غامضة. الأمر مهما كان كشف عنه اللثام فيما بعد وكان يتعلق بعمله الذي انشغل بمزاولته خلال سنيّ إقامته في دار صديقي.. تجارة المخدرات.

وهذه السيدة هي الأخرىٰ لم أشعر لها بالارتياح. قالت: زوجة ابني يا دكتور إحدى مرضاك وقد تدهورت حالتها حتى توجهنا بها إلى طهران. فأرقدت في المستشفى هنالك.. طبيبها طالبنا أن نأخذ إليه سجلها لدى الطبيب السابق.

ـ وما اسمها؟

ـ «معصومة. ب».

غلبتني الدهشة. وكيف ذلك؟ زارتني قبل عام وهي لم تكن متزوجة بعد. ومتى تزوجت؟ وكيف تدهورت حالتها؟ عدت أسألها: عفواً سيدتي، منذ متى تزوجت ابنك؟

ـ منذ حوالي السنة. لقد تدهورت حالتها بعد الولادة.

ـ عجباً. إذاً صار لديها طفل أيضاً. وجهة نظر الطب النفسي تؤيد إمكانية معاودة الكثير من الأمراض النفسية بعد الولادة. وهي حالات لا تحتاج إلى مدة طويلة لضبطها. وحالتها كانت من هذه الحالات اساساً. وقد تصاب النساء بعد الولادة بحالات نفسية لا علاقة لها بأمراضهن السابقة بتاتاً وسرعان ما يتماثلن في مثل هذه الحالات إلى الشفاء. إنها حالات لا تمت لتاريخ حالتهن النفسية بصلة بل تنشأ عن اختلال هورموني يتم التغلب عليه تماماً فيما بعد.

كانت تتحدث باضطراب لا يوصف عن حالة زوجة ابنها وهي تـطالبني بدفع السجل لها.

قلت: حسناً جداً. ولكن القانون يلزمنا نحن الأطباء أن لا نفعل مثل هذا إلّا إزاء طلب تحريري أو أن يتم ذلك أثناء حضور المريض نفسه أو تكون الجهة المطالبة هي الادارة العامة للشؤون الاجتماعية. وأنا غير مخول بتسليمك مثل هذا السجل..

ـ أنا أم زوجها يا دكتور. أم الزوج تماثل الأم.. أحبها أكثر من نفسي.. لا أنوي الإضرار بها لا سامح الله. كيف يمكنك أن لا تثق بي؟.

قلت: «سيدتي، القانون يحدد واجبنا. والأمر خارج عن ارادتنا. آسف».

انصرفت معربة عن استيائها.

بعد أحد عشر شهراً

في يوم شتوي، قارص البرودة، زارتني معصومة. كانت مكدودة، مسحوقة، حزينة وكئيبة. نهضت استقبلها وقلت: أين حل بك الدهر يا معصومة؟ ولماذا أنت على هذه الحال؟ ماذا حدث؟ وأين زوجك؟ لماذا قصدتيني وحيدة؟.

جلست على الأريكة. غلبها الوجوم وهي تحـدق في نـقطة مـا ثم بـدأت حديثها دون مقدمة قائلة: طلقني، أخذ طفلي، لا يسمحون لي برؤيته.

ساد الصمت هنيهة. قلت: لا أقوىٰ على فهم الموضوع. إبدأي الحديث منذ أن زارتني أم زوجك.

ـ لا أعرف متى زارتك.

ـ فابدأي منذ يوم زواجك.

ـ تزوجت في العام الماضي. كانت حياتي هانئة وكـان زوجـي في مـنتهى الطيبة. كان يحبني، لكن أمه كانت تعارض زواجنا منذ البدء. تؤذيني. تحقرني لأن أمي خادمة وأنا مترعرعة في دور الأيتام و... إلّا أن زوجي كان يحبني ولا يعلق أهمية على رأي أمه. وبعد الحـمل والولادة عـاودتني حـالتي النـفسية. وعادت لتختفي بعد أربع وعشرين ساعة ولكن اكتئابي استمر لفترة اسبوعين أو ثلاثة ثم تماثلت للشفاء تماماً. ومنذ ذلك الحـين تشـبثت أم زوجـي بهـذه الذريعة واقنعت زوجي بأنني معتوهة ولابد أن يطلقني. لقد تسلموا طفلي منذ يوم ولادته ولم يسمحوا لي أن أراه. أخبروني أنهـم، مـا أن اتمـاثل للشـفاء، سيعيدونه إليّ ولكنهم لم يـفوا بـوعودهم. قـالوا سـنسلمه لك إن تم الطـلاق وسندفع لك النفقة والمهر أيضاً. المحكمة لم توافق على الطلاق. القاضي كان يقول أن الطب العدلي أيّد كون حالتي غير مستعصية وأنني قادرة على مواصلة حياة طبيعية ولكنها كانت لا تكف عن ايذائي، تخيفني، حتى قال زوجـي: أطـلبي الطلاق فعلاً لتهدأ أمي ثم نتزوج ثانية بعد عـودة المـياه إلى مجـاريها. قـبلت الاقتراح. قال: قولي انك تسلمت مهرك، قلت: حسناً. لم يكن لي من يهـديني السبيل.

قلت: ولِمَ لم تزوريني وتستشيري إدارة الشؤون الاجتماعية؟

قالت: كأن عقلي قد تحجر، كنت قد تماثلت للشفاء تواً.. طلقني عـلى أيـة حال. منذ سبعة أشهر لم أر طفلي. انقطعت أخبارهم أيضاً عـني. يـقال أنهـم يبحثون له عن زوجة..

تسمرت في نقطة ما وانهمرت الدموع من عينيها كأنهـا تسـير في المـنام. تتحدث وهي سامدة، هائمة في أفكارها. وأخيراً قالت: أشعر بصداع يا دكتور. لا أريد الحياة. اكتب لي دواء يريحني من فضلك.

كان بوسعها تتبع القضية قضائياً لتسترد بعض حقوقها عن طريق القانون. ولكني وجدتها على حال لا يتلاءم أبداً مع هذه الاجـراءات. قـلـت: تـروي. فربك حليم كريم. تعاطي هذه الأدويـة الآن ثم تـعالي لزيـارتي في الأسـبوع القادم.

أرتأيت أن أهدئ روعها أولاً بالدواء. لم يكن هنالك من حل آخر. دفعت لها الوصفة فودعتني في سكوت قاتل وانصرفت.

بعد سنتين:

وردت غرفتي مسؤولة الشؤون الاجتماعية.. ذات المسؤولة التي كانت ترافق معصومة قبل عدة أعوام وكانت تصطحب في هذه المرة طفلاً يعاني من إعاقة ذهنية وكذلك من اضطراب سلوكي. كان يؤذي بقية الأطفال في غرفته. كتبت لها وصفة بعد فحص الطفل والاستماع إلى تفاصيل حالته. ولما فرغت من عملي سألتها عن معصومة قائلاً: هل أنت على اطلاع بأنبائها؟

قالت باسمة: الحمد لله. لقد حسنت عقباها.

بدا لي أنها أخطأت في معرفة الشخص فأردفت: أقصد (معصومة. ب) التي جئت تصحبينها قبل عدة أعوام.

قالت: أجل، أعنيها هي.

ـ وكيف؟

ـ كنا جميعاً يا دكتور قلقين بشأنها. بذل زملائي في سبيل العناية بها مـن الناحية المعنوية والنفسية والمالية الكثير. كانوا لا يبخلون عليها حتى وإن لزم الأمر الانفاق من أموالهم الشخصية. كانت أمها تحتار في أمرها. وهي مـلزمة بالعمل في الدور منذ الصباح وحتى المساء.

في هذه الفترة بالذات، تعرف أحد منسقينا على شخص توفيت زوجته الأولى دون أن يكون له طفل منها وكان يفكر بالزواج ثانية. عرضنا عليه الزواج من معصومة على أن يراها عن بعد أولاً. ثم قدمناه إلى معصومة واجتمعا ليتعرفا على بعض. هكذا رغب كل منهما في الآخر. قصصنا عليه حكاية الفتاة وأرشدناه إلى عنوان عيادتك ليتشاور معك إن رغب في ذلك. لقد ارتضىٰ كل شيء. كان رجلاً في غاية الوقار والاحترام يتمتع بوضع مالي لا بأس فيه. والاختلاف النسبي بينهما، وإن وجد، إلّا أنه لم يكن كبيراً. كان السيد (ك) يقول: لا أتوقع من معصومة شيئاً أبداً. أريدها زوجة لي، لا غير. كان قد تعلق بها. لم يترك الموضوع في هذه المرحلة بل قصدنا السيد (ب) وكانت أمها تعمل في بيته لسنوات عديدة. أنبأناه بالموضوع فتكفل شاكراً بدفع قسم من نفقات إعداد جهازها[1]. تم الاتفاق على أن نبتاع ما يلزم ويدفع هو المبلغ مقابل الفاتورة. استعنا بلجنة إغاثة الإمام الخميني (ره) أيضاً. وهكذا تم إعداد كل شيء يا دكتور خلال شهر واحد... وزفت معصومة إلى بيت زوجها.

عندئذ أطلقت ضحكة من صميم القلب أفصحت عن بهجتها بتدابيرهم الخيرية هي وزملائها. قالت: لقد قضت حتى الآن حياة سعيدة. فزوجها مغرم بها.. زارتنا قبل أيام. قالت: زوجي ينوي إلحاق أمي وأخي بنا لأن وجودهم إلى جانبي ضروري في فترة حملي. يبدو يا دكتور أن هنالك أخباراً سارة..

الفتاة كانت تقص عليّ التفاصيل بلهفة تامة. وقد اجتذبني حديثها حتى نسيت أنني في عيادتي، كأنني كنت في ضيافة أتسامر فيها. لا أعرف بم أجيب متحدثي. سروري بمصير الفتاة وأهلها بلغ ذروته ومن جهة أخرىٰ أسعدني

---

١ ـ جرت العادة في ايران كما في بعض البلدان الأخرى أن تتعهد عائلة العروس باعداد الجهاز على حسابها.

منتهى الصفاء والمودة التي تعم وجود هؤلاء الشباب مـن مسـؤولي الإغـاثة وأسعدني أكثر من ذلك بكثير إثبات صدق مبادئي ومعتقداتي فيما يخص التفاؤل خيراً بالمستقبل وبعدل الله قبل كل شيء.

دار لا أطيقها

السيدة (ك) معلمة الصف الخامس وزوجها السيد (ك) تقنيّ ماهر في مصنع لصنع السيارات في مدينة «أراك». كان كلاهمايتمتع بالثقافة وبما يتناسب مع مهنته من مؤهلات. لهما ابنتان «روشنك» و «پريسا». «روشنك» في الثالثة والعشرين و «بريسا» في السابعة عشرة من العمر. زارتني السيدة (ك) برفقة ابنتها الكبرى بهدف التغلب على مشكلتها. قالت أن ابنتها تنوي الرحيل إلى «طهران» لتقيم فيها. يبدو أنها عثرت على عمل في أحد مكاتب الخطوط الجوية وترتأي استئجار غرفة لتسكن فيها على انفراد. كانت السيدة (ك) تعارض رأيها. قالت لي: «إن أية سيدة شابة وجميلة، لا سيما وإن سبق لها الزواج ومن ثم الطلاق ستواجه لا محالة مشاكل ومضايقات عدة إن قررت العيش على انفراد في مجتمع كبير كمجتمع طهران. يبدو للكثير من الرجال يا دكتور أن الأرملة فريسة طيّعة، خاصة إن كانت تعيش على انفراد. ثم أن النساء بدورهن يتعاملن بشك وريبة مع مثل هؤلاء النسوة. ربما تؤمّن ابنتي تكاليف معيشتها. وقد يكون بوسعنا أن نؤازرها قدراً ما من الناحية الاقتصادية ولكن هذا لا يعني ان بإمكاننا تناسي القضايا الاجتماعية. إن «روشنك» امرأة شابة ولابد لها من التفكير بالزواج ثانية. إنها فيما لو تقرر

البقاء في هذه المدينة والعمل في نطاق مؤهلها الدراسي، أقصد تدريس اللغة الانجليزية، فإنها حسب علمي أنا والأقارب والجيران، ستنجح في مواصلة الحياة بسهولة ودون عراقيل. فإن أتاها خاطب فله أن يستفسر عن ماضيها.. كفاها النظرة الايجابية التي يخصها بها الآخرون. أما في طهران فمن يعرفها؟ إن عيشتها على انفراد تحتسب بحد ذاتها نقطة سلبية في حياتها. سيقال أنه لابد من سبب دعاها لترك أهلها أو دعاهم يتركونها تعيش على انفراد. ولهذا فأنا وأبوها نعارض بشدة رحيلها إلى طهران. قلت لها يا دكتور، إن رحلت، عليها أن لا تعود فقد ائتمنا الحجة معها».

من جهة أخرى قالت «روشنك»: يا دكتور. إنني أشعر أن «أراك» بالنسبة لي بمثابة السجن. أنا أكره هذه المدينة. إنني عندما أسير في الشوارع أو تلتقي عيناي بعين الناس يخيل لي أن الجميع ينادون وبأعلى صوتهم: إنك أرملة! أينما أولي وجهي أقابل الأصدقاء والمعارف فأشعر بأنهم يلقون نظرات تحمل معان خاصة. كأنه يفترض علي أن لا أخرج من الدار. فإذا فعلت فإنني لا أنوي التهافت وراء شهواتي وهوى نفسي. وفي الدار أكون مرغمة إما أن أعمل كخادمة أو أنشغل بمطالعة الكتب. أتعرض للسخرية كلما عزمت على التكلم (قالت ذلك وهي تشير إلى أمها) وأواجه بالعبارة «هذا ما قررتيه بنفسك. لكم حذرناك» وما إليها من عبارات. ثم أن راتبي المقترح في طهران جيد جداً يضاهي ضعف الرواتب في «اراك». ولهذا فقد اتخذت قراري النهائي وينبغي على الآخرين عدم ارغامي على البقاء. لا يهمني أن لا أعود فسأكون قادرة على توفير لقمة العيش ومكان للسكن لنفسي..

الطريف أن كلتيهما كانتا على حق وكلتيهما تبرهنان على كلامهما وتوضحان الأدلة بجدارة، فكلتاهما صاحبة مؤهلات تعينها على عرض أفكارها والاستدلال على صحتها. ولكن الموضوع لم يكن بهذه البساطة. شعرت أنني

بحاجة للتحدث مع كل منها على انفراد فلكل انسان مشاعر يخفيها في حنايا قلبه أو قضايا يصطخبها في عقله لا يتيسر له الإعراب عنها لأقرب الناس إليه أو لا يرغب في ذلك على الأقل. بدا لي أنهما ليستا مستثنيتين عن هذه القاعدة. ولي أن أفهم أُموراً كثيرة خلال الجلسات الخاصة. اقترحت أن تأتي «روشنك» لمقابلتي في المرة القادمة دون اصطحاب أمها.

وبعد أربعة أيام حضرت الأم وابنتها إلى عيادتي في الموعد المحدد أي في الساعة الثامنة ليلاً فمكثت الأم في غرفة الانتظار ولقيت البنت على انفراد. قلت لها أولاً: «إنما أردت مقابلتك على انفراد لعلك تحدثيني عن أمور يتعذر عليك البوح بها أمام أمك. فإن كانت ثمة أشياء من هذا القبيل يلزم اطلاعي عليها فتفضلي، أخبريني عنها رجاء».

ـ «لا يا دكتور، لقد أخبرتك بكل شيء تقريباً في الجلسة الأولى ذاتها ولا يخطر ببالي شيء آخر».

لقد اعتدنا على هذا السلوك، فالزبائن يتلقون الاقتراح حول التحدث عن مكنونات قلوبهم بأسلوب دفاعي فيبادرون في البداية للتغطية على بعض الأمور تلقائياً. ولهم الحق في ذلك، لأنهم يهابون أن ينتهي الكشف عن مشاعرهم المكبوتة إلى تبلور الصعاب في طريقهم. وحول هذا الموضوع يفترض على الطبيب العمل على كسب ثقة المريض وأن يتمتع بالقدرة على حث المريض لإماطة اللثام عن أفكاره المكبوتة بفراغ بال وأن يطمئنه بأن كلامه سوف لا يتسرب إلى مكان آخر دون استئذانه. فهذا الموضوع يمثل جزءاً هاماً من اختصاصنا. أما أسلوب التغلب على الآليات الدفاعية المتخذة من قبل الزبائن ومقاومتهم للاستجابة عن طريق اكتساب ثقتهم فهذا ما يقرره إلى حد بعيد براعة الطبيب الفردية ومهارته في نيل ثقة مرضاه.

قلت لها: يبدو لي أن قضيتك والأزمة التي تعانين منها حالياً لا ترتبط

بالأيام الأخيرة من حياتك فقط بل تعود جذورها إلى طلاقك والطلاق إلى الزواج والزواج إلى طريقة الاختيار والاختيار إلى نمط رؤاك ونمط الرؤى إلى نهجك في الحياة، لابد أنك تقرين هذه الأمور بنفسك أيضاً. أرىٰ يا سيدة «روشنك» أنك خرجت عن المسار الطبيعي للحياة منذ أمد بعيد وستنأين عن طريقك الصحيح أكثر فأكثر كلما مضيت في هذا المسار. يكفيني دليلاً لاثبات صحة رأيي هو ما تواجهينه من مشاكل غير طبيعية بشكل مستمر. وإلّا فإن الحياة ليست بهذه الصعوبة فالصعوبة تتولد من كونك قدت مركبة الحياة في طريق مليء بالأحجار ولهذا تتعرض إطارات مركبتك للعطب بشكل متتال. هل تقرين بصحة هذه الاحتمالات؟

ـ تماماً يا دكتور.

ـ حسناً جداً. حدثيني منذ متى ولماذا خرجت عن المسار الطبيعي؟ أريد أن أعرف منذ متى تشعرين ان حياتك ليست على غرار حياة الفتيات من قريناتك؟

قالت ضاحكة: يبدو أن الموضوع قد تحول يا دكتور إلى أكثر من جاد. أتريدني أن أصارحك. لقد زرتك تحت طائل إلحاح أمي وإلّا فان قراري بالرحيل إلى طهران أكيد لا محيد لي عنه. ولكن ما دام الموضوع قد وصل إلى هذه المرحلة دعني أبوح لك بعقدة تنخر في قلبي منذ سنوات.

ـ أنا في خدمتك.

ـ لم يكن لأبي يوماً مهما أسبر أغوار ذاكرتي أي دور في حياتنا. إنه يكتفي بكسب المال وتقديمه لأمي دون أن يكون له أي دخل في باقي القضايا. لقد واصلنا حياتنا، طوينا مراحل الدراسة، حضرنا المآدب والضيافات وسافرنا وترعرعنا على أية حال وأبي لا يمثل أكثر من لوحة خاوية أو بالأحرى ظل

يتراءى لنا في حياتنا. أمي كانت المسؤولة عن كل شيء: الشراء، الطهي، الصنع والبناء، و... إلى جانب عملها في خارج الدار. لم نعرف أنا وأختي الصغرى من الناحية النفسية المعنوية معنى الأمومة أو الأبوة في حياتنا لأن وجودهما إلى جانبنا لم يتجاوز أطره الفيزيائية. كنا نتمنىٰ دوماً أن نسافر سوية أو نحضر ضيافة سوية أو حتى نجلس إلى بعضنا في الدار أو نستضيف الآخرين على غرار صديقاتنا. إلّا أن أبي كان يبعثنا ويتجه هو نحو محل عمله أو يقضي وقته بين اليقظة والنوم في الدار.

إنه رجل طيب للغاية، يعمل منذ أن تسعفني ذاكرتي اثنتي عشرة ساعة في اليوم. كان يؤمن بأننا سوف لن نشعر بأي نقص إن أمّن الجانب المادي من حياتنا. عمله يتحدد بثماني ساعات في اليوم يلحقها بأربع ساعات من العمل الإضافي تسلبه القدرة على التعايش معنا في الدار. والذنب في هذا الموضوع ربما يلقى على عاتق أمي أيضاً. كانت وما تزال تتمادى في الطموح. إنها تخطط بدقة للحياة وقد وضعت خطة صارت حياتنا وفقها مليئة بالأقساط المتنوعة.. بيت فاخر، أثاث أنيقة، سيارة و... كلها ابتيعت بالأقساط، أقساط سلبت أبي حق التمتع بأوقات الفراغ وإن رغب في ذلك. كانت أمي تعلن عن اعتراضها فيما لو ترك العمل الإضافي ولو ليوم واحد، وتقول له: وكيف ستسدد الأقساط؟ ذنب أبي تحدد بفقدانه الارادة لمواجهة أمي. والسبب يعود لشدة حبه لها. لقد ذاب في شخصيتها. أما أمي فإنها لم تكن أقل سعياً من أبي. فبعد ساعات التدريس في المدرسة تأتي بالتلاميذ إلى الدار لتقوم بتدريسهم على حسابهم الخاص ولساعتين على الأقل يومياً ثم ينبغي عليها أن تؤدي أعمال المنزل على عجل لتفرغ بعد ذلك لمتابعة دروسنا وواجباتنا وفي نهاية المطاف يغطان في شبه غيبوبة وتبدأ حياتهما على ذات الوتيرة في صباح اليوم التالي، وكأنهما يستعيدان عرض فلم حياتهما على مر النهار.

كنا نتمتع بكل شيء مقارنة مع غيرنا وبرفاه أكبر مما تحظى به الكثير من صديقاتنا ولكن معاناتنا كانت تتمثل في أمر آخر: الوحدة والعزلة. فحضور أمي إلى جانبنا لتتحدث معنا، وبأسلوبنا، كما كانت تفعل مع تلاميذها الذين يحضرون إلى دارنا، صار طموحاً لا يلبى بالنسبة لنا. إنها بالمناسبة مثالية في نجاحها وجدارتها المهنية سواء علمياً أو أخلاقياً... هكذا عشنا وحيدتين. صحيح أننا كنا نرغمها أحياناً للجلوس إلينا والتحدث معنا والإصغاء إلينا ولكننا كنا نشعر لشدة انشغال أفكارها بقضايا أخرى أنها تجالسنا بجسمها دون روحها. كان يخيل إليها أنها تلبي حاجتنا إليها بهذه الطريقة ولكننا رغم صغر سننا كنا نفهم جيداً من خلال ضحكاتها وكلامها المصطنع أنها إنما تحاول القيام بواجبها إسمياً. كنت مسؤولة عن كافة شؤون «بريسا» تقريباً. وكانت رغم كوني أعلل نفسي وانشغل بها إلى حد ما، إلّا أنني كنت أعاني في علاقتي معها من مشاكل خاصة. الحق كان دوماً مع «بريسا» وكنت ملزمة باعتباري الأخت الكبرىٰ أن أبدي جانب اللين والمسامحة و...

طوينا مرحلة الصبا ثم البلوغ: كان بلوغي بدرجة من الحدة بحيث ازداد طولي ثلاثين سانتيمتراً خلال السنة الواحدة. وغدوت أطول وأضخم من سائر قريناتي. كان يتعذر على كل من يراني أن يخفي دهشته، أو بحسب تعبيري تطفله، مما أتىٰ عليّ باضطراب مهيب وتحسس نفسي زائد. كان جسمي قد نضج ولكنني لم أنل أي امتياز خبري أو نفسي يميزني عن العام الماضي. كنت ما أزال طفلة بينما يخيل للمجتمع ولا سيما لأمي أنني أصبحت امرأة فازدادت التوقعات مني. كفاني ما كنت أقاسيه في المدرسة والمجتمع ومن قبل الأقارب، إلّا أن أمي وبدلاً عن أن تحول البيت إلى بيئة آمنة تمنحني الفرصة لتفريغ مشاعري النفسية وتجعل حضنها مأوى يمدني بالهدوء، كانت هي الأخرى تتحدث مثل الآخرين وتؤيد كلامهم.. ألقت مسؤولية الطهي على عاتقي. أوجز لك الموضوع يا دكتور بأنني ورغم حظوتي بأبوين طبيبين ومثقفين واعيين ـكما

يحسبها المجتمع ـ كنت في حقيقة الأمر محرومة من الأب وكذلك الأم.

ترسخت في مخيلتي بعد البلوغ أفكار جديدة. كنت أتعرف على أمور جديدة من خلال تحدثي إلى صديقاتي، حول النساء والرجال، الفتيان والفتيات و... لكني أعتز أني احتفظت بنزاهتي على الدوام. كانت شخصيتي وكبريائي يمنعانني من الانزلاق نحو الخطيئة وإن رغبت في الانجراف نحوها أو قادتني إليها غريزتي. إلّا أنه هنالك قضايا كان لابد أن أتبينها. كانت التساؤلات تزدحم في عقلي ولابد أن أعثر على من يجيبني عليها. كنت بحاجة إلى من أحذو حذوه وأتأسىٰ بنهجه. كنت أريده انموذجاً. وأين هي أمي لتغدو أنموذجي. لم تكن قط ملكاً لي. كانت إنساناً آلياً تتصور على مر حياتها أنها تجهد وتضحي بشبابها من أجل رفاهنا وقد صدق تصورها. ولكنها بخلت علينا بما أردناه. أتعلم يا دكتور، إنها فقدتني منذ شعرت بحاجتي إلى قربها مني ولم أجدها، منذ أن أهملت حاجتي النفسية والمعنوية إليها. يخيل إليها أنها ستفقدني برحيلي عنها. ولكها فقدتني منذ سنوات. إنني واثقة أن «بريسا» ستخطو مثل خطاي بعد سنوات.

أمي ترىٰ كل شيء في المأكل والملبس والحياة المرفهة. ترىٰ أنني لبيت حاجتي النفسية عند إحراز درجة تامة في الامتحان ولهذا كانت لا تكف عن الضغط علي بخصوص مذاكرة دروسي.. درجاتي المحرزة كانت لا بأس فيها بحد ذاتها. ولكنها كانت تستعين لي بالكتب المساعدة وبالمعلمين لترقية درجاتي. واصلت هذه المسيرة دون أي تغيير فيها.. عندما عجزت في امتحان الانتساب إلى الجامعات عن تحقيق الدرجة المطلوبة للانتساب إلى كلية الطب كما كانت تطمح أصابها الحزن رغم عدم اساءتها التصرف معي وكأنها فُجِعت بوفاتي. كنت أتمنىٰ أن تنهال علي بالسوط شرط أن تكف عن تعذيبي بهذا الأسلوب. وفي السنة التالية أحرزت القبول في الفرع الذي أرغب فيه أي

هندسة التعدين في جامعة «شيراز». حزنت ثانية وقالت: وهل يمكنني أن أترك ابنتي ترحل إلى مدينة غريبة وتنأى عن الأسرة؟ وماذا سيقول الناس؟ و...

انتهى الموضوع بممانعتها من انتسابي إلى الجامعة. وانتسبت أخيراً إلى فرع اللغة الانجليزية بالجامعة الحرة في مدينة «اراك». عندما تعرفت على «جواد» (زوجي السابق) ولقيت منه حناناً، أسدل وضعي النفسي غشاوة على باصرتي فلم أفطن لما فيه من إشكاليات. كنت لا أفكر سوى في الخلاص من ذلك البيت الانيق والحياة المرفهة المتجردة عن الروح والتفاعل بأسرع ما يمكن.. أصبحت زوجة لمن يحبني ويعرب عن مشاعره نحوي ويفهم احتياجاتي الروحية. كان جواد هكذا بالفعل. رؤوفاً ومحبوباً. بعد زواجنا تنبهت إلى أنه مدمن على المخدرات كما أنه لا يحرز أية مؤهلات دراسية ولا ينتسب إلى عائلة لها شأن يذكر كي ألجأ إليهم. كان لا يرغب في بناء نفسه وحياتنا الزوجية.. يكفيه أن يتمتع بالراحة والسرور وأن يقضي حياته هانئاً. كان انساناً طيباً مفعماً بالمشاعر ولكن متسكع يفتقد الإحساس بالمسؤولية. عندما سألته: لماذا كذبت علي إلى هذا الحد؟ قال: لشدة محبتي لك. فكرت أنني سأفقدك إن صارحتك بالحقيقة. كانت أمي منذ الوهلة الأولى تعارض زواجنا. ولكنني ربما لرغبتي في عنادها قلت سأنتحر إن رفضتموه. حاولت ملياً إثارة نخوته وحرصه على حياتنا. لكنه لم يكن عصامياً فاضطرني للطلاق. والآن لم أعد أطيق البقاء في تلك الدار.. لم أعد أطيق العيش في هذه المدينة. لا أريد أن أستعيد تلك الذكريات المرة. سأرحل إلى طهران سواء وافقت أمي أم رفضت أو احتفظت بعلاقتها معي أو لا. لقد قلت لها أيضاً أن لا تهدر وقتها معي عبثاً.

الأمر لا ينبغي أن يكون على ما هو عليه ولكنني للأسف يا دكتور أكره أمي وأرغب في القيام بكل ما يعارض قولها وطلبها. صرت أقوىٰ على تحقيق ذاتي. إنني أعرف أن ذلك إنما يكون رعونة وغباء ولكنني أرغب في القيام بأي

عمل وفي التحدث بأي كلام لا ترغب فيه. إنها دكتاتورة ترغب في ضبط كل شيء كما يحلو لها. تحدد نمط حياتها دوماً على أساس آراء الآخرين التي تحتفظ دوماً بأولويتها على آرائنا..

انتهى الموعد المحدد للجلسة. فهمت خلالها كل ما كان يعنيني. كانت البنت ضحية. ضحية حب أمها للتفاخر ومنافستها مع الآخرين. أم كالفقاعة تظهر بألوان مختلفة تجاوباً مع الآخرين ولكنها تضمحل في بيتها وتتزايل. وبهذا كان كل من يلقاها يكيل لها الإطراء ويلقي اللوم على ابنتها بينما الحقيقة تتضمن شيئاً آخر.

وفي الجلسة التالية التي انعقدت بعد ثلاثة أيام. التقينا أنا والسيدة (ك). لم تكن ثمة حاجة للتمهيد. كانت على أهبة الاستعداد للاستماع إلى تقرير لقائي مع ابنتها. كنت قد استأذنت «روشنك» أن أبوح ببعض كلامها عند الضرورة لأمها. ولهذا بدأت الحديث دون لف ودوران. اتسم كلام البنت بدرجة من الوضوح والدقة آلت بي إلى ذكره بايجاز. فقلت مثلاً، «روشنك» تقول: «كنت أطمح كأي فتاة تختبر البلوغ تواً أن اتبع أمي من غرفة إلى غرفة ومن باحة الدار الى الصالة.. أقص عليها وهي تؤدي أعمالها تفاصيل مجريات ما حدث في المدرسة ومع صديقاتي والمحيطين بي وأتبادل معها الضحكات على غرار سائر الفتيات في مرحلة الثانوية وأن تناقشني حول أحاديثي معها، أحياناً باسمة أو ممازحة وفي أحيان أخرى بصرامة، ولكني متى ما حاولت أن أبوح لأمي بمكنونات قلبي أو احتياجاتي المعنوية كانت إما تشعر بصداع في رأسها أو تشد رأسها وتستلقي على سريرها (لشدة إحساسها بالإرهاق والإعياء) أو أنها كانت منهمكة بتأمين الشؤون المادية إلى حد يلهيها عن الاستماع إلي وأخيراً تعلن أنني أنا المذنبة أو لابد أن أتغلب على مشاكلي بنفسي أو كانت تقول: إذهبي الآن وذاكري دروسك، سنتحدث في الفرصة المناسبة، الفرصة التي لم

تفسح أمامنا قط».

انهمرت الدموع من عيني السيدة (ك) فاستطردت: «لقد قلت ما كان ينبغي علي قوله».

ساد الصمت التام جلستنا. ثم قالت السيدة (ك) بعد لحظات: «وماذا أفعل برأيك يا دكتور؟ وهل بالامكان تدارك الموقف؟ كان يخيل إليّ أنني وفرت لهم السعادة ولكن.. يبدو أن نصيبي من الحياة كان شيئاً آخر، لا أعلم».

ـ لا يا سيدة (ك). لا علاقة لهذا الموضوع بالنصيب. لقد مضيت في هذا السبيل بوعي تام. والحل الوحيد أن تذهبي إلى «روشنك» وتخبريها بصدق وتواضع وبعيون مدمعة كحالك الآن وكحالها قبلك، أنك أخطأت. قولي لها: لقد استهلكت شبابي وكل شيء من أجل رفاهكما ورخائكما إلّا أنني غفلت عن بقية احتياجاتكما أنت وأختك. قولي: إنني إن أخطأت في حقك وحق اختك وحتى ابيك فقد أخطأت كذلك في حق نفسي. لم أكن أنوي الإساءة إليكم بل قمت بما قمت به عن حسن نية ولشعوري بالحنان إزاءكم ولكن أسلوبي كان بعيداً عن العقلانية. كنت أنظر إلى سعادة أسرتي بمنظاري الخاص وهذا هو خطأي الوحيد ولم يكن خطأ بسيطاً. لا تتركينا. لا أدعي أنه يمكن التعويض تماماً عما مضىٰ وانقضى.. ولكنني لن أدخر وسعاً في هذا السبيل. قولي: روشنك يا عزيزتي، سامحيني، لقد ظلمتك في غفلة مني. وقد أسأت لذاتي أيضاً. لقد أنهكت نفسي منذ تذكرين من أجلكم وأنا أجهل أنكم تطلبون مني شيئاً آخر.

لابد لك يا سيدة (ك) أن تعملي على رأب الصدع الذي شرخ قلبها لسنوات عديدة. توجهي إليها بصدق ودفء. ربما تتغلبين على نسبة عالية من المشاكل باعتماد هذا الأسلوب. إنني حتى اقترح أن ترافقيها إلى طهران احتراماً لشخصيتها المتحطمة. إرحلي معها إلى طهران. سيكون بوسعك استئجار بيت مناسب هنالك بما تتقاضونه من مال عن ايجار قسم من داركم هنا. وللسيد

(ك) أن يسكن طابقاً منه حتى يحين موعد تقاعده. دعيها تسكن هنالك فترة من الزمن. عساها تستعيد هدوءها. فإن ارتضيتم الوضع وارتضته هي يمكنكم بعد تقاعد زوجك أن تعرضوا هذا البيت للبيع وتستقروا في طهران إلى الأبد. وسوف لن تخسروا شيئاً فيما لو ضاق ذرعكم بالعيش هناك. أما عن زوجك فلا تبتئسي. إنه يعيش وحيداً منذ سنوات. ومع ذلك فإن المسافة بين «اراك» و «طهران» ليست بعيدة ويمكنكن زيارته بين الفينة والفينة وتسيير شؤون معيشته. سيسره لا محالة أن يراك وابنتيه ولاسيما «روشنك» في راحة ورخاء. صحيح يا سيدة (ك) أن الأوان قد تأخر كثيراً للبدء ولكنه لم يفت بعد. وهذا ما يلزمك التنبه إليه.

تمكنت خلال الجلسات التي لم تستمر لأكثر من خمسة أسابيع من رسم آفاق وضاءة في حياة هذه الأسرة، انعكس ضياؤها على قلب روشنك فأزاح عنه غمام علاقتها مع أمها فأصلح مشاعرها نحو الأم إلى حد بعيد. لقد رحلوا إلى طهران وعاشوا فيها سنتين كنت أعمل خلالها في مدينة «أراك»، وأنا على اتصال بهم متى ما طرأت مشكلة أشعرتهم بالحاجة إلى استشارتي. لم تبدِ روشنك ابداً، بحسب معلوماتي، استعداداً للزواج ثانية. كانت نفسها رغم جمالها وتواتر الخاطبين لخطبتها، قد عافت الحياة المشتركة، وكانت تقول لي رداً على إلحاح أمها المستمر: إنني لم أنس الماضي يا دكتور، إنني سامحت أمي بالتأكيد. لأنني واثقة أنها هي ذاتها ضحية عقائدها. لم تزل آثار خبرة الإحباط التي مررت بها تخيم على نفسي. إن ظروف أسرتي قد تغيرت ولكن هل سيعيد لي ذلك الفرص الذهبية المهدورة؟

إن الشجاعة البالغة التي تتمتع بها السيدة (ك) هي التي نبهتها لأخطائها وحثتها للاعتراف بها والعمل على تدارك تبعاتها. وكانت روشنك أكثر جرأة منها. الأمر الذي وفر لها إمكانية الصفح عن أمها. لقد حاولت البدء من جديد

وهذا أمر عظيم جداً.

إننا لا نجهل كوننا ولدنا لنعيش مرة واحدة فكم من الأفضل أن نجهد لاتخاذ المنهج الصحيح للحياة منذ بدايتها. أن نكون لأبنائنا أصدقاء منذ سنيّ صباهم، أن نحاول تقصي آرائهم فينا بأساليب غير مباشرة لأننا قد نتصور أنفسنا على علاقة صداقة معهم ولكنهم لا يحسبوننا أصدقاء لهم. وعنايتهم بنا تنبثق من احترامهم لنا أو خوفهم أو حتى رأفتهم بنا. لابد لنا أن نضع نصب أعيننا أن إقامة علاقة الصداقة مع الأبناء بعد مرحلة بلوغهم تدبير متأخر جداً.

خلف الشيطان

اعترت السيدة «مرتضوي» بعد أربعة أيام من ولادة طفلها الثالث حالة غير سوية. راحت تنطق بكلام غريب وتسلك سلوكاً غير مألوف.. تجهش بالبكاء تارة وأخرى تنفجر ضاحكة للا سبب. تصرخ يوماً أن الطفل ليس طفلي وأنني ما زلت فتاة باكراً.. وفي اليوم التالي تهتف: هنالك من ينوي اختطاف طفلي.. على أية حال كأن هذه الأم قد تحولت إلى إنسان آخر. بدا لزوجها وأسرتها أنها من تبعات الولادة والتخدير إلّا أن حالتها لم تتحسن تدريجياً بل ازدادت سوءاً حتى ظهرت لديها بعد أسبوعين أو ثلاثة عقائد عجيبة يتغير نمطها بين الفينة والفينة وقد يحدث أن تضمحل تماماً وما أن يتسلل السرور إلى قلوب أعضاء أسرتها ابتهاجاً بانتهاء حالتها المرضية بسلام حتى تستعرض سلسلة من الأفكار الجديدة، أكثر غرابة من سابقتها.. تمحورت تلك الأفكار حول الأذى والصدمة والتهديد ومداهمة الأعداء.

يسود بين رتل كبير من النساء حالة الإصابة باكتئاب ما بعد الولادة العابرة. تشير إحصائيات الطب النفسي إلى اختبار حوالي ٩٠٪ من النساء لهذه الحالة التي تتماثل للشفاء التام بعد أسبوعين أو ثلاثة وتعود المياه إلى مجاريها إلّا أن هذه الحالة لم تكن اكتئاب ما بعد الولادة. كانت الشكوك والهواجس والفعال والكلام المرضي تشتد بشكل مطرد وقد بلغ الأمر بها حداً تضرب فيه عن الطعام لاعتقادها بأن هنالك من يدس لها السم في طعامها. فقدت الثقة

بالجميع مما منعها أن تستعين بأمها وتطلب منها أن تزورها وتبقىٰ إلى جانبها.

كانت تسيء الظن بزوجها أيضاً. ولكن.. أدبها وشخصيتها كانا يصدانها عن الإفصاح عما يدور في خلدها. كانت تقول أن أعداءها مجموعة مجهولة. ويخيل إليها أنهم قد يكونون أي شخص. ربما نجحوا في اجتذاب زوجها وأسرتها أيضاً إلى جانبهم. طفلاها كانا الوحيدين اللذين حظيا بثقتها. ابنها «نيما» ذو العشر سنوات وابنتها «نانا» ذات الثماني سنوات حدث مراراً أنها لما تضطر لتناول لقمة من الطعام تحت طائل الجوع تستمد العون من نيما ونانا. فلا تضع اللقمة في فمها حتى يطمئناها إلى أن ذلك الطعام سالم، ليس فيه ما يضرها. كانت تصطخب مشاعر سيئة إزاء وليدها أيضاً. فتتصوره أحياناً خلف الشيطان وابنه، ترعرع في جوفها وربما لم تنجب أبداً. أحياناً تقول مع نفسها: لقد تم استبداله في غرفة الولادة. وأحياناً أخرىٰ تفكر أن الأعداء ينوون الفتك بطفلها. يشتد اكتئابها في بعض ساعات النهار فتشهق بالبكاء كأن أهول الرزايا قد نزلت بها وفي ساعات أخرى تضمحل آثار ذلك الحزن العجيب كأن شيئاً من ذلك لم يكن. لقد أصيبت بحالات الاكتئاب والهذاء والهلوسة وكل منها تظهر في حينها. إنها ومع استيقاظها من النوم صباح كل يوم تصطخب أفكاراً خاصة تحتفظ جميعها وعلى مر النهار بخصائص أفكارها اليومية المألوفة.

والهذاء هو رأي أو اعتقاد زائف غير منطقي يؤمن به المريض ولا يزعزعه أي استدلال ومنطق. وقد ينسى المريض أحياناً تحت طائل ضغوط المحيطين به وايضاحاتهم المنطقية هذه الهذاءات في ظاهر الأمر إلّا أن ذلك يتحدد بتمثيل يتعارض مع ما ترسخ دون زوال في قلبه. أما الهلوسة فإنها مشاعر غير حقيقية أي أن يتم إثارة الحواس الخمس في الإنسان دون وجود مثير حسي فعلى سبيل المثال قد يسمع المريض أو يرىٰ ما لا يكون له وجود خارجي حسي. وأكثر هذه الهلوسات سمعية أو بنسبة أقل بصرية. وربما تظهر أعراضها في بعض الأحيان في الحواس الأخرى. كان لي مريض يشعر دوماً بهلوسات

لمسية تشعره بأن هنالك من يشد شعر رأسه من الخلف أثناء قيادة السيارة. وهذا ما يعرضه إلى حوادث متتالية. وتتطبع هذه الهذاءات والهلوسات عادة بطابع بذيء يعاني من تبعاته المريض. وهذا بالضبط عرض يعتمده الأطباء النفسانيون أثناء التشخيص.

أصيبت السيدة «مرتضوي» بعد شهر بأرق شديد واضطراب مضن. كانت تخاف أن يأتوا (اعداؤها) ويعرضوا وليدها للسوء عندما تغط في النوم. وكانت تتكتم على الكثير من حالاتها ولا تبوح بها لأحد بسبب انعدام الثقة لديها. وقد تطمئن لزوجها أحياناً ولكنها تعود لتسيء الظن به. لقد لجأت إلى بعض الرمالة وطبقت تعليماتهم أيضاً.

ذات ليلة عاد السيد مرتضوي إلى البيت مكدوداً منهوكاً فاستقبلته زوجته بنظرات مريبة وراحت تتمتم وهي تخاطبه حتى كاد صوتها لا يسمعه الواقف إلى جانبها دفعت إليه طردين أخرجتهما من كيس أسود وقالت: لابد أن تذهب بهما في منتصف الليل بالضبط إلى المقبرة وتدفنهما هناك وأنت تدير ظهرك إلى القبلة. كان في أحدهما عظمان لميت. وفي الآخر معوذتان لدفع البلاء عنها! وقدر من وبر ضبع وقليل من المادة الصفراوية لغراب. تجمدت مقلتا الزوج وفغر فاه لشدة تعجبه.. راح يسألها: وما هذه؟ قالت: إنه لدفع شر الأعداء.

كانت الثلوج تنهمر بغزارة شديدة في تلك الليلة والطقس قارص للغاية. بينما تفصل محل سكناهم عن المقبرة مسافة عدة ساعات. هذا في حالة نجاحه في العثور على مركبة تقلّه إليها. رضخ للأمر مرغماً لأنه عجز بأي شكل من الأشكال عن إقناع زوجته بالتخلي عن هذه المالخوليا. فمضىٰ إلى سبيله.. ولكن.. ليس إلى المقبرة بل كانت لديه فكرة أفضل منها. قضىٰ ليلته في دار صديقه وعاد عند اقتراب الصباح بعد أن أفرغ ما يحمل في ساقية الماء.

وفي ليلة أخرىٰ سلمته طرداً آخر كان عليه أن يدفنه تحت أطلال بيت أو

حمام منهار. وأين للمسكين أن يجد مثل هذه الاطلال في طهران؟ نفذ خطته السابقة مرة أخرىٰ وقضىٰ ليلة ثانية في بيت أحد أصدقائه. لم يعد المسكين قادراً على القيام بواجباته إزاء عمله وحياته. كان قد أغلق محله منذ فترة انشغل فيها تماماً بشون المنزل والاهتمام به.

لقد امتنعت زوجته في حقيقة الأمر عن رعاية وليدها ثم أن لبنها قد نشف ولم يعد لديها ما تطعمه به. وكيف يدر لبنها وهي تمتنع عن تناول الطعام حتى انهارت قواها. وحتى الأطفال اضطربت أوضاعهم النفسية، فقد كان عليهم أن يجلسوا إلى أمهم ويصغوا على مر اللحظات لكلامها المرضي، كلام لا يستوعبانه أساساً. ثم آل الأمر أن تترك الهواجس والظنون مردوداتها في نفسها فظهرت لديها الانفعالات العصبية. صارا يتحدثان أثناء النوم ويتخبطان في لجج الاكتئاب والعزلة عند التحاقهما بالمدرسة في النهار.

كان السيد مرتضوي يعيش ظروفاً مهيبة، لم يؤذن فيها لأحد بزيارتهم. الأطفال أصيبوا بحالات مرضية والوليد يتعرض للهلاك. أما الأم فوضعها يزداد وخامة يوماً بعد يوم. كان قد اختلس السمع إلى زوجته يوماً وهي تهدد الوليد بأنها ستلقيه من النافذة إلى الخارج إن تمادىٰ في بكائه. باطلاعه على هذا الموضوع تضاعفت هواجسه.. لقد فقد كل أمل في تحسن حالة زوجته.

***

كنت أرىٰ أمامي سيدة في الثلاثين من عمرها ينم مظهرها عن الأدب والرزانة. كانت تحدق في وجهي. وقد التزمت الصمت التام. شفتاها تنفرجان عن ابتسامة ضيقة تفصح عن أمور وتساؤلات كثيرة: لماذا جيء بي إلى هنا؟ ألأني مخبولة؟ إنني أؤكد صدق ما أعرفه وأقوله جميعاً، ولكن الآخرين لا يفهمون هذا الموضوع و...

كانت الهواجس والظنون تلوحان من أعماق نظراتها. جلس زوجها وأمها إلى جانبيها وكأنهما قد ارغماها على المجيء. لم يكن من الصائب أن أتحدث

أمامها عن مرضها فبعثتها بحجة أوضاع الطفل إلى غرفة أخرىٰ ترافقها أمها فشرح لي زوجها مجريات الأمور بتفاصيلها التامة. كان لزاماً علي أن أتذرع إلى المريضة بأسباب ترتضيها لأتحدث إليها قليلاً. كتبت وصفتها وأنا أتحدث بما يطيب خاطرها إزاء تعاطي الأدوية. ولهذا اقترحت عليها أن تخضع للاختبارات النفسية رغم تشخيصي المسبق للحالة. فهذه الاختبارات ضرورية من أجل مد جسور الارتباط مع المريض. في ذات الوقت تمكن المعالج من التوصل إلى تفاصيل أكثر دقة.

انتهينا بعد ثلاثة أيام من الاختبارات. كل شيء كان جلياً.. اكتئاب ما بعد الولادة. حالة لم أتمكن من تقديم الايضاحات حولها للمريضة فقلت لها: «سيدتي، إن أعصابك قد انهكها شدة ما عانيتيه من اضطراب وقلق. سأكتب لك هذه الوصفة لتستعيدي بها قواك ومن ثم قدرتك على رعاية شؤون معيشتك ووليدك على أحسن وجه».

كان هذا هو الأسلوب الوحيد الذي يقنعها بتطبيق تعليماتي. لأنها لا تحسب نفسها متوعكة! لا تعي أنها وقعت في شراك الهذاء. وإلّا فانها كانت ستمسك على الفور بسلاح المواجهة.. ثم أنني وإلى جانب ذلك شرحت لأسرتها خلسة كل الطرق المفترض اتباعها بدقة تامة. وأكدت لهم أنها لا تتمكن من إرضاع وليدها ما دامت تتعاطى هذه الأدوية. على أية حال.. هدأ روعهم وتعهدت لهم من جانبي بانهاء هذه الحالة إلى خير خلال فترة علاج قصيرة.

إن نفاس ما بعد الولادة، مرض خاص تصاحبه الهذاءات والاكتئاب الشديد. ومن أعراضه الأفكار المنبثقة من وجود رغبة ما في إلحاق الأذى بالوليد أو بالنفس. تبلغ نسبة الإصابة بها حالة واحدة من بين ألف حالة ولادة. ويزداد احتمال الابتلاء بهذه الحالة لدى النساء ممن سبق لهن أو لأحد من أفراد أسرتهن الإصابة بأحد الأمراض النفسية. وقد تظهر الحالة دون وجود مثل هذا التاريخ في حياة المريضة. لم يتم التوصل حتى الآن إلى الأسباب

الدقيقة لبروز هذا المرض: الاضطرابات النفسية السابقة، أحداث الولادة (مثل الأدوية المتعاطاة أثناء الولادة، الالتهابات، النزيف و...)، اختلال منسوب الهرمونات في الدم بعد الولادة. وأسباب أخرىٰ كلها قد تؤدي إلى مثل هذه الإصابة. ربما تتبلور أحياناً نتيجة لتضارب مشاعر الأم كما في حالات الحمل دون رغبة أو المؤدية إلى الابقاء على حياة فاشلة. لا يخفىٰ أن هذه الأسباب هي أسباب فرضية لم يتم التثبت منها.

تبدأ الأعراض عادة بالظهور لدى الأم بعد ثلاثة أيام من الولادة، وتتضمن: الشك، الارتباك، عدم اتساق الكلام والأفكار البعيدة عن المنطق، الهواجس الوسواسية بشأن سلامة النفس والوليد وأحياناً الصدوف عن تقبل الطفل الوليد. وقد تظهر الهذاءات بشكل أفكار عجيبة مثل عدم امتلاك طفل، ادعاء المريضة بأنها ما تزال باكراً أو لم تنجب بعد. ويسود بين المصابات التفكير بالسوء والأذى أيضاً وبالهلوسات السمعية. فيخيل إلى المريضة أنها تسمع كلاماً يزعجها أو يحتوي على تهديدات. ويلزم لتشخيص هذه الحالة التأكد من كون المريضة مرت بخبرة الولادة قبل تبلور هذه الأعراض لديها بفارق أنها قد تجتاز مرحلة كمون مدة ثلاثين يوماً ثم تظهر بعد ذلك. كما يسود ظهور الاختلالات الخلقية والعاطفية على هيئة اكتئاب أيضاً. وبعد فترة من تبلور الأعراض الواضحة للمرض تبدأ مرحلة المعاناة من الأرق، القلق والتشوش.

في حالة تمتع المريضة بعلاقات أسرية طيبة وعدم توارثها لحالات نفسية حادة تتماثل إلى الشفاء مع وجود احتمال قوي بمعاودة الإصابة في خبرات الحمل التالية.

تزايلت بعد شهر من بدء العلاج ٨٠٪ من أعراض مرض السيدة «مرتضوي» وتماثلت حالتها للشفاء الكامل بعد ثلاثة أشهر ولكنني أمرتها بمواصلة تعاطي الأدوية حتى نهاية الشهر السادس. وكانت أسرتها ولاسيما زوجها يلتزمون طوال هذه الفترة بما أرشدتهم إليها من الطرق الصحيحة

للعناية بمثل هؤلاء المرضىٰ.

أما نيا ونانا فقد تحسنت أوضاعهما النفسية تدريجياً برؤية أمهما تتماثل إلى الشفاء وعودة الهدوء إلى الجو الأسري.

ما ظل يهزني دوماً حتى بعد انتهاء قصة السيدة مرتضوي هو أنها وفي ذروة اشتداد حالتها المرضية كانت تعنىٰ بدورها كأم وتطمئن لأبنائها.. فيا للعجب من الأمومة!

مهارة العيش

شعرت مع دخوله الغرفة وجلوسه على الكرسي قبالتي أن جواً فصامياً عم الغرفة: نظراته المريبة، انقباض عضلاته المتأهبة للدفاع، جسمه النحيف ووجهه المنفعل رغم مساعيه للتكتم على انفعاله، كلها كانت تلوح إلى هذا المرض. أخرج من جيبه أوراقاً دفعها لي دون أن ينبس ببنت شفه ثم تمتم بصوت هامس: لقد كتبت ما اريده هنا. إقرأه دون صوت لأنني أعلم أنهم نصبوا سماعات في غرفتك ليسجلوا عن طريقها كلامي ويستخدموه أداة ضدي..

تسلمت الرسالة. كان قد كتب فيها على عجل وبتشوش:

«إنني مطارد من قبل أجهزة التجسس العالمية.. هنالك من ينوي قتلي لأنهم فطنوا انني أحوز معلومات هامة عنهم. لم أتناول منذ أسابيع غير الماء والخبز لأنني واثق أنهم يريدون دس السم في طعامي.

إنني طالب في الصف الثالث من جامعة «العلم والصناعة». ولكن مضايقات اولئك آلت إلى هبوط مستواى في الفصل الدراسي السابق من المعدل الأول في كليتي إلى المعدل السابع.

إن «اولئك الأعداء» الذين أتحدث عنهم، لا يرعون حتى شرفي. إنهم يريدون الإساءة إلى سمعتي ولن يدخروا وسعاً من اجل تعذيبي وتعريضي للصدمات و...».

ألح علي بقراءة كل ما كتب في الصفحات الثماني من الحجم الكبير بخط ناعم

ودون اتساق ولكنني بحاجة إلى نصف ساعة من الوقت على الأقل إن أردت تنفيذ رغبته ولم أكن أساساً بحاجة لقراءتها كلها، فكل شيء يلوح إلى أنـني أواجه مريضاً يعاني من مرض الفصام البارانوئي. ليس من الصواب التعامل مع هؤلاء المرضىٰ بالحسنىٰ. لأنهم يفسرون الصداقة والعلاقات الوشيجة على أن «الطرف الآخر» من «اولئك الاعداء» ولابد أنها خطة مدروسة من قبلهم. كما لا يمكن مواجهتهم ببرود وصرامة لأنها تدفعهم للـنفور مـن الطـبيب وتـرك العلاج. ينبغي استقبالهم بأسلوب عادي جداً وبعيد عن الدفء التام وكـذلك عن اللا مبالاة والبرود الزائد.

طالب باستعادة خطابه بعد أن فرغت من قراءته خشية أن تصل إليه يـد سكرتيرتي. كان يخيل إليه أنها من «اولئك الأعداء». لم يكن من الصواب أن أتحدث إليه عن مرضه. لم يكن في حالة وعي بنفسه وكان لابد من معالجته. تشبثت بحالة هزاله وقلت: حسناً يا سيد «أسدي» أراك نحيفاً للغاية. ستخور قواك وتنهار بالتأكيد لو استمر الوضع على هـذا المـنوال. اقـترح عـليك أن تتعاطى مجموعة من المقويات الجسمية والعصبية لتستعيد قدرتك بأسرع مـا يمكن من أجل مواجهة أعدائك. وبهذا تزداد قابليتك لصيانة نفسك.

لم ينفعل لكلامي. إنني لم أحادثه قط عن مرض نفسي لأنني كنت واثقاً أنه لا يحسب نفسه مريضاً ولكنه يعترف أنه قد أصيب بالهزال والضـعف.. كـان بوسعي دفعه لتعاطي الأدوية الأساسية بهذا الأسلوب.. كان كلامي قد أعجبه إلى حد كبير لأنني لم أناقشه حول حالته النفسية عـلى غـرار الآخـرين. ولم أحسب كلامه عن أعدائه تصورات واهية ولم أصدقها في نفس الوقت.

ـ حسناً جداً يا دكتور، سأتعاطى الأدوية المقوية.

ـ مع من تعيش يا سيد «أسدي»؟

ـ كنت أعيش في القسم الداخلي ولكنني استأجر حالياً جناحاً أعيش فيه بمفردي.

ـ ومن أية مدينة أنت؟

أوضح لي من خلال صمته الممتد أنه لا يرغب في التحدث عن التفاصيل. كانت الشكوك والظنون قد غلبته تماماً والأمر مهما يكن فقد قال اخيراً: «من المحافظات الشمالية».

لم يذكر لي من أية مدينة شمالية هو كما امتنع عن ذكر أية تفاصيل حول أسرته. ولم أتتبع ذلك معه. فأدنىٰ تقصي كان سيثير شكه فيّ أنا أيضاً.

استطردت: وما هو فرعك الدراسي؟

التزم الصمت مبتسماً ولم يجبني. كان يتهرب من أية إجابة دقيقة. وبعد لحظات قال: وهنالك شيء آخر ينبغي أن أتحدث عنه يا دكتور.

ـ تفضل.

ـ هنالك مجموعة من أصدقائي وأساتذة كليتي تآمروا ضدي لالحاق السوء بي.

ـ وهل يمكنك أن تزيدني ايضاحاً؟.

ـ لا يفعلون شيئاً خاصاً ولكنني استشف من نظراتهم وسلوكهم عند اختلائهم ببعض بين وقت وآخر وتهامسهم معاً، أنهم يحوكون مؤامرة ضدي. أفهم أنهم يتحدثون عني.

لا يصح تأييد هذاءات وهلوسات هؤلاء المرضىٰ كما لا يمكن الاعتراض عليهم. لم أعلق على الموضوع بل قلت: عجباً، وهل تتصور هكذا؟

ـ أجل، يا دكتور.

ـ حسناً، على أية حال يتوجب عليك بناء على كل ما أخبرتني به أن تأخذ أهبتك والطريق الصحيح لذلك هو أن تقوي نفسك. وهذه الأدوية ستعينك على ذلك.

كتبت وصفة تحتوي على الأدوية المضادة للفصام وبعض المقويات، دفعتها إليه.. نهض وانصرف بعد أن ودعني.

وبعد انصرافه طلبت من سكرتيرتي الاتصال هاتفياً بمنزله لعلني أتمكن من التحدث إلى شخص ما ولكنه مع الأسف كان قد تعمد في كتابة الرقم خطأً.

زراني في الأسبوع التالي وفي الموعد المحدد.. كان يشكو الفتور والخمول، تجاهلت أنها من أعراض الأدوية. وقلت: إنها لا محالة نتيجة سوء التغذية.. حالتك تستوجب وجود أحد أعضاء أسرتك إلى جانبك ليعتني بشؤون طعامك.

كنت أنوي بأسلوب غير مباشر لقاء أحدهم ولهذا تعمدت التمادي في التأكيد على نظامه الغذائي. وإلّا فقد كنت على علم بأن معاناته هي نتيجة طبيعية لتعاطيه الأدوية لا الغذاء. كانت حالته تستدعي وجود من يشرف عليه من هذه الناحية إلى جانبه، فمثل هؤلاء المرضىٰ لا يصح تركهم وشأنهم لوجود احتمال اضرارهم بالنفس أو بالآخرين. إن عدم تفهمهم للطابع المرضي في حالتهم رغم كونه من الأمراض النفسية الجادة يسترعي خضوعهم لإشراف الآخرين.

عاد يقول: لم تتحسن حالتي قط يا دكتور. كأن هذه الأدوية لم تجد نفعاً.

ـ لا يا سيد «أسدي». إن الأدوية فاعلة ولكن عليك أن تتعاطاها شهرين على الأقل لتحصل على النتائج المتوخاة.

كنت أعني من ذكر مدة الشهرين أن أمنح الأدوية فرصة للتأثير فيه لأتمكن عندئذ من اطلاعه نوعاً ما على حالته الخاصة مما ييسر لي أمر العلاج. لم يطل الكلام ثم انصرف.

في الاسبوع الرابع جاءني وقد تحسنت حالته كثيراً برأيي. كان قد قلل من جرعات الدواء دون استئذاني ومع هذا تركت فيه تأثيراً، لا بأس فيه. ولاختبر قوة ذاكرته، سألته: تذكرت أنك حدثتني في الجلسة الأولى عن أعداء ما؟ هل ما زالوا موجودين؟

ـ أجل، ولكنني صرت أقل تفكيراً بهم. ولهذا أتمكن من مذاكرة دروسي

بشكل أفضل.

كانت اعراض التحسن قد بدأت الظهور. لم يعد بعد الجلسة الرابعة يلجأ إلى أسلوب الكتابة رغم تثبت طابع التمتمة والتشكيك لديه مع التخفيف من حدتها. قال أنه سيسافر إلى المحافظات الشمالية لقضاء العطلة إلى جانب أسرته. أجابني رداً على سؤالي عن مدينته بأنه من سكان مدينة «رشت». وهذا يمثل عرضاً طيباً من أعراض التحسن الأخرىٰ. قلت مؤكداً: لقد تحسنت حالتك كثيراً. يبدو لي أنك تسير تدريجياً نحو استعادة قواك. أرجو أن لا تترك تعاطي الأدوية خلال هذه الفترة.

ومن أعراض تحسنه الأخرى هو تناوله أطعمة مختلفة ولكنه كان لا يتعاطى الأدوية حسب الجرعات المنصوص عليها لأن فتوره نتيجة تعاطيه لها كان يزعجه لأنه كان ملزماً بمذاكرة دروسه. ومما يثير الدهشة أنه رغم حالاته وهلوساته ظل يحرز الدرجات العليا.

التقيت بعد شهر السيد «أسدي» مرة أخرىٰ. توردت وجنتاه وتخلص قدراً ما من تشوشه. يظهر أن أسرته قد شملته بعناية وافرة. وتنعمه بطعام مناسب عند تعاطيه الأدوية كان قد ترك مردوداً حسناً فيه. ولكن الطريق ما زال طويلاً أمامه. كان يزورني في كل أسبوع مرة واحدة يحاول في كل منها أن يقنعني بالتقليل من جرعات دوائه وكنت أعارضه برفق وأؤكد دوماً أنني أريد أن ألقىٰ أمه للتحدث معها حول نظامه الغذائي. وأخيراً رضخ لطلبي وزارني ذات مرة مصطحباً أمه.

كانت سيدة مثقفة ذات شخصية قوية. تحسن التكتم على حزن عميق ينساب في نظراتها. انهيت جلسة ذلك اليوم أيضاً كعادتي ولكنني أشرت إلى الأم خلسة أن تعود لزيارتي في اليوم التالي.

وفي الغد إلتقيت السيدة «أسدي» وقدمت لها ايضاحات تامة حول مرض ابنها وحددت لها بناء على حقائق هذا المرض الخطوط العريضة في حياته

المستقبلية.

قالت السيدة «أسدي»: لقد فطنت يا دكتور منذ سنة إلى أن سلوك ولدي قد خرج عن السواء ولكنني لم أتنبه إلى إصابته بمرض خاص فوضعت ذلك في حساب عاداته المألوفة لأنه لم يألف لا الرياضة ولا الترفيه في حياته التي قضاها في مطالعة الكتب وإجراء البحوث في غرفته. خيل إلينا أن صعوبة دروسه وكثرة أبحاثه هي السبب في ذلك. زد على هذا يا دكتور أن ولدي مكتشف بحد ذاته. لقد اكتشف تفاعلاً كيميائياً حاز التأييد عالمياً (شرحت لي تفاصيل اكتشافه ولكنني لم أعد أذكرها). أبوه كان يرىٰ أن سفرة طويلة الأمد في ربوع الطبيعة تعيد الأمور جميعاً إلى مجاريها.

لم يكن بالإمكان الأخذ عليهما لأنهما كانا لا يلتقيان ابنهما إلّا ما ندر. وحتى عند زيارته لهم لا يجتمع إليهم كثيراً بل ينطوي على نفسه في غرفته. كما أن ذكاءه الحاد يؤهله من جهة أخرى للتكتم على حالاته المرضية الغريبة على أفضل وجه.

طمأنتها وأنا أطلعها على مرض ابنها أنه سيتماثل إلى الشفاء تماماً. لم يكن بوسعي أن أكشف الحقيقة بأسرها للسيدة «أسدي». كان يكفيها ما أطلعتها عليه وطلبت منها أن تقدم إلى طهران وتتابع علاج ولدها عن كثب. وكنت أعلم أنه أمر في غاية الصعوبة ولكن لابد منه. فرحيل موظفة إلى طهران على أن تترك ابنها الآخر في السنة الأخيرة من دراسته الثانوية وعلى أعتاب أداء إمتحان الانتساب إلى الجامعات لم يكن ميسوراً. كلا الزوجين موظفان وليس من السهولة قدومهما إلى طهران كما يتعذر نقل حميد إلى مدينة «رشت» لأن فرعه الدراسي لم يتم تأسيسه في هذه المدينة كما أن تركه الدراسة في فرع من فروع جامعة «العلم والصناعة» بطهران يعتبر خسارة كبيرة لا يمكن تداركها. قلت: بوسعي أن أعينك لاستحصال موافقة على طلبك إجازة سنة كاملة دون راتب بسبب مرض حميد، عسى ربنا يحل الكثير من المشاكل حتى آنئذ.

وسنفكر في سائر الأمور بعد ذلك. وافقت الأم على اقتراحي.

انتقلت السيدة «أسدي» إلى طهران حيث يسكن ولدها في غضون شهر واحد. صارت مراحل العلاج تمضي قدماً. فالام تقوم بتقديم الدواء بنفسها إلى حميد وتعتني بشؤون حياته على أفضل وجه. كنت قد أخبرتها أن العلاج يعتمد قبل كل شيء على الدواء. ثم يترتب على الأم أن تمده بالهدوء وتوفر له بيئة آمنة بعيدة عن التوتر. كان لابد لها من الامتناع عن مجادلة حميد حول معتقداته وأن لا تسمح للآخرين بذلك أيضاً وأن لا تتوقع منه احراز الدرجات العليا لئلا تزيد من اضطرابه. خلال ستة أشهر أخبرتها بأن ابنها مصاب بالفصام وكيف يمكنها أن تتعامل مع حالته المرضية. صارت تعرف أن الفصام مرض من نوع خاص يصيب شخصاً من بين ألف من أعضاء المجتمع لسبب لم يتم التعرف عليه بعد. وأن ١٠٪ منهم يتماثلون إلى الشفاء تماماً ولكن أغلبيتهم يتمكنون بالعلاج المناسب أن يستأنفوا حياة طبيعية بدرجة سبعين أو ثمانين بالمائة.

كشفت لها عن ضرورة اخضاع هؤلاء المرضى لإشراف طبيب نفساني طوال حياتهم وأن على أسرهم أن يلتزموا بالتعليمات الطبية العلمية والعملية في هذا الخصوص. استوعبت الأم حقيقة مرض ولدها المتماثلة مع مرض القلب أو ضغط الدم أو ارتفاع منسوب السكر في الدم من ناحية حاجة المصاب للإشراف الطبي طوال حياته. وأن بمقدوره أن يستأنف حياته الطبيعية على هذا النحو بفارق درجة أو درجتين دون مستواها السابق. فمثل هؤلاء الأشخاص لا يعانون من صعوبة في الحياة فيما لو لم يمارسوا مهناً فكرية شاقة مثل المزارعين والعمال والفنانين و.. ولهذا يكون لزاماً على أصحاب المهن الفكرية والاجتماعية التركيزية وذات المسؤولية الفائقة، أن يقلصوا من حجم مسؤولياتهم تجنباً من إرهاق أعصابهم فتقليص الضغوط والمسؤوليات بنسبة ٢٠ـ٣٠٪ يدعمهم لممارسة حياة طبيعية شرط تفهم أسرتهم والمحيطين بهم

لواقع مرضهم وامتناعهم عن تلقينهم بسوء بل حثهم على مواصلة العلاج.

وإلى أي مدى يخيل للراشدين المتعقلين أنهم نالوا حظاً من الفهم؟ ليس بين بني الإنسان من لا تتسم شخصيته بسمات غير سوية. فريق يدركون هذه الحقيقة وفريق لا يدركونها. الثلة الأولى يجهدون لاصلاح حالهم والثانية يغدو جهلهم للأسف مدعاة إيذاء أنفسهم ومضايقة الآخرين أيضاً.

تتضمن مهارة العيش في الواقع المهارة في تقبل الحقائق لا المهارة في استنشاق الهواء. فالعيش مقولة أخرىٰ ينال السعادة فيها من يدرك حقائق حياته ويتقبلها، لأنه سيتعرف على حقائقها السارة فيهنأ بها وعلى حقائقها المرة أيضاً فيتعامل معها بعقلانية تامة أو يجهد لتسويتها تماماً أو بشكل نسبي أو للتسايس معها في نهاية المطاف إن عجز عن التخلص منها. إنه يعلم أن الحياة مزيج من الخبرات السارة والمرة، ويتقبل إنه ليس هنالك إنسان لا يختبر الألم والمعاناة على مر حياته.

هكذا واجهت السيدة «أسدي» مرض ابنها. أدركت أن التغلب على ٨٠٪ من أعراض هذه الظاهرة المريرة باعتماد التفهم والأسلوب الصحيح إنما هو نجاح باهر.

وبعد خمسة أشهر مضت على الجلسة الأولى التي اجتمعت فيها إلى «حميد أسدي» أحرز حميد تحسناً ملفتاً للانتباه، فقد صار يذاكر دروسه بجد نسبياً وعادت حالته النفسية إلى الاتزان إلى حد كبير. كان يقترب على مر الأيام أكثر فأكثر من حياته المنطقية. الأمر الوحيد الذي كان يستوقفني دوماً هو نجاح حميد في دروسه الجامعية الشاقة. ليس بعد تحسنه النسبي بل قبل بدء علاجه أيضاً. وهذا ما تلوح به درجاته العليا. كنت أفكر في نفسي وأي ذكاء هذا صار يحفظ له نجاحه على نفس الوتيرة رغم هذاءاته وهلوساته الحادة؟!!.

وأخيراً عثرت على رد على استفساري. كانت الأم تجلس مع ابنها في غرفتي. قالت الأم بعد تبادل التحيات والاستفسار عن الصحة: «حميد ينوي

اليوم أن يعتذر منك يا دكتور لعدة أمور أخفاها عليك حتى الآن».

بهت قليلاً وأعلنت عن استعدادي للاستماع إليه.

قال حميد: الحقيقة أن اسمي يا دكتور ليس «حميد أسدي» بل: سهيل. و «وأنا طالب في فرع الهندسة الالكترونية بجامعة «شريف» الصناعية. كنت أفكر أن جميع الناس، ولإحرازي الدرجة الأولى في اختبار الانتساب إلى الجامعات، يضعونني تحت مجهر متابعاتهم ليستغلوا أدنىٰ هفوة مني، وأنني إن صارحتك بحقيقة شخصيتي فسيفتضح أمري ولكنني الآن تحررت من تلك الأفكار وليس لدي ما يمنعني من الإفصاح عن الحقيقة. لم أكن أنوي على أية حال الاستهانة بك، فاعذرني».

قلت باسماً: لا بأس عليك، ولكنني اعتدت أن أناديك «حميد أسدي» وبوسعي أن أناديك بهذا الإسم دوماً إن شئت.

ضحك كلاهما، فرحت أفكر في نفسي يا ترىٰ ما كان شأنه العلمي على الصعيد العالمي لو لم يصب بهذا المرض وكان بإمكانه استغلال قدرة عقله برمتها؟

الآن وكلما أرحل مع أفكاري إلى ذكريات تلك الأيام. أفكر: وهل أنه حتى في حالة إحراز أسمى الدرجات. كان بامكانه الاطمئنان إلى نيله الهناء والسعادة؟ وهل أن السعادة الحقيقية تتوفر بمجرد الحظوة بالمزايا العلمية والاجتماعية العالية؟ إن السعادة تكمن برأيي في التمتع بمهارة العيش أو بالأحرى فن إدراك الحقائق، وادراك الحقائق بدوره يعني أن نعلم طريقة مواجهة أي حدث. لا أن نهنأ بالتهرب منها ونخادع أنفسنا على أمل انتظار وقوع معجزة ما.

عظام الرجال

في خضم الحرب العراقية ـ الإيرانية ألزم الأطباء فيما عدا طلبة السنين الأولى من الطب العام، أي المطبقين وطلاب الاختصاص والأخصائيين و... بالالتحاق بجبهات القتال لشهر من كل عام بغية تسديد خدمات العلاج والمداواة للمقاتلين. وبما أني كنت أنتمي إلى مجموعة الاطباء المطبقين، انتدبت إلى الجبهة الغربية. بعد أن أعددت بطاقة السفر، ركبت الحافلة التي أقلّتني إلى مدينة «كرمنشاه». كانت المرة الأولى التي أتوجه فيها بمهمة رسمية إلى منطقة حربية. كنت قد زرت الجبهة الجنوبية لمرتين ومدينة «مريوان» مرة واحدة ولكنها كانت المرة الأولى التي ارتاد فيها الجبهات بحكمي طبيباً أتعهد بعلاج المقاتلين. لو شاء القدر أن أبقىٰ في «كرمنشاه» فسيكون ذلك من حسن حظي. إلّا أن التوجه الى الخطوط الأمامية من جبهات القتال أمر مهيب للغاية. في المرات السابقة كانت مهمتي إيصال المعونات الشعبية إلى المقرات الأصلية ولم أكن بحاجة للاقتراب من الجبهات ومن خطوطها الأمامية. ولكن الآن.. الموضوع يختلف تماماً. كنت في الحقيقة أخشى الموقف أيما خشية. كنت، بينما الحافلة تمضي في سبيلها، انظر إلى الجبال والوديان والأنهار واتساءل: هل يا ترىٰ ستقع عيناي على هذه المناظر ثانية؟ كانت الحافلة تشق طريقها في الصحراء وتمضي إلى الأمام وأنا اصطحب الخوف والهلع على مر اللحظات.

وصلنا كرمنشاه في منتصف الليل. تركت الحافلة وتوجهت إلى مركز

التنسيق التابع لحرس الثورة الإسلامية فلقيت هنالك شخصين ينتظران استلام اوراق إبلاغهما. سلمت ورقتي ورحت انتظر.. وبعد ساعة تقريباً دفعوا إلينا أوراق إشعارنا فانتسب أحد المنتظرين إلى مقر في كرمانشاه ذاتها والآخر إلى منطقة «روانسر» وهي منطقة آمنة بعيدة عن ضوضاء الحرب وكما هو متوقع انتسبت أنا تعيس الحظ إلى منطقة «باوه ـ نوسود»، وكانت تتعرض عدة مرات أسبوعياً للقصف من قبل الطائرات العراقية. لست بحاجة إلى وصف حالي! ركبت وبصمت تام سيارة تقلني وأحد زملائي الآخرين إلى هناك. كأنه كان يشاركني بعض الطريق. بعد نصف ساعة من المضي في أرجاء الجبال والمنعطفات، تركنا الزميل. كنا قد بلغنا «روانسر»، فلم يبق غيري أنا وسائق السيارة، وقلق فظيع يساورني ونفضات السيارة الفظيعة ترهبني. لا يستوعب ما أقول سوىٰ من سبق له زيارة هذه المواقع. لابد أنه اختبر آلام العظام مثلي بعد ترك المركبة. السائق كان شاباً بشاشاً يتعامل بغاية الأريحية، قدم من قسم التعبئة في مدينة «كرمانشاه»، يتكلم بلهجة خاصة بسكان هذه المنطقة ولكنني كنت لا أرغب في الاستماع إلى كلامه. كنت أرى في طريقي مجاميع تتألف من ثلاثة أو أربعة من أطفال القرى المجاورة يقفون على جانبي الطريق لبيع ما يحملونه من محاصيل زراعية وخضروات صحرائية. ترك السائق السيارة مرتين لينتعش بغسل وجهه وأطرافه. ثم أنه استغل الفرصة وراح يمازح الأطفال.. لكنني اكتفيت بالنظر إليهم من وراء زجاج النافذة. كنت مستاء من كل شيء. أثناء مواصلة الطريق قال السائق وكان يدعىٰ «علياً» وقد اعتاد على هذه الأجواء التي اعتبرها أنا غريبة وحديثة: لا تقلق يا دكتور، تذهب بسلام وتعود بسلام. ينتاب الفزع جميع الأطباء لدى قدومهم إلى هنا ولكنهم يدركون بعد وصول المقر والإقامة فيه ليوم أو يومين أنه لا داعي للخوف وأن الحياة تمضي على حالها في هذا المكان أيضاً.. ثم استطرد ممازحاً: قد يعجبك الوضع وتطلب البقاء لفترة أخرى، ثم ضحك.

أنعشني كلامه.. سألته: يقال أن المنطقة تعرضت لقصف من قبل قوات صدام في الأسبوع الفائت ثم أن العملاء الخونة يغيرون على القرية في بعض الليالي فيقتلون سكنتها والقوات العسكرية أو يؤسرونهم.

قال: هذا صحيح، للأسف. ولكن لا تنزعج إنها أحداث تقع بندرة. ستسكن محلاً آمناً. إنهم لا يبعثون أي أحد قسراً إلى الخطوط الأمامية من الجبهات. يتوقف ذلك على رغبتك في الذهاب فإن رغبت فبامكانك التوجه إليها وإلاّ فانه لا يعتبر من واجبك. مقرك في مدينة «باوه» أو أي مستشفى صحراوي.

وصلنا «باوه» بعد ساعتين. كان الفصل فصل الربيع. والمكان روضة مجهولة. خضراء، يانعة تخترقها الأنهار المنسابة وتنبثق فيها الينابيع المتدفقة ويسكنها أناس يتطبعون بالدفء والانسيابية. من زار ذلك المكان يعرف كم هي جميلة رائعة هذه المنطقة في الربيع. تشبه الربوع الشمالية في ايران ولكن دون رطوبتها وطقسها اللزج. وصلنا مقر القيادة في الساعة العاشرة صباحاً. استقبلنا بحفاوة تامة. تناولنا الغداء في ذلك المكان ثم انتدبت إلى مستشفى صحراوية تبعد عشرة كيلومترات عن «نوسود» التي كانت خاضعة آنذاك للاحتلال العراقي. وكانت الخطوط الأمامية على مسافة كيلومترين من المدينة. لما وصلنا إلى المستشفى لم أجد أمامي غير مستوصف محلي تم تأسيسه لمعالجة القرويين والجنود. بوابنته تهبط ست مرتبات عن مستوى الأرض. غاصت نصف الثكنة تقريباً تحت الأرض ولم يظهر منها للناظر إلاّ نصفها. ترك سائق سيارة الجيب الذي قادني إلى هناك، سيارته ليرافقني فدخلنا المستوصف معاً. قدمني إلى رئيس المستوصف. كان شاباً في الرابعة والعشرين من العمر حلق رأسه دون أن يأتي على نهايات الشعر كحال الجنود، كان يلف نحره بمنديل ويرتدي زي حراس الثورة. تزين وجهه الملفح بأشعة الشمس لحية مستديرة. عندما أبصرته قلت في نفسي: لاستعد لقراءة الشهادتين. إن مثل هذا سيبعثني منذ غد إلى «نوسود» نفسها، وكر الذئاب العراقية.

وبعد التعرف إلى بعض دعاني ببرود ولكن بأسلوب في منتهى الأدب إلى الجلوس. ودعنا السائق وانصرف. تركنا أنا والحاج ـ على حد تعبيره ـ فانشغل الحاج لدقائق بأعماله ثم بدأ بوجه باسم وبلهجة ممتزجة من الكرمانشاهية والعربية يقدم لي إيضاحات عن مهمتي. أطلعت فيما بعد أنه من الجالية الايرانية المبعدة عن العراق. فطنت وهو يتحدث إليّ بحرارة ولهفة زائدة إنه ليس ذاك الإنسان الفاتر في مشاعره، الصارم في قراره كما كان يخيل إليّ. إنه لم يتطبع في الحقيقة بمثل هذه الخصائص قط. ومع هذا لم أترك جانب الحيطة فواصلت الإصغاء إليه بهدوء وبعد فراغه من كلامه تنبهت أن محل عملي هو ذات المكان وأنه بعيد تماماً عن مرمى العدو إلّا في حالات الطوارئ. كانت مهمتي تتضمن معالجة القرويين والجنود. وفي حالة تعذر ذلك علي يتم إيفادهم إلى مدينة «باوه». تركت المستودع. لمحت مجموعة من التعبويين يجلسون إلى رحلة وضعت أمام المستودع وقد انشغلوا بتبادل الأحاديث والمرح والمزاح. ما أن أبصروني حتى نهضوا واقفين واستقبلوني باحترام وحنان. لقد أعجبوني. كانت علاقتهم حميمة. إثر استماعي لكلامهم انسابت معاني الدفء والأمل في عروقي وتسلل الهدو رويداً رويداً إلى نفسي.. عندئذ خرج الحاج من المستودع والتحق بنا. أخذ الزملاء يمازحونه فكان بدوره يرد عليهم بين مرة ومرة ثم التفت إليّ وقال ضاحكاً: أترى يا دكتور طاقي؟! لا يعلقون أهمية على النظام الرتبوي!.

تعلى ضوضاء الجمع. قال أحدهم: الأمر كله مفوض إليك يا عزيزنا الحاج. إننا عبيد لك!

وآخر قال: أأمرنا نفديك بأرواحنا.

وثالثهم راح يقول: كلنا سمعاً وطاعة لأوامرك يا حاج.

شعرت أن جواً حمياً دافئاً يسود علاقتهم ببعض. قلت باسماً: عاقبهم وابعثهم يومياً إلى الخطوط الأمامية.

فجأة تعالت صيحات وصرخات الجميع. قالوا: ما بالك يـا دكـتور، وأي كلام هذا تنطق به. وهل يسمح لنا بذلك؟ إننا عند استيقاظنا من النوم صباح كل يوم نعقد العزم على التوجه إلى الخـط الأمامي فنجده قد أخـذ الدراجـة النارية خلسة وتركنا متجهاً إلى هناك. ضاقت نفسنا بالانتظار وتعذر علينا أن نسبقه يوماً إلى مثل هذا الأمر. إنه يجيبنا عندما نعترض عليه بأن دورنا سيحل في الغد.

ضحك الحاج ونهض ليهتم ببعض أعماله. سألت الزملاء: ما هي مـهمتكم هنا؟.

قال أحدهم: أنا سائق.

والآخر: أنا ممرض.

أما الأخير فقد أجابني: وأنا مضمد.

سألتهم: وهل هذا محل عملكم؟

قالوا: أجل، ولكن لابد لنا من تقصي أوضاع الخنادق وزيارتها مرتين في الأسبوع لنعتني بشؤون المقاتلين الصحية والعلاجية.

تساءلت: إذاً، فلماذا يذهب الحاج بدلاً عنكم؟

ردوا علي: إننا قطعاً نؤدي مهمتنا على حدة، ولكننا نود ان نصحبه أيـضاً وهو يمتنع عن ذلك عادة.

قلت: لكم انتم بواسل تدفعكم شجاعتكم للتهافت على التوجه نحو بـؤرة الخطر!!

قالوا: وما بالك يا دكتور، إن الإنسان عندما يرىٰ نـفسه في هـذا المكـان ويشاهد عن كثب هذه التضحيات، ينسىٰ نفسه. لقد صار الوضع إلى أن كلاً من الزملاء ينجح في لقاء الحاج قبل ذهابه ويصحبه صباحاً يتباهىٰ بذلك أمام الآخرين. إننا توغلنا عدة مرات وضمن مجاميع استطلاعية إلى داخل الأراضي العراقية نفسها و...

غرقت في أفكاري.. ليت أبناء شعبنا يعلمون أن تنعمهم بالراحة والاستقرار في دورهم تم لهم بأي تفان وكم من التضحيات؟!..

استأنفت عملي. كانت ساعات فراغي كثيرة في بعض الليالي.. كنت أقضيها في المطالعة والتجول في أرجاء الطبيعة الخلابة. أما ساعات عملي في النهار فقد كنت انشغل فيها تماماً بمعالجة المرضىٰ ولم أكن أجد فيها مجالاً لأي عمل آخر. وأحياناً أزور المرضى الراقدين في منازلهم بالقرية. وأعرج في أحيان أخرى على المقرات المحلية للقوات. لقيت في أحد هذه المقرات رجلاً كان قائد القوات في تلك المنطقة انتسب إليها من قوات حرس الثورة الإسلامية بمنطقة «ري» بجنوب طهران. كان قد ترك زوجته وأطفاله الستة منذ بداية الحرب (ست سنوات) واتخذ الجبهات محلاً لسكناه الدائمية. قيل أنه ما يزال يحتفظ بتسع وعشرين شظية في جسمه وقد ضحىٰ بإحدىٰ ساقيه في سبيل الجهاد. كان بدرجة من التكيف والصمود تشحن لقياه الجميع بقوة معنوية عالية. كان يهيمن على أوضاع تلك المنطقة تماماً.

الأيام كانت تمضي وعلاقتي مع الزملاء تطبعت بالقرب والدفء. كان بينهم شاب في السابعة والعشرين من العمر تقريباً، قليل الكلام جداً، لا ينضم إلى الجماعة كثيراً يتسم بوجه هادئ ونظرات ثاقبة. يكرس ساعة من يومه لممارسة الرياضة وبقية وقته لتصليح الأجهزة الالكترونية التي يؤتىٰ بها من المراكز القريبة من المقر. كان في الواقع ضيفاً وعمله الأساسي لا يتحدد بذلك، لقاؤه يسر الملتقين به.. شاب مؤمن وسيم، يستمر في صلاته لكل وجبة ساعة كاملة. ووجهه ينم عن طابعي الحلم الوفير والمثابرة الجادة. له وجه نحيف تبرز عظامه. كانت حكايته تشغل أفكاري دوماً. كنت أفهم أنه أعلى مرتبة من الحاج ولكن ماذا يفعل هنا؟ كان الزملاء يسلكون معه باحترام تام وكذلك الحاج نفسه. اتضح لي فيما بعد أنه من ضباط حرس الثورة الرفيعي المستوى. كأنه انتدب إلى هناك لأداء مهمة من نوع خاص. الآن صرت أفهم لماذا كان

يترك المقر ليلياً ويعود عند اقتراب الصباح. كأن نفسه عافت النوم، لأنني كنت أراه لا يركن إلى الراحة ولو ساعة واحدة خلال النهار أيضاً. ومع تقربي منه زادت معلوماتي عن شخصيته وهويته. وما هي أفكاره. ولكنني لم أسأله قط عن مهمته ولم يخبرني هو بأي شيء حولها. كان خبيراً بالاجهزة الالكترونية الخاصة باستراق السمع من العدو.

كنت قد نسيت معنى الخوف وصرت أطالب الحاج بمرافقته عند توجهه إلى الخط الأمامي لاستطلاع الأوضاع. وهو يرد علي في كل مرة: إنك ضيفنا العزيز ولابد لنا من الحفاظ على حياتك. من الأرجح أن تبق هنا. ولكنني اقنعته في النهاية وتوجهت معه ذات يوم يرافقنا مضمد وسائق نحو خنادق الخط الأمامي. كانت القذائف العراقية تنهال علينا من الخلف وتحطم الصخور أمامنا أحياناً.. بعد فترة قصيرة تكيفت مع هذا الظرف.. وصلنا الخنادق قرب الظهيرة وكان قد سبقنا إليها طبيب آخر وانشغل بمعالجة أحد الجنود. الجميع كانوا يعرفونه. قيل أنه لا يزورهم ضمن فريق وبمركبة بل وحيداً تقلّه دراجة نارية وأنه يتعهد بمعالجة جميع الحالات في تلك المنطقة ويعرج يومياً على كافة النواحي التي تكفل بها. قال الزملاء: كان يعمل مع الحاج لفترة من الزمن لكنهما لم يتوافقا معاً لأنهما يتبعان الأسلوب ذاته.

أطرىٰ عليه الحاج كثيراً. قال: لا يكل ولا يركن إلى الراحة لا في الليل ولا في النهار. يقضي كل وقته في الرواح والمجيء إلى الخنادق.

كنت أتلهف للقائه. ولما خرج من الخندق وتلاقت أعيننا، وجدت أنه.. يا الهي ماذا أرىٰ؟.. إنه «فرشيد» صديق الطبيب وزميلي الجامعي بلحمه ودمه! كان يتقدمني في الدراسة بعام واحد وتعهد بمسؤوليتي على مر عام كامل في قاعة التشريح. إنه هو بمحياه الرؤوف الذي يغلب عليه الحياء. هو الآخر أسعده لقائي. حصل على إجازة لمدة سنة كاملة وتوجه إلى الجبهات. أخبرني أنه يريد البقاء في هذه المنطقة لسنة أخرىٰ ليتم بذلك السنتين المنصوص عليهما لخدمة العلم. لم يكن ذلك مطلوباً منه ما دام طالباً لم ينه دراسته بل كانت طلبته هي

التي تمده دون ريب باللذة.

قال الحاج ضاحكاً: كأنك يا دكتور عثرت على أصدقائك هنا؟

قلت: أجل.. وأي صديق!!

في اليوم التالي قررنا زيادة الخنادق معاً مرتين أسبوعياً. لم أعد أخشى الإصابة ولا أخاف الموت. كان عملاً ملذاً ومرحاً، لا لأنه بعيد عن الأخطار، فالأخطار كانت تحدق بنا. بل لأنني حددت لنفسي هدفاً سامياً.. خدمة الدين والوطن إلى جانب فريق من المتفانين المضحين.

بعد انتهاء الشهر قررت إطالة البقاء. لم أقض وقتي كله في العمل بل كنت أهتم بالترفيه أيضاً. كنت التقط بكاميرا اصطحبتها إلى هناك مناظر نائية في أرجاء الخطوط الأمامية. التقطت صوراً تذكارية حتى لمناطق داخل الحدود العراقية ولمواقع العدو العسكرية. كنا نصطاد الأسماك من نهر كبير يجري في تلك المنطقة و... دون مبالاة باحتمال استهدافنا من قبل العدو في أية لحظة، لأن أولى قوانين الحرب هي الاستهانة بالنفس وبذلها في سبيل المثل العليا و... ومن الطبيعي أن تتبلور لدى الإنسان في شتى الظروف الحاجة إلى الترفيه وإن تعرض خلال ذلك الترفيه إلى الخطر.

لقد تخلص وطننا ايران من براثن العدو السفاك بفضل عظام الرجال من أمثال الحاج «غلامعلي. ر»، الدكتور «فرشيد. هـ»، النقيب «امير. ف»، «فرهاد. ك» وآخرين كثيرين لم أعد أذكر أسماءهم الآن. كانت مهمتهم عظيمة للغاية. فقد صانوا بلادهم بايثارهم وتفانيهم ووفروا لأمثالي الفرصة لأجلس الآن هنا واكتب خواطري بفراغ بال وأنت تجلس في مكانك وتطالعها بفراغ بال. إذاً، لابد لنا أن نخبر أبناءنا بأن رجالاً عظاماً من العرق الإيراني والصنف الحسيني نهضوا ببسالة ودافعوا بأقل ما توفر من المعدات وبأسمىٰ ما يمكن من المعنويات، عن سيادة وطنهم وحقانية دينهم. دحروا أعداء شعبهم ودفعوا أرواحهم ثمناً لعزة بلادهم.

طاب ذكرهم وغدقهم الله بوافر رحمته.

«رهاب الوحدة»

كنت على موعد مع سيدة في الثامنة والعشرين من العمر. حضرت السيدة «مريم. أ» في الموعد المحدد وجلست أمامي وقد غزا وجودها اضطراب حاد فراحت تمزق منديلاً حريراً في يدها وتلقي بها عفوياً على الأرض. كانت بدرجة من التشوش كأنها توخز بأبرة مدببة. أبت الاستناد إلى الأريكة التي جلست عليها في حالة تأهب قصوىٰ. اسندت إحدى يديها إلى مسند الأريكة وراحت تهز الأخرىٰ أثناء حديثها. كان وجهها المكدود المنهوك يغطي على شبابها اليانع فراحت تبدو وكأنها في الخامسة والأربعين. كانت تجهد للتكتم على عدم هدوئها والتظاهر بالوقار دون أن تنجح تماماً في تحقيق ذلك. كانت أُماً لثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم بين الخمس والعشر سنوات، وزوجة لمهندس الكتروني يعمل في وزارة النفط. كما أنها تحرز شهادة البكالوريوس. زارتني مع أمها لأنها تخشىٰ، كما قالت، التعرض لجلطة قلبية أثناء وجودها خارج الدار. دفعت إليّ خطاباً من أحد الأخصائيين في أمراض القلب والعروق. جاء فيه:

«زميلي العزيز

أجريت للسيدة «مريم. أ» ذات الثماني والعشرين عاماً، متزوجة وأم لثلاثة أطفال، مختلف الفحوصات والاختبارات القلبية، اثبتت جميعاً سلامتها التامة ولهذا نصحتها بمراجعتك نظراً لتشخيص للحالة باعتبارها مرضاً عصبياً..».

وضعت الخطاب جانباً وقلت لها مرحّباً بأسلوب يبثها الهدوء: قرأت خطاب الدكتور...، إنه من أحذق أطباء بلادنا. وقد شملني بطيبة أخلاقه بتوجيهك لمراجعتي أنا بالذات. كتب إلي أنك لحسن الحظ تتمتعين من ناحية قلبك بصحة تامة. الآن أريد أن تشرحي لي بنفسك تفاصيل حالتك.

ـ أخشىٰ يا دكتور أن أعجز عن رعاية أطفالي الثلاثة. وقد تعرضت عدة مرات خلال السنة الماضية لنوبات الجلطة القلبية أو ما يسميها الأطباء النوبات العصبية. لا أستطيع أن أشرح ما يحدث ومن أين تنطلق الحالة ولكنني أعي أن الأعداء يخططون لقتلي أو لدفعي إلى الجنون و....

شهقت بالبكاء وراحت وهي تجفف دموعها بمنديل نظيف، تكرر اعتذارها مني لعجزها عن ضبط نفسها وكف دموعها.

قلت: أيمكنك يا سيدة (أ) أن تتحدثي إلي عن مرضك؟

ـ تبدأ النوبات دون أية مقدمة. أحس فجأة بخفة رأسي.. أنفاسي تتسارع ويزداد ضربان قلبي. ينتابني دوار ورعشة وإحساس بالغربة عن البيئة وبواهية كل شيء حتى أنا ذاتي. أشعر كأن قلبي سيتوقف عن العمل فوراً. وأنني أشرف على الموت، كأنني سأجن، أخشىٰ أن أصرخ فجأة وأفضح نفسي أمام الناس. فيحملونني إلى قسم الإسعاف ويتم حقني في الوريد لتعود حالتي بعد فترة إلى سابق عهدها.

ـ وبأية فواصل زمنية تنتابك هذه الحالة؟

ـ في البدء مرة واحدة أسبوعياً والآن مرة في كل شهر تقريباً. ولكن مشكلتي حالياً تكمن في أمر آخر أهم منها بالنسبة إليّ وهو رهبتي من الإصابة بهذه النوبات وأنا خارج الدار. إن خوفي هذا شل حياتي وارغمني أن التزم الدار في أغلب الأوقات لا أجرؤ على تركها دون أن يرافقني أحد.. أنت تعلم يا دكتور أن المرء لا يتمكن من مضايقة الآخرين على الدوام، فالناس هم مشاغلهم، هم حياتهم. قد تجدني امتنع لعدة أيام متتالية عن الخروج من البيت

وشراء ما يلزمني لكوني وحيدة ليس هنالك من يرافقني.

ـ وكم تستمر كل نوبة عموماً؟

ـ عشرين دقيقة أو نصف ساعة. وتسير وفق خط بياني ثابت. تبدأ بالاشتداد تدريجياً ثم تبلغ ذروة حدتها لتعود تدريجياً أيضاً إلى التزايل والاختفاء خلال عشر دقائق.

ـ هل تمعنت في أية ساعات من اليوم تنتابك هذه الحالة؟

ـ لا تداهمني في ساعة معينة. ربما صباحاً أو عصراً أو حتى في الساعات الأخيرة من الليل. أفزع من النوم فجأة ويضطرب قلبي وكياني بأسره. في ينشف ويخيل إليّ أنّ روحي ستزهق. قيل لي أنها ربما تكون نوبة صرع أو «شر النفاثات في العقد». أرجو أن تعذرني يا دكتور فقد ألجأني بؤسي حتى للاسترمال ولكن دون جدوىٰ.

رغم قلقها وشدة نحيبها لم تتمالك نفسها وضحكت عند تحدثها عن الرمال. ضحكت خجلاً وتهكماً. كنت أتحين فرصة مثل هذه لأخفف عن الجلسة ما سادها من جو عاطفي وعصبي ثقيل. فارتأيت أن استغلها بالمزاح. قلت ضاحكاً: أأنت جادة؟ لقد سمعت أن بعض هؤلاء الرمالة يعالجون أمراضاً عضالاً، عجز عن معالجتها جميع الأطباء؟ فكيف كانت خبرتك معهم؟ هل نلت العلاج؟

قالت باسمة وباستياء: وماذا أفعل هنا يا دكتور لو كنت نلت العلاج؟

ـ وما هي تعليماته؟

ـ عدة أوراق ملفوفة ومشدودة بخيط. طلب مني أن ألقي واحدة منها كل صباح في قدح من الماء ثم ارتشفه بعد ساعة. كانت سبع لفافات صغيرة. ولكنني عندما أنبأته في مراجعاتي التالية بأن حالتي لم تتحسن، عاد يقول: ينبغي أن تراجعي طبيباً نفسانياً.

ـ وماذا فعلت؟

ـ بدا لي أن الاضطراب في أداء قلبي ومن الأرجح أن أراجع طبيباً أخصائياً بالقلب.

قلت ممازحاً: كأن السيد الرمال شخص حالتك يا سيدتي البكالوريوس أفضل منك؟ وضحكنا سوية.

أود هنا أن أذكر أن بعض الأمراض الخاصة تتماثل بالفعل للعلاج بالاسترمال لأنها أمراض تلقينية بسيطة وإن بدت معقدة في ظاهر أمرها ولكنها في الحقيقة ليست اختلالات مزمنة ومتجذرة ولهذا يكتب لها الشفاء بالتلقين. فمراجعة هؤلاء الأشخاص من قبل فئات من المجتمع تؤمن وبشدة بهم تثمر في بعض الحالات. لكن حالة السيدة (أ) كانت بحاجة إلى أساليب علاجية أولية وجذرية تخرج عن نطاق عمل هؤلاء. تغيرت أجواء الجلسة وصار بإمكاني مواصلة عملي.

قلت: هل تعانين يا سيدة (أ) من مشكلة ما في حياتك؟ مشكلة تشغل بالك أو موضوع يخرج عن إطار القضايا اليومية والسلوكيات المألوفة في الحياة؟ برنامج استثنائي يشغل تفكيرك ويتسبب في إيذائك على الدوام؟

راحت تستعرض أفكارها كأنها تشد ما ترد به على سؤالي من أعماقها ثم قالت مترددة: كلا، إن حالتي طبيعية وطيبة جداً، لا يضايقني فيها سوى قضية عمل زوجي ولا أحسبه مشكلة تخل بحياتي. إن علاقتنا ودية للغاية.

ـ عفواً! لا أعني تشوش العلاقة بينك وبين زوجك، بل أي موضوع يخص العائلة ويضايقك؟

ـ أجل، إنه عمل زوجي. إنه يعمل في رصيف نفطي في خليج فارس، يمكث خمسة عشر يوماً في محل عمله وخمسة عشر يوماً في الدار. أواجه صعوبة بالغة في إدارة شؤون المعيشة أثناء غيابه عنا. أما أيام تواجده هنا فإنه بالطبع يقضي نهاره كله في البيت ويثير اعصابي. لكنني أتحمل ذلك. ما أقاسيه هو صعوبة العيش إبان غيابه. قبل عام هاجم اللصوص بيت جارنا في الطابق السفلي

فصرت منذ ذلك الحين أفكر ماذا سيحدث لو داهم اللصوص منزلنا؟ ماذا عسانا أنا وأطفالي الثلاثة الصغار أن نفعل؟ إن هذه الأفكار إضافة إلى متابعة أمور دراسة أبنائي ورعاية شؤون المنزل، ابتياع مستلزمات المعيشة، تلبية توقعات الأقارب و... استنفدت طاقتي. يترتب علي أن أتابع أعمالي بقلق منذ أن استيقظ من النوم صباحاً وحتى المساء. وفي المساء يداهمني رهاب الوحدة واللصوص و... ربما تكون هذه الأمور هي التي أنهكتني...

قدمت لي ايضاحات وافية وأشارت بالضبط إلى النواة الأساسية لهذا المرض والتي تمثلت بالضغوط النفسية. وإن كانت هذه القضايا قد غاصت فعلاً في اللا شعور من جهازها النفسي (العقل الباطن). ولم تعد تظهر بوضوح بل تتقمص الآليات الدفاعية النفسية للتنفيس عنها بهذا الشكل.

تشير الأبحاث النفسية إلى أن الاضطراب عندما تتجاوز حدته ما يتمكن الشخص إرادياً من مواجهته فإنه يظهر في إطار نوبات عصبية تسمىٰ «الهلع». تظهر بالضبط كالبركان المتفاعل إثر انفجار المواد المنصهرة المتراكمة لتزيح بذلك ما يعرقل طريقها. كانت حالة السيدة (أ) هي «الهلع» بنفس الخصائص والسلوكيات.

استطردت: إن المشكلة التي زادت الطين بلة يا دكتور وألزمتني الدار هي تصوري أنني سأتعرض لهذه النوبات كلما أخرج وحيدة من الدار وسوف لا يكون إلى جانبي من ينقذني. أفكر: وماذا سيحدث؟ ستداهمني سكتة قلبية دون أن يكون هنالك من يعينني! ماذا سيحل بأطفالي؟ وبهذا يمنعني الخوف من ترك الدار. إنني أعجز عن الخروج منها. إن النوبات لا تداهمني لأكثر من مرة كل شهر. ولكن القلق من مواجهتها لا يفارقني لحظة واحدة. أمي تسكن إحدى المحافظات وقد جاءت لزيارتي منذ فترة. أشعر بتحسن أوضاعي بوجودها إلى جانبي ولكنها لا تتمكن من البقاء هنا. فلها حياتها ومسؤولياتها.

وبعد صمت قصير قالت متأوهة: لقد شلت فاعليتي يا دكتور قبل

الشيخوخة. لقد اصطحبت أمي معي لهذا السبب ذاته.

لقد انشطرت معاناتها إلى موضوعين. الأول نوبة الهلع (Panic) والآخر رهاب الأسواق أو الأماكن المفتوحة (Agoraphobia). المصاب بهذه الحالة كما شرحت السيدة (أ) بوضوح، يتجنب الخروج من الدار خوفاً من أن تداهمه نوبة الهلع وهو وحيد لا يرافقه أحد فيضطر إلى غض النظر عن الخروج بمفرده مما يتسبب في اختلال منهج حياته وفاعليته بشكل حاد. كانت حالتها لحسن الحظ من الحالات الآيلة إلى الشفاء. إن التنبؤ برهاب الأماكن المفتوحة في حالة تجرده عن الهلع يكون أصعب بالنسبة للطبيب. إن عمرها كان هو الآخر في فترة احتمال بروز هذا الاختلال الذي يعتري النساء أكثر من الرجال وفي العقد الثالث من العمر في أغلب الحالات وفي أعقاب النشاطات النفسية أو الجنسية وحتى خبرات الإرهاق الجسمي الزائد. تتبلور حالة الهلع بفاصل زمني بعد هذه الخبرات بحيث ينسى المريض ذاته علاقة هذه القضايا بنوباته. ومع هذا تسبر الجذور الأصلية لهذا المرض في خبرات الاضطراب والتشوش الطويلة الأمد.

سألتها: أهنالك بين أعضاء أسرتك من يعاني من مثل هذه الحالة؟

قالت بترو، وهي تجهد في استعراض جميع أقاربها في ذهنها: أجل، جدتي كانت تعاني من الاكتئاب وتتعاطى الأدوية لذلك. وأمي كذلك تقول أنها كانت تتعاطى أدوية الأعصاب لعدة سنين عندما كانت في مثل عمري ولكنها الآن على خير ما يرام والحمد لله.

إذاً، كان لهذه السيدة الشابة سجل وراثي يتضمن حالات إصابة بالاضطراب وقد ساهمت ظروف حياتها، كعوامل ممهدة، في ابتلائها بهذا المرض.

شرحت لها هذه التفاصيل بإسهاب. طمأنتها أن مرضها ليس قلبياً بل استدللت على أنها تعاني من حالة الهلع إضافة إلى «رهاب الأماكن المفتوحة»

الناشئ عن نوبات الهلع. نجحت في إقناعها بضرورة علاجها وبأن علاجها يتم بمنتهى البساطة شرط أن تطبق تعليماتي بدقة.

استغرق المنهج العلاجي المتبع مع السيدة (أ) فترة سنة كاملة بعد أن تخلصت تقريباً من ٧٥٪ من حالاتها في غضون شهرين ولكن علاج رهاب الأماكن المفتوحة استنفد زماناً أطول نسبياً. والحاجة إلى زمان أطول للعلاج، تعتبر من خصائص هذا المرض. اختفت نوبات الهلع تماماً خلال أربعة أشهر تم فيها ضبط ٨٥٪ من حالات الرهاب ثم تم التغلب عليها تماماً خلال ثمانية أشهر واستغنت تحت إشرافي بعدئذ عن تعاطي الدواء ولكنها ولطابعها الحساس كانت تبتلىٰ بين الفينة والأخرى بحالات التشوش والقلق المرضي ولكنها ولاطلاعها الوافي على حالاتها النفسية والتوجيهات العملية والأدوية التي كنت قد وصفتها لها كانت في كل مرة تنجح ببساطة تامة في التغلب عليها.

كان الأمر يستلزم نقل الزوج بشهادة طبية إلى طهران لمدة سنة وبقاءه إلى جانبها. والتدبير الثاني تضمن التعليمات الرياضية اليومية التي يترتب عليها تنفيذها للتنفيس عن طاقتها النفسية السلبية وتحويلها إلى قوة ايجابية. ومهمتي التالية تحددت باستئناف العلاج النفسي فانتهجت معها أسلوب العلاج النفسي العقائدي وهو أسلوب ناجح وملذ للغاية ويتمتع بفاعلية كبيرة لعلاج المثقفين. كانت السيدة (أ) بدورها تتابع علاجها بجد ومثابرة وقد حصدت ثمار متاعبها.

ولكن ما يستوقفني هو أنني لا أعلم من يستحق الشكر منها لتنبيهها لحالتها النفسية، أخصائي القلب أم الرمال؟!

تدارك الخطأ

كنت استقبل أحد مرضاي عندما فاجأتني العجوز بدخول الغرفة والارتباك باد عليها. راحت تقول وهي تجهش بالبكاء: «أغثني يا دكتور، إبني تعرض لنوبة عصبية فأقام الدنيا ولم يقعدها. حطم كل شيء وانهال ضرباً على الجميع ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه. إنه لا يرضى الخروج من الغرفة وصوت تهشم الأشياء والأثاث ما زال ينبعث من الغرفة. لا أحد يتجرأ على دخولها. إنه يصرخ ويكيل السباب بصوت مرتفع. لا أعلم، لا أدري كيف أتخلص من هذه البلية». يبدو أن قواها خارت فجأة فجلست في ركن من الغرفة وتعالىٰ نحيبها.

كانت السيدة في حوالي السبعين من عمرها، هيكلها نحيف ويداها ترتعشان منعني سنها وشيخوختها أن أطلب منها التريث في غرفة الانتظار حتى أفرغ من لقاء مرضي. زد على ذلك أن ذهني قد اضطرب ولم يعد بامكاني متابعة عملي مع مريضي هذا بينما أصطخب القلق على ذلك المريض. فقد يتسبب التأخر لخمس عشرة دقيقة في أضرار حياتية يتعذر تداركها. المريض الذي كنت استقبله كان رجلاً مثقفاً، وقوراً لا يعاني من أزمة حادة. ولهذا استمهلته على أن يقضي وقته بالمطالعة في غرفة الانتظار ريثما أصحب السيدة إلى دارها لأرى إن كان بوسعي تقديم العون لهم. الفاصل بين دارها وعيادتي كان لا يتجاوز عدة أزقة مما مكنني من الوصول بسرعة إليها. سرت على عجل مع

الأم. أخبرتني ونحن نتجه إلى بيتها أن ابنها مصاب بالفصام وأنه يخضع منذ خمس سنوات للعلاج النفسي ولكنه لا يتابع العلاج بجد وقد تزوج في العام الماضي إثر وصايا الأقارب والمعارف والأصدقاء. قالت المسكينة: قلنا لعل حالته تتحسن بعد الزواج. ولكن هذا ما لم يحدث فحسب بل زاد من مصابنا فقد أضيفت مشكلة أخرىٰ إلى مشاكلنا. ما نحمد الله عليه هو أنه لم ينجب بعد.

وفي هذه الأثناء وقفت السيدة «جواهري» أمام بوابة بيت فسيح وقرعت الجرس. كان البيت بيتهم. الدار فقدت وضعها الطبيعي واضطرب ترتيب كل شيء فيه وقد تهشم الكثير من أثاثه. هرعت النساء إثر دخولي إلى غرفهن وتقدم الرجال وهم أخوا كاظم وصهره وأبوه لاستقبالي بوجوه واجمة يلوح عليها الأسى. قدم لي كل منهم نفسه. أجواء دينية محضة كانت تسود البيت، وهذا ما يستوحىٰ من وجوه ساكنيه. الأبوان كانا يتضرعان إلى الله ويتوسلان إليه على مر اللحظات. لم يعد أي ضجيج ينبعث من غرفة كاظم. قيل أنه كف عن إصدار أدنىٰ صوت منذ خمس عشرة دقيقة. كانوا يخافون احتمال أن يكون قد ألحق السوء بنفسه.

قلت: لا داعي للقلق. إن مثل هؤلاء المرضى لا يقدمون على الانتحار في ظروف الأزمة.

تقدمت نحوي سيدة وحيتني. لمحت هالة زرقاء تحيط بإحدى عينيها وخدشات تظهر على ما كشف عنه الحجاب من وجهها. كانت زوجة كاظم.. فتاة ريفية في حوالي السابعة أو الثامنة عشر من العمر تحاول التمظهر بمظهر من يسميهن البعض «الفتيات العصريات» وهي في غفلة عن أن لكنتها تكشف عن كل شيء. كان وجهها رغم ما اعتراه إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له، يلوح بكبريائها وشعورها بالاستخفاف إزاء كاظم. كان بامكاني أن أفهم ما قاسته خلال هذه الفترة التي تجاوزت السنة بقليل مما دفعها لاتخاذ مثل هذا الموقف. تساءلت: من أين بدأت القضية؟

قيل: تشاجر مع زوجته وانهال عليها ضرباً. أردنا منعه ولكنه عارض تدخلنا وراح يضربنا لشدة انفعاله. حطم كل شيء ثم انصرف إلى غرفته.

ـ ولم تشاجر مع زوجته؟

قالت الزوجة، ليلى: «نحن مدعوون لحضور حفلة عرس ليلة غد وقد صبغت شعري وأظافري. بدأ يكيل لي السباب والشتائم ويضربني وهو يتهمني بقوله: قد اتخذت عشيقاً وهذا ما يدعوك للاهتمام بنفسك على هذا النحو. كاد يقتلني لو لم يقدم أخواه وصهره على منعه..».

أردفت السيدة جواهري: مائة مرة قلت لهذه الفتاة، لا تثيري أعصاب ولدي بتصرفاتك. لا تعانديه. وهل تفهمني؟ إنها ليست المرة الأولى يا دكتور. إنها حالة ألفنا مواجهتها كل ثلاثة أو أربعة أيام ولكنها كانت أسوأ بكثير في هذه المرة. كاد يقتلها لولا تدخل الرجال. أخشى أن يفقد صوابه ذات يوم وينزل البلاء بنفسه أو بهذه الفتاة البلهاء. ليجعل الله عقبانا على خير.

قلت: حسناً جداً. وهل ينصاع لشخص ما؟

ـ في مثل هذه الظروف، لا.

رحت أفكر في نفسي بالطريقة التي تمكنني من فتح الباب، بالأسلوب الذي اتخذه لاجتذابه. كان يتوجب ضبطه بعدة حقن. ولكن كيف أصل إليه؟ خطرت لي فكرة. قلت: «حسناً، إصغوا إلى ما أقول بدقة ولا تنطقوا بأي كلام. أطلب التنفيذ فقط. لا تردوا إلّا عند الضرورة» ثم بدأت أتكلم بصوت عال يسمعه كاظم أيضاً. رحت أوجه لهم اللوم، فقلت: ولماذا لا تكفون عن إيذاء هذا الشاب المسكين؟ لم تتدخلون في شؤون حياته؟ ما شأنكم وشجار الزوجين. إن أي زوجين يتشاجران ثم يتصالحان معاً. وما علاقة ذلك بكم؟ ثم أنه لم ينطق بكلام غير منطقي. لقد أمر زوجته أن لا تتزين. وكان عليها أن لا تفعل. وهل هذا الموضوع بحاجة إلى نقاش.... ثم استطردت: إنهضوا، انهضوا واذهبوا إلى حال سبيلكم، اتركوا المكان، كل هذا الانفعال قد يهد قلب هذا الشاب لا

سامح الله، ويوقفه عن العمل. وهل فكرتم أية بلية ستحل بكم لو توقف قلبه عن العمل؟ فهل يريحكم ذلك؟ إنصرفوا يا إخوة.. إذهبوا إلى حال سبيلكم ودعوني أرى ماذا حل بهذا المسكين؟

ترك الجميع الصالة.. ترويت قليلاً لأمنح كاظماً فرصة التفكير وليستوعب تعاطفي الفكري معه، وبأن «الدكتور أيضاً يؤيد كلامي». سيسمح لي عندئذ بدخول الغرفة. كان واضحاً جداً أن أفكار كاظم كانت من نوع هذاء الأذى والإضرار وكذلك التفكير بخيانة الزوجة. إن هذه الأفكار تسود لدى الفصاميين. وجهل الفتاة كان يتسبب في احتداد هذه التصورات ولم يكن لها ذنب في ذلك فقد كانت سيدة بل دعنا نقول فتاة مراهقة ترىٰ نفسها حديثة الزواج وأن من حقها التزين. الإشكالية كانت تكمن في حالة كاظم لا سلوك ليلىٰ. ليس بوسعنا أن نتوقع من فتاة قليلة الثقافة، حديثة الزواج أكثر من هذا وهي ترى نفسها تنعم بمثل هذا الرفاه لاسيما وأن أسرة زوجها وللتغطية على نقاط ضعف ابنهم حاولوا أن يغدقوا عليها بالمال والامكانات بما تجاوز الحد المألوف.

كنت مرغماً على اتباع اسلوب يعارض وصايا كبار خبراء علم الطب النفسي بشأن عدم تأييد الأفكار الخاطئة للمريض وهذاءاته أو مسايرته، فالموقف كان موقفاً استثنائياً. لم يكن بوسعي التوصل إليه إلّا بهذه الطريقة. سايرته في أوهامه ليتقبلني ويفسح لي مجالاً أقدم له فيه المعونات العلاجية لأعود إلى الأطر العلمية بعد عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية.

كان الوقت قد حان لأطرق الباب. ساد السكون التام أرجاء البيت لعدة دقائق وكنت الوحيد الذي اخترق هذا السكون بأصداء خطابي وأن أقطع الصالة رواحاً ومجيئاً. كان لابد له أن يفهم أن هنالك من يتعاطف مع أفكاره، ويترصد الأمور جميعاً خارج الغرفة وأنه طبيب نفساني ولم يعارض أفكاره على غرار زملائه.

طرقت الباب عدة مرات وقلت: عزيزي كاظم، كاظم.. أخرج إلي يا رجل.. إنني أفهم وضعك مع هؤلاء الجهلة وقد طردتهم جميعاً.. ليس هنا أحد غيري. اخرج لأرى أية بلية انزلوها بك. إنني على عجل وعليّ أن أنصرف. أريد أن أفحصك فقط وارتاح لوضع قلبك وضغط دمك.

أدار المفتاح مرتين في ثقب الباب ولكن الباب لم ينفتح.. فتحته على مهل. الغرفة كانت شبه مظلمة: الستائر مسدلة وأجواؤها تعج بدخان السجائر. أبصرت جسمه الملقى على السرير. كان ينفث نفثات عميقة وممتدة في سيجارته. لم يعد أي شيء في الغرفة في محله وقد تحطم القسم الأعظم منها. كان قد ترك جرحاً عميقاً طوله (١٥) سانتيمتراً على ساعده الأيمن، وقد جفت دماؤه. تناسيت تماماً إنها المرة الأولى التي ألقاه فيها.

قلت بحنان ولكن بصرامة: انظر! ماذا فعلوا بهذا المسكين! أعجب ولماذا تثير الجدل معهم لينزلوا مثل هذه البلايا بك؟ إجلس، إجلس ودعني أقيس ضغط دمك وأرى ماذا حل بقلبك. ثم ربطت جهاز قياس الضغط دون تريث على عضده. وبعد هنيهة قلت مندهشاً مبهوتاً: ضغط دمك هبط إلى حد بعيد، قلبك خائر القوى. ثم التفت اليه واستطردت: حالة ضغط دمك في وضع سيئ يا رجل. أخشى أن تتعرض لجلطة قلبية. لابد أن أحقنك بدواء ما ليتحسن وضع قلبك وضغط دمك.

لم يعارضني فحقنته بحقنة «ديازبام» وأخرى «هالوباريدول». تعرى عن حالته بهذه الحقن وتناسىٰ نفسه إلى حد بعيد. انتهت الأزمة. قدمت تعلياتي الضرورية لأسرته ووصفت له مهدئاً يفترض حقنه به في الليل واتفقنا على مرافقته إلى عيادتي في الغد لتحديد برنامج أساسي لعلاجه.

كانت نصف الساعة التي توقعت أن أعود خلالها الى العيادة قد امتدت إلى الساعتين ونصف الساعة. ولهذا كان نصف المرضىٰ أو أكثرهم قد انصرفوا مع تفهمهم للموقف لحسن الحظ.

استقبلت في الساعة الخامسة من عصر اليوم التالي كاظماً وأبويه في عيادتي. كان والد زوجته قد أحاط علماً بالموضوع فجاء واصطحب ابنته معه. كان كاظم هادئاً ولكن هائماً في أفكاره. وأبواه هدأ روعهما قدراً ما. كان في الثلاثين أو الثاني والثلاثين من عمره. وجهه أخاذ يثير الاعجاب. يبدو أنه ربما كان يتمتع بشخصية في غاية الاحترام فيما لو كان ينعم بالسلامة والصحة. استقبلته بلهفة تامة دون أن أتناسى القاعدة القائلة بضرورة التعامل مع الفصاميين بصرامة يشوبها الحنان وكنت أعلم أنه يفترض علي أن لا اتصرف بأريحية معه تحسباً من اتجاه هذاءاته وأفكاره غير الطبيعية نحو كوني أحوك له مؤامرة. ومن جهة أخرىٰ لابد أن لا أسلك معه سلوكاً في غاية البرود لأنه سينبذني في مثل هذه الحالة. قلت: محياك يا كاظم يلوح بأن حالتك قد تحسنت؟ أتأذن لي أن أفحص وضع القلب وضغط الدم مرة أخرىٰ؟

إن تأكيدي على القلب وضغط الدم مرده كون مثل هؤلاء المرضى لا يعترفون بحالاتهم المرضية لاسيما في خضم الأزمة وأنهم يرفضون تعاطي أدوية الأعصاب أيضاً وكان ينبغي علي أن أصف له أدوية الأعصاب تحت هذا الغطاء. انشغلت فوراً بقياس ضغط الدم. سألني وهو يستسلم لي: كأنك لست أخصائياً في القلب؟!

ـ صحيح تماماً. ولكنني أقصد تفحص وضع أعصاب قلبك لا القلب نفسه.

لم يعد يدري ماذا يقول. قلت بوجه منبسط وأنا أفحصه: الحمد لله، الحمد لله. وضع ضغط الدم يبعث على الرضا. وكذلك القلب. ولكنك لم تتحسن تماماً. ينبغي عليك أن تتعاطى الأدوية التي أصفها لك بدقة لتتماثل إلى الشفاء التام إن شاء الله.

في مثل هذه الحالات تتحسن حالة المريض كثيراً بعد تعاطي الأدوية لفترة من الزمن بحيث يدرك حقيقة حالته المرضية وعندئذ يمكن اطلاعه على حقيقة طابع الأدوية لأنه سيستقبل ذلك بسهولة. بدأت أكتب وصفة كاظم. دواء

«كلوزابين» الجديد والفاعل للغاية بحجة أنه دواء لرفع ضغط الدم. لم أكن بحاجة لإطالة الجلسة معه ولهذا أذنت لهم بالانصراف وألحت لأبويه خلسة وكعادتي المألوفة أن يعودا لزيارتي مع بقية أعضاء الأسرة في الساعة التاسعة ليلاً لتوجيه التعليمات الضرورية إليهم.

***

في الجلسة التي اجتمعت فيها إلى أبوي كاظم، إخوته وأخواته وصهره، خاطبت السيدة «جواهري» قائلاً: سيدتي، هل تعرفين ما هو مرض ولدك؟

ـ أجل، لقد أخبرني الأطباء السابقون بأنه مصاب بالفصام.

ـ وهل سألتيهم عن أي نوع من الأمراض هو؟

صمتت هنيهة ثم أجابت: أجل، قالوا إنه يعني جنون الشباب.

ـ ألم تتساءلي عن واجبك إزاء المريض وأي علاج ينبغي اتخاذه لتحسنه؟

ـ ولِمَ لا؟ إننا اتخذنا كل الإجراءات التي كان بوسعنا أداؤها يا دكتور، إننا نحتفظ بأكثر من مائة وصفة لأفضل أطباء النفس في البلاد وقد رقد في المستشفى أيضاً لعدة مرات ولكنه لم يتماثل للشفاء. نصحونا أن نزوّجه لعله يتخلص من هذه الحالة ففعلنا. ولكن الأوضاع ساءت. فماذا عسانا أن نفعل؟ لا أهتدي إلى سبيل. احترت في أمري، ماذا أفعل؟

بعد صمت وشرود دام لحظات خاطبت الجميع قائلاً: إصغوا إليّ. ان كاظماً مصاب بحالة الفصام البارانوئي وبوسع بعض هؤلاء المرضىٰ أن يتماثلوا للشفاء التام إن تم إخضاعهم لأساليب علاجية مناسبة ولكنهم عموماً يحرزون تحسناً نسبياً وإن لم يكتب لهم شفاء تام. أي أن المريض في حالة تمتعه بجو أسري واجتماعي هادئ ومناسب وتعاطي الأدوية في مواعيدها وتعاون الأسرة معه في هذا السياق، سيتمتع بحياة طبيعية نسبياً. إنكم أخطأتم بإقحامه في ظروف استثنائية أي زواج غير مناسب بناء على الاعتقاد القديم السائد والذي يقول:

«زوجوا الشاب الطائش يشب إلى رشده». إنكم تناسيتم كون شابكم مريضاً وأن حالته جردته عن الشعور بالمسؤولية بمعنى أنه لا يقدر على تحمل أعباء مسؤولية حياة مستقلة. إنه لا يطيق في الواقع حكايات الحياة الزوجية.

تركت السيدة جواهري كغيرها من الآباء والأمهات جميع الأمور جانباً وتشبثت بهذا الموضوع مرتابة ثم راحت تقول: وهل هذا يعني أنه لابد لهذا المسكين أن يحرم من تأسيس الأسرة والتنعم بزوجة وأطفال. وهل يرضى الله أن يكون لجميع إخوته وأخواته أسرهم ويبقى هو وحيداً فريداً؟

تمالكني الضحك ولكنني شعرت باللذة لرؤية الأمهات وهن يفكرن في شتى الظروف بجميع شؤون أبنائهن. قلت: الحق معك بالتأكيد. ولكنكم لم تأتوا البيوت من أبوابها. اتخذتم له زوجة قروية تصوراً منكم أنها ستتماشى في حياتها مع أخلاقه وطباعه. ألم تفكروا بتأثير الاختلاف الطبقي الشاسع بينكم على حياته؟

كانت السيدة جواهري المسؤولة الأولى والأخيرة عن الجلسة والناطقة باسم الجميع. لم يعلق أي منهم على كلامها أبداً، فغدا حوارنا ثنائياً واكتفى البقية بالإصغاء. أدركت ببساطة أنهم لا يوافقونها على آرائها ولكن ما الجدوىٰ من النقاش؟!. السيد جواهري تخلى عن دوره بسبب حالته المرضية وتقدم عمره. ولهذا عادت السيدة جواهري لتقول: لقد أخبرنا أسرة العروس قبل ابرام عقد الزواج بتفاصيل حالة كاظم فتقبلوها. والآن بدأت الفتاة تتمرد وتستاء حتى ضيقت الدنيا بما وسعت في أنظارنا نحن وولدنا.

ـ إنكم أشخاص مؤمنون، ضمائركم واعية. وأنا أعلم ذلك ولكنكم كما قلت لم تأتوا البيوت من أبوابها. كان لابد لكم أن تتشاوروا مع طبيب ابنكم قبل كل شيء ليطلعكم أن من واجبكم العمل على منع المريض من التفكير بالزواج. وفي حالة ابنكم فإنه أساساً لم يلح على هذا الموضوع. إنكم انتم الذين أوقعتموه في هذه الورطة دون تعمد منكم. كان يترتب عليكم اختيار فتاة ناضجة،

اختبرت الحياة، تقارب كاظماً في عمره وتتمتع بخبرات وأعصاب رصينة وبالرشاد وواقعية الرؤية. فانظروا ماذا فعلتم؟! زوجتموه من فتاة مراهقة تفتقد الخبرة ومن طبقة متدنية ثقافياً إلى حد بعيد. إنها بالتأكيد لم تفهم لِمَ نطقت عند إبرام عقد الزواج بكلمة «نعم» وإزاء أية مسؤوليات؟ إنه بحاجة الى أم، أو إلى زوجة تتجرع محنه بأعصابها القوية وتستوعب كربته بحنانها الوارف. إن وضعكم المالي يمنحه مكانة تتمناها الكثير من الفتيات والنساء. وبوسعهن تحمل الحرمان في بعض المجالات لقاء التمتع بالرفاه المادي. كما أن الإنجاب ليس من صالحه لأنه قد يتعرض في حياته الزوجية للصعاب. ومع هذا يمكنه ذلك بعد عدة سنوات من بداية حياته الزوجية ونجاح الزوجة في اختبارها.

كانت الأم صامتة سامدة. تساءل أخو كاظم: وماذا نفعل يا دكتور بهذه الفتاة؟

ـ إنها ليست الزوجة التي يحتاجها كاظم، فما هو مهرها؟

ـ ثلاثمائة مسكوك ذهبي من مسكوكات «ربيع الحرية»(١).

ـ وما هو رأيها؟

ـ إنها تطلب الطلاق.

قال الصهر: لا يتعلق بها المهر إن كانت هي تطالب بالطلاق. لأن أباها أنبئ بمرض كاظم قبل العقد وقد وقع على كونه زوّجه ابنته وهو على علم بهذا الأمر.

تعالت الهمهمات بينهم. كل منهم كان يدلي برأيه وأنا أكتفي بالنظر إليهم. لقد وصلت الحكاية إلى لب الموضوع، المال. لقد حان الوقت الذي يفصحون فيه عن طينتهم وحقيقتهم الذاتية. أومأت إليهم بالسكوت وقلت: إنكم تصرفتم بجهالة عندما اتخذتم لابنكم هذه الزوجة. وقد أساؤوا التفكير عندما وافقوا

---

١ ـ مسكوكات ذهبية سائدة التداول في ايران.

على هذه الزيجة تأثراً ببريق نقودكم. وهل لفتاة في السابعة عشرة أن تتعايش مع رجل مريض في الثالثة والثلاثين؟ أما الآن فإنني أوجه كلامي إليكما يا سيد وسيدة «جواهري». إصغيا إلي.. إنكم عائلة مؤمنة ملتزمة بالدين. فلا تجحفوا الفتاة حقها. قد يساندكم القانون على هذا الصعيد ولكن عالم الغيب يعلم أنكم لم تطلعوها على حقيقة مرض ابنكم. فادفعوا لها حقوقها الشرعية واكسبوا رضاها على أية حال ودعوا الموضوع ينتهي بسلام. وسيبلغ كاظم خلال ستة أشهر من العلاج حداً يستعيد فيه ٨٠٪ من فاعليته. ولكنني أعود لأقول: إن هذه القضية تعتمد على تعاونكم معي، على حرصكم لمتابعة أوضاع تعاطيه للدواء وعلى إعداد الجو الآمن الهادئ له. وفي المستقبل إن أعلن عن رغبته في الزواج وألح في طلبه فعليكم أن تفكروا بالموضوع ضمن الأطر التي حددتها لكم ولابد من أن ألقى الطرف الآخر أيضاً..

***

منذ خمس سنوات وكاظم لا يزال يزورني كل شهرين مرة وقد صدقت احتمالاتي فقد تحسّن وضعه واختار قبل سنتين بعد استشارتي زوجة تقاربه في العمر، مثقفة تحوز شهادة البكالوريوس في علم النفس، في منتهى الرشاد والتبصر. وهي على اطلاع تام بمشاكل زوجها. قالت لي يوماً: إن الفقر أسوأ بكثير من مرض الفصام ولهذا أفكر دوماً بأنني أتحمل كل شيء سوى الفاقة. وأسرة كاظم تقدم لنا ولله الحمد العون الاقتصادي بكافة أشكاله. وبهذا يمكنني في المقابل العناية بزوجي بصبر وفراغ بال. زد على ذلك أن لزوجي شخصية تثير غاية الإعجاب. وما عليه إلّا أن يتعاطى قرصين يومياً ليصبح مثل سائر الناس.

إنهما تعاونا حديثاً على افتتاح مكتبة لبيع الكتب. وهي المهنة النموذجية بالنسبة لأمثال كاظم، وكلاهما يهويانها. أحياناً أفكر أن هذه الزوجة

الطيبة الليبية أهداها لهم الله بالتأكيد لقاء إحسانهم إلى تلك الفتاة القروية.

كدت أنسىٰ أن أقول أنهم منحوها نصف مبلغ المهر مع كافة المجوهرات والمصوغات التي كانوا قد أهدوها إلى تلك الفتاة الشابة لتحظىٰ هي الأخرى بوضع مالي جيد نسبياً.

في أعقاب العاصفة

ذات يوم حضر عيادتي السيد (ح) يحمل زوجته (مريم) على أكتافه. كانت الزوجة تعاني من شلل الساقين وقد جيء بها إلى عيادتي لاستشارتي بناء على طلب أحد أخصائيي «علم الأعصاب» لأنه لا هو ولا أنا لم نعثر في فحوصاتها العصبية على ما يمكننا أن نرده إلى جلطة دماغية أو (CVA). ولهذا شخصت حالتها بأنها «اختلال محول». ولكن الموضوع الهام هو تحديد سبب الابتلاء بهذه الحالة المرضية.

حضرت جلستنا إضافة إلى المريضة وزوجها إحدى صديقاتها الحميمات أيضاً وكانت، كما قيل، على صداقة وشيجة مع مريم منذ خمسة عشر عاماً. سألت في البدء: حسناً، هل لك يا سيد (ح)، أن تطلعني على تفاصيل حالة زوجتك؟

ـ أجل يا دكتور، تعرضت للإفلاس قبل سنة ونصف بعد أن سحب أحد شركائي مبلغاً طائلاً من رصيدنا وفر به إلى خارج البلاد.. عجزنا أنا وشريكي الآخر عن النهوض بأعباء مسؤولياتنا المهنية. كان الدائنون يتوافدون علينا بصكوكهم المستحقة وليس لدينا ما ندفعه إليهم إلّا عبارات الاعتذار والأسف. كانت الصكوك موقعة من قبلي أنا ولابد لي أن أتعهد بمسؤوليتي إزاءها. وأخيراً آلى مصيري يا دكتور إلى السجن وانتقلت زوجتي وابنائي إلى دار أبيها بعد أن باعوا كل شيء: البيت، الأثاث، السيارة و...، فاق الضغط النفسي الذي

تحملته مريم ما يمكن تصوره. المشاكل من ناحية والأسف والخجل من ناحية أخرى كانا قد انهكاني، أما مريم فإنها لم تبال بذلك. بل تجلدت كالفولاذ وراحت تواسيني وتعزز معنوياتي من جهة وتقوم بواجبها إزاء الأطفال على خير وجه من جهة أخرىٰ. كانت إلى جانب ما تحملته من اعتراض وتهكم المحيطين بها لاسيما أسرتها، تتابع موضوعين عسيرين آخرين هما استمهال الدائنين والشكوى التي رفعناها ضد شريكنا الفار. لا يخفىٰ أن شريكي الآخر نفذ وعوده بأن يبذل ما في وسعه من أجلي. كل هذه المساعي أثمرت إطلاق سراحي من السجن بعد سنة واحدة.

وخلال الستة أشهر الماضية تم حجز بعض ممتلكات ذلك الرجل الفار وخفف لنا الدائنون عن بعض ديونهم على أن نسدد لهم باقي الدين بالأقساط.. كانوا قد فطنوا أن بقائي في السجن إلى يوم القيامة لا يجدي لهم نفعاً. إذاً إطلاق سراحي ربما يمنحهم أملاً أكبر في الحصول على قدر من أموالهم في يوم ما. وقد نجحنا في دفع مقدار كبير من ديوننا حتى الآن وفي إعادة الوضع الطبيعي لحياتنا وعملنا. إنني أتوقع أن نسدد جميع الديون خلال عامين آخرين. استأجرنا داراً واستقللنا في معيشتنا وعادت حياتنا إلى مجاريها الطبيعية. ولكن.. قبل شهر وبعد انزياح شبح تلك الأزمة والكابوس المرعب عنا إلى حد لا بأس به، تنبهت صباح يوم ما أن زوجتي غير قادرة على النهوض من فراشها. لقد شلت ساقاها ولم تثمر أي من المعالجات التي خضعت لها إلى الآن.

ـ حسناً جداً. يا سيد (ح)، أيمكنك أن تتركنا قليلاً لأسأل زوجتك عدة أسئلة أخرىٰ؟

ـ بالتأكيد يا دكتور.

ترك الرجل الغرفة وقد سدد لي عوناً كبيراً بايضاحاته الوافية والدقيقة. كانت المريضة سيدة في الخامسة والثلاثين من العمر. تشتغل بإحدى الدوائر الحكومية. تبدو عليها إمارات الانطوائية وضبط النفس. التفت بادئاً إلى السيدة

«فريدة» صديقة المريضة وقلت: سيدتي، هل لديك ايضاحات أكثر مما ذكرها السيد (ح)؟

ـ كلا يا دكتور، لقد شرح الموضوع بدقة. والملاحظة التي أشار إليها بنفسه وكنت أنا أرقبها عن كثب أكثر منه هي الضغوط النفسية التي تحملتها مريم والتي أقلقتنا نحن الصديقات جميعاً. إنها لم تبال بها حتى أنها كانت لا تكف عن المزاح أثناء لقائنا بها. ولكنها خلال السنة والنصف الماضية تحملت ضغوطاً عاطفية بما يضاهي مائة سنة. سؤالي يا دكتور هو: لماذا احتفظت خلال أشهر الأزمة الفظيعة بصحتها ثم صارت إلى هذه الحال بعد أن تهلل كل شيء في حياتها بوميض الأمل؟

شكرتها باسماً وثمنت لها مجهودها في إعانتي ثم طلبت منها الانتظار خارج الغرفة. لم يبق في الجلسة سوانا أنا والسيدة مريم. كانت مستلقية على الأريكة بوهن ودون اكتراث وساقاها متدليتان كالخشب دون حراك. كانت طوال الدقائق السابقة تحدق في عينيّ دون أن ترمش ولكنني لما التفت إليها بعد انفرادي بها ابتسمت ورحت أعرب عن إعجابي بادارتها وتعقلها في تسوية الأزمة واصفاً إياها بأنها إنسانة عظيمة يجدر تثمينها. انفجرت باكية وشرعت تشهق بصوت مرتفع عم جميع أرجاء العيادة. كان الوقت متأخراً لحسن الحظ ولم يكن في عيادتي مريض سواها. أبلغت سكرتيرتي هاتفياً بأنها بخير ولا داعي لشعور أسرتها بالقلق.

واصلت البكاء حوالي خمس وعشرين دقيقة دون توقف حتى انهارت قواها فطلبت إليهم الانصراف بها على أن نعقد الجلسة الثانية بعد ثلاثة أيام. الملفت للانتباه أنني أبصرت حركة طفيفة في ساقيها عند انصرافهم، حركة أومأت إلى أسرتها بتجاهلها وكأنها أمر طبيعي.

كانت ساقاها في الجلسة الثانية متدليتين دون حراك كحالهما في بداية الجلسة السابقة. بدأت جلسة انفرادية بيني وبين السيدة مريم (ح). قلت لها:

هل لك يا سيدة (ح) أن تشرحي لي تفاصيل الأحداث بنفسك؟

بدأت المرأة حديثها ببرود يلوح إلى عدم شعورها بالقلق إزاء وضعها الحالي. شرحت لي ذات التفاصيل التي سبق وأن ذكرها زوجها تقريباً. وخلال مدة الساعة التي كانت تتحدث فيها كنت ألمح مؤشرات حالة «الاختلال المحول». والعلامة الفارقة لهذا المرض هي عدم اتساق المعاناة النفسية والقلق الذي يشعر به المريض إزاء حالته مع نوع المرض وحدته.

وفي الحقيقة أن مريم عادت الآن لتشعر بعد تحمل جميع الرزايا الماضية أن الأزمة تزايلت والأمور تكاد تعود إلى حالتها العادية، فصارت تحاول عفوياً أن تجتذب اهتمام الجميع بعد أشهر طويلة من بذل مساع تخرج عن طاقتها في خدمة أسرتها. أصبحت ترغب لا إرادياً في حيازة الاهتمام وتعويض حرمانها العاطفي. إن شلل ساقيها المفاجئ بمقدوره أن يضمن لها تحقق هذه الرغبة. وبهذا كانوا يهملون أعمالهم الشخصية ويلتفون حولها ويتداركون حرمانها السابق من الاهتمام.

والقضية الحاسمة الآن كانت تتمثل في علاجها. إن التركيز على هذه الحالات يمكنه أن يهدد صحة المريض بتثبت هذه الحالة لديه إلى الأبد أو أن تتمظهر بأشكال أخرى، والإهمال كذلك لا يعالج عقدها النفسية ورغبتها في المحبة والرأفة. المنهج الصحيح كان التعامل مع حالتها باتزان أي أن تتفاعل أسرتها مع حالتها بأسلوب في منتهى الحب والحنان ولكن أيضاً بصرامة ورصانة. أي أنهم فيما يثمنون متاعبها بجدية. ويعتبرونها مثمرة وبناءة للغاية. يصفون مرضها الحالي بأنه عابر وقابل للعلاج وأنه يمكن ضبط حالتها الطارئة بالعلاج الدوائي وغير الدوائي. ولكن عليهم أن لا ينبؤها بحقيقة المرض كما لا يتعاطوا بانفعال ويصابوا بالقلق والاضطراب إزاء كل حركة تستهدف إثارة اهتمامهم. تحدد دورهم في مثل هذه المواقف بتهدئة المريضة دون الإعراب عن هواجسهم إزاء نوبات المرض. ومن المسؤوليات الأخرى المفوضة إليهم تعزيز

معنوياتها وثقتها بنفسها. من جهة اخرى لما كان الاكتئاب من الأعراض البادية لديها وتتبلور النواة الأساس لحالة «الاختلال المحول» نتيجة للاضطراب النفسي، أخضعتها للعلاج الدوائي أيضاً. إنني أخبرت السيدة «مريم» ذاتها أنني أقدر جهودها المضنية في الأشهر الأخيرة وأسلوبها في الكفاح حتى نيل هدفها السامي ثم أكدت لها أن حالتها تعالج وعلاجها سيتم بيديها لأنني إن واجهتها بأنها غير متوعكة وأن من الأفضل لها النهوض والسير على قدميها كنت سأحطم كبرياءها وهذا ما لا يروق لعقلها الباطن (اللا شعور من ضميرها).

إنها أساساً لم تكن تبدي هذه الحالات عن عمد لأواجهها بمثل هذه العبارات. كانت مريضة ولكن مرضها نفسي يحتاج إلى العلاج كسائر الأمراض الأخرى.

أثمرت الجلسات السبع أو الثماني التي عقدتها مع السيدة (ح) التنفيس تماماً عن مشاعرها النفسية المؤلمة المكبوتة وتعزيز ثقتها بنفسها كما أنني وباعتماد إيمانها الراسخ تمكنت من شحنها بطاقات ايجابية. فالارتباط بالله والتضرع إليه هو أحد أسمى الأساليب المؤدية لإعادة بناء المقومات الروحية والنفسية.

وبعد شهر من بدء العلاج نهضت السيدة (مريم. ح) وسارت على قدميها ولكنها كانت بحاجة إلى العلاج الفيزيائي بسبب ارتخاء عضلات ساقيها خلال الشهرين أو الثلاثة الماضية مما كان يمنعها من تحمل ثقل الجسم ثم تتالت جلساتي معها بمعدل جلستين في الشهر الأول وجلسة واحدة شهرياً حتى نهاية الشهر السادس. عادت بعدها إلى ما كانت تتمتع به قبل ظهور عاصفة الأزمة من صحة جسمية ونفسية طيبة.

يصحب الاختلال المحول اضطراب في الوظائف الجسمية أو فقدانها ويكون مرده صراعاً نفسياً ويتعذر الاهتداء إلى علاقة هذه الحالة بالأمراض الجسمية كما لا تثبت الفحوصات الطبية أو المختبرية وجود أية أسباب أو أعراض

فسيولوجية جسمية لهذه الحالة المنبثقة من اللا شعور في النظام النفسي ولهذا لا يمكنهم ضبطها إرادياً. لم يتم حتى الآن تحديد نمط تبلور هذه الحالة بدقة ويصاب بها (٢٥_٣٣٪) من الناس في مرحلة من مراحل عمرهم وفي سني الشباب في أغلب الحالات بفارق تعرض النساء لها بنسبة أربعة أضعاف الرجال والطبقات المتدنية في المجتمع أكثر من غيرهم نظراً لافتقارهم للأساليب المنطقية والشفوية لتفريغ أنفسهم مما يؤدي إلى كبت هذه المشاعر البذيئة وتراكمها في ضمائرهم حتى تتحرر على هذا النحو.

تمكن الأعراض التحويلية (المحولة) المريض من الافصاح للآخرين عن حاجته إلى العلاج والاهتمام به وقد يتم ذلك عن طريق الأعراض الحسية أو الحركية على حدس سواء. فتتمظهر في الحالات الحسية بحالة الخدر، لاسيما في الأطراف ثم تسري إلى جميع الحواس. لا يتناسق مسار استفحال المرض مع الأمراض العصبية فشعور المريض بالخدر يعتريه في شبه حالة قفاز أو جوراب أو كأن بدنه انشطر إلى قسمين متساويين أصيب أحدهما بالشلل وهذا ما يفقد أي دليل أو ايضاح عصبي. ومن الواجهات الاخرى للمرض: العمى، الصمم و...

وفي الحالات الحركية تظهر لدى المريض ارتعاشات في الوجه، اختلال في السير وكذلك نهك عضلي أو الشلل وربما حركات شبه صرعية ورغم ذلك يكون المخطط الكهربائي العضلي طبيعياً عادة مما يدل على سلامة الأداء الوظيفي لعضلاتهم.

إن المريض يفعم في الواقع بتبلور هذه الاختلالات عن لا وعي بمزايا خاصة كالتحرر من قيود الالتزامات والظروف المعيشية الصعبة ونيل الدعم من قبل الآخرين أو التعويض عن مشاق تحملها لفترة مديدة.

تتطبع الأعراض المحولة عادة بانفراديتها وبقصر أمدها وبأنها تتبلور فجأة وتختفي على حين غرة وربما يطول أمدها أحياناً.

يتحتم الامتناع عن وصف هذه الأعراض إبان علاجها بأنها وهمية لأنـه يزيد الطين بلة بل يفترض طمأنة المريض على أنه سيستعيد صحته دون ريب رغم ابتلائه للأسف بهذه الحالة المرضية. يعتبر العلاج النفسي العقائدي خير منهج يطبق في مثل هذه الحالات كما لا يخفى الدور المحتمل للأدوية في تحسن أوضاع هؤلاء المرضىٰ.

مصير الحب الطائش

ـ أنا يا دكتور طالبة في السنة الثالثة من دراستي الجامعية. صحيح أنني من أهالي مدينة «زنجان»، ولكنني أسكن طهران منذ عدة سنوات لمواصلة دراستي الجامعية.

من خلال ابتسامة أطلقتها أفصحت الفتاة عما يخالجها من اضطراب ثم قالت:

ـ الحقيقة أنني لم أحضر مثل هذه الجلسات إلى الآن. لا أعرف يا دكتور ماذا أقول! أرجو أن تطرح عليّ أسئلتك واستفساراتك إن أمكن.

كنت أنظر إليها بهدوء وقد تنبهت لما تعانيه من تشوش وقلق من حركاتها وكلامها:

ـ بالطبع، ولكنك تحسنين الحديث وأرى أنك قادرة على عرض مشكلتك ببساطة.

ـ إلّا أنني لا أعرف ماذا أقول.

ـ طيب، أخبريني رجاء ما هي المشكلة الحالية التي اضطرتك لمراجعتي.

ـ أفكاري مشوشة، أشعر بالاكتئاب، أعجز عن مذاكرة دروسي. وقد تدنى معدلي خلال الفصلين الدراسيين السابقين ووصل إلى وضع حرج يترتب علي أن استدركه. أعنف مع الجميع. أعاني من الأرق حتى الصباح ولا أقوى على حضور محاضراتي في النهار لفرط شعوري بالارهاق والتذمر. أبكي واصطخب

الاضطراب، وقد اعتراني الهزال جراء ذلك و...

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرة وهي تقول:

ـ هل يكفي هذا أم تريدني أن أواصل حديثي؟

ـ يكفي هذا فعلاً. عرفت الآن معاناتك الأصلية. والآن أخبريني رجاء، لماذا أصبت بهذه الحالة؟.

ـ لو كنت أعرف السبب لما راجعتك يا دكتور!

ـ راجعتيني طلباً للعلاج لا لتستمعي إلى مجريات حياتك من فمي أنا. فكل إنسان أدرى بنفسه وبالوقت الذي بدأت الأعراض المرضية تداهمه. وما هو الحدث الذي تسبب في ابتلاء روحه ونفسه بمثل هذه التطورات! وهذا ما نسميه Pase history أي تاريخ المرض. ويستبان في الأمراض العضوية بشكل آخر أما الأمراض النفسية والقضايا الروحية فللمريض أن يبتّ إلى حد ما في سبب إصابته بها. أريدك أن تستعرضي هذا التاريخ بحسب ما يجول في خاطرك وسأوجه أفكارك بأسئلتي. أخبريني أولاً منذ متى تشعرين أنك قد تغيرت ولم تعودي تلك الفتاة الطبيعية وأنك تعانين من مشاكل فكرية؟.

ـ عند قدومي إلى طهران كنت مفعمة بالحيوية وبالرغبة في الدراسة. عزمت على مواصلة دراستي على خير وجه حتى أنال شهادة الدكتوراه.

كنت في غاية السرور والنشاط حتى تعرضت أسرتي إلى أزمة مالية عجزوا إثرها من رفدي بالمال الكافي. ولهذا طلبوا مني أن انتقل إلى مدينتنا. ولكنني لم أرغب في العودة إلى «زنجان» لأن مستوى جامعتها لا يقارن بجامعة طهران. آلمني أن أغض النظر عن درجتي العالية نسبياً لالتحق بجامعة تستقبل ذوي درجات متدنية. ولهذا رفضت طلب أسرتي وحاولت أن أعثر على عمل أمارسه إلى جانب دراستي لاتغلب بذلك على مشكلتي المالية.

على أية حال، عثرت بعد فترة على عمل في شركة للبناء براتب غير عال، ولكنه يسد حاجتي. كان مدير الشركة رجلاً في متوسط العمر يعاملني بمنتهى

الرقة. وبسبب تعامله الرقيق معي خلال عدة أشهر تعلقت بـه وقـد تـوثقت العلاقة بيننا فزاد مرتبي إلى أضعاف ما اتفقنا عليه. وكان يقدّم لي في الظروف المختلفة هدايا تبلغ قيمتها أحياناً ما يناهز مرتبي كله. كان متزوجاً ولكـنه لا يشعر بالرضا إزاء زوجته وقد عزم عـلى طـلاقها. بـعد مـدة تـقدم لخـطبتي وأخبرني أنه أب لفتاتين وطفل صغير لا بد لي أن أتولى مسـؤوليتهم، كـان رؤوفاً ومثيراً للإعجاب. وافقت على طلبه لتعلقي بـه، فـزوجته امـرأة سـيئة الاخلاق عديمة الشخصية. وقد أدركت حقيقة ذلك خلال عدة مـرات زارت فيها الشركة. وبعد فترة راح «منصور» يلح علي وبشدة لنعجل بالزواج قـبل إتمام المراحل القانونية للطلاق. أرغمت تحت طائل الحـاحه للـموافـقة عـلى اقتراحه تلبية لرغبته رغماً عني. الحقيقة أنني خجلت من التحدث حول هـذا الموضوع مع أسرتي فقررنا أن نتزوج خفية حتى يتم الطلاق بينه وبين زوجته ليتقدم عندئذ إلى أهلي فيخطبني منهم.

عندها انسابت دموعها فيما كانت ترنو برأسها إلى الأرض. أردفت تـقول وهي تواصل بكاءها مطأطئة رأسها:

ـ راجعتك يا دكتور وقد مر على زواجنا سنة ونصف السنة ومـنصور لا يزال على علاقته الزوجية مع زوجته وقد تركني معلقة لا أعرف مصيري. إنه بالتأكيد يمولني مالياً على افضل وجد ويعاملني اخلاقياً برقة بالغة ولكنه كلما سألته عما تم الاتفاق حـوله بشأن حـياتنا، يجـيبني: لم يحـن الوقت لذلك يـا عزيزتي. تروي حتى يحل الوقت المناسب.

لا أعرف يا دكتور، هل أنا متزوجة أم لا؟ هل أتمتع بحياة زوجية أم لا؟ كيف سأواجه أسرتي؟ إنني ولكثرة الوساوس التي اصطخبها لا أقـوى عـلى مذاكرة دروسي. فقدت الحياة لذتها بالنسبة لي. تركت القسم الداخلي في السنة الفائتة بعد أن استأجر لي شقة صغيرة وصار يزورني مرتين في كل أسـبوع. حددها بساعة واحدة من الظهيرة ينصرف بعدها ويتركني وحيدة. احترت من

أمري، كيف استدرك وضعي الحرج هذا.

يا دكتور، أريد أن أعيش حياة هانئة، أن أنعم فيها بمشاعر الأمومة، أن أواصل حياتي إلى جانب زوجي واتجرأ أن أخرج معه أمام الملأ وأقدمه لأقاربي. أية حياة هذه التي أعيشها أنا؟ لقد راجعتك يا دكتور لتأخذ بيدي، لتنتشلني من هذه الورطة، أرجوك، انقذني.

لم تتجاوز المسكينة الثالثة والعشرين من عمرها وكان لابد لها أن ترزح تحت وطأة هذه المأساة الكبرى وأن تتلظى بنار جهلها.

كانت إمارات البكاء الطويل الذي أرهق قواها بادية على محياها. لم يسعها في تلك اللحظات إلّا أن تترك دموعها تنساب عفوياً على خديها في بكاء لا يسمع له صدى. كانت ترفع وجهها وهي تحدق في سقف الغرفة. باءت محاولاتها لضبط دموعها الجارية على جانبي أجفانها بالفشل مهما أكثرت من الرمش. راحت تعض شفتيها لعل الإيعازات المؤلمة المستثارة في شفتيها تحول دون ترشح غددها الدمعية. كانت تسدد بقبضتها ضربات لا إرادية على مسندي المقعد. كنت أتوقع أن تنهض في أية لحظة لتطلق صرخات مؤلمة تكشف عن مدى حزنها وأساها.. ولكنها كانت أكثر رزانة وضبطاً للنفس من أن تصدر عنها مثل هذه السلوكيات التافهة.

ساد الصمت هنيهة في الغرفة، استعادت قدراً من الهدوء خلالها.

ـ إن وضعك هذا قد ألقى بك في متاهات مشاكل عديدة ولكن.. أرجوك أن تخبريني ما هي الخدمة التي يمكنني أن أسددها إليك؟

ـ أرجوك، ساعدني.

ـ تعنين أنك يا سيدتي الفاضلة ستطبقين اقتراحي بعد دراسة دقيقة حول الموضوع مهما كان؟

ـ أجل يا دكتور، بالطبع.

ـ وإن كان رأيي أن تنهي حياتك الزوجية معه؟

ـ يا للمصيبة، لا يا دكتور. إنني مغرمة بمنصور. لا أقوى على العيش بعيداً عنه، سأطبق أي اقتراح سوى الانفصال عن منصور.

ـ فلماذا راجعتيني؟ إصغي إليّ يا سيدتي، إنني أذعن بأنك تعانين من وضع مأساوي ولكن لا بد أن أعلم أولاً ما هو توقعك مني ليكون بمقدوري بعد أن أفكر ملياً في الأمر أن أقرر ما إذا كان بوسعي أن آخذ بيدك أم لا. إن طريقة انقاذك عن طريقي (إن تمكنت من ذلك) هو أن أتمتع بصلاحية تامة في هذا السياق على أن تنفذي أية خطة أرسمها واقترحها عليك. والآن أفضل أن أمهلك أسبوعاً للتفكير بكلامي. أرجو أن تزوريني بعد ذلك ثانية لتطلعيني على حصيلة تفكيرك. أعود للتأكيد أنك يجب أن تفكري ملياً خلال هذا الأسبوع بـ:

١ ـ ما هو توقعك مني؟

٢ ـ هل ستطبقين تعليماتي بدقة؟

وافقت على ذلك فحددت لها موعداً لنا بعد أسبوع كامل.

***

في الجلسة الثانية:

ـ السلام عليك يا دكتور.

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. طبت مساء يا سيدتي. أراك أكثر حيوية من الجلسة الماضية، أليس كذلك؟.

قالت باسمة:

ـ أجل يا دكتور، لأنني فكرت بجد طوال الأسبوع المنصرم بما اقترحته علي.

ـ وهل فعلت ذلك حقاً؟ أحسنت. هل لك أن تذكري لي ايضاحات أكثر من هذا؟

ـ أجل يا دكتور، زرتك في المرة السابقة وأنا أحترق بنار مشكلتي التي جهلت مصدرها. كنت هائمة لا أهتدي إلى سبيل.. مشوشة لا أرى الحياة إلّا بالقرب من منصور. لأنني أحبه. كنت أبحث عن طريقة ترغمه للتخلي عن حياته الزوجية الأخرى والتفرغ لي كما عاهدني. كنت أطمح إلى مثل هذا وزرتك لتعينني على تحقيقه. إلّا أن نمط رؤاك واستفساراتك ورغم خلوها من أية ايحاءات خاصة بثتني الشعور بالحاجة إلى التفكير بمدى عقلانية وموضوعية طموحي. سألتني عما أتوقعه منك فأجبتك بأنني سوف أنفذ كل ما تنصحني به ثم عدت لتسألني: حتى وإن اقترحت أن تنهي حياتك الزوجية معه؟ راعني ذلك ورفضت اقتراحك، كل هذه الأمور هيأت الأجواء لأثوب إلى رشدي وأدرك أنني قد خدعت نفسي بنفسي إلى الآن وأنا التي سمحت أن أكون ألعوبة و...

أفهم أنك وجهت لي تلك الاسئلة بناء على مفاهيمك النفسية. وأنا أشكرك جداً لذلك. لقد أتيتك هذه المرة وأنا على قدر أكبر من الوعي والرؤية الواضحة. لقد أيقنت أن بمقدورك أن تساعدني ولهذا تراني أفضل حالاً مما كنت عليه في الجلسة الماضية.

قلت مبتسماً:

ـ يسعدني كثيراً أن أراك على هذه الحال وبهذا النمط من التفكير. سأكون قادراً بإذن الله أن أوجهك لطريقة خلاصك شريطة أن تدركي جيداً أنني سأعجز عن ذلك لولا معاضدتك لي. لا تنسي أننا عقدنا اتفاق تعاون ثنائي لتنفيذ خطة انقاذك من هذا المأزق.

ـ أنا على أهبة الاستعداد يا دكتور.

ـ حسناً جداً، يبدو أن الظرف مناسب لنبدأ العمل.

كنت أنسق أفكاري لأبدأ بعرض التفاصيل عندما قالت:

ـ عفواً يا دكتور، أرجو أن تجيبني أولاً على عدة أسئلة أود أن أطرحها

عليك ليكون بوسعي أن أحدد بعد ذلك توقعاتي منك.

ـ تفضلي، أرجوك.

ـ هل أرادني منصور زوجة له حباً بي أو ليتخذني ألعوبة يقضي منها وطره؟ وهل أنه انسان طيب أم يتظاهر بالطيبة ليخدعني؟ وهل أنه خليق بأن أواصل حياتي إلى الأبد معه مضحية بشبابي من أجله؟ وهل أنه يعزم حقاً على طلاق زوجته أم أنه اختلق هذه الأكاذيب ليفوز بي؟

ـ إن جميع استفساراتك يا سيدتي تدور حول محور واحد وهو: ما هي حقيقة منصور وما هي نواياه؟ سيكون بامكاننا الرد على استفساراتك جميعاً باجابة عامة تقرر ما إذا كان خليقاً بمواصلة الحياة معه أم لا؟

ـ بالضبط يا دكتور.

ـ حسناً جداً. سنعثر على جواب استفساراتك في الجلسة التالية. سأطالع نتيجة اختباراتك النفسية كما أنني بحاجة إلى فترة من الزمن لتدارس جميع التفاصيل والتفكير بها ملياً. وسأكون في خدمتك بعد ذلك.

***

الجلسة الثالثة:

ـ هل لي أن أعلم كم هو عمر زوجك؟

ـ إنه في الرابعة والأربعين يا دكتور.

ـ كم طفل لديه؟

ـ ثلاثة، ابنتان في الخامسة عشرة والثالثة عشرة من العمر وابنه يبلغ الثالثة من عمره.

ـ عجباً، كان يدعي أنه دائم الشجار مع زوجته فكيف أصبح ذا طفل في الثالثة من عمره؟ أي أن عمر ابنه لم يتجاوز السنة الواحدة عندما تعرف عليك. أليس كذلك؟

ـ نعم، يقول أن زوجته اتخذته وسيلة لتقييده بها.

ـ إصغي لي يا سيدتي. ليس المهم كون المرء طيباً أم خبيثاً. المهم أن يتمتع بالقدرة على تحليل أعماله للتأكد من صحتها أو سقمها. إعلمي أن الكثير من الأشخاص الطيبين من ذوي الفطرة النزيهة يقدمون أحياناً على أعمال لا تغتفر. وقد يبادر الأشرار أحياناً لأداء أعمال تنم في حقيقتها عن طلب الخير والشعور الانساني في ظروف تطغى فيها مشاعرهم المكبوتة المهملة وتتجلى من خلال هذه الأعمال، ففطرة كل إنسان تتألف من مكونات الخير والشر. إلّا أن المحفزات الانسانية تطغى لدى البعض والقوى الحيوانية الشهوانية لدى البعض الآخر، أي أن الأنا الأعلى من وجهة نظر علم النفس تكون أقوى لدى الفريق الأول بينما تكون أضعف ويتغلب عليها الهو (Id) في الفريق الثاني. وقد تصل هيمنة الهو لديهم أحياناً حداً يخرج عما هو مألوف. في مثل هذه الظروف يقدم الانسان على أعمال تتنافى أساساً مع شخصيته العامة. وهذا موضوع تربوي ونفسي في غاية التعقيد انكب شخصياً على مطالعته وأود أن أتناقش معك حوله لاسيما وأنك طالبة في أحد الفروع الأدبية. ولكن الوقت الآن غير مناسب. ولنفترض أن «منصور» خان كان صادقاً في وعوده وفي نيته لطلاق زوجته وأن زوجته أسوأ النساء على وجه المعمورة. ألم يتوجب عليه تأجيل زواجه معك إلى ما بعد فراغه من المراحل الرسمية للطلاق؟ إنها مبادرة لا تتناسب مع شخصية رجل في الرابعة والأربعين من عمره!.

ـ إنني أنا كنت صاحبة هذا الاقتراح وقد ألحت عليه بنفسي، أنا طالبت بعدم إخبار أهلي و...

أومأت لها بالصمت. ثم استطردت كلامي:

ـ حتى وإن كان الأمر كما تقولين.. لقد كنت في الحادية والعشرين ولكنه كان في الثانية والأربعين. كنت أنت ساذجة غير ناضجة، ألم يكن هو في عمر يضفي عليه رجاحة العقل. كان يترتب عليه أن يرفض اقتراحك. إذاً، كان يفهم ما

يفعل. لابد أنه قال سأحظى بهذه الفتاة الشابة الجميلة وابذل لها من الحنان والمال ما يشدها لا إرادياً إليّ حتى اقضي وطري منها. وستكون إلى جانبي متى ما طلقت زوجتي لألتذ بالحياة معها. سأواصل الحياة على الوتيرة الفعلية دون عراقيل ما دمت أحتفظ بزوجتي الأولى. أجزم أنه قال في نفسه: من الأفضل أن لا يطلع أبواها على الموضوع لأنها ستضطر حفاظاً على سرها الانصياع لكلامي وأن تطول فترة دراستها الجامعية لتلهو بدروسها فلا تشعر بالتذمر من وضعها الحالي.

إنه مرغم على تمويلك مالياً على أفضل وجه لأنها أقل بادرة يتوجب عليه القيام بها إزاءك لأنه يعلم أن امتناعه عن هذا العمل يعني فقدانك. إنه يحنو عليك لأن عنفه يؤدي إلى نفورك منه.

إنني واثق أنك كنت تطرين على أخلاقه وسلوكه قبل لقائي وتذعنين لأقاويله كافة فعين الرضا عن كل عيب كليلة. لقد أصاب في تكهناته بأنك فتاة شابة قدمت من المحافظات إلى العاصمة وأن شعورك بالرخاء النسبي وبأنك زوجة لرجل ثري رشيد محفزات تخدع أية فتاة في ظاهر الأمر. ثم أنك أوصدت جميع الأبواب بوجهك بتعودك على مثل هذا البذخ وباقحام نفسك في سر يتعذر بوحك به لأبويك. إن هذا الرجل ورغم حبه لك أخطأ السلوك وأن هذه الحياة لا يكتب لها نهاية سعيدة هانئة لأنها تمخضت عن مغامرة كبرى.

فكري بمواضيع هذه الجلسة حتى الجلسة القادمة.

ـ بالتأكيد يا دكتور.

ـ استودعك الله.

كنت مجبراً للتحدث عن منصور في مرونة تامة لأنها كانت تحبه ولا يمكنها أن تصدق أنه خدعها بالضبط كما يقول الشاعر:

عين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

كان ينبغي علي أن أقول «أن منصوراً ورغم كونه إنساناً طيباً لكنه أخطأ في

سلوكه معك». سيكون بإمكانها أن تدرك الحقيقة الأساسية تدريجياً بعد استيعاب الحقائق الأخرى. وهذا الأسلوب يمنعها من جهة أخرى أن تشعر بالإحباط، فشعورها بأنه خدعها سيكلفها غالياً جداً فقد تصدر عنها انعكاسات جسيمة. ثم أن كل ذلك لا يعود عليها بفائدة تدعم خطة مشاورتنا كما أنه قد يكون خدعها فعلاً لحبه لها وتعلقه الشديد بها، أي أنه بادر لمثل هذا كي لا يفقدها. صحيح أن ذلك لا يبرر عمله المشين ولكنه على أية حال، أهون من أن يكون أوقعها في شراك خطة خبيثة مدبرة.

***

الجلسة الرابعة:

ـ صرت واثقة يا دكتور من صحة كلامك في أن هذه الحياة لا تكتب لها نهاية طيبة. لابد لي أن أسوي هذه المشكلة. لقد اتخذت قراري النهائي. سأقول له إما عليه أن يطلقني أو يطلق زوجته الأولى. إن مواصلة الحياة على هذا المنوال صارت متعذرة بالنسبة لي ولم أعد أحتمل وعوده.

ـ حسناً ولكن تروي قليلاً. افرضي أنه طلقها واحتفظ بالأطفال. هل تتمكنين من إدارة شؤون أبنائه. إنهم ولا سيما الأولين منهم بدرجة من النضوج تجعلهما تنظران إليك باعتبارك عامل تشتتهم. أما إذا دفع الأطفال إليها فهل تظنين أنك سوف لن تصابي بعذاب الضمير أو أنه لن يعود إليهم فتضطرب حياتك ثانية؟ هل فكرت بمثل هذه المواقف؟

ـ الحقيقة هي أنني لا أعرف ماذا أفعل. لقد انشل عقلي. أخبرني أنت ماذا علي أن أفعل؟

ـ هل يرضى بزيارتي؟

ـ أجل.

ـ هل أنت واثقة من ذلك؟

ـ بالطبع.

ـ إذاً، رافقيه في الجلسة التالية. أريد أن أعرف ما هو رأيه في الموضوع وأن أحلله عن كثب.

ـ حسناً يا دكتور، سنزورك معاً في الجلسة القادمة.

***

الجلسة الخامسة:

لم يكن المهندس «سميعي» ممن يبدو عليهم الخبث والمكر. كان يحب الفتاة حقاً. ولكن ما الجدوى وقد أقحم نفسه بسلوكه الخاطئ في هذا المأزق الذي ألقى بالفتاة في متاهات مشكلة عويصة. فهمت من ايضاحاته أن الدنيا قد ضاقت به هو الآخر. من جهة لم يكن من الصحيح أن يطلق زوجته الأولى ويعرض أبناءه الثلاثة لعواقب الطلاق السيئة. وهو من جهة أخرى لا يريد التخلي عن «كل بهار».

ـ ألم يكن من المتفق عليه يوم تزوجت «كلبهار» أن تطلق زوجتك الأولى؟.

ـ أجل يا دكتور، كنت نويت على ذلك حقاً.

ـ إذاً، ماذا حدث؟

ـ لقد طرأ تغيير كبير في سلوكها بعد فترة من الزمن حاولت خلالها أن تضفي الهدوء على أجواء البيت فزالت دواعي الطلاق بيننا لا سيما وأنا أرى ابني الصغير لا يقوى على فراقها وأنا أيضاً لا اتحمل فراق أبنائي.

ـ حسناً فلماذا تخبطت في سلوكك في بادئ الأمر؟ لماذا أقبلت على اتخاذ زوجة أخرى قبل البت في موضوع طلاقك؟.

ـ أخطأت يا دكتور، أخطأت، أعلم أنني أخطأت.

ـ وهل سيعوض اعترافك هذا «كل بهار» ما فقدته؟.

ـ لا بالتأكيد. اعلم ذلك. ولكن ماذا علي أن أفعل؟ الذنب ذنبي أنا.

ـ كأنك لست على استعداد للتخلي عنها حالياً.

ـ أحبها يا دكتور ولا أتحمل فراقها.

قلت ضاحكاً:

ـ أعجب لأمر قلبك. يبدو أنه من السعة حتى صرت تغرم بكل من تراه وتريد بقاءهم جميعاً إلى جانبك. ولكن هذا لا يمكن. يا مهندس. ألا ترى أن مثل هذا السلوك لا يتلاءم مع مكانتك الاجتماعية، ومع عمرك؟. هل أطلعت زوجتك على حكاية زواجك الثاني؟.

ـ لا، إنها تجهل كل شيء.

ـ ولكن سوف يأتي يوم ينفذ فيه صبر «كلبهار» مع تقدم عمرها ونضوج عقلها. ستستشير صديقاتها ويرشدنها لتفاتح زوجتك بأسلوب أو بآخر. سيتناهى الخبر على أية حال إلى زوجتك الأولى بشكل ما. حبل الكذب قصير. كيف ستواجه الموقف حينئذ؟.

ـ لا أعلم، أتمنى أن لا يحدث مثل هذا.

ـ وإن حدث؟ إنك أمام مفترق طريقين، إما أن تتخلى عن «كلبهار» أو أن تنتظر انجلاء الحقيقة يوماً. تقول أنك لا تتخلى عنها لأنك تحبها كما أفصحت لي بذلك. الكشف عن الحقيقة بدوره غير ممكن. ماذا تفعل لو تناهى الخبر إلى أبويها؟ إنهما سوف لن يتركاك وشأنك. حتى إن تعذر عليهما الانتقام منك أو التزما الصمت حفاظاً على سمعتهما. بم ستجيب ضميرك؟.

انحنى وأمسك بكلتا يديه. السلوك الذي يوحي بشعور المرء بالتشوش وبأنه مغلوب على أمره.

بعد هنيهة رفع رأسه وقال:

ـ لا أعلم ماذا علي أن أفعل يا دكتور. ما هو رأيك؟

كان الموضوع في غاية التعقيد، من جهة أرى أمامي رجلاً في الرابعة والأربعين من عمره، متزوج وله ثلاثة أطفال، ناجح ومتفوق على الصعيد

المهني، أقبل اعتباطياً على زواج ثاني ولكن خفية وبعيداً عن العقلانية. اختار فتاة صغيرة لم يسبق لها اختبار الزواج فانساقت معه في غفلة تامة بعواقب الأمور، فصارت ضحية لهذه الحياة الزوجية الطائشة. راح الرجل يتخبط بين أسرته الأولى من جهة وهذه الفتاة البائسة من جهة أخرى وهو واثق أن كلتيهما لا تطيق الحياة إلى جانب الأخرى. ستلقيان اللوم على منصور. والحق إلى جانبهما إلى حد ما. وهو بدوره يحب كلتيهما ولا يفكر في التخلي عن أي منهما.

وعلى الجانب الآخر من القضية وقفت فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بدأت حياتها الزوجية محملة بألف أمل وطموح. ولثقتها العامرة بالرجل انصاعت له في كل شيء حتى في تقرير مصيرها يوم عاهدها على توفير حياة هانئة وسعيدة لها.

خاضت معه مغامرة كبرى وها هي ترى أن الأمور تسير إلى غير ما تشتهيه.

***

الجلسة السادسة:

انفردت في هذه الجلسة مع المهندس «سميعي» لقد انقشع الغموض عن كثير من القضايا بما قدمته من ايضاحات له بعد أن أصغيت له وهو يسرد التفاصيل الدقيقة للحكاية من وجهة نظره. تنبهت إلى مدى معاناته في حياته الأولى ثم أنه لم تطرأ تغييرات ملفتة للنظر في سلوك الزوجة وأخلاقها. إن انشغالها بابنها الصغير هو الذي حدا بها في الحقيقة لتخفف إلى حد كبير من ضغوطها على منصور. كان يلزم بالطبع توجيه الدعوة إلى زوجته الأولى والاستماع إلى رأيها في الموضوع أيضاً ولمنحها فرصة الدفاع عن نفسها فيما لو صممنا على اتخاذ أي قرار بشأن حياته الأولى ولكننا كنا في غنى عنها في هذه المرحلة. ولهذا اكتفيت

بتحليل السيد سميعي وبكلامه. لقد أيقن إثر توجيهاتي وحصيلة خبرته خلال السنتين الأخيرتين بأنه اختار حلاً خاطئاً لمعالجة معاناته مما زاد الطين بلة. عندئذ قرر الانصياع لي باختيار التخلي عن أحد المسارين في حياته. على أن يستدرك وزره حتى المقدور.

ـ إصغ لي يا مهندس سميعي. إنك باختيار هذا الطريق الخاطئ ألحقت بتلك الفتاة أضراراً جساماً لا تستدرك، دون أن تتورط أنت أو أسرتك، لحسن الحظ، بمثل هذا المأزق. فالمتضرر الوحيد من هذه القضية وإلى حد فظيع هي «كل بهار». تفهم ما أقصد بالتأكيد!

ـ أجل يا دكتور، ولكنني أقاسي بدوري آلاماً عظيمة لا سيما إن اضطررت للتخلي عن «كل بهار» مستقبلاً.

ـ أجل، ولكن حبك لتلك الفتاة حب شهواني سطحي لا عرفاني سماوي.

ـ لا، الأمر ليس كما تعتقد، إنني أحبها بملء وجودي، لا، لا، لا أرضى بهذا الكلام. إنني أحبها أكثر من روحي وحياتي.

ـ حسناً، سوف أوجه إليك اسئلة ترد حضرتك عليها بدقة وصراحة تامة. إننا لم نعقد جلسة محاكمة بل جلسة ننوي فيها حل مشكلتك. إذاً، أرجوك أجبني بصراحة. أسألك: لو كانت «كلبهار» غير جميلة، هل كنت ستفكر بالزواج منها؟ أو أنها لو تعرضت لحادث حريق فتشوه ـ لا سامح الله ـ وجهها وجسمها وتغير مظهرها فهل ستلتزم موقفك وتحتفظ بلوعتك تجاهها؟ إنك في أفضل حالة ومهما بلغ سمو مروءتك ستتعهد بإدارة شؤونها بأن تختار لها ممرضة وتدفع نفقات معيشتها؟ هل ستحتفظ بلهفتك للقائها والبقاء إلى جانبها؟ بالطبع، لا يا مهندس!.

بعد طول صمت قضاه منكس الرأس، مستغرقاً في أفكاره كأنه يحاول تجسيد الحالة، رمقني بنظرة أسف وهز رأسه يرد على سؤالي بالايجاب.

ـ هذا هو الحب الشهواني. دعني اقص لك حكاية من ديوان «مثنوي»

لشاعرنا «مولوي»: ذات يوم تنبه حكيم لبيب طاعن في السن إلى تشوش أعز تلاميذه لديه منذ أيام واستغراقه في التفكير. بعد تفحص الموضوع فطن أن الفتى قد أغرم بجارية.. تقصى الحكيم أمرها حتى اهتدى إلى محل سكناها. قرر الحكيم أن يلقن تلميذه الذي يكن له حباً شديداً درساً في الحكمة والعرفان من خلال هذه القضية. وليتبين مدى تعلقه بالجارية، وهل أنه اختار الفتاة لحب شهواني أجج نيرانه مظهرها الفاتن. أم أنه حب حقيقي إلهي انبثق من روحه ومعنوياته.

شمر الحكيم الشيخ عن ساعد الهمة. ومهد لنفسه طريق معاشرة أهل الدار، فصار يرتادها للقائهم وارشادهم، وهو في كل مرة يدس في طعام الجارية دواء يصيبها بالاسهال الشديد، فتستغيث به المسكينة وهي ترى نفسها على تلك الحال فيطمئنها بأنها ستتخلص من هذه الحالة خلال يومين. وبالفعل لم يبدأ معالجتها إلّا بعد يومين. كان الهزال والذبول قد دبا في جسمها ووجهها حتى أذن لها سيدها أن تركن عدة أيام للراحة. عندئذ سارع الحكيم إلى طلب تلميذه وزف له البشرىٰ بأنه قد وفر الظروف المناسبة لزواجه مع الجارية بعد أن اشتراها بسعر باهض واطلقها. فبامكانه الآن أن يختارها زوجة له بفراغ بال. كاد الفتى يغمى عليه لفرط هياجه، كان يتلهف للقياها. ولكن ما أن رأى الفتاة على تلك الحال: شاحبة، ذابلة، حتى صعق لرؤيتها وشعر أن كسفاً من السماء قد سقط على رأسه. تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه. وبعد دقائق ثاب لرشده والتفت إلى الحكيم واستمهله عدة أيام ليتدارس الموضوع بدقة. عاجله الحكيم بالقول وهو يعلم السر في طلبه هذا: ماذا دهاك يا فتى؟! أليست هي التي تيمت قلبك وملكت عليك جوارحك؟ فلم خفت حبك لها ورجاؤك فيها؟.

ثم أردف قائلاً: إن هذه الفتاة الفاتنة لم تنتقص خلال هذه الفترة إلّا ما طرحته أمعاؤها من فضلات، وما سواها قائم على حاله راسخ في وجودها.

فهل يا ترى كان قد أغرم بتلك الفضلات ليتخلى عنها في مثل هذه الظروف؟!!

***

وأنت يا مهندس سميعي، إلى أي فريق تنتمي؟..

طلبت من الرجل أن يمنحني فرصة أسبوع أتمحص خلاله في الموضوع ولنتوصل إلى القرار النهائي بعد سبعة أيام.

***

الجلسة السابعة:

ـ سيدة «كلبهار» لابد لك أن تخبري أهلك بتفاصيل القضية؟

ـ أنا..؟! يستحيل، يستحيل، لا أقوى على ذلك يا دكتور.

ـ لقد حدث ما ينبغي أن لا يحدث. إنك ملزمة باطلاع اهلك سواء أخترت الحياة إلى جانب المهندس أو الطلاق. يسعني أن أعينك في هذا السياق بأن أوجه إليهم الدعوة ثم أطلعهم على مجريات قضية زواجك وحتى طلاقك إن تم. لابد أن يطلعوا على الموضوع في كلتا الحالتين. فهل قررت الابقاء على حياتك الزوجية مع منصور أم الانفصال عنه؟ المهندس يقول أنه يعجز عن طلاق زوجته الأولى بل لا يريد أن يطلقها لأنه لا يتحمل فراق أبنائه كما أنه ليس من لاصائب أن تتحملي أنت مسؤولية ادارة شؤونهم.

ـ وأنا أيضاً لا أستطيع مواصلة الحياة على هذه الحال. لقد خدعني ولا يسعني البقاء إلى جانب إنسان كذاب مخادع.

ـ دعي تحليل القضية لما بعد.. اجتمعنا لنحلل وضع معيشتك ونتخذ قراراً حول مصيرك، إصغيا إليّ يا عزيزَيّ، علينا أن نتدارس قضيتكما من زوايا ثلاث، الأولى: المهندس والثانية: «كلبهار»، والثالثة: أسرة المهندس.

أما عن المهندس فإنه المذنب الأول في هذه القضية وتلق عليه جل تبعاتها نظراً لعمره وتفوقه من ناحية الخبرة في الحياة والمؤهلات العلمية. وأما عنك يا

سيدتي.. فانك تتحملين قدراً من المسؤولية أيضاً، فقيام فتاة في حوالي العشرين من عمرها بمثل مبادراتك، كما في تجرئك على الزواج دون علم اسرتك، يبدو أمراً عجيباً يتعذر تصديقه. وقد أقررت أنك أنت التي صممت على عدم اطلاعهم. وهذا ما لا ينطوي على خداع منه هو، بل أن الفتيات في مثل عمرك يدركن مساوئ هذه البادرة وفظاعتها. ثم أنك وافقت على الزواج من رجل متزوج عن علم بالموضوع وهذا خطأ في خطأ. إذاً، أنت مرغمة على تحمل نتيجة تصرفاتك الطائشة وجهلك. وأسرتك أيضاً مسؤولة لأنها بعثت فتاة إلى مدينة مثل طهران دون أن تتقصى أوضاعها. ألم يفترض عليهم أن يستغربوا وهم يرونك تسكنين مثل هذا البيت الأنيق وتنفقين بلا حساب وتغضين النظر عن حضور الجامعة. ألا تلق عليهم اللائمة ورؤيتك في مثل هذه الأوضاع لا تثيرهم ولا تدعوهم لتقصي الحقيقة.

ـ إنهم يجهلون إهمالي لدراستي؟.

ـ وماذا عن انفاقك؟ وهذا الملبس الفاخر، الأحذية والبيت في إحدى المناطق الراقية. هل كانوا يجهلون ذلك؟ حسناً جداً. إنه أمر قد حدث وانتهى كل شيء. صحيح أنه لم يتم خارج نطاق الشرع ولكنه كان عملاً طائشاً يفترض الاحجام عنه. صرت أمام خيارين وواجبي أن أختار لكما أهون الشرين. وما عليّ إلّا أن أختار السيئ دون الأسوأ. أفكاري هدتني إلى ما سأقترحه عليكما.

التفتُّ إلى المهندس «سميعي» وسألته:

ـ كيف يمكنك أن تتدارك خطأك مالياً؟

اكتظت عينا المهندس بالدموع ولاح عليه عبء عاطفي ثقيل وهو يجيبني متنهداً:

ـ يمكنني أن أشتري لها وباسمها تلك الشقة الصغيرة التي تسكنها. إنه إجراء يشق علي تنفيذه من الناحية الاقتصادية ولكنني أريد أن أثبت أنني لم أخبئ

نوايا خبيثة لكلبهار وأنني أتمنى لها السعادة دوماً.

انتهت حكاية كلبهار ومنصور. لم ترافق الفتاة أسرتها لزيارتي قط ولست أعلم أتجرأت على اطلاعهم على الموضوع أم لا؟ ولكنني أشعر بالراحة لأنني أديت واجبي تجاهها وحاولت أن أوجهها، بحسب المقدور، على أفضل وجه. احجمت خلال سرد القصة عن ذكر التفاصيل تجنباً لبواعث سأمكم.

وأخيراً، أنهي هذه الحكاية بنداءات ثلاث أوجهها لفئات ثلاث، هي:

١ـ نرجو الرجال ممن يعانون من مشاكل ما أن يتقصوا السبل العقلانية للتوصل إلى الحلول المنطقية لمعاناتهم. أن يتشاوروا مع الأخصائيين والخبراء تحرزاً من الوقوع في مدلهمات دوامة أثقل وطأة.

٢ـ ليت الفتيات ممن يضطررن للعيش بعيداً عن أسرهن أو اللواتي يتعايشن مع أشخاص يفتقدون الخبرة والوعي الكافيين، أن يحددن استحقاق اختصاصهن ومهنهن. وأن لا يسرهن أي اقتراح غير مألوف أو مغري يفوق استحقاق مهنتهن توهماً بأن الحظ قد قرع أبوابهن. إنه فخ نصب لتحقيق مآرب ومآرب.

٣ـ نحذر الأسر التي تضطر فتياتهن للعيش في مدن قريبة أو نائية أو عند السماح لهن باختلاط مع المجتمع في داخل المدينة نفسها، أن يتركوهن وشأنهن، لا أعني مضايقتهن على الدوام ولكن تابعوا شؤونهن عن بعد واعلموا أنكم إن غفلتم عنهن فإن الذئاب لن تغفل مثلكم.

إذا رأيت أنياب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

الأب المثالي

كان أول لقاء بيننا عندما جيء به إلى عيادتي محمولاً على الأيدي لشدة ما يعانيه من صداع نصفي مهيب. أخبرته يومها أنه ملزم بالخضوع لإشراف طبي دائم بهدف ضبط أوضاعه النفسية. فالصداع النصفي لا يتم له العلاج الحاسم، ولكن.. بوسع الطبيب المعالج أن يخفف من وطأة النوبات إلى حد كبير بضبط الظروف البيئية والفكرية للمريض. وللمريض أيضاً أن يتنبه للأعراض الأولية لنوبة الصداع عند تبلورها مما يمكنه من الحد من شدتها بتعاطي الأدوية الخاصة. شدّدت عليه أن يخضع لإشراف دائم. هكذا توطدت بيننا أواصر الصداقة خلال هذه القضية. كما أنه كان من أصحاب المحلات القريبة من عيادتي.

كان يملك محلاً لبيع وسائل اللعب وكنت ارتاد محله بين الفينة والأخرى لأشتري بعض اللعب لأطفالي. فكان طيب أخلاقه وصفاء قلبه مدعاة توثق العلاقة بيننا، حتى صرنا بعد عدة أشهر صديقين حميمين فكلما تسافر أسرتي إلى طهران لقضاء عدة أيام فيها وتفرض عليّ مسؤولياتي عدم اصطحابهم، كنت لأخلاقه الطيبة وقربنا الخاص إلى البعض أحل أحياناً ضيفاً عليه أو نتوجه سوية لساعات إلى خارج المدينة طلباً للتسلية والترفيه. كان يعيش مع أبنائه الخمسة منذ رحيل زوجته. اثنان من أبنائه الذكور شابان يافعان يعينانه في إدارة المحل وله بنتان تتعهدان بشؤون المنزل إضافة إلى مواصلة الدراسة في

الدار. أما ابنه الأخير فقد كان صبياً ذكياً يثابر في مطالعة دروسه ويقضي معظم أوقاته في البيت إلى جانب أختيه.

كانت أخلاقه الطيبة وسلوكه الحميد سبباً في تحليق ثلة كبيرة من الأصدقاء حوله، تعثر بينهم على عدة أشخاص من كل شريحة، بدءاً بالأثرياء وحتى الفقراء نسبياً، ولكن القاسم المشترك بينهم جميعاً هو الانسانية وصلاح السوك حيث لا يروق له نهج للحياة سواهما. كنت أراه لا يألو جهداً لتقديم العون لأصدقائه، يلبي طلباتهم دون أدنى شعور بالضيق، ولكن لم يحدث أبداً ان يكرس شيئاً من وقته الخاص بأطفاله لغيرهم فالأولوية لهم دوماً. آلى على نفسه أن لا يقضي لحظة من أوقاته بعيداً عنهم برفقة أناس لا يحظون بمكانة اجتماعية مرموقة. وحتى هذا لا يحدث إلّا في أوقات محدودة. كان قد نجح في تربية أبنائه وتنشئتهم تنشئة صالحة سوية رسخت فيهم الشعور بالمسؤولية. وكان اسوتهم ومقتداهم في الحياة. إنه نعم الأب.

كنت قد سمعت أن زوجته توفيت أثناء ولادة طفله الأخير وأنه في تلك البرهة كان يعمل في التبادل التجاري بين المحافظات وعلى مستوى بسيط. ولكنه اضطر لترك عمله بعد وفاتها والانشغال بعمل دائم في المدينة يوفر له فرصة الاشراف عن كثب على أبنائه وتربيتهم. لم يكن له في الحياة أية غاية أخرى. كان نزيهاً بما في هذه الكلمة من معنى. وهذا ما وثق صداقتي معه. كنت أفكر دوماً: كم للرجل أن يمتاز بقوة الارادة والتقوى ليحرم نفسه من الزواج في عنفوان الشباب حرصاً على سعادة أبنائه وليكرس جميع مساعيه لتنشئتهم تنشئة سوية؟ لم أشهد هذه الحالة في حياتي حتى لقائي به، فالكثيرون يرفعون مثل هذا الشعار وينعتون أنفسهم بمثل هذه السجايا ولكنك لن ترتضي واقعهم عند التأمل في مسيرة حياتهم. الوحيد الذي سخر نفسه ومعنوياته لهذا الغرض هو السيد «مستوفي» فقد كان يواصل تربية أبنائه عملياً بحيوية ولهفة لا توصف. والأهم من كل ذلك هو نجاحه في مهمته حتى ذلك الوقت.

ذات ليلة شتوية.. وبينما دوي الرياح يقرع الأسماع من وراء نوافذ الغرفة

والثلوج تتهافت من أغصان الأشجار المثقلة بها، كنا نجلس إلى موقد الحطب.. رحنا نتسلى في تلك الليلة القارصة بتبادل الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت زوجتي قد سافرت برفقة الأطفال إلى طهران منذ ثلاثة ايام. فانفردنا في تلك الليلة.. قلما تتوفر مثل هذه الفرصة للإنسان. تجاذبنا أطراف الحديث من كل حدب وصوب.

قلت:

ـ ابنك «رضا» كما تراه شاب مهذب، ناجح ولائق. عليك أن تشمر له عن ساعد الهمة، (وأقصد زواجه).

قال:

ـ لا أخفي عليك يا دكتور، لم أتجاهل الموضوع. نحن الآن في مرحلة التحقيق. والأمر بيد الله. ثم يحل بعده دور الثاني.

وبعد لحظات أردف قائلاً:

ـ تقدموا لخطبة ابنتي «بريسا» أيضاً. إنه شاب صائب التفكير والسلوك، من أسرة مؤمنة ذات حسب ونسب. إنهم بانتظار ردنا.

قلت ممازحاً:

ـ إذاً، تدريجياً ستخلو الدار باذن الله ا سيد «مستوفي»، عليك أن تفكر بأمرك بعد الفراغ من هذه الماجَريات الفكرية.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يتنهد، فقال:

ـ لقد انقضى دوري يا دكتور، أملي الوحيد هو أن احقق ما أطمح إليه بشأن هؤلاء الخمسة، أن أرى كل منهم في بيته ومع أسرته. سأتخلى عن العمل عندئذ واشتري مزرعة صغيرة في قريتنا. سوف أقضي بقية حياتي في دار أبي فيها وانتعش في أحضان الطبيعة الخلابة.

ـ تتحدث وكأنك في السبعين من عمرك. مازلت في الخمسين يا رجل وبوسعك أن تبدأ حياة زوجية ببساطة، وتتأمل خيراً في سنوات متمادية

تنتظرك.

ـ اعترف أنني ما زلت في الخمسين. ولكنني مرهق وكأنني عشت ضعف هذه السنين. لم أنجح منذ منذ وفاة والدة أبنائي بأن أنجذب إلى غيرها واختار زوجة سواها. إن السنوات العشر التي قضيتها في رعاية الأطفال وإن شملتني فيها رعاية الله ووفقت في أداء مهمتي على خير ما يرام ولكنها استنفدت قواي بشكل واضح. إنني أشعر بإرهاق شديد. ولولا مسؤولياتي في الحياة لكنت حققت أملي منذ الغد ولكنه أمر متعذر فعلاً. أيخيل إليك يا دكتور بأنني أجهل سبب إصابتي بهذه النوبات من الصداع العصبي؟ إنها آلام لا ارى لها سبباً سوى ما أصطخبه من قلق على الأطفال على مر اللحظات: أين ذهبوا؟ من هم أصدقاؤهم؟ كيف هو سلوكهم؟ و...، لا أدعي أن حياتي كانت تفتقد اللذة واللهفة. إنني أشعر بسعادة حقيقية في كل لحظة من اللحظات وأنا أراهم يترعرعون أمام ناظري ويرتقون المراتب الانسانية والاجتماعية. ورغم ذلك أعياني تحمل مسؤولية الأمومة والأبوة معاً. لم أبث حتى الآن همومي هذه لأحد سواك يا دكتور، وقد حدثتك عنها باعتبارك طبيبي المعالج.

خفت لهيب الموقد فألقى فيه قطعتين من الحطب.

قلت:

ـ ذلك ما ينم عن ذروة إبائك وايثارك أن تتحمل أعباء هذه المهمة. هذا ما يذعن به جميع أصدقائك والمحيطين بك.

قال باسماً:

ـ أجل، أصدقائي يخجلونني دوماً بمديحهم.

سرحت أفكاره في أجواء بعيدة وكأنه يحلق في سماء زمان آخر، قال:

ـ وجدتني يوم فارقت زوجتي الحياة وحيداً مع أربعة أطفال صغار ووليد لم يبلغ من عمره سوى يومين. أمره أثقل كاهلي أكثر من سائر مسؤولياتي. كنت أفكر بهم تارة وبنفسي تارة أخرى. وكيف لي أن أنجح في أداء هذه الرسالة

العظيمة؟ فكر الجميع في الوهلة الأولى أن يختاروا لي زوجة وكنت رغم رغبتي في الاخلاص لزوجتي وعدم التفكير بغيرها، أفكر أن الأُطفال بحاجة إلى أم ترعاهم. قضيت أياماً كثيرة وأنا أفكر بهذا الموضوع. ومن لي أن أختار؟ وهل ستكون زوجة تشاطرني قدراً من همومي؟.

وأخيراً وخلافاً لنصائح الآخرين بضرورة الزواج، توصلت إلى أنها مغامرة كبيرة، فالاحتمال بأن تفصح الزوجة فيما بعد عن استيائها وتذمرها أقوى بكثير من أن تحنو على الأُطفال وترعاهم.

قيل: اختر زوجة اختبرت الحياة الزوجية ويكون لها طفل من زواجها الأول ليترعرع مع ابنائك في أجواء أخوية. ستفكر باستدراك فضلك عندما تراك تتعاطى مع طفلها بحنان أبوي فتغدق بعواطفها على أطفالك.

فكرت: ماذا لو أنها دللت طفلها وفضلته عليهم وسلكت سلوكاً عرضهم للسوء والأذى. لم استصوب الفكرة.

قيل: تزوج امرأة عقيماً لا يكون لها أبناء. ستعتبر أبناءك أبناءها فتحنو عليهم. فكرت: ماذا لو كانت تحمل جراء عقمها عقدة تؤثر سلبياً في أخلاقها؟.

قيل: فلتكن باكراً. فكرت بأنه اقتراح مستبعد عن العقلانية، فستطالبني بعد فترة بأطفال ويؤول أمري إلى الاقتراح الأول. القضية كانت تكمن في رعاية الأطفال، لم يكونوا واحداً أو اثنين ليكون بإمكاني التسايس مع زوجتي حولهم، فادارة شؤون خمسة أطفال ليس أمراً هيناً. ستوافق أولاً ثم تستحدث المشاكل فيما بعد.

لم أكن رجلاً ساذجاً يفتقد الخبرة لأجهل كل شيء عن الحياة ومجرياتها. كان الاحتمال بأن تسوء الأوضاع يفوق بكثير احتمال تحسنها. كنت شهدت مثل هذه الحالات بين المحيطين بي فيما سبق، فقد انتهت جميع الزيجات من هذا النمط إلى طريق مسدود فيما لو استثنينا حالة أو حالتين. لا أريد أن أقول أن زوجات الآباء لا يعرفن الطيبة والحنان قط، فأحياناً نرى أن الأبناء هم الذين يرفضون الزوجة لأنهم يعجزون عن إحلالها محل أمهم فقد ترى الزوجة مثلاً

أن تربيتهم تقتضي في بعض الحالات أن تعاملهم بجدّة وأن تأخذ عليهم في بعض سلوكياتهم. سيحسبون تصرفها منبثقاً من كونها زوجة أبيهم وليست أمهم. إن أي انتقاد توجهه لسلوك غير لائق يصدر عنهم سيسجل في حساب خبثها. إنها حكاية تستعيد مجرياتها على مر الأزمنة السابقة واللاحقة. أراك تدرك هذه القضايا أكثر مني. على أية حال، دور قليل من زوجات الآباء وأطيبهن نفساً وأكثرهن شعوراً بالمسؤولية في احتضان أبناء أزواجهن، لا ينكر، ولكن مثل هؤلاء النسوة يلاقين صعاباً جمّة مع مثل هؤلاء الأطفال، خاصة وانني أتحسس بشدة ازاء أبنائي، وهذا ما يزيد الاحتمال بأن أفسر وأحلل أسلوبها في التعاطي معهم تحليلاً سلبياً حتى وإن كانت لا تعرف للخبث والإساءة معنى. أقولها بصراحة: أنني فكرت بأنني لا أقوى على تحمل مثل هذا النقاش والحديث. فالتجأت إلى أمي العجوز وكانت تعاني من آلام شديدة في مفاصلها. قصصت عليها حكايتي وطلبت منها أن تعيش معنا. أخبرتها أنني صممت على اختيار عمل ثابت في المدينة وسيهدأ روعي إن وافقت هي على الانضمام إلينا. لم ترفض طلبي رغم تقدمها في العمر وحالتها الصحية. كنت أعرف مدى صعوبة تلبية طلبي بالنسبة لها، ولكنها وافقت على ذلك. إنها أم والأم ملاك يتفانى في سبيل أبنائه دون ملل. كأنها مكلفة بأن تقضي حياتها منذ البداية وحتى الوفاة وهي تصطخب القلق والاضطراب إزاء ابنائها. قد لا يكرس الأبناء موقعاً من حياتهم للأم إبان الرخاء والأفراح إلّا انها تتحمل العبء الكبير دوماً عند البلاء والأتراح.

صمت قليلاً. كأنه استعاد بذكر أمه ذكريات أخرى عنها.. ذكريات سارة يحتفظ كل منا بها ويزخر بها ركن كبير من حياتنا. تذكرت الكاتب الفرنسي الكبير «رومان رولان» فقد كتب: بامكان المرء متى ما ضاق ذرعاً بالحياة أن يعنف مع أمه فهي قريبة منا دوماً ولا تشعر بالضيق أبداً.

استطرد يقول:

ـ خلال السنوات الثلاث التي قضيناها إلى جانبها ترعرع مجيد حتى استقل

عنها. والأطفال عاشوا بهناء حتى تركتنا والتحقت ببارئها فواريناها التراب في يوم شتوي ممطر. كانت امرأة عجوزاً لا تجيد القراءة والكتابة ولكنها كانت رشيدة وزاخرة بالخبرة. ذات يوم ونحن نجلس إلى بعض شكوت نوائب الدهر وتكالبها عليّ. التفتت إليّ وقالت:

ولدي العزيز، الحياة أمر اقع والاذعان لها يعني أنك أخذت عدتك لمواجهة صعابها وستتغلب تلقائياً عليها كافة. وإن لم تذعن لها ووهنت أمامها فستصطف مصائبها أمام عينيك مثل سلسلة عظيمة من جبال لا تقتحم وستقهرك لا محالة. إنهض وشمر عن ساعديك، رسخ ارادتك وردد مع نفسك دائماً: يا دهر أظهر كل ما بجوزتك اليوم لتعلم من منا سيقهر الآخر. إن كلماتها هذه ظلت ترن في أذني. فكلما أشعر بالوهن ألجأ إلى ذكريات ذلك اليوم وتلك العبارات لاستلهم منها قوة الارادة. كانت ذات روح ومعنويات عالية. رحمها الله.

على أية حال، الأيام الأولى من فراقها أضنتني بعناء لا يطاق. عدت بعدها لأتدارك نفسي. كنت أشعر وأنا أرى «بريسا» قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها وتتمتع بنضوج يفوق مثله لدى أترابها. سارت أمورنا بمساعدتها وبمعونة أخويها الكبيرين إلى ما يرام. أوكلنا أعمال المنزل إلى خادمة وفوضنا إدارة شؤونها إلى «بريسا». لم تأل جهداً لتسيير الأمور. كان محلي لا يبعد عن منزلنا لأكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام مما مكنني من الإشراف على أمور الأطفال متى ما شئت.

قالت لي «بريسا» ذات يوم: بابا، أريد أن أكتفي بأداء الامتحانات في المدرسة. فالدوام فيها أمر أعتبره إتلافاً للوقت. بامكاني أن أذاكر أكثر دروسي على انفراد في البيت وسألتحق بدورات خاصة للدروس التي احتاج فيها إلى تدريس. سيكون بوسعي أن أؤدي أعمال المنزل وأواصل دراساتي أيضاً على هذا النحو. عارضتها. لم يبد اقتراحاً وجيهاً برأيي. قلت لها: لابد أن تلتزمي بالدوام في المدرسة. تناسي القلق بشأن رعايتنا. سأتعهد ذلك بنفسي. لكنها لم

تنصَعْ لي وظلت مصممة على رأيها حتى وافقت على اقتراحها شريطة أن لا تنسى عند تنفيذه أن الأولوية لدراستها ثم لأعمال المنزل. كنت أعرف أن اقتراحها ينم عن تفانيها ولم أرض بذلك ولكنني عندما واجهت شعورها بالمسؤولية قررت أن لا أوهن ثقتها بنفسها. كانت ترغب في استلام مسؤولية ربة البيت رسمياً. فرضخت لها. كانت قد اتخذت هذا الإجراء لتوصد الأبواب بوجه كل من يتمادى في الالحاح حول ضرورة زواجي لترعى الزوجة شؤوننا وخوفاً منها أن أتجاوب أنا مع مثل هذه الأقاويل. من جهتي حاولت أن أوكل أمر تدريسها إلى أفضل المعلمين. هكذا طبقنا نظاماً مناسباً لادارة شؤون البيت. ترعرع الأطفال ونالوا النضوج العقلي تدريجياً. صاروا يدركون أنني صرفت النظر عن الزواج من أجلهم فيثمنون متاعبي. هذا ما استشفه من سلوكهم. لم أقض لحظة واحدة من أوقات فراغي بعيداً عنهم ولما كنت التزم باطلاعهم هاتفياً على محل تواجدي أينما ذهبت. تلقوا عني هذا الدرس. فصار قانون بيتنا: وقت العمل للعمل ووقت الراحة والاستراحة للجميع ولابد أن نقضيه معاً.

نحن نلتزم بهذا القانون حتى الآن، وكنت أنا نفسي أسوتهم. كان هنالك موضوع آخر يشغل بالي. كانت الفتيات آخذات بالنضوج وهذا يعني تبلور الحاجة لديهن إلى التواجد أحياناً في بيئة نسوية توفر لهن فرصة طرح رغباتهن واستفساراتهن. ويفترض أن تكون أجواء تلك البيئة أسرية حميمة للغاية. اخترت خالتها لهذه المهمة لأنها سيدة في منتهى الرزانة والحنان، وأطفالي يكنون لها حباً بالغاً. كانت تحسن تلبية احتياجاتهم العاطفية. كانت ابنتاي «بريسا» و «فرنكيس» وأحياناً أنا والأولاد نحل ضيوفاً في دارها وأحياناً نستضيفهم في دارنا. وبهذا ارتاح بالي من هذه الناحية، فقد كنت أدرك أن الأنثى تسأم من بيئة الذكور في بعض الأوقات وإن كان هؤلاء الذكور أباها وإخوتها. فأية فتاة تتمتع بحق اختيار التعامل مع بيئة أنثوية وأن تنفس عن مشاعرها بحسب اصطلاحكم أنتم أطباء النفس. كانت هنالك نسوة وجيهات

كثيرات في البيئة المحيطة بنا. وجميعهن يرتبطن بعلاقات طيبة مع «بـريسا» و «فرنكيس» ولكن خالتهم كانت أولى من غيرها بالاستماع إلى مكنونات قلبيهما لاسيما وإن بناتها كن في مثل عمرهما.

صمت لدقائق كنت أنظر إليه خلالها بإجلال. تمالكني الضحك وأنا أقول:

ـ كأن الوضع سيضطرنا لتبادل موقعينا يا سيد «مستوفي»، عليك أن تنظم دورات توجيهية لي ولأمثالي، أراك، ولست مبالغاً فيما أقول، تتقدم عـلي أنـا الطبيب النفسي فراسخ وفراسخ وليست خطوات قليلة.

راح يبتسم وهو يقشر تفاحة ثم قال:

ـ يا دكتور، يا دكتور، إنك تبالغ دوماً في الإطراء علي فأين شأني من شأنك وأين ثقافتي ومعلوماتي من ثقافتك ومعلوماتك؟ يتحتم على أمثالي أن نركز في كلامنا وسلوكنا على عقلنا أكثر من ثقافتنا.

الصدق والصفاء كانا يترشحان من عبارته الأخيرة بنحو دعاني أضـحك بصوت عال. قلت له:

ـ حقاً ما تقول. إننا في بعض الأوقات نكبل أنفسنا بقيود ثقافتنا ومؤهلنا العلمي إلى درجة نهمل فيها دور عقولنا. وأمثالك يلجأون تلقائياً إلى عقولهم لتحررهم من مثل هذه القيود.

كنا نفهم بعضنا جيداً ولهذا لم تزعجني عبارته الأخيرة، ولِمَ أنزعج؟ وهل أخطأ؟! إنني كنت أذعن لقوله. إن الخطر الذي يهدد المثقفين دوماً هو غطرسة مؤهلهم الجامعي مما يحجبهم عن الاستعانة بالعقل. وأنا أؤمن أبداً أن الحـالة المثالية للإنسان هي التمتع بالعلم والعقل معاً، فالعقل والحكمة نعمة إلهية تفوق العلم في قيمتها.

قدم لي التفاحة التي قطعها بعد تقشيرها. قال وقد تملكه الضحك من كلامي:

أرى أن زواج «بريسا» و «رضا» و «مجتبى» سيحدث تنوعاً في حـياتنا. سيأتينا الأحفاد. سأكرس لزوجات أبنائي وأصهاري مكانة كمكانة ابنائي. لا

أهاب قدومهم ولا تفزعني الاحتمالات. أؤمن أن مصير الإنسان يتوقف على القسمة والنصيب. ولكن سيكون سلوكهم ودياً حميمياً فيما لو شعروا أننا نحبهم ونريد لهم السعادة والخير وليست لنا أية رغبة في التدخل في حياتهم. كانت راحة الضمير هي الشيء الوحيد الذي يبثني الشعور بالسرور والبهجة طوال كل هذه السنين فكلما اتطلع إليهم أجدني قدمت لهم بتفان كل ما كان بوسعي وهم أيضاً يدركون هذه القضية بعمق. فاشعر بالراحة لذلك. لم أندم قط على اختيار هذا النهج فنتائجه سارة جداً. لا يخفى أنني حرمت نفسي من بعض المسرات ولكنني نلت بدلاً عنها أشياء وأشياء. إنك أب وتفهم أن منتهى سعادة الأب هو شعوره براحة الضمير وبتنعم الابناء بالسعادة والهناء.

كان الحطب قد تحول رماداً في الموقد وتوقفت الرياح الليلية عن دويها خلف النوافذ وتوقف تساقط الثلوج.. الساعة المعلقة على الحائط دقت دقات ثلاثاً. كنا نشم نكهة السعادة والسرور. الجميع كانوا مستغرقين في نوم هانئ وكل شيء في محله. سادت أجواء الحب والتضحية إلى جانب الايمان والدراية ذلك البيت وإن حرم من وجود الأم والفضل في ذلك يعود لرجل عرف المروءة الحقيقية ووطن نفسه عليها.

***

مرت عدة سنوات على تلك الأيام.. إننا نبعد الآن مئات الكيلو مترات عن بعض وقلما تسنح فرصة لقائنا. ولكن.. صداقتنا ما زالت قائمة ورصينة، صداقة اعتز بها وسأتذكر دوماً أن هنالك رجلاً مغموراً قد طالع الدنيا يوماً في إحدى نقاطها المنسية المهملة على الخرائط الجغرافية بعمل عظيم على غرار عظمة عالم الخلق يوم قرر تولي مسؤولية تعليم وتنشئة خمسة أطفال فقدوا أمهم ولم تعتره إثر ذلك أية عقدة نفسية. كان قراراً يعجز عن تنفيذه الكثير من المشاهير في أعظم مراكز الحضارة الإنسانية مهما أوتوا من إمكانات مادية.

رهاب الزواج

مع انتهاء مواعيد عيادتي، دخلت سكرتيرتي وقالت:

ـ السيدة (ك) من مرضانا القدامىٰ تطلب تحديد موعد عاجل وهي في الطريق إلينا. اتصلت هاتفياً وطلبت التروي عن مغادرة العيادة عدة دقائق أخرىٰ ريثما تصل إلى هنا.

كنت من جهة ملزماً بالتعجيل لزيارة مرضاي الراقدين في المستشفى لأنهم يلجأون إلى النوم في وقت مبكر، ومن جهة أخرىٰ، أفهم أخلاق السيدة (ك). لا شك أنها تعاني من مشكلة متأزمة حدت بها للتقدم إلينا بمثل هذا الطلب. وأخيراً ارتأيت التروي قليلاً. ولحسن الحظ وافتنا السيدة (ك) بحضورها بعد عدة دقائق، وقد اعتراها الوهن والتشوش.

سألتها مندهشاً:

ـ ماذا حدث يا سيدة (ك)؟ لماذا أراك مشوشة إلى هذا الحد؟!.

قال بأنفاس متهجدة وهي ترتعد بشدة:

ـ يا دكتور، ابنتي وصهري نشب بينهما خلاف حاد آلى بهما ليصمما على الطلاق، جاء صهري بابنتي اليوم وأودعها إيانا وانصرف. بذل الكبار كل ما كان بوسعهم دون أن تثمر مساعيهم. سأموت يا دكتور إن وقع مثل هذا الحدث. ابنتي هي الأخرى ليست أفضل حالاً مني.

ـ عفواً يا سيدتي، وهل لابنتك أطفال؟

ـ لا يا دكتور، لم تنجب بعد. والمشكلة تكمن في هذه القضية بالذات.

ـ حسناً، إذاً جل قلقك لا داعي له ما دامت لم تنجب بعد، فابنتك شابة وبوسعها أن تنهي هذه الحياة بفراغ بال لتبدأ بعد فترة حياة ناجحة.

ـ أنا أيضاً أعلم هذا يا دكتور، فالطلاق لا يعني الموت. والأزواج أقارب حبر على ورق. وقد يتعذر التوافق بينهما.. ولمثل هذه الحالة وضع الطلاق. إلّا أنني أعاني من أمر آخر.

ـ وما هو؟

ـ ابنتي اختبرت الزواج والطلاق لمرتين قبل هذا. إن انتهاء خبرتها الثالثة بالطلاق سينقض على سمعتنا.

راعني الأمر.. كانوا أسرة مؤمنة ملتزمة تماماً بالمبادئ الخلقية. تساءلت:

ـ ما هي الحكاية يا سيدتي؟

ـ كنت قد تماثلت الى الشفاء تواً. ولكن أعصابي انهارت مرة أخرى. لقد عدت إلى نقطة البداية.

قالت ذلك واجهشت بالبكاء. التزمت الصمت للحظات. شهيقها كان الصوت الوحيد الذي يخترق السكون السائد في العيادة. تمالكت نفسها قليلاً واستأنفت الكلام تلقائياً، فقالت:

ـ ابنتي يا دكتور، لا تبلغ من العمر أكثر من (٢٨) عاماً. إنها ابنتي البكر. مثقفة، جميلة وتمتاز بجميع الخصال الحميدة. ولكن هاجساً ما تغلغل إلى أعماق نفسها، هاجس غير طبيعي من العلاقة الجنسية. إنها ما تزال بنتاً يا دكتور رغم أنها تزوجت ثلاث مرات. هذه هي مشكلتنا.

ـ تعنين أنها ما تزال باكراً؟.

ـ لا، لقد راجعنا طبيبة نسائية بهذا الخصوص. فارتأت أن تزيل غشاء بكارة ابنتي بجراحة صغرى. ولكن إجراءها هذا لم يجد نفعاً وكان ذلك خلال زواجها الأول. لقد فشلت خبرة زواجها التالي أيضاً للسبب نفسه. وحل الآن

دور الثالث. لا نعلم ماذا نفعل. كيف يمكننا أن نلجم لسان الناس؟! لا يمكننا الافصاح عن الحقيقة. وهل يمكن ذلك! كتمنا الواقع وفسحنا المجال لهم ليعللوا الموضوع كما يحلو لهم. يقولون: لابد أنها تعاني من معايب أخلاقية أو جسمية تتسبب في مثل هذا الوضع، إلّا أن ابنتي المسكينة نقية كالبلور، لا يليق بها مثل هذه الوصمات.

تبينت القضية. إنها إحدى حالات الزواج الفاشل. كان يخيل للسيدة (ك) انها حالة فريدة نادرة ولكنها كانت تجهل كثرة هذه الحالات لأن المعانيات من هذه المشكلة يحجمن عادة عن الافصاح عنها، ولهذا يكتب لها الكتمان دوماً. إلاّ أن وضع ابنتها كان أكثر تأزماً من غيرها من الحالات المماثلة فسجل حياتها يتضمن خبرتي طلاق. وها هي خبرتها الثالثة تقترب من نهاية سابقتيها. كانت قد عجزت عن ممارسة الجنس مع زوجها حتى لمرة واحدة.

ـ سوى مراجعة الطبيبة النسائية هل استعنتم يا سيدة (ك) حتى الآن بالأطباء؟

ـ أجل يا دكتور، كثيرات هن الأخصائيات في الأمراض النسائية اللواتي راجعناهن، وكل منهن تهدينا الى طريق ما دون أن تثمر أية واحدة من تلك الطرق. كما راجعنا عدة أخصائيين في الجراحة دون فائدة.

ـ وهل تشاورتم مع طبيب نفساني؟

حدقت في وجهي بعصبية وقالت:

ـ وهل ابنتي مصابة بالخبل يا دكتور؟ انها تحرز شهادة الماجستير وهي أكثر أقاربنا رجاحة في العقل. ولماذا طبيب نفساني؟

قلت ممازحاً:

ـ هل أنت مخبولة لتراجعيني؟!

ـ أنا؟.. لقد انقضى من حياتي الكثير. ذقت على مرها المآسي التي سحقت أعصابي ولي الحق أن أشكو من مثل هذه الأمور.

ـ ولكنك مع ذلك لست مخبولة.

ـ لا، أنا لست مخبولة.

ـ ما تعانيه هو وهن في الأعصاب، لا غير. أي أن صداعك عصبي المنشأ وقد حاولت معالجتها وستؤثر هذه المشكلة المستحدثة في مسيرة علاجك سلبياً. أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ لا بد أنك شاهدت مراراً في غرفة انتظاري المراجعين. وليس بينهم من يعاني الخبل بمعناه المعروف في المجتمع، أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ بل لنقل أن الكثير منهم أكثر مني ومنك رجاحة في العقل. لقد قلت لي ذات مرة: إن هؤلاء أصحياء أكثر منا. فلماذا يرتادون عيادتك؟ وأجبت في حينها: لقد انقضى يا سيدتي عهد الانطباع السابق الذي كان يسود بين العامة جول الأمراض النفسية باعتبارها خبلاً أو جنوناً. فالناس يهتمون حالياً ولحسن الحظ بصحتهم النفسية تجنباً للابتلاء بعواقب لا تحمد. أتعرفين ما معنى الصحة النفسية؟ الصحة النفسية هو أن لا تتركي مثلاً صداعك المزمن بانتظار العلاج الرباني حتى يتطور وتستفحل الحالة لديك بل أن تراجعي طبيباً أخصائياً على الفور بهدف علاجه. ولنفترض أنك امتنعت عن اتخاذ مثل هذه الخطوة. فبما أنك مصابة بصداع طفيف ناشئ عن حالة الاكتئاب الكبير فانه سيتطور الى متوسط ثم مستفحل حاد. وعندئذ يختفي الصداع لتتبلور أعراض أكثر وخامة لمرضك النفسي. وقد تبلغ ذروة الحدة وتدفع المصاب إلى الانتحار أو تتسبب في ظهور أعراض عضوية جسمية حادة أو قدتتحول الى ضروب من الاكتئاب المصحوب بالجنون وعشرات الأمراض المتأزمة التي تؤلف كل منها معضلاً كبيراً. في مثل هذه الحالات نطلق نحن أطباء النفس على المصاب اصطلاح المريض النفسي. لا يسعني الوقت الآن أن أقدم لك ايضاحات أكثر

ولكن اعلمي أن ابنتك تعاني من أزمة نفسية. فأية فتاة تمتاز بمثل ما وصفتيه من مزايا وقد أشرفت على الطلاق للمرة الثالثة ولا تعاني جسمياً من أي نقص، لا بد أن أزمتها تنطلق من اختلال نفسي. أوليس كذلك؟

ـ أجل. الحق إلى جانبك يا دكتور.

ـ هل يمكنك اصطحابها إلى عيادتي لألقاها؟

لمع بريق الفرح في عينيها وقالت:

ـ هل يمكنك معالجتها يا دكتور؟

ـ أجل، يمكنني ذلك.. سأتغلب على مشكلتها بإذن الله. شرط أن تعيناني في هذا السياق.

ـ وهل واجهت إلى الآن مثل هؤلاء المريضات؟

ـ أجل. كثيرات منهن.

ـ وهل أثمرت مساعيك؟

ـ المجموعة التي طبقت تعليماتي، وفقت إلى حل.

ثم استطردت ضاحكاً:

ـ ومن بينهن مريضات راجعنني من محافظات نائية أو من القرى والأرياف، تم علاجهن جميعاً. أزيدك علماً أن الذين لا يغالون في الاعتزاز والتبجح بثقافتهم ومكانتهم الاجتماعية هم أكثر اصغاء وانصياعاً للتعليمات الموجهة إليهم وأكثر تحقيقاً للنتائج المرجوة.

انصرفت السيدة (ك) على أمل أن تصحب ابنتها إلى عيادتي في الغد.

***

لا يعتبر هذا المرض من الحالات النادرة جداً بين النساء. إنها حالة مرضية تتسم المصابات بها عادة بشخصية وسواسية اضطرابية ممهدة لمثل هذه الاصابات. هؤلاء المريضات يتمتعن بحاصل ذكاء عال وبخيال خصب أيضاً.

وقد كان لهن قبل الزواج خبرات سمعية غير مستساغة حول الممارسات الجنسية، كأن تتحدث سيدة على مسامعهن بشأن خبراتها المشمئزة أو أنهن طالعن موضوعاً حول العنف في هذه الظروف. ولهذا السبب أو أسباب مماثلة يخيل لهؤلاء المريضات ممن يتطبعن بشخصية حساسة ووسواسية ويعانين من اضطراب حاد، بأن العلاقة الجنسية عذاب لا يوصف. انهن يجسدن كل ما سمعنه أو قرأنه من قبل بشأن ذواتهن فيخولهن بناؤهن الشخصي للتمادي الى أكثر مما قيل أو كتب فيهولن الخطب بقوة تخيلهن وبتجسيد مشاهد مجازية خطيرة وبهذا يهيمن عليهن خوف شديد إزاء الممارسة الجنسية فكلما يجنح الزوج إلى استخدام قدر يسير من العنف في هذا المجال يبلغ خوفهن درجة قد تعرضهن لنوبات الهلع (Panic) وقد تختلف هذه التفاصيل من بلد لآخر. ولكن الأساس في جميع الحالات هو ما تمت الإشارة إليه. ولسعة دائرة هذا الموضوع وتعقيده سوف أكتفي بهذا القدر من التوضيح مؤكداً على أن أي اختلال جنسي يتحتم تعريضه للفحص والتحليل الطبي سيان على الصعيد العضوي (الجسمي) أو النفسي (السيكولوجي) ليتم استبانة كونه عضوياً أم نفسياً، و ٧٠ـ٨٠٪ منها نفسية لا عضوية. ويكون العلاج أبسط بكثير مما يتصوره الجميع.

***

في اليوم زارتني السيدة (ك) مع ابنتها وتوصلت من خلال لقائي بها إلى معلومات وافية عن تلك السيدة الشابة. وتمكنت أن أحصل في الجلسات التالية على موافقة الزوجين لبدء العلاج. كان الزوج لحسن الحظ شاباً جديراً طيب المعشر يلفه الاندفاع للتغلب على مشكلته. كان يحب زوجته ولا يرغب في الأخذ عليها. ولهذا تابع كلا الزوجين مراحل علاجي بجد تام.

في الجلسة التاسعة اطلعت على تغلبها على المشكلة الأساس في حياتها وفي

الجلسة الثانية عشرة على حمل الزوجة مما أراح بالي تقريباً. والملاحظة الوحيدة التي كان يجدر بي تذكيرهما بها هي العمل حسب المستطاع على أن تكون الولادة طبيعية ليتم حل المشكلة بشكل أساسي وتام.

هنا أود أن أسدد النصح لجميع أعزائي الشباب بترك الخجل جانباً عند مواجهة مثل هذه الحالة وبأن لا يتخاذلوا إزاءها. كما لا يتحتم اطلاع الأسرتين عليها لتتحول القضية إلى ضجة أسرية كبرى. فمن الأولى للزوجين أن يراجعا طبيباً نفسانياً موثوقاً به وأن يطمئنا الى إمكانية التغلب على المشكلة بهذا النحو بشكل تام. أختم هذه القصة بالتأكيد على ضرورة الاسراع في علاج هذه الحالة المرضية قبل تحولها الى حالة مزمنة بترسخ الأفكار المرضية الوسواسية حول هذه الأمور في النفس مما يأتي على المرء بتبعات لا تحمد عقباها.

المقامر

كنت في ذلك اليوم على موعد مع موظف من ذوي الخبرة المهنية الطويلة. كان في الخمسين من عمره تقريباً وقد قضى (٢٥) عاماً في العمل في دائرة المحاسبات بإحدى المؤسسات حتى نال درجة مدير في تلك الدائرة. ولكنه مع ذلك بدأ منذ أعوام يسيء الى سمعته الإدارية ويوجه لها صفعات لا تستدرك بسبب ولعه الشديد بالقمار واتلافه وقتاً كبيراً في ممارسته. صار يتأخر عادة في الحضور إلى الدائرة ثم تجده عند تواجده فيها مشغول البال على الدوام بجلسات القمار المتفق عليها. كان يفكر دوماً بطريقة تمكنه من استدراك خساراته بتحقيق ربح طائل ينقذه من شر الدائنين. وهو في كل مرة يعقد العزم على ترك القمار فيما لو تحققت أمنيته. ولكن طموحه هذا لم يتحقق قط وولعه بالقمار لم يخفت أبداً. ولانشغال أفكاره كان قد ارتكب أخطاء فادحة في محاسبات الشركة مما أدى إلى عزله عن منصبه ولكنه لم يثب الى رشده بهذا العقاب حيث عاد في منصبه الجديد كموظف بسيط أيضاً لارتكاب هفوات لا عد لها ولا حصر. اتهمه المسؤولون في الشركة بالاختلاس، إلّا أنه رفض ذلك واعتبره اتهاماً باطلاً. على أية حال تم قبل أيام فصله عن العمل.. ولكن لم تنته القضية بذلك، بل اتهمته الشركة بالتلاعب بدفاتر الحسابات وباختلاس عشرة ملايين تومان عن هذا الطريق. كل هذا وهو يرفض الاتهام ويدعي ان جميع الأسناد والدفاتر (السجلات) المالية تثبت نزاهته بوضوح.

ومع كل هذه الأحداث ما زال السيد «إخوان» مغرماً بالقمار وينال منه لذة ما بعدها لذة. جاء به الى عيادتي أخوه الأكبر وهو بحسب تعبيره بمثابة أبيه.

قال الأخ الأكبر:

أخي يا دكتور، أفنى في سبيل القمار حياته بأسرها. تم فصله من الدائرة وهو يخوض الآن غمار سلسلة من محاكمات انتجت له سجلاً كبيراً في النيابة العامة. زوجته وطفلاه تركوا البيت وأقاموا في دار أبيها منذ ستة أشهر. أحاط به الدائنون من كل حدب وصوب. كأنه استقرض من كل من هب ودب مبلغاً من المال لم يتمكن من تسديد أي منها الى الآن. لجأ الى المشروبات الكحولية واعتاد عليها حتى أصبح لا يقوى على تمالك نفسه ما لم يكرع منها يومياً مقداراً كبيراً. إننا نذعن بكل ذلك وبأن الشركة على حق في دعواها ضده رغم رفضه لاتهامها إياه. حاولت حتى الآن لمرات ومرات أن أسوي ديونه وأخلصه من هذه المتاهات، إلّا أنه لم يبق لديّ مال لأنوي أن أبذل له أكثر من هذا. حتى وإن كنت أملك لا أفعل. جئت به لعله ينال العلاج على يديك. بالطبع لم يوافق بادئاً على مرافقتي ولكنني عاهدته أن أسوي ديونه وأنظم له شؤون حياته إن خضع هو للعلاج وأقسم أمامه أنني سأدعه وشأنه إن هو واصل حياته على هذه الوتيرة ولن يؤسفني أن يودع السجن لأنني في هذه الحالة سأدفع ما أريد أن أكرسه له من مال لزوجته وأطفاله الأبرياء لعلي انظم به شؤون حياتهم المضطربة.

مرت عشرون دقيقة والسيد «إخوان» الأكبر يتحدث ويقدم ايضاحات في غاية الأهمية مكنتني من حيازة معلومات هامة ومن تحديد وجهة اسئلتي التي أوجهها للمريض.

المريض كما ذكرت كان في الخمسين من عمره، فارع الهامة، نحيف البنية. ولتماديه في تعاطي الخمر، السهر المتواصل وكذلك خوضه أزمات الحياة يلوح

محياه الى عشرة أعوام أكثر من عمره الواقعي. كان يدخن علبة من السجائر يومياً. وقد تحمل في تلك اللحظات عبئاً عـاطفياً أثـقل كـاهله وأرغـمه الى اللجوء الى الآليتين الدفاعيتين النفسيتين «الانكار» و «التبرير» للتظاهر باللا مبالاة وعدم الاكتراث.

التفتّ اليه وقلت متسائلاً:

ـ طيب يا سيد إخوان، هل توافق أخاك الرأي؟

قال باسماً ولكن باسلوب ينم عن عدم الاكتراث:

ـ أجل، إنه على حق.

ـ وهل تنوي أن تخضع للعلاج لتنقذ نفسك من هذه الأزمة؟

ـ أجل.

ـ وهل لجأت الى الآن الى طبيب نفساني بهدف العلاج؟

ـ لا.

لم يكن جاداً في حضور الجلسة وكان ينبغي عليّ إثارته لعلني أشهد حالاته الواقعية. قلت:

ـ وانت ترى تشتت طفلين بريئين في عمر المراهقة وتلك المـرأة المسكـينة بسبب أعمالك، ألا تشعر بالندم؟.

انكمشت تعابير وجهه وألقى عليّ نظرة انتقاد وعتاب، ثم قال:

ـ ولِمَ لا؟ ومن ذا الذي يرضيه تشوش حياته؟!

ـ ولكنك لم تقبل على أية مبادرة لانقاذ نفسك وأسرتك خلال فترة السبع سنوات التي نغصت فيها حياتك بالقمار!

قال بقدر من العصبية والانفعال:

ـ ومن أين لك أن تعرف هذا؟

ـ هذا ما استوحيته من كلام أخيك. فقد حاول مراراً استدراك خسـاراتك جراء القمار دون أن يكون ذلك مدعاة اقلاع حضرتك عما اعتدت عليه.

عزم أن يقول شيئاً وهكـذا أخـوه، فأومأت لكـليهما اسـتمهلهما ريـثما أتم كلامي. كنت قد نجحت في إثارة الاهتمام الكافي لديه بالجلسة ليتحدث إليّ بجد، بقي أن أشعره بالارتياح الى أنني لا أحاول توجيه الاتهـام له بـل أرغب في تقديم العون له.

ـ الماضي فات وانقضى يا سيد إخوان، فإن كنت تنوي التخلص من هذه الأدران واتخذت قراراً جاداً لتعالج نفسك فبوسعنا أنا وأخيك أن نفعل ذلك. إن طريق العودة ما زال مفتوحاً أمامك إلى حد بعيد لحسن الحظ. ولكن تقتضي الضرورة أن تكمن في قلبك حوافز قوية وكثيرة لعلاج نفسك.

تلاشت الآليات الدفاعية فراح يميط اللثام عن شخصيته لتظهر على حقيقتها. يبدو أن الحديث عن أن اسرته متلاشية في الوقت الحالي وأن أبناءه لم يعودوا يحبونه قد آلمه كثيراً. فقال بلحن حزين:

ـ إنني أبذل قصارى جهدي يا دكتور، ولكنني لا أنجح في محاولاتي. أقولها بصراحة انني وفي غمرة انغماسي من رأسي حتى أخمص قدمي في الدوامة إلّا انني لو حصلت على أية نقود فسوف اتجه بها نحو القمار، لا يهم من أي نوع. المهم أن يكون قماراً، أن يكون لعباً فيه مجال لتحقيق أرباح طائلة. الأمر يخرج عن ارادتي. إن كان بامكانك معالجتي فإن ذلك مـطمحي. إلّا أنـني شـخصياً فشلت في تحقيقه.

ـ تكرس كم ساعة من يومك للقمار؟

ـ لم أحدد ذلك، إلّا أنني أمارسه بمعدل ثلاث ليال من كل أسبوع تـقريباً. ولكنه في الواقع يشغل بالي على مر ساعات اليـوم، أدمـنت عـلى الكـحول، صرت أدخن علب السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى أصبت بقراح الإثـني عشر وبالتهابات كليوية.

ـ التهابات كليوية؟! وهل لها علاقة بالقمار؟

ـ أجل، هذا ما قاله الأطباء.

قال أخو المريض:

إن انشغاله بالقمار بلغ به أن يحبس البول لساعات متمادية. وهذا كان تعليلهم لحالته.

كان رجلاً وقوراً مثقفاً. ومن بواعث الأسف أن ينزلق في مثل هذه الهاوية. لا سيما وأنه يرغب في انقاذ نفسه من هذه الورطة.

حددت مرض السيد إخوان بسهولة. كان مصاباً بهوس القمار وهو من الاختلالات. وهو من أمراض الطب النفسي. كان ينبغي عليّ علاج إدمانه على الكحول أيضاً أما قراح الاثني عشر والتهابات الكليتين فكان يتحتم اخضاعها لمعالجة أخصائيين آخرين. ولكن قضيته الأساسية كانت تتركز حول علاج لعب القمار.

كان الأخ الأكبر يتابع مراحل العلاج بتفان كبير لحسن الحظ. وقد وفقت لعلاجه باتباع منهج «العلاج النفسي العقائدي» خلال ستة أشهر ولجأت بالطبع الى وصف بعض الأدوية له مع التأكيد على العلاج النفسي كأساس عملية العلاج. علاج السيد اخوان خلال الستة أشهر تم تحت إشراف دقيق من قبل أسرته وأخيه وكنت أعقد معه جلسة واحدة في كل أسبوع. وقد حظينا بحسن تعاون زوجته التي عادت الى دارها إثر توصياتي وتوصيات أخي زوجها. هكذا عولج المريض. وبعد ذلك صرنا نعقد الجلسات بفواصل زمنية أكثر تباعداً حتى نأى تدريجياً عن وسواس القمار. مرت أربعة أعوام على استقامة حياة السيد اخوان. ونظراً لتمرسه في المحاسبة، تمكن من العثور على أعمال حسابية في عدد من الشركات التي تمنحه مرتبات جيدة.

وسواس القمار هو من الاختلالات الانفعالية. وينتمي إلى هذه الزمرة من الاختلالات: جنون الحرائق، وسواس نتف الشعر، الوسواس الجنوني للسرقة وكذلك الاختلالات الانفجارية المتناوبة.

المصابون بهذا المرض يميلون بشدة وبشكل يتعذر ضبطه الى القمار، ويحدث

ذلك عادة بعد خبرة أو خبرتين تضمنت أرباحاً طائلة فيحاول الشخص المريض باستمرار لاعادة مثل هذه الخبرات. ولكنه يتعرض في كل مرة الى خسارة فادحة. وتتكون بذلك حلقة مغلقة تثير المريض للانكباب على القمار بهدف استدراك خساراته مما يجر المريض الى مستنقع لا يزيده التخبط فيه سوى الانغماس أكثر فأكثر في أوحاله. انه اختلال مستفحل ومزمن ويؤدي الى زعزعة الكيان الأسري وتعرض الجانب الشخصي والمهني من حياة المريض الى الاضرار والانهيار وتصل حالة الانشغال الفكري والشعور بالحالة القسرية وممارسة القمار ذروتها في فترة التعرض للضغوط الانفعالية العصبية. وهلم جرّا تتعزز الرغبة في القمار إثر القضايا المستحدثة إثر ممارسته، كالقضايا الشخصية ومنها: الديون الكبرى، العجز عن الدفع وأداء المسؤوليات المالية الأخرى، تفسخ العلاقات الأسرية، إهمال العمل وممارسة النشاطات غير القانونية ذات الدوافع المالية الهادفة الى توفير المال لممارسة القمار.

يختلف نمط تبلور هذا المرض بين أبناء المجتمعات عنه في المجتمعات الغربية لأنه يتجلى في المقابل لدينا بأنماط أخرى مثل المغامرة بالانخراط في صفقات البضائع لتحقيق أرباح خيالية. يبلغ معدل المصابين بهذا المرض بحسب الاحصائيات العالمية ما يقارب ٢ـ٣٪ من الناس، على اختلاف درجات الممارسة التي تسود بحد ذاتها بين الرجال أكثر من النساء الى جانب احتمال تدخل العامل الوراثي في تبلوره بنسب مئوية مختلفة.

ومن بواعث إصابة أكثرية هؤلاء المرضى بهذه الحالة انتماؤهم الى أسر مشوشة ـأسر فقدت الأبوين لسبب أو آخر أو فرضت عليهما ظروف متنوعة الابتعاد عنهمـ، الانضباط المتسيب للأبوين (الغياب، عدم الاستقرار أو العنف)، توفر إمكانية ممارسة القمار للمراهق. وكذلك يلعب تمادي الأسرة في الاهتمام بالقضايا المالية دوراً في غاية الأهمية في هذا السياق. أما النساء فإنهن أكثر عرضة لهذا المرض عند تقدمهن في العمر عادة ولكنه يسود بين الرجال في

سني الشباب مع احتمال ظهوره في أي سن. وقد لاحظنا تعرض السيد اخوان له في مرحلة متوسط العمر.

يتسم هؤلاء المرضىٰ في أغلب الحالات بالغرور والصلف، وكذلك بالانفعالية والطاقة الزائدة الى حد ما. وقد وفرت المناهج العلاجية الحالية فرص معالجة هؤلاء المرضى على خير وجه.

أم ليست كالأمهات

ـ سيدتي، هل أفهم من كلامك أنك تعتقدين أن للمرء أن يطلب الطلاق من زوجه تلبية لرغبة أبويه.

ـ تقريباً، أجل يا دكتور، عندما أفكر بما بذلاه لي من أتعاب حتى تقدما في العمر وها هو زوجي يرد حسناتهما بالإساءة إليهما، لا بد لي أن أحترم مشاعرهما.

ـ وهل أن احترام مشاعرهما يعني الطلاق من زوجك؟

ـ لقد خيراني ما بينهما وبين زوجي.

ـ هل لك يا سيدة (م) أن تحددي لي أصل موضوع الصراع بين زوجك وأبويك ومن أين انطلق؟

صمتت السيدة الشابة هنيهة وهي تحاول أن تنسق أفكارها. نكست رأسها للحظات وكأنها تسبر أغوار ذكريات سنوات مضت، سرحت الى بداية تعرفها على زوجها ثم قالت بتؤدة:

ـ في الحقيقة.. لي أن أقول أن أمي كانت تؤكد منذ البداية على زواجي من حميد أكثر مني أنا ومن أبي. عندما تقدم حميد لخطبتي كان شاباً مثقفاً ولج سوق العمل تواً. كان من أسرة طيبة ويتمتع بمظهر وسيم وبسلوك حميد. أي أنه كان يعتبر تقريباً فارس أحلام أية فتاة شابة. لكنني لم أشعر تجاهه بمشاعر خاصة. بل لم افكر حتى ذلك الوقت بالزواج. أما أبي فقد فوض الأمر إليّ. حظي حميد

بموافقة تامة من أمي لأنها كانت تكثر الاهتمام بمظهر الرجل وتقول على الدوام: لابد أن يكون الرجل وسيماً وحسن المظهر. لقد ارتضت حميداً زوجاً لي وأرغمتني على الموافقة رغم انها اعتادت أن تأخذ على الجميع. هكذا تم الزواج بيننا. بالطبع ينبغي أن أذكر أن حميداً لم يبد أي إلحاح على قضية الزواج بل تعاطى معها بشكل عادي تماماً. إلّا أنني وثّقت علاقتي معه بحسب توجيهات أمي. أترى يا دكتور كيف أحبت أمي المسكينة حميداً منذ البداية بملء وجودها واحتسبته أحد ابنائها ومع ذلك عجز زوجي عن فهم كنه هذه المحبة فصار لا يتوافق مع أمي ويعارضها منذ بداية حياتنا المشتركة وقد أزعجها عدة مرات حتى الآن.

كانت تبتعد عن الموضوع الأصلي واقتضت الضرورة أن أعيدها الى مسارها الأولي. فقلت:

ـ حسناً وماذا عن سلوكه بعد الزواج؟

ـ لا شيء، صار حميد بعد الزفاف يتجاهل إحسان أمي إليّ مهما زادت منه بل ويعارض ذلك قائلاً: انني لست بحاجة الى إحسان أمك، كفاني مؤونة أن لا تتدخل في حياتنا. كانت أمي المسكينة لا تنبس ببنت شفه وهي تواجه كل هذا التجاهل فتواصل تفانيها من أجلنا. حملت بعد شهرين أو ثلاثة بعد الزفاف بتوجيه من أمي لعلني أضبط حميداً وأشده للحياة الزوجية إلّا أن أخلاقه ساءت بعد ولادة ابنتنا «بريسا»، كانت أمي تتعهد بالطفلة ورعايتها في أغلبية الأيام والليالي وحميد يتهمها بالتدخل في حياتنا بدلاً من الثناء عليها، وينعتني أنا الأخرى بفقدان الهمة. كان يقول: إن عجزك عن إدارة شؤون الحياة يخول لأمك التدخل في حياتنا الى هذا الحد. إنك عاجزة حتى عن رعاية طفلتك.

ساءت الاوضاع على أية حال. كانت أمي تقول لي: لا تيأسي يا ابنتي، سيمكنك فرض الالتزامات الأسرية عليه بعد ولادة طفلكما الثاني. سيمنعه

انشغاله بالحياة من أن يسيء الخلق بهذا النحو.

هكذا ولد ابننا بعد مدة وأسميناه «بابك». ولكن حميد لم يتغير بل ازدادت اعتراضاته وتمادى في إهماله لنا. كان لا يعلق أهمية على الطفلين لأنه لم يرغب في الانجاب أساساً ولهذا كان يحجم عن أداء واجبه تجاههما.

بعد صمت قصير، أردفت قائلة:

أنعم الله عليه بنجاح باهر في عمله وبرزق وفير ووجاهة اجتماعية كبيرة. وحياتنا المادية كانت تسير على خير ما يرام، ولكن ما الجدوى؟ فالحياة المادية تفتقد أدنى بهجة ولذة. كان يرفض لقاء أمي حتى لمرة واحدة أسبوعياً. إنني يا دكتور أمثل المحبة بالكرة فإنها بعد الارتطام بالجدار تعود اليك بنفس القوة ولكن أمي كانت لا تواجه تقديراً لمحاسنها. كانت تصرف جل وقتها وطاقتها لتسيير حياتنا، وترغم أبي لتقديم هدايا ثمينة لنا وللأطفال وتقيم المآدب الكبرى لعلها تستقطب حميداً، ومع كل ذلك لم يتغير أي شيء.

كنا يا دكتور نرغب أن ينتمي حميد الى أسرتنا كعضو من أعضائها. أمي كانت تصطخب نوايا طيبة وتود أن يتعامل حميد معها بتعاطف وصفاء مثل أخوي «بهرام» و «برويز»، أن نؤلف أسرة واحدة، حميمة، يسودها الحنان والرأفة. كانت أمي تحب حميداً مثل ابنيها وتتوقع أن يسلك معها حميد كما يسلك مع أمه، إلّا أنه عاداهم ورفض تحقيق هذه الأحلام الجميلة.

استمر الوضع على هذا المنوال حتى تعرض حميد للإفلاس تقريباً جراء صفقة تجارية. عندئذ صارت الحياة بالنسبة لي لا تطاق. قال أبواي: «يكفينا ما فعلناه من أجله حتى الآن. ولم نعد نتحمل فقره وبؤسه. فأولى بالانسان المغرورة المتغطرس أن يعيش وحيداً». كان الحق الى جانبهما. يا ترى بم أقنع نفسي. اخلاقه الطيبة أم سلوكه الحسن أو ثرائه؟ لقد اضطر الى الاختفاء فراراً من الدائنين، وان عثر عليه فسيلقى القبض عليه فوراً. ولهذا أرشدتني أمي أن أعد أثاث المنزل بما فيها جهازي وننقل أنا وطفلاي الى دارهم بعد حملها اليها.

إن الوسامة وحسن المظهر لا تغني الإنسان عن لقمة العيش. أليس كذلك يا دكتور؟

ـ حسناً، وكيف تسير الأوضاع حالياً؟

ـ نحن نسكن في الوقت الحاضر في بيت أبي. ولا أعلم الى أين لجأ هو. لقد اتصل هاتفياً عدة مرات وطلب لقاء الأطفال ولكن أمي ترفض طلبه. تقول أن لقاءه سوف يشوش أفكار الأطفال. دعيهما ينسيان حميداً ليفرغ بالهما لدراستهما. ابنتي «بريسا» في الصف الثاني و «بابك» في الصف الأول. أمي محقة. كانا يتلوعان على فراق أبيهما في البداية ولكنهما الآن وبعد مضي ثلاثة أشهر بدآ ينسيانه تدريجياً.

ـ نلخص الموضوع بأن حميداً تقدم لخطبتك وكان شاباً لائقاً ارتضاه الجميع زوجاً لك ولا سيما أمك التي انجذبت إليه بشدة ثم انفردت السيدة محمدي (والدتك) بالبرمجة لسائر المراحل التالية ليتم الزواج بينكما. ولكن بعد ذلك صار زوجك يعادي أمك وباءت جميع مساعي السيدة محمدي بالفشل ثم ارتأت أمك بعد تعرض حميد للإفلاس أنه ليس من صالحك مواصلة الحياة معه، وها أنت تريدين الطلاق منه. ومن الأرجح للأطفال برأيكم أن لا يلقيا مثل هذا الأب.

ـ بالضبط، الأمور كما حللتها يا دكتور، عجباً، إنك تغلغلت الى أفكاري وحللت القضايا على أفضل ما يكون كعهدك الذي ألفته من خلال كتاباتك.

ـ أشكرك يا سيدتي. أخبريني هل أقدمت على طلب الطلاق حتى الآن؟

ـ أجل، وكيلي مشغول بإجراء المراسيم النهائية للطلاق.

ـ وبهذه السرعة؟

ـ في الحقيقة كان نصف الدار التي كنا نسكنها مسجلاً باسمي والنصف الآخر باسم حميد. بعد قضية الدائنين فكرت أمي لحسن الحظ أن نطالب حميداً بوكالة دائمية عامة تفوض لنا بيع نصيبه من الدار. في غير تلك الحالة كان الدائنون

سيصادرون نصيبه. وعندها طلبت أمي من أبي ادراج حق في الطلاق في موضوع الوكالة. كان حميد مشوشاً للغاية ودعاه ضيق الوقت لتوقيع الوكالة بجميع بنودها. هكذا صار لي حق الطلاق مما مكنني من التعجيل في إجراء مراسيمه.

ـ حسناً يا سيدتي، أجدك أنجزت جميع الأعمال بنجاح تام فما هي الخدمة التي يسعني أن أسديها اليك الآن؟.

صمتت السيدة الشابة لحظات وهي ترنو برأسها الى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت بخجل:

ـ الحقيقة، أريد أن أعلم هل أنني صائبة فيما اقدم عليه؟

ـ على أي صعيد؟

ـ فيما يتعلق بحميد والأطفال؟

ـ لابد أنه اجراء صائب وإلّا لما سمحت به أمك وهي سيدة مخضرمة ولبيبة.

ـ ولكن.. ألاترى يا دكتور أن أمي تمادت في الأمر قليلاً؟

ـ وما هو رأي أبيك؟

ـ لا رأي لديه. فالقرار الأول والأخير يعود لأمي دوماً.

ـ وماذا عن أخويك وأختك؟ هل يكبرونك سناً؟

ـ أجل، أحد أخوي في الخامسة والثلاثين من عمره، متزوج وله طفلان. وأخي «برويز» يبلغ الثالثة والثلاثين وهو الآخر متزوج وأب لطفلين. أما أختي فإنها لم تتزوج. تستعد حالياً لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع. عمرها (٢٧) عاماً. إنها تشعر بنفور شديد من الزواج.

ـ هل استطلعت رأيهم حول الموضوع؟

ـ أجل. إنهم يؤيدون أمي في رأيها. ولكن.. أختي «سميرة» لا يروقها الأمر. إنها تعتبرني معتوهة.

ـ هل توصلوا الى مثل هذه النتيجة اثر تحليلهم للأمر أم اتخذوا مثل هذا

الموقف انسجاماً مع أمك؟

ـ لا يا دكتور، إنهم يتأثرون وبشدة برأي أمي.

ـ وهل سميرة كذلك أيضاً؟

ـ قلت لك لا، انها تعتبرني معتوهة. سميرة هي الشخص الوحيد الذي يعارض آراء أمي في بيتنا. أي أنها تمتاز بالجرأة والشهامة لمعارضتها. ولهذا مواقفها لا تسر أمي. إلّا أن سميرة متشددة جداً. انها فتاة واعية ورشيدة. انقطعت الى عملها في التدريس والى مواصلة الدراسة، وصرفت النظر بتاتاً عن الزواج عندما فطنت الى أن أمي تنوي ارغامها على الزواج. كلتاهما لا تتدخل قط في شؤون الأخرى وكأنهما اتفقتا ضمنياً على أن لا تتسبب أي منهما في مضايقة الأخرى.

ـ إذاً، لنا أن نعتبر سميرة جزيرة تستقر وسط بحر هائج.

ـ أجل يا دكتور، ولكن ما الجدوى؟ انها تتعاطى حفنات من الأقراص يومياً وتتمادى في تدخين السجائر. إن عدم استسلامها للتعنت قد حطم أعصابها. أما نحن الثلاثة فإننا لا نقوى على تحمل هذه المعمعات.

ـ عجباً! وأية امرأة مقتدرة هذه؟! إن أمك إنسانة قوية وراسخة الارادة! إذاً، هل لنا أن نقول أن جميع أعمالكم أنتم الخمسة ومناهج حياتكم تتحدد بما يمليه رأي أمكم سوى سميرة؟ وهي الأخرى تتأثر بشكل غير مباشر بالهالة المغناطيسية التي تحيط بأمكم؟.

أجابت:

بالضبط، الأمر كما تقول يا دكتور.

استغرقت في التفكير فيما يفترض عليّ اتخاذه من اجراء للوقوف بوجه هذه العاصفة العاتية التي تدوي في حياة هذه الأسرة الصغيرة. القصة وكما يقول المثل الاوربي: «جميع الطرق تنتهي بروما»، تدور حول ارادة السيدة محمدي وأفكارها. وقد تخلى الجميع عن ايفاء دورهم الأساسي في هذه القضية: الأب

الذي ينبغي أن يتسم بقوة الشخصية ويتعهد باتخاذ القرارات في حياة الأسرة، سلم مقاليد الأمور الى زوجته وحتى ابنيه المتمتعين بشخصية ومكانة اجتماعية متميزة لا يتجرآن على الافصاح عن رأيهما أمام أمهما. البنت الكبرى التي تقبع على الأريكة قبالتي، ومع كونها أماً لطفلين ما زالت تواصل في مثل عمرها تقليدها العشوائي لأمها وكأنها طفلة في الخامسة أو السادسة من العمر. وذاك حميد الشاب المثقف فبدلاً من أن يتخذ موقفاً راسخاً وحدياً إزاء هذه التدخلات لانتشال حياته من الانهيار، أصر بتذمره المتواصل منذ الشهور والسنين الأولى من حياته الزوجية على خوض هذه الحرب الطاحنة و...، وسيدة في الرابعة والخمسين من العمر اعتادت أن تتصور نفسها العقل الراجح في تلك الأسرة وأن تفكر وتتخذ أي اجراء بدلاً عن جميع اعضائها وتعتقد دائماً أن الحق الى جانبها.

لابد لي أن ألقى الأم. سيلعب لقاؤها دوراً حاسماً في انتقاء منهج المشاورة وعلاج المشكلة.

قلت:

ـ لابد لي يا سيدة (م)، أن أعقد الجلسة التالية في حضور أمك. سيكون في لقائها والاطلاع على آرائها عون كبير لي لأداء مهمتي. هل ستحضر برأيك؟

ـ لا أعلم، ماذا لو امتنعت عن الحضور؟

ـ في تلك الحالة، الأولى أن تسلميها خطابي. أعتقد أنه سيؤثر فيها. لكن.. أخبريني رجاء.. ما هو مؤهلها الدراسي؟

ـ الثانوية. إنها تكثر من المطالعة أيضاً.

ـ حسناً جداً.

استأنفت الكتابة كما بدا لي أنه يروق وبأسلوب يغلق في وجهها أبواب الرفض و..

السيدة محمدي

أحييك وأتقدم لك بالشكر على توجيه ابنتك لمراجعتي بهدف التغلب على مشاكلها واستعادة هدوئها النفسي. إنني الآن بحاجة قصوى لمعونتك والاستمداد من آرائك القيمة لانجاز هذه المهمة. أرجو التفضل بزيارتي مع ابنتك في الموعد المحدد.

مع خالص احترامي

اغلقت الطرد وسلمته للسيدة (م).

***

كانت السيدة محمدي وكما توقعت امرأة في متوسط العمر، راسخة الارادة، ماهرة في التلاعب بمشاعر الغير. كانت متمرسة في فن التمثيل وقادرة على فرض آرائها بأساليب مختلفة على عقول الآخرين. ليس في عينيها الجامدتين أي مكان للأحاسيس التي تحاول أن تلون بها سلوكها وحركاتها.. كلامها يتزين بمنطق في منتهى القوة والرصانة ولكن واه وكاذب لا وجود خارجي له.

ـ كيف يمكن برأيك التغلب على هذه الأوضاع المستجدة يا سيدة محمدي؟.

ـ في الحقيقة، لا أعلم يا دكتور. هما أدرى بذلك.

ـ هل أفهم من هذا أنك تركتيهما وشأنهما منذ البداية وأنك ترضخين الآن لرأي السيدة (م)، وزوجها.

ـ أجل يا دكتور، إنني لا أتدخل قط في شؤونهما.

ـ وهذا كان نهجك منذ البداية؟

ـ أجل، صارت أمورهما الى ما ترى نتيجة فعالها. ابنتي هي التي اتخذت القرار بشأن طلاقها.

ألقيت نظرة الى السيدة (م) كانت تفتقد أية ارادة كغزال يغط في نوم مغناطيسي أمام عيني أفعى سامة، ولذلك لم آمل فيها خيراً في أن تؤيد آرائي

في بعض الحالات. كما لم يكن بوسعي اسهامها في النقاش لأنها ربما تتعرض لانعكاسات غير سوية من قبل أمها بعد ترك العيادة مما يزيد الطين بلة في وضعها المعيشي. ولهذا طلبت منها أن تترك الغرفة.

عدت لأواصل حديثي مع الأم:

ـ أراك يا سيدة (محمدي) امرأة تتمتعين بشخصية قوية وخبرة عالية. كيف حدث أنه لم تتم استشارتك طوال سنيّ حياة ابنتك الزوجية؟ وكيف كان لك أن تسمحي لها بالتصرف كما يحلو لها في حياتها؟.

كانت ترى نفسها مضطرة للرد على هذا السؤال ولكنها لم تتوقع قبل هذا أن أطرح عليها مثل هذه الاستفسارات المعاكسة. ولهذا شعرت أنها عاجزة عن الرد عليّ باسلوب منطقي فلجأت الى أسلوب آخر: التلاعب بمشاعري. عندها اغرورقت عيناها على حين غرة بالدموع وتظهرت بمظهر أكثر بني الإنسان على وجه الارض تحملاً للاجحاف والآلام. قالت وهي تذرف الدموع:

ـ لا أعلم يا دكتور، لا أعلم. هي التي قررت، هي التي اختارته فأيدها أبوها وحثها على الزواج منه. أنا امرأة ضعيفة لا حول لي ولا قوة. وكيف لي أن أعارض؟ قلت لها منذ الوهلة الأولى أن هذا الشاب لا يناسبنا. إنه يختلف عنا وعن أسرتنا. أبت الانصياع لكلامي. قلت لها أن الوسامة والجمال لا يتحولان الى لقمة العيش. لم تصغ اليّ. كان نتاج ذلك ما ابتلينا به.ها أنت ترى. بعظمة الله أقسم لك يا دكتور كنت بعد زفافها أدير شؤون حياتها كخادمة مطيعة وبذلت من المساعي للحفاظ على حياتها ما كانت أم حميد تأبى عن بذلها. تناهت الى سمعي عبارات جفاء فظة ولكنني لم أنبس ببنت شفه خشية أن تضطرب حياتها. ولكن.. لكن كل هذه المتاعب لم تجد نفعاً. بين يوم وآخر تأتيني ابنتي بعينين مدمعتين متأوهة وأنا أطيب خاطرها وأوجهها برفق لتعود الى بيتها. قلبي كان يتمزق إلّا أنني أتجاهل الأمر ظاهرياً لئلا يحرم هذان الطفلان من أبيهما. ولكن شئنا وشاء الله شيئاً آخر.

أدركت أنها صارت الى حال تسمح لنفسها فيه أن تسيء لجميع المحيطين بها بتهمة ما لتبرئ بذلك ساحتها وأنها ستمسح دموعها عند خروجها من غرفتي وتخبر ابنتها وابتسامة ساخرة تعلو شفتيها: حتى الدكتور يرى أن الحق الى جانبي. هل أصبحت واثقة كم هو هذا الرجل تافه؟

قلت:

ـ ومع هذا يا سيدة محمدي، كان عليك أن تحولي دون زواجها منذ البداية أو أنك لما لاحظت اندلاع المشاكل بينهما كنت توصين ابنتك بالامتناع عن الانجاب لسنتين أو ثلاث أو بمراجعة أخصائي لحل مشاكلهما. إنهما كانا يفتقدان خبرة الحياة الزوجية وأسرة حميد كما تقولين دون مستواكم. إذاً مسؤولية مثل هذه المهمة كانت ملقاة على عاتقك أنتِ الواعية الرشيدة.

لم يبق أمامها وهي تجد الأبواب توصد بوجهها الواحدة تلو الأخرى إلّا أن تتمادى في سلوكها التمثيلي وفي بكائها المرير. قالت:

ـ تقول الأطفال يا دكتور؟ يا لوعة قلبي. كم ألححت عليهما بالامتناع عن الانجاب! قلت لهما: أنكما مازلتما في الحقيقة طفلين فماذا تفعلان بالأطفال؟ لم أقو على منعهما فالأمر كان أمر أم حميد ولابد من إطاعته ما دامت قد أرادتهما أن ينجبا. لكم كانت تهزأ بابنتي وتنعتها بألف عيب وعيب.

تمالكني الضحك. كانت تحسن التشبث بآلية «الاسقاط» (Projection) النفسية ـ أي أن يلقي المرء تبعات فعاله أو مشاعره على الغير ـ كان بامكانها أن تلعب أي دور تمثيلي على خشبة المسرح بمهارة تامة. تعذر علي أن أصدق كلامها. تذكرت حديثاً لأحد اساتذتي، كان يردد دوماً: يمكن التنبه الى شخصية الأشخاص الواقعية بالتمحص في أعماق نظاراتهم. كنت كأنني أواجه جبلاً جليدياً في أعماق نظراتها. دعونا من هذا.. لنعد الى تفاصيل الجلسة.

أيقنت أنها تتمتع بطاقة لأداء دورها حتى صباح الغد فقلت في نفسي: لابد لي أن أسخر شخصيتها الهستيرية المنطبعة على الزهو بالنفس. قلت:

ـ لا تنغصي على نفسك يا سيدة (محمدي). الماضي قد فات ولن يعود ومن المنطقي أن تفكر سيدة واعية مثلك بالمستقبل. بمقدوري وأنا أسمع كلامك وأدرك ثقل ما عانيتيه الى الآن أن أرسم أمام عيني وببساطة ملامح المستقبل بما يحمله لك من بلايا أكثر تأزماً وأسرع انقضاضاً على راحة أسرتك. لا يخفى أن الأكثر تضرراً في هذا السياق هو أنت يا سيدتي. تصوري هذه الحياة بعد انهيارها. من سيكون الأكثر عرضة للأذى؟ إن الشخص الذي سوف يترتب عليه تحمل مسؤولية ثلاثة أشخاص على عاتقه حتى نهاية العمر هو أنتِ. وفي نهاية المطاف سوف يلقي المحيطون بك اللوم عليك. سيوجه الأطفال اليك بنان الاتهام لحرمانهما من أبيهما. ستعتبرك ابنتك السبب في انضمامها الى زمرة المطلقات في ذروة شبابها. فمن ذا الذي سوف يفكر بالزواج من امرأة مطلقة وأم لطفلين؟ رجل في الستين من عمره مثلاً؟ وهل سترضين بذلك؟ الأطفال ماذا سيكون موقفهما؟ أم سيتقدم لها شاب أعزب؟ وهل يكتب لمثل هذه الحياة الدوام؟.

هل فكرت لو نجح حميد في الامساك بزمام أمور حياته ثم عاد ليأخذ ابنيه، هل ستتحمل ابنتك لوعة فراقهما؟ هل تبصرين المأزق الذي سوف تلقين نفسك فيه؟

سوف تقضم مسؤولية تحمل هؤلاء الأشخاص الثلاثة ما بقي من عمرك ومن ثم تعتبرين أسوأ خلق الله.

استشاطت غضباً. لم تفكر قط بمثل هذه القضايا. انتصبت وهي تجلس على المقعد. وقالت:

ـ ومتى تفوهت أنا بمثل هذا يا دكتور؟ عسى أن لا يغفر الله لي إن كان حرمان الطفلين من أبيهما يسرني. عسى أن لا يصفح عني ربي إن كان طلاق ابنتي يرضيني. إنني أعاني من مرض قلبي ولا أتحمل حتى نفسي فكيف لي أن أتحمل كل هذا القيل والقال.

ـ لا، لا، لا تسيئي فهمي رجاء. لا أقصد أنك تسببت في تبلور الأزمة. أنا أذعن لكلامك ولكن.. ماذا نفعل وهل يمكنني سد الطريق أمام كلام النـاس. سيترعرع الطفلان في النهاية ويتصلان بأبيهما. سيلقي تبعات جميع المآسي عليك سواء صَدِق أم كذب. إعلمي أن كلامه سيؤثر فيهما أكثر من كلامك، انه أبوهما على أية حال وأنتِ جدتهما. كما أن الأطفال ينجذبون عادة لمن يقل لقاؤهم به فيحبونه أكثر من غيره.

شعرت السيدة أن الوضع يتفاقم وأنني أمسكت بحبل الحديث دون ملل فغضت الطرف عن سلوكها الهستيري. وقالت برزانة وهدوء:

ـ لا أعرف، لِمَ يعتبرني الجميع مذنبة والحقيقة هي أنني.. أنني بريئة. لك أن تستفسر عن ذلك من ابنتي نفسها.

ـ على أية حال، مع بالغ احترامي لك، أقول أسفاً أن أصابع الاتهام متجهة صوبك. ولهذا سيتراءى ذلك على المدى البعيد للمحيطين بك أيضاً، وسيهولون ذنبك أكثر فأكثر كلما ضاقت بهم سبل العيش و...

ـ وما العمل الآن يا دكتور؟ سأرضخ لرأيك مهما كان. لابد أن نمنع تلاعب هذين الشابين الجاهلين بمصيرهما وبمصير ابنيهما..

ـ أوافقك الرأي تماماً. ولكن اسمحي لي أن أتحدث الى ابنتك قليلاً لأحدد علاج اكتئابها. وسنجتمع معاً بعد أيام إن شاء الله لنرسم خطة مبدئية صحيحة لعلاج مشكلتها.

ولاوقظ بصيرتها بشكل كامل. استطردت قائلاً:

ـ يرى خبراء العلوم السلوكية أن الاربعين سنة الثـانية مـن العـمر مـلك للإنسان نفسه لأنه ينشغل في الاربعين عاماً الأولى بـقضايا هـامشية تحـرمه فرصة التمتع بحياته. أما في الأربعين عاماً الثانية فقد فرغ من مسؤولياته إزاء الجميع الى حد كبير وقد حان الأوان ليلتذ المرء من حياته ولكنك وبدلاً من مثل هذا الاجراء تلقين نفسك عفوياً وبالضبط في أتعس دوامة لتتلظي بـنار

جحيمها فيما تبقى من عمرك. من جهة أخرى أرى أن جميع الظروف مواتية لك لتتذوقي نصيبك من لذة الدنيا بملء وجودك. ولا تنسي انك مصابة بمرض القلب وأن أي انفعال أو ضغط نفسي هو سم نافذ بالنسبة لك. سوف يتعذر عليك بعد الطلاق طرد هؤلاء الثلاثة من بيتك وفي حالة انضمامهم اليك ستلقى بالطبع مسؤوليتهم على عاتقك أيضاً.

كان ذلك ما لا يطاق بالنسبة لأية امرأة مترفة انتهازية مثلها..

انفردت بالبنت الشابة دون أمها. كانت تعاني من الاكتئاب ومن اضطراب حاد بسبب الضغوط النفسية الزائدة التي تتعرض لها، ولهذا وصفت لها دواء وأوضحت لها أنها مرغمة على الاستعانة بالدواء لضبط نفسها ما دامت مشاكلها لم تحل بعد ثم أردفت أوضح لها أموراً حول حالاتها النفسية ونمط تأثير الدواء فيها وبعض الملاحظات عما دار بيننا أنا وأمها من حديث.

ـ اصغي لي يا سيدتي. إنني ودون أن ألتقي حميداً يسعني أن أقول بناء على ما استوحيته من كلامكما أنت وأمك أن الظلم الحقيقي قد وقع في هذه القضية على حميد وابنيكم. الأطفال لا ذنب لهم بتاتاً، أما حميد فإنني بحاجة الى تحليل وضعه. لابد أن نلتقي عاجلاً بعد يومين أو ثلاثة لأعرض عليك خطتي. أرجو أن لا تطلعي أحداً على ما نتحدث بشأنه وكذلك على زياراتك اللاحقة لي.

أنهيت الجلسة لألتقيها في الفرصة المناسبة عندما تكون أفكاري متأهبة لتحليل الوضع على بينة.

وبعد ثلاثة أيام:

ـ السلام عليك يا دكتور.

ـ وعليك السلام يا سيدتي.

قالت السيدة الشابة وابتسامة ذات معنى ترتسم على شفتيها:

ـ انتظرت دوري في غرفة الانتظار لساعتين ونصف، فكرت مع نفسي خلالها: ماذا بوسعك أن تفعل من أجلي؟ وهل يمكن التخلص من هذا المأزق؟

صرت لا آمل خيراً في أحد سواك يا دكتور.

بعد تفوهها بهذه العبارت شعرت السيدة (م) بالارتياح والقرب مني باعتباري طبيبها. استغنت عن قناع الغرور والاحجام عن الافصاح عن مشاعرها. إستأنفت البكاء. أخذت دموعها الساخنة المريرة تنهمر بلا هوادة لدقائق.

ترويت حتى استعادت هدوءها ثم قلت:

ـ توكلي على الله. وأنا بدوري أحاول بما أوتيت من قدرة أن آخذ بيدك بإذن الله للتغلب على هذه الأزمة. ومع ذلك فإن ايفاء الدور الأساسي مهمة ملقاة على عاتقك أنت فأنت فوضت أمك حق تقرير مصيرك لتتخذ أي إجراء يروق لها. اختارت لك زوجك كما أمرتك بالانجاب. تحدد لك نمط سلوكك مع زوجك بل ونمط حياتك العامة. وفي نهاية المطاف وضعت خطة عودتك الى دار ابيك، خطة بهذه الدرجة من القسوة والجفاء، وخططت كذلك لطلاقك أيضاً. وقد سحبت نفسها الآن وتركتك في مهب الريح تصارعين جبلاً من المآسي وحيدة و... ما يؤسفني للغاية هو تخليك عن الالتزام بالشؤون الشرعية والمبادئ الإنسانية فقد أقدمت على أعمال تعتبر بعضها ضرباً من الاحتيال. لا أعلم. أتدركين ما فعلتيه بهذا الرجل وقد منح ثقته لزوجته وكرس لها نصف الدار ثم بلغت ثقته بك درجة تدفعه لتوقيع أية ورقة تقدمينها له. لقد أسأت استغلال ثقته بك. وهذا ما نسميه في الحقيقة خيانة.

ثم دعينا من هذا كله.. إن جميع الأمهات يوجهن بناتهن باستمرار فتحسن مهمتها من تتمتع بالوعي والحكمة ومنهن فئة أخرى تخرج عن جادة الصواب في هذا السياق بجهلهن ولكن المسؤولية ملقاة على الفتاة نفسها. فلابد لها أن تتخذ القرار النهائي بنفسها وعن وعي وإحساس بالمسؤولية، فتكون اذناً صاغية لمطالب زوجها الحقة وكذلك لأمها وأن تفند مع بالغ احترامها لهما آراءهما الخاطئة بأسلوب منطقي. ولكنك ماذا فعلت أنت؟ لم ترغبي في الحقيقة

قط أن تتحملي مسؤولياتك باعتبارك امرأة متزوجة واماً لطفلين. تقبلت عشوائياً جميع تعليمات أبويك ونفذتيها كما تفعل أية فتاة في السادسة من عمرها. أرادك حميد أن تكوني امرأة واعية رشيدة ليبدأ معك حياة خاصة بكما، حياة تتفرع عن حياتكما السابقة. حياة تديران شؤونها بتعاضدكما الفكري وبحسب خطتكما المشتركة كما يطمح أي زوجين، حياة عصامية مستقلة تقطعان فيها دابر الذيلية للغير. ولكنك لم تشاركيه مثل هذه الأفكار عندما تزوجت. لا أعلم. ربما كانت لك ولكنهم صدوك عن تطبيقها. أسلوبك في الحياة على أية حال يوحي بأنك لم تتمتعين بمثل هذه الأفكار. كنت ما تزالين تعتبرين نفسك جزءاً من أسرة أبيك وقد أضيف حميد إليها. أي أنك بدلاً من أن تفكري بأنك كونت حياة جديدة صرت ترددين مع نفسك: لقد انضم حميد إلينا. وهذا ما لم يرتضه حميد ولا يرتضيه أي رجل آخر. لا أنكر أن أمك قد تحملت من أجلك متاعب كثيرة وأنها صاحبة حق كبير في ذمتك ولكن.. طيب، جميع الأمهات يؤدين مثل هذه الأعمال لأبنائهن. لم تؤد أمك عملاً خارقاً لتتوقع مثل هذا الانقياد الأعمى من أبنائها. ولكنني أدرك أن أمك قد هيمنت عليكم حتى عدتم تعجزون عن معارضتها. ومع ذلك كان بامكانك أن تتغلبي على المشاكل الطارئة بمساعدة زوجك دون أن تقدمي تقريراً بكل صغيرة وكبيرة في حياتك الى أمك.

قاطعتني الزوجة الشابة وقالت بصوت مضطرب:

ـ كان ذلك متعذراً يا دكتور، كنت سأفقد دعم أسرتي في تلك الحالة. أمي اعتادت أن تؤلب الأوضاع على كل من يتجرأ للتمرد على تعليماتها حتى تسلب بقية أعضاء الأسرة شهامة التوادد معه. كنت سأغدو في تلك الحالة وحيدة انفرد مع حميد ليفعل بي ما يشاء.

ـ إن هذا الأسلوب من التفكير خاطئ بحد ذاته. قلت أنك لم تكوني ملزمة بالتحدث عن جميع القضايا الى أمك بل كان بامكانك أن تفكري في حلها

بوعي ودراية أو أن تلجأي الى أخصائي متمرس وحيادي للتشاور معه. كيف كان لأمك أن تتنبه لنشوب خلاف بينكما في تلك الحالة؟ وهل كان حميد يخبرها به؟! ثم أخبريني لماذا استوعبت هذه الفكرة بأن حميداً سوف يبدأ بايذائك فيما لو وجدك وحيدة بعيدة عن أسرتك؟ هل انه مجنون. ألم تكفك حياة زوجية دامت عشر سنوات لتعرفي سجاياه جيداً؟ هل كان انفعالياً يخرج سلوكه عن السواء ليسيء التعامل معك ما أن رآك وحيدة؟

ألم تتمحور خلافاتكما عادة، كما أخبرتيني أنتِ، حول تدخل أمك في حياتكما؟ هذا ما أخبرتيني به بنفسك. لم تسنح لكما في الحقيقة الفرصة الكافية للانشغال بالمقومات الأساسية في الحياة وبمعنويات ونفسيات أعضاء هذه الأسرة المتكونة من أربعة أشخاص، لأنكما كرستما أوقاتكما وطاقاتكما لتحديد مواقفكما من آراء أمك سواء بنبذها أو اقتباسها. كنت ترغبين في فرضها وحميد يميل الى نبذها. هل كان الأمر يكمن في غير هذا؟.

هل لاحظت تصرفات غير لائقة من حميد؟ هل كانت مشاكلكما تتجاوز هذا الإطار؟ هل كان ينفر من أطفاله؟ ألم يحنُ عليك باعتبارك زوجته متى ما اتخذت أسلوباً مستقلاً في تفكيرك وسلوكك؟ ألم يولِ أمك احتراماً إن كانت تكف عن تدخلها في حياتكما؟ كيف هو سلوكه مع بقية أعضاء أسرتك وغيرهم؟ هل كان يحجم عن العمل وطلب الرزق الحلال؟ ألم يكن متمسكاً بالالتزامات الخلقية؟ أجيبيني رجاء على هذه الاسئلة.

كانت السيدة (م) تطأطئ رأسها وهي تصغي اليّ طوال هذه الفترة.. كنت أفهم انها تذعن بشكل ما لجميع هذه الأمور تقريباً، فقالت:

ـ صحيح. إنه يمتاز بجميع هذه الخصائص. إنه كان وما يزال مغرماً بحياته. عندما كانت أمي تقضي عدة أشهر في سفرة ما مثلاً الى خارج البلاد كنا نهنأ بأسعد وأجمل لحظات وأيام حياتنا ويتبادل حميد فيها الزيارات مع أسرتي مع بالغ احترامه وشعوره بالرضا.

ـ لا أرغب في التدخل في القضايا القانونية أو القول بأن اختفاء حميد فراراً من الدائنين عمل صائب، إلّا انني أقول أن قدراً كبيراً من وزر مبادرته الخاطئة هذه أيضاً يتحمله أبواك، لأنهما لم يكتفيا بالامتناع عن الوقوف الى جانبه، باعتبارهما أكبر سناً منه، ليتغلب على مشاكله فقط بل حرضوه للفرار من يد القانون بأساليب غير مشروعة كدفع وكالة عامة اليك لبيع نصف الدار. إن المسيرة التي اخترتموها يا سيدة (م) غير سوية تزيد الأوضاع تأزماً لحظة بعد أخرى. دعيني اضبط سلوك أمك بأسلوبي الخاص لتسمح بعودة المياه الى مجاريها ثانية ولو طلباً لراحتها ورخائها هي. ثم نجتمع خلال جلسات طويلة، وبما أطلب منك بالطبع أن تحضريها مع حميد أحياناً، للتخلص من هذه الأفكار المرضية بنحو لا يثير غضب أمك ويمنعها عن وضع العراقيل والمتاعب في دربكما بل يمكنكما من مد جسور العلاقات الطيبة معهم أيضاً.

برق وميض الأمل في عيني الزوجة الشابة وعمت كيانها موجة من السرور. كانت تحب زوجها حقاً ولا ترغب في الانفصال عنه ولكنها تهاب أمها الى حد يفقدها حق الإعراب عن رأيها في هذا الموضوع. رؤيتها على تلك الحال بثني بالسرور لنجاحي في أداء إجراء لطيف يحكّم أسس حياة عصفت فيها الرياح.

نتداول في الابحاث النفسية موضوعاً نطلق عليه «التوحد الذاتي مع المهاجم». يدور هذا الموضوع حول محاولة شخص ضعيف الارادة والشخصية عند تعرضه لهجوم عات وقاس لا ينعم بالقدرة على مواجهته الى التوحد الذاتي مع الشخص المهاجم للتخفيف من العبء العاطفي والضغوط النفسية التي يتحملها، فيذعن للخصائص النفسية ومميزات شخصية المهاجم ويستنسخها فتصبح جزءاً من شخصيته، وبهذا يتوحد في خصائصه معه تخلصاً من العبء الانفعالي السلبي المفروض عليه.

طالعتنا الصحف قبل فترة بأنه تم اختطاف ابنة أحد مشاهير الرأسماليين

الاميركان. وكان أبوها يتابع محاولة العثور عليها بما أوتي من امكانات وبمعونة الشرطة ولكن في غمرة دهشة وانبهار الرأي العام ألقي القبض على الفتاة في محاولة للسطو على مصرف ما. ثم اتضح فيما بعد انها كانت ترافق عصابة المختطفين، وقد ساهمت معهم حتى تلك الأوان في عدة عمليات سطو وسرقة. لقد استدمجت الفتاة خصائص تلك العصابة في محاولة منها للتوحد في شخصيتها معهم بغية الحد من الضغوط النفسية الموجهة إليها. كانت ستتعرض لا محالة خلال تلك البرهة الى مرض نفسي شديد فيما لو لم تقدم على مثل هذا الإجراء. لا يخفى أن جميع هذه الاندفاعات النفسية تتم لا إرادياً ولهذا يجهل الشخص حقيقتها أساساً ويستثار ويعارض بشدة عند سرد مجريات الأمور عليه وتبيين أسباب انعكاساته وأفعاله.

إن حالة السيدة (م) وأختها سميرة هي انموذج حي من نماذج هذه الآلية الدفاعية. لجأت السيدة (م) الى التوحد ذاتياً مع المهاجم المتمثل في شخص أمها وأنعمت بالفعل بالهدوء لفترة حتى تبلورت هذه الأزمة. أما اختها سميرة فقد ابت التوحد الذاتي محتفظة بشخصيتها بعيداً عن التلوث بمثل هذه الخصائص ولكنها أصيبت جراء ذلك باكتئاب نفسي جرها للانكباب على التدخين وتعاطي حفنة من أدوية الأعصاب يومياً:

ذو العقل يشقىٰ في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاء ينعم

كان بامكان كلتا الفتاتين أن تحسنا أسلوب التعاطي مع مشاكلهما منذ البداية بمراجعة أخصائي متمرس لتكفيا نفسيهما مضان هذه القضايا و...

انتهت تلك الجلسة. وفي الموعد التالي توصلت مع السيدة محمدي الى هذه النتيجة: ضرورة الحفاظ على حياة ابنتها من الانهيار وواجبها يقتضي إما أن تمد يد العون لحميد لإعادة شؤون عمله الى ما كانت عليها واما أن تدعه وشأنه ليرتاح باله من ناحية زوجته وطفليه ويتفرغ للتغلب بنحو ما على مشاكله. إنه شاب نشيط وذكي وله القدرة على تحقيق هذه الغاية، يكفي أن

ينال راحة البال إزاء قضايا حياته الخاصة.

ارتضت السيدة محمدي هذه النتيجة طلباً لراحتها لاراحة ابنتها وحفيديها. أقول أنني لم أثق أبداً بأنها ستكتسب التوازن النفسي بعد انقضاء هذه الأزمة فتتخلى عن تدخلها في شؤون الآخرين لأن شخصيتها مصابة بمرض مزمن يتعذر علاجه في مثل هذا العمر. يكفي أن يتم توجيه المحيطين بها لأسلوب التخلص من شر أفكارها وعقائدها المهيبة بحنان ورفق.

انقضت ستة أشهر حتى عادت حياة السيدة (م) إلى مسارها الطبيعي تقريباً. مازلت بعد مرور سنتين على تلك الأيام أعقد معهم جلسة بين الفينة والأخرى مع الحفاظ، بالطبع، على علاقتي الطيبة تماماً مع السيدة «محمدي» لأتمكن عند الضرورة من ضبط تعليماتها وميولها العجيبة والغريبة.

وهي بدورها تنصاع لكلامي في أغلب الحالات لأنني لم أحاول قط أن أحطم كبرياءها وكنت كلما أوجه لها انتقاداً ما أعقبه فوراً بتثمين ايجابيات شخصيتها التي تجيد استعراضها والتظاهر بها.

انقطاع التنفس

كان كل من السيد والسيدة «صابري» يشغل مركزاً حساساً للغاية في احدى الوزارات الهامة في البلاد. بل كانا زميلين في مهنتهما ويعملان في دائرة واحدة. بلغت خبرتهما المهنية (٢٥) عاماً تقريباً. كان رئيس الدائرة يشعر بالرضا إزاء عمل السيد صابري حتى قبل إصابته بالمرض.

أخذ عمل السيد صابري (بحسب قول زوجته) بالتدهور يوماً بعد يوم مع بدء مرضه حتى ضاق الجميع ذرعاً بوضعه بعد انقضاء عام لكثرة اجازاته وفرط شعوره بالاعياء خلال ساعات العمل. كفه حسن سلوكه خلال تاريخ ممارسته المهنية شر مشاكل جمة كان سيلاقيها جراء أوضاعه المستجدة.

ذات يوم طلب مدير الدائرة مقابلتهما معاً ونوّه إليهما مع بالغ الاحترام بموضوع تدهور مستوى العمل في تلك الدائرة مع إلقاء المسؤولية في ذمة السيد صابري. ثم أوصاه مؤكداً أن يعرض حالته على طبيب نفساني طلباً للعلاج، لأنه لا يتحمل مؤاخذة المسؤولين الأعلى مرتبة منه أكثر من هذا.

كانت السيدة صابري، كما صارحتني على انفراد فيما بعد، هي التي اطلعت مدير الدائرة خلسة على وضع زوجها وطلبت منه استدعاءه والتحدث إليه بمثل هذا الحديث لأنه لا يعبأ لكلامها ولا ينوي معالجة حالته.

ها هو الآن قد اضطر لاتخاذ اجراء ما رضوخاً لأمر اداري مفروض عليه.

***

وأنا استمع الى إيضاحات حول مشاكلها، كنت أتطلع الى الزوج قبالتي. كان رجلاً عمره يناهز الخامسة والأربعين، بديناً، قصير القامة، ذا وجه محتقن يوحي بانكبابه على التدخين والتمادي فيه. قالت الزوجة إنه مدمن كذلك على تعاطي الأقراص المهدئة. يتعذر عليه النوم ما لم يتعاط ثلاثة أو أربعة من أقراص الديازبام (١٠ ميليغرام). كنت أرى إمارات الاضطراب والاكتئاب بادية عليه. محياه ينم عن إعيائه، وتجاعيد وجهه لاسيما تلك التي شقت طريقها عميقاً في جبهته أو حول عينيه تحكي قصة معاناة عظيمة ولكن شق عليه كسائر الرجال، خاصة الايرانيين منهم، أن يسحق كبرياءه ويراجع طبيباً. إنه مردود سيّئ من مردودات ثقافتنا الشرق أوسطية السائدة، عاد على الرجال بفكرة: إن مراجعة الطبيب أمر مهين. إنها ظاهرة تكشف عنها الاحصائيات الطبية ولا سيما في عالم الطب النفسي على الصعيد العالمي. تذكر المصادر العالمية إن النساء أكثر مراجعة للطبيب وهذا هو أحد أسباب تمتعهن بعمر أطول. أما الرجال فإنهم أقل تفكيراً بمراجعة الطبيب ومثل هذا الإجراء إن تم فإنه لا يتم عن رغبة بمواصلة العلاج.

قالت السيدة صابري:

ـ إنه وفي غفلة منه لا ينعم طوال الليل بنوم هانئ. يتعرض مراراً أثناء النوم لنوبات انقطاع التنفس ويفزع من النوم بعد عدة ثوان ثم يغلب عليه النوم مرة أخرى وهكذا دواليك. يكثر الشخير ولا يزيد نومه حتى الصباح عن ساعة واحدة. أرى أن اضطراب نومه هو السبب فيما يعانيه من تعب وإعياء خلال النهار. إنه يغالب النوم منذ الصباح وحتى المساء. يشعر بالاكتئاب وبفقدان الحيوية، إلّا أنه لا يذعن لشيء من كل هذا ويرىٰ أن بإمكانه ضبط حالته بزيادة عدد الأقراص التي يتناولها.

عاجلها السيد صابري بالقول:

الأمر ليس هكذا. أنا أذعن بذلك وأعرف أن مشكلتي الأصلية هي

اضطراب نومي أثناء الليل. ولكنني لا أرى لها حلاً سوى زيادة عدد الأقراص.

ردت زوجته قائلة:

ـ هل تعتقد يا دكتور أن هذا الأسلوب كفيل بالعلاج؟ إنها حالة تماثل ركل الأجهزة المعطبة بدلاً من تصليحها. وهل يصح ذلك؟

أوضحت فكرتها بتمثيل رائع. في الواقع الحق كان معها.

قلت باسماً:

ـ أوافقك الرأي تماماً.

ثم التفت الى السيد صابري وأومأت اليه دون أن أتكلم بأنني أؤيد كلام زوجته بحذافيره وأن تفكيره خاطئ. إن علاقة الزمالة المهنية لسنوات مديدة إضافة إلى كونهما زوجين رسخت بينهما ضرباً من التعاطف والتوادد جعل «هوشنك» خان يعلن عن استسلامه بابتسامة رضا علت شفتيه، ثم أردف ضاحكاً:

ـ قد تكون الأقراص الداخلية الصنع غير ذات فاعلية، ربما مشكلتي كانت ستحل لو كنت عثرت على المستوردة منها.

قلت بابتسامة ذات معنى:

ـ بالطبع.. الحق معك.. كان انتحارك سيتم لك عاجلاً.

و.. ضحكنا سوية.

استطردت السيدة صابري وقد عم الارتياح وجودها:

ـ صار يا دكتور سريع الانفعال، يثور بكثرة. لا يتجرأ أحد على التحدث إليه. ما أن يرفع الأولاد صوت التلفزيون يتعالى صياحه. لا يروق له تلبية أية دعوة أو دعوة الآخرين الى دارنا. الخروج من الدار للترويح عن النفس محظور أيضاً أي أنه يمتنع عن مرافقتنا ويقول إذهبوا أنتم.. أما عن عمله فقد اتضح لك وضعه.. إنه استغنى عن الطعام بالتدخين ثم التدخين. لا الرياضة ولا النشاط

لها أي مجال في حياته. لا أعلم ماذا سيكون من أمره. أشعر بالخطر يهدده. ناهيك عن أن أسرته تلقي اللوم في ذلك عليّ بدليل أنني ألقيته في دوامة القروض الباهضة التي جرّته الى هذا المأزق. كأنهم تناسوا أنني أعمل جنباً الى جنبه فما هو الضغط الذي وجهته اليه ولم أشاطره فيه. دعنا من هذه القضية فإنه يرد عليهم بنفسه. ولكن.. يا دكتور، أنظر الى أين وصلت به الحال حتى أثار قلق مديرنا!

على أية حال، توصلت بعد مرحلتين أجرينا خلالها الاختبارات النفسية، والدموية والمخطط الدماغي والقلبي والفحوصات الرئوية والتنفسية أن السيد صابري مصاب بمتلازمة «البُهر الشُّنجي» أساساً وبالاكتئاب الانفعالي كحالة ثانوية ناتجة عنها. أثبتت تحاليل الدم تكثر صبغ الدم. والسبب في ذلك قد يعود الى أمور كثيرة. بدا لي أن علاجه غير عسير.

هكذا تمت البرمجة في سياق انخفاض الوزن، تحديد النظام الغذائي الصحيح، الاقلاع عن التدخين، تعاطي الأقراص المهدئة والمنومة، ممارسة الرياضة اليومية والتبرع المتواصل بالدم بإشراف اخصائي في شؤون الدم. وكنت أحثه لاعتماد نظام غذائي نباتي. وخلال ثلاثة أشهر تحولت أوضاع السيد «هوشنك» تماماً عما كانت عليه. كان ما يزال شاباً لحسن الحظ ولرئتيه القدرة على استعادة وضعهما الأولي على نطاق واسع إضافة الى تمتعه بقلب سليم تقريباً.

يعاني المصاب بهذه الحالة المرضية من اضطراب التنفس أثناء النوم. وتعتبر البدانة، الشيخوخة، تدخين السجائر وتعرض الرئتين إثر ذلك للصدمات من العوامل التي تزيد احتمال الإصابة بهذا المرض، وربما يكون السبب في ذلك تعاطي الأدوية الفاعلة في علاج الحالات النفسية وكذلك التعاطي المستمر للأدوية المهدئة أو المضادة لارتفاع ضغط الدم. يطلق على انقطاع استنشاق الهواء عن طريق الأنف والفم لمدة تزيد عن عشر ثوان «البُهر» فتتوقف عملية التنفس ريثما يستيقظ الشخص من النوم. وفي النوع الشنجي خلافاً للمركزي

البحث تتوقف عملية التنفس رغم انقباض عضلات البطن والقفص الصدري فيرى الناظر الى الشخص كيف أنه يحاول التنفس أثناء النوم ولكن دون جدوى وفي كلتا الحالتين تنتهي النوبة بمجرد استيقاظ المريض من النوم.

لا تعتبر هذه الحالة مرضية إلّا عندما يتعرض الشخص لخمس نوبات في كل ساعة أو الى (٣٠) نوبة خلال الليلة الواحدة. لا يخفى أن معدل النوبات قد يرتفع الى (٣٠٠) نوبة في الحالات المستفحلة، تنتهي جميعاً باستيقاظ الشخص من النوم. وبهذا يقضي المريض الليل بأسره في الفراش ولكن دون أن يهنأ بنوم طبيعي. وقد تصل الحالة الى وضع يعرض حياة المريض للخطر.

ويحتمل أن يكون هذا الاختلال سبباً في بعض حلالات الوفاة الغامضة بين الأطفال والناشئة (الموت المفاجئ) والكثير من الوفيات الناجمة عن اضطراب تنفسي أو قلبي عروقي بين البالغين والطاعنين في السن.

من شأن نوبات البُهر التسبب في التغيرات الطارئة على الوضع القلبي أو العروقي كما في الخفقان (اختلال نظام نبض القلب) أو هبوط ضغط الدم بشكل عابر. ويمكن التنبه الى وجود هذا المرض حتى قبل إجراء «المخطط المغناطيسي المزدوج» (إخضاع المريض للمخطط الدماغي، القلبي والعضلي وتسجيل العمليات التنفسية بشكل متزامن طوال الليل).

ومن أوضح أنماطه السريرية، رجل في متوسط العمل أو طاعن في السن يشكو فرط الشعور بالإعياء وعجزه عن مغالبة النوم على مر النهار إضافة الى معاناته عادة من الاكتئاب والاضطراب. مثل هذا الشخص يغلب عليه النوم مراراً في النهار وإن تم توجيه السؤال الى زوجه أو المحيطين به فانهم سيلمحون دون ريب الى شخيره المرتفع المتناوب المرفق أحياناً بانقطاع التنفس.

ويذكر شهود عيان أنه يحاول استنشاق الهواء كما يبدو لهم ولكن دون جدوى (جميع هؤلاء المرضىٰ تقريباً يعانون من «البهر الشنجي») في المراحل البدائية من المرض لا يشكو المريض ذاته من أمر ما ولكن زوجه أو من

يشاركه الغرفة التي ينام فيها قد يشكو من نومه المصحوب بالضوضاء. والمعانون من السمنة والبدانة أكثر عرضة لهذا النوع من الاختلال.. وبأخذ عدم توفر إمكانية إجراء المخطط المغناطيسي المزدوج في بعض البلدان. يضطر الأطباء لتشخيص الحالة بتقصي أعراضها السريرية في أغلب الحالات.

إن التشخيص الدقيق للمرض وتحديد مدى استفحاله أمر في غاية الأهمية، من شأنه انقاذ حياة المرضىٰ من الموت في بعض الظروف. يجدر الذكر أن العلاج متوفر لمختلف أنماط مرض البُهر.

أيام تعيسة من حياة متقاعد

كل من يسكن الحي يعرف السيد «مقدم» بنبل أخلاقه. سمعته الطيبة باعتباره انساناً شريفاً، صالحاً، وقوراً ومتديناً صارت الميزة الواضحة التي اشتهر بها على مر ثلاثين عاماً من سكناه في هذا الحي. اتخذ سكانه هذا العجوز أميناً لهم. لم يكن يألو جهداً لتقديم العون إليهم. فكم من خلاف أسري ومحلي نجح في تسويته بسلام وكم من مشروع عمراني عام وفق لتوفير الميزانية الضرورية له بتشجيع الناس على المساهمة وباعتماد مكانته بين أصدقائه. والأهم من هذا كله خبرته لثلاثين عاماً في وزارة المالية التي تحتسب خير وثيقة لحسن سلوكه وإخلاصه. كان أحد القلة القليلة من الموظفين الذين أقامت لهم الوزارة حفل وداع عند إحالته على التقاعد. سلمه مساعد الوزير في تلك المراسيم شهادة تقدير وإجلال لخدماته الوفيرة في تلك الوزارة.

في ذلك اليوم سأله الجميع:

ـ كيف تنوي أن تقضي حياتك بعد التقاعد؟

فردّ عليهم:

ـ سأهتم بنفسي. أقضي الصباح بعد أداء الصلاة وحتى بزوغ الشمس في أداء العبادات وتلاوة القرآن. ثم أتجه الى المتنزه القريب منا وانشغل فيه بالسير على الأقدام وممارسة الرياضة. ثم اقتني في طريق عودتي الى الدار رغيفين من الخبز الساخن المطعم بالسمسم لاجلس الى المائدة بشهية مفتوحة وأهنأ

بتناول فطوري على مهل. ثم أتولى مهمة شراء مستلزمات البيت، وأعين الحاجة زوجتي في بعض الأعمال المنزلية، استسلم بعدها الى نوم ما قبل الظهيرة حتى أذان الظهر. ثم الصلاة والتعقيبات، تتلوها مطالعة الكتب الأدبية والفلسفية ومصادر الحكمة التي أولع بها حتى يحل موعد القيلولة قبل التوجه الى المسجد عصراً لانجاز بعض الخدمات للناس. سأتناول العشاء ليلاً مع أبنائي وأحفادي و... نارجيلة وتسامر وتناول المعقبات و... أحياناً البرمجة لرحلة في داخل البلاد أو خارجها. على أية حال سأقضي وطري من الحياة.

مرت سنتان أو ثلاث نفذ خلالها العجوز خططه ومشاريعه بنحو أو آخر ولكن.. يبدو أن تغييرات قد طرأت على سلوكه وتصرفاته. صار يسيء الظن بالجميع لا سيما زوجته العجوز الحنون. كان يقول:

ـ أمكم صارت متسيبة حديثاً. تتحدث الى الرجال الغرباء بأسلوب غريب. تختلق الأعذار لترك الدار والتسكع هنا وهناك. لا تكترث بي و...

كانت فكرة خيانة زوجته له قد غزت عقله دون أن يؤثر فيه مؤاخذة البنين وزوجاتهم والبنات والأصهار وحتى الأحفاد وهم يعاتبونه: وما هذا الكلام الذي تنطق به يا أبتاه؟ كان يصر بلا هوادة على موقفه ثم أنه يرد عليهم بفظاظة ويتهمهم بالانحياز لأمهم فيقول في نهاية المطاف:

ـ يبدو أساساً أنكم تآمرتم جميعاً ضدي.

لم ينته الموضوع عند هذا الحد. لقد تعرض في الآونة الأخيرة للخطأ في المحاسبات والشؤون المالية التي تعهد بها في مسجد الحي، وكانت أعمالاً لا يصعب أداؤها على أمثال السيد «مقدم» وقد قضى ثلاثين عاماً من عمره في المناصب الحساسة من وزارة المالية. بل كانت محاسبات بسيطة للغاية انجزها بنفسه لسنين طوال. صار يتعرض للنسيان بين الفينة والاخرى، ويعاني من ضعف الذاكرة على المدى القصير بينما لم يطرأ أي تغيير أو سوء على ذاكرته ذات المدى البعيد. ينسى ما حدث قبل عدة أيام أو حتى ساعات، ولا يقوى

على تذكر الأسماء، ويواجه صعاباً أثناء شراء احتياجات البيت ودفع النقود. يكثر الشكوى وينكر كل شيء بعصبية وفظاظة متى ما واجه أية ملاحظة حول أوضاعه فيقول: إنني محق فيما أقول. الخطأ هو ما تذهبون اليه. أنتم الذين تؤذونني وأمكم هي التي تغتابني وتشوه أفكاركم عني. أنتم المجانين. قضيت ثلاثين عاماً من عمري بين العمليات الحسابية الضخمة دون ان أخطأ ولو لمرة واحدة فيها.

حدث مراراً أن يوجه انتقادات لاذعة لزوجته باعتبارها تخطط مع أبنائها لزجّه في مستشفى المجانين و... والعجوز المسكينة لا حيلة لها إلّا البكاء وبث همومها الى أبنائها مما ألجأهم عدة مرات لاصطحابها معهم الى دارهم ريثما تعود المياه الى مجاريها. ولكنها في كل مرة تواجه الوضع ذاته بعد عودتها. كان لهما ابنتان وابنان تزوجوا جميعاً وراح كل منهم الى حال سبيله ويسكن مع أسرته بعيداً عن الأبوين. له تسعة أحفاد أكبرهم الفتاة «ستارة» البالغة من العمر عشرين عاماً. كانت على أعتاب الزواج وهي طالبة جامعية تدرس علم النفس. إنها أول من تنبهت في الحقيقة الى خروج سلوك وحديث جدها عن السواء. كانت (الحاجة) في الواقع قد أدركت ذلك قبل الجميع ولكن «ستارة» فطنت لكون أعمال جدها غير إرادية ناشئة عن مرض ما. إن أسوأ ما كان يعرضهم للأذى هو إساءته الظن بجميع أفراد عائلته لا سيما زوجته. وكانت فظاظته، ثورته وغضبه، أرقه وتحدثه الدائم مع نفسه هي الأخرى تزجهم في عذاب أليم. وهل يمكنهم أن يهملوا جميعاً شؤون حياتهم وعملهم ليصبح وضع الأب شغلهم الشاغل؟ ثم أن الأب كان لا يعيرهم أدنى اكتراث وأهمية عند زيارتهم له وكان في كثير من الحالات يطردهم من داره بعصبية بعد التشاجر معهم أو على الأقل يطلب منهم أن يتركوا الدار. والأم بدورها يتعذر عليها البقاء طويلاً في بيوت أبنائها وإن كانوا يرحبون بها، لأنها تشعر بالضيق وتفضل البقاء في بيتها إضافة الى أن الموضوع بحاجة الى حسم وأن السيد

مقدم ملزم بالخضوع للعلاج فهذا أمر قد يعبث بسمعته.

ربما كان يمكنهم مسايرة الموضوع الى حد ما إن تحـدد بـإطاره الأسري. ولكن القضية تفاقمت وصار العجوز يـفصح عـن أفكـاره الخـاطئة للـجيران وأصحاب المحلات متى ما ترك الدار. الجميع كانوا واثقين من نبل هذه الأسرة. الأمر الذي كان يضيق الخناق عليهم هو الرأي العام السائد في الحي وقولهم: مسكين السيد «مقدم»، بعد كل تلك التضحيات والتـفاني مـن أجـل الأسرة أهملوه جميعاً وصاروا لا يكترثون به. كان أحياناً يحتد مع أهل الحي فيأخذ من يعرفه منهم احترامه ومكانته بنظر الاعتبار ولكن الغرباء لا يـطيقونه في بعض الحالات. وعندئذ يتأزم الوضع.

قال له أكبر أبنائه ذات مرة:

ـ أبتاه لقد وهنت أعصابك وصرت تحتد بسرعة. الأولى أن نراجع طبيباً نفسانياً لعله يصف لك أدوية تهدئك قليلاً.

أجابه السيد مقدم:

ـ وهذا أيضاً من حبائك أمك لتلصق بي وصمة الجنون. إنني سليم مـعافىٰ فرافقوا أمكم الى طبيب نفساني.

فكروا أن يصحبوه الى طبيب نفساني باعتباره أخصائياً في أمراض القلب ولكنه كان أكثر فطنة مما توقعوه فلم تنطل عليه خطتهم.

ماذا كان عساهم أن يفعلوا ومن يمكنه أن يعينهم بإقناع أبـيهم بمـراجـعة الطبيب. إختاروا أختهم الصغرى «فرناز» وكانت ما تزال تحتفظ بمساحة أوسع من قلب أبيها وحنانه ولكن العجوز رد عليها وهو يهز رأسه أسفاً:

ـ هل جرّوك أنت الأخرى الى ضلال رأيهم؟

وفي مرة ثانية عادت لاختبار حظها معه، لم تلق منه إلّا رداً مماثلاً لمحاولتها السابقة.

***

في لقاء ضم كافة أعضاء الأسرة. استصوب الجميع اقتراح «ستارة» أكبر أحفاد السيد مقدم. كانت قد اقترحت أن يراجعوا طبيباً نفسانياً دون مرافقة الجد فيتباحثوا معه حول جميع سلوكياته لعله يهديهم السبيل. إنه على أية حال لا يعاني من حالة فريدة وقد واجه أي طبيب نفساني لا محالة حالات مماثلة كثيرة ضمن خبرات سابقة تمكنه من مد يد العون إليهم. كانت قد أردفت: إنني وبحسب معلوماتي أرى أن هذه الزمرة من الأمراض تزداد حدتها بمرور الزمن فيما لو لم يتم الاهتمام بها وإخضاعها للعلاج. إذاً عليهم الإسراع في اتخاذ إجراء ما لعلاجه.

شاء القدر أن يتم اختياري لهذه المهمة. زاروني ذات يوم يحملون خطاباً من أحد زملائي الأطباء، جاء فيه:

زميلي الكريم وصديقي الموقر

حملة هذا الخطاب من أصدقائي المقربين إليّ. أرجو أن تتفضل ببذل وافر عنايتك بهم.

الدكتور.....

مع جزيل الشكر

بعد الإعراب عن امتناني لتسلم خطاب من صديق قديم وتقديم الشكر لأصدقائه على ايلاء ثقتهم بي، استمعت الى تفاصيل حالة السيد مقدم. كانوا يعتلجون حيرة تامة. لقد ضاقت الحياة بهم جميعاً بانخراط الأب في دوامة مرض فظيع بعد أن كان رمز الصبر والثبات والوقار بالنسبة لهم مما عرضهم جميعاً ولا سيما الأم العجوز لعذاب مرير أسى عليه.

التفتّ الى اكبر الأبناء وكان يبلغ الخمسين من عمره تقريباً فسألته:

ـ هل يتضمن تاريخ أسرة أبيك أية حالة مرضية نفسية، خاصة في مرحلة الشيخوخة؟

ـ لا يا دكتور، حسب علمي، لا.

ـ وهل يعاني من أي اضطراب مرضي ضمني آخر كاختلال منسوب السكر في الدم أو اضطراب ضغط الدم وما إليها؟

ردت ابنته الكبيرة وهي تهز رأسها: كلا.

ـ ألم يتعرض قبل هذا لجلطة دماغية أو قلبية؟

ـ لا يا دكتور.

ـ ألم يختبر في السنين الأخيرة أو الأشهر الماضية آلاماً حادة في الرأس أو ازدواجية في الرؤية أو شللاً في الأعضاء وإن كان بشكل عابر؟

جاءني الجواب نفياً على هذا السؤال أيضاً.

طرحت استفسارات أخرى توصلت تقريباً من خلال الردود عليها على وضعه الجسمي والعصبي ـ النفسي العام.

وفي نهاية الجلسة ثبت لدي ضرورة إخضاع أبيهم للإشعاع الدماغي لأتمكن من التمحص في وضع دماغه من خلال التصوير الإشعاعي.

أجابني الابن الأكبر ضاحكاً:

ـ كأنك يا دكتور نسيت أنه يحجم عن مراجعة الطبيب، فكيف بالاستسلام لجهاز الإشعاع الدماغي.

قلت:

ـ هناك دواء نستخدمه في مثل هذه الحالات لاستحصال الهدوء والدعة ولكبح سوء الظن. سينقاد لكم الى حد كبير بفاعلية هذا الدواء ويترك لكم فرصة فرض ارادتكم عليه. لقد اخترع العلماء ولحسن الحظ نوعاً من هذا الدواء يفتقد النكهة والرائحة والطعم وهو معد بشكل قطرات يسعكم مزجها خلسة في طعامه أو في الشاي دون أن يتنبه للموضوع. استمروا على هذه الوتيرة يومياً وستجدونه بعد عدة أيام على أهبة الاستعداد للخضوع الى الإشعاع الدماغي.

***

في يوم الأربعا التالي زاروني يرافقهم السيد مقدم. كان كما توقعت له في منتهى الهدوء ولكنه كثير الشكوى من وهن أعضائه الى درجة تشنج عضلاته. أوضحت لهم أنها أعراض تعاطي الدواء ولا داعي للقلق فإنها ستزول بسرعة.

كانوا قد طلبوا من السيد مقدم مرافقتهم الى طبيب أخصائي في الأمراض الباطنية للتغلب على حالة الوهن الذي يعاني منه جسمه ولهذا حاولت ترسيخ هذه الفكرة لديه بفحص قلبه ورئتيه وقياس ضغط دمه. ولكني لم أغفل عن الفحوصات العصبية والنفسية. أثبت الاشعاع الدماغي خلو الدماغ لحسن الحظ من أي تكتل أو غدة مع الإشارة الى ضمور جزئي في الدماغ وتعمق أخاديد الدماغ أيضاً.

أما التشخيص فقد كان: خرف الشيخوخة البدائي من نوع السهايمر وهو مرض مجهول السبب.

كان عليّ أن أقدم لأعضاء الأسرة إيضاحات حول المرض وكذلك مساره العلاجي بحسب الامكانيات المتوفرة لعلاجه. ولهذا طلبت من أحدهم أن يرافق الجد الى الشارع لاستنشاق الهواء الطلق بحجة تلوث الأجواء في داخل العيادة لتسنح لي فرصة توضيح جميع هذه القضايا للآخرين دون إحراج.

***

ـ إصغوا إلي يا إخوة! أبوكم مصاب بمرض خرف الشيخوخة وهو مرض تبرز اعراضه بعد العقد السادس من العمر وتشتد خطورة التعرض له بزيادة العمر فيمن يمتازون باستعداد وراثي له وإلّا فهناك أناس يمتازون بوعي وذكاء أقوى من ذوي الأربعين وهم في التسعين من عمرهم. كما تلعب صعوبة الحياة والضغوط الموجهة الى أعصاب الإنسان ونفسه دوراً في زيادة احتمال التعرض له. وهنالك عوامل أخرى تؤدي الى بروز هذا المرض على اعتباره عرضاً

ثانوياً ومنها: الجلطة الدماغية والقلبية، والأمراض الضمنية مثل مرض السكر وضغط الدم و... وفي مثل هذه الظروف يتبلور مرض خرف السيخوخة قبل سن الشيخوخة. أما سبب إصابة أبيكم بهذا المرض فهذا ما لم يتضح لي بشكل دقيق فقد تعذر على العلماء حتى الآن تحديد السبب الحصري لذلك ولكن يمكننا القول بأن سببه العام هو ضيق العروق الدماغية مما يسبب اختلالاً في عملية التروية الدماغية بالدم ويؤدي تلقائياً الى تعرضه للوهن والتصلب وزيادة تجاعيده. وهذا ما حدث بالنسبة للسيد مقدم. لم تتوصل مساعي العلماء وأبحاثهم الرامية الى إسداء الخدمة لأمثاله لنتيجة مثمرة مائة بالمائة ولكننا نأمل لتحقيق مثل هذه الغاية في المستقبل القريب فقد كرست الدول المتقدمة في العالم ميزانيات ضخمة للأبحاث الجارية حول هذا المرض. وما يسعني أن أقوم به للسيد مقدم حالياً هو ضبط حالتي سوء الظن والعدوانية وعلاج انعدام التركيز ووهن الذاكرة لديه وهي أمور تمحورت حولها، هواجسكم في الواقع.

إنكم ترغبون أن يستعيد هدوءه وشهيته الطبيعية في تناول الطعام وأن يحجم عن إيذاء نفسه والآخرين لا سيما أمكم، أي أن يحفظ شخصيته بين أعضاء الأسرة والمجتمع حتى المقدور. وهذا ما يسعني تحقيقه بالفعل. أما إعادة وضع دماغه المتعرض للصدمة لما كان عليه في الأربعين من عمره فهذا ما لا يتيسر لنا في الوقت الراهن عسى أن نهتدي إليه في المستقبل إن شاء الله.

قالت كبرى بنتي السيد «مقدم» بأسلوب ينم عن شعورها بالرضا:

ـ أجل يا دكتور، إننا لا نتوقع منك أن تحقق لنا معجزة فالطاعن في السن لن يستعيد شبابه أبداً. يكفينا أن يتخلى عن انفعاله وفظاظته وعن إساءة الظن بالمحيطين به وتمتعه بنوم وشهية طبيعيين.

تساءل ابنه الأصغر قائلاً:

ـ بامكاننا يا دكتور أن نطلب له أي دواء من الخارج. إن كان ذلك ينفعه برأيك، فلا مانع لدينا.

ـ لا يا عزيزي، لم يصنع الى الآن في العالم بأسره أي دواء محدد يلعب دوراً

حاسماً ومؤكداً في علاج حالة أبيكم. لا يخفى أن بعض الأدوية المصنعة في الخارج تمتاز بفاعلية أكبر من مثيلاتها من صنع الداخل. ولكنه بمستوى ضئيل جداً لا يستحق إهدار كل هذه الأموال لها. لأنه ملزم بتعاطيها باستمرار مما يثقل كاهلكم بدفع مبالغة طائلة لهذه الأدوية وهي كما ذكرت ليست ذات فاعلية تذكر.

دار الموضوع الثاني حول نمط استهلاكه للأدوية. تقرر تقديم الوصفة إليه باعتبارها أدوية للقلب أو مضادة للكلسترول أو لارتفاع ضغط الدم أو أي دواء آخر سوى أدوية الأعصاب. يكفي أن تقولوا له: إنك مصاب بارتفاع حاد في ضغط الدم وعليك تعاطي هذه الأدوية باستمرار درءاً للخطر ليتعاطاها ببساطة. ويكون لزاماً عليكم بالطبع أن تشرفوا على نمط تناوله لها. وسيكون في غنى عن تلك القطرات الأولى.

ولضبط وضعه بشكل دائم يستلزم أن ألقاه مرة شهرياً. ولكم أن تطرحوا عليّ هاتفياً في الفترة ما بين مواعيد الزيارات أي استفسار وأن تتشاوروا معي عند بروز أية مشكلة طارئة.

***

كنت قد قدمت لهم الايضاحات الكافية في إطار معلوماتهم ومستواهم العلمي.

بدا لي أنهم جميعاً نالوا قسطاً من الشعور بالرضا إلّا (الحاجة) حيث انسابت دموعها من جانبي عينيها لتشق طريقها على محياها المليء بالتجاعيد. كانت تحدق في وجهي وهي تسرح في أفكارها البعيدة عن هذا المكان. كانت الوحيدة التي تفكر بمصير السيد مقدم من صميم القلب ولسان حالها يقول: أنظروا الى أين وصل الدهر بهذا الرجل العظيم، الوقور، المتدين والجليل والرشيد! ما ألذ الحياة التي قضياها لسنين متمادية الى جانب بعض. شعرت تلك الزوجة الحنون خلالها بأنه نعم الملاذ والمرتكز الرصين. أما الأبناء فرغم

أساهم على أبيهم فإنهم بعد الاستماع الى إيضاحاتي في تلك اللحظات شعروا كأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلهم مما بثهم الإحساس بالراحة والبهجة. ربما كانوا يقولون في نفوسهم:

ـ الحمد لله، قد انتهت قضية أبينا وارتاح بالنا إزاءه.

لم تنعم الزوجة العجوز بمثل هذه الأحاسيس فقد كان قبلة آمالها وطموحها. إنها تعلم علم اليقين أن ما تتمتع به من مكانة ووجاهة إنما يعود لشخصية زوجها. وأنه لا يمكنها أن تعول على محبة الأبناء ورعايتهم لها، فالزوج ـ خلافاً للأبناء الذين يحفظون في ذاكرتهم بكل خدمة صغيرة وكبيرة أدوها لها ـ يحنو على أمهم أداء لواجبه الالهي تجاهها ومودة لها لا منّاً يشوب حبه ولا ندماً. قد يتذمر أحياناً ولكنه لا يأسف أبداً لما يقدمه لها بل يسره ذلك وإن تضاءل قدره، لثقته بأنه قدم لها كل ما بوسعه.

قلت:

ـ يا خالة، صحيح أن مثل هذا الحدث قد وقع، وأذعن أنه أليم ومع هذا احمدي الله واشكريه فالسيد مقدم ما زال حياً تستظلون أنت وأسرتك بظله القائم، ولكم أن تفخروا به وتعتزوا بوجوده الى جانبكم، وإن افتقد هذا الوجود قسماً من قابلياته السابقة.

انصرفت أسرة السيد مقدم وصار جميع أعضائها يطبقون تعليماتي بدقة. كنت أشهد خلال خمس سنوات احتفاظ السيد مقدم لحسن الحظ بنسبة عالية من فاعليته وقد توقفت المسيرة الاستفحالية لمرضه. كانت زوجته وعضده القديم لا تتركه وحيداً للحظة واحدة. والأبناء أيضاً يؤدون واجباتهم إزاءه على خير وجه. ولكن الزوجة الرؤوف بلغت في رعايتها لزوجها درجة أثارت اعجاب الجميع.

على أية حال، لن أنسى أبداً تعابير ذلك الوجه الذابل المدمع، المعبرة عن منتهى الوفاء. كانت زوجة تقية حقاً، طاب ذكرها وليتها كانت حية لتقرأ هذه الحكاية.

هوس السرقة

ـ أعاني يا دكتور من عادة سيئة.

ـ هل يمكنك أن توضحي لي تفاصيل أكثر حولها؟

كانت السيدة تعاني من صعوبة في التحدث عن أفكارها. أطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها بعد أن تمتمت ببضع كلمات وقالت:

ـ نشب الخلاف بيني وبين زوجي عدة مرات الى الآن بسبب هذا الموضوع وقد راجعتك لعلني.. لعلني.. أقلع عن هذه العادة المشينة.

ـ أية عادة يا سيدتي الموقرة؟

عادت تتململ كأنها تخجل من التفوه بأكثر من ذلك. كان علي أن أعينها.. الأولى أن أسلك اسلوب صياغة المقدمات..

ـ هل زرتيني بمفردك؟

ـ لا، زوجي في غرفة الانتظار.

ـ طيب، لماذا لم يدخل معك؟

ـ أنا طلبت منه.

ـ وهل يحيط علماً بمعاناتك؟

ـ أجل، هو ذاته ألح عليّ أن أراجعك. ينتظرني في خارج الغرفة، وابنتي معه.

ـ كم لها من العمر؟

ـ ست سنوات.

ـ وما اسمها؟

ـ نغمة.

ـ يا له مه اسم جميل، أكان اختيارك أو اختيار زوجك؟

ـ بل كلانا.

ـ اخبريني كم يبلغ من العمر زوجك وما هي مهنته؟

ـ (٣٧) عاماً. إنه استاذ في الجامعة. يحرز شهادة الدكتوراه في الكيمياء وهو رجل طيب. إنه في منتهى الطيبة حقاً، وإلّا فما كان ليتحملني الى الآن. فمن ذا الذي يرضى بزوجة مثلي؟

ـ سيدتي، الحياة تتذبذب بين إقبال وإدبار. ومن واجب الزوجين أن يكونا الى جنب بعض ويتعاضدا في جميع هذه الحالات. لا شك أنك تتسمين بخصائص حميدة كثيرة جعلته يهنأ بالحياة الى جانبك.

ـ هو الآخر يقول أنك زوجة طيبة. لا نعاني من مشكلة سوى هذا الموضوع.

ـ هل لك أن تفصحي عنه لأُحلله؟

ـ لا أعلم إن كان يمكن اصلاح الوضع أم لا؟ هل بوسعك أن تأخذ بيدي أم أنك تنوي أن تجلس وتسدد لي النصح مثل الآخرين؟ صدقني يا دكتور، أعاني من غثيان لكثرة ما سمعته من نصائح المحيطين بي.

قلت ضاحكاً:

ـ لا يا سيدتي الكريمة، الأولى أن تتولى الجدات مهمة النصح أما نحن الأطباء، فواجبنا يقتضي معالجة المرضى. كما أنك في عمر يخولك أن تميزي بين

الحسن والقبيح. المهمة الوحيدة التي نتولاها أثناء المشاورة هي توجيه المراجعين للاستهداء الى الطريق الصحيح. وبالطبع يكون ذلك بعد اجتياز مراحل العلاج. أي أننا نقبل على العلاج أولاً ثم المشاورة. ومع ذلك تتباين مناهجنا العلاجية وطريقة الاستئناف في الظروف المختلفة.

كانت سيدة في السابعة والعشرين من عمرها، تحظى بشهادة جامعية.. تهتم بمظهرها باتزان وسلوكها يتلاءم مع عمرها وطبقتها الأسرية. لم أهتد الى مشكلتها وكان لزاماً عليّ أن أخفف أكثر من ذلك من وطأة العبء النفسي الذي تتعرض له.

ـ لا داعي للحرج. قد يشق عليك الافصاح عن بعض الأمور لأنك لم يسبق لك أن تشهدي مثلها ولكنها تبدو لنا طبيعية، أذهاننا وأسماعنا قد ألفتها لكثرة تعاطينا معها. على سبيل المثال، قد يجلس طبيبان الى مائدة الطعام فيتحادثان حول أوضاع مريضهما المشترك فيتطرق أحدهما الى فاعلية أمعائه في طرح الفضلات والآخر الى وضع تقيحاته المتعفنة و...، فيواصلان تناول طعامهما دون أن تنغص عليهما هذه الأحاديث التي يتسبب التطرق اليها في إصابة الاشخاص العاديين بالتقيؤ وترغمهم على الكف عن تناول الطعام. إذاً، لا داعي للحرج.

ألقت علي السيدة نظرة خاصة وعلت شفتيها ابتسامة ذات معنى ثم صممت على أن تفاتحني في موضوعها، فقالت:

ـ إنني اعتدت يا دكتور على سرقة أشياء خاصة من المحلات أو المبيعات أقول «خاصة» لأنها ليست ثمينة أبداً وانني لا استهدف من فعلتي تحقيق نفع مادي. ثم أنني ألقيها عادة في سلة المهملات أو أعيدها الى حيث كانت أحياناً. أتعرض لوسوسة ترغمني للقيام بهذا العمل. ويهيمن علي ضغط نفسي حاد حتى أنني لا أفكر في تلك اللحظات بعاقبة الأمر أبداً. أتقدم نحو الشيء وأفعل ما لا يجب أن أفعله. وبعدئذ أنال هدوءاً خاصاً يعم كياني، فيخفت توتري وأنجو من تلك الحالة. أعود اذكر يا دكتور بأن تلك الأشياء لا تعتبر ثمينة قط.

فقد أسرق جوراباً أو منديلاً أو علبة مناديل حريرية و...، لا يدفعني لهذه المبادرات سوى ما يصيبني من توتر ووسواس حتى إن أقدمت أحياناً على انتشال أشياء ثمينة. وفي مثل هذه الحالات أعيدها دون شك في اليوم التالي وخلسة الى محلها.. إن هذه القضية تعرضني لمشاكل كثيرة يا دكتور.

كان الكبرياء بادياً على السيدة «راد»، حاولت أن تمتنع عن البكاء. كانت تضبط نظامها العصبي بقوة ولكنها لم توفق الى التغطية على ما تعانيه من ألم وعذاب. افصاحها عن فعالها أصابها بخجل شديد. وكان يترتب عليّ أن أعيد اليها هدوءها.

قلت باسماً:

أحسنت صنعاً بمراجعة طبيب نفساني كما أنك شرحت لي الموضوع على خير وجه. ولكن حالتك هذه لا تعتبر نادرة جداً فهذه حالة مرضية يعاني منها الكثيرون. ستتماثلين الى الشفاء وتنجين من هذا المأزق بإذن الله. ولتستعيدي ثقتك بنفسك وتتبيني أن هذه الحالة مرض لا يرتبط بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المصابون، سأسرد عليك تفاصيل نبأ طالعتنا به الصحف أخيراً. وقد تكونين سمعتيه بنفسك:

قبل فترة قصيرة ألقي القبض على أحد مشاهير ممثلي هاليوود بتهمة السرقة من المبيعات. الصدفة لعبت دورها حين ارتكب فعلته أمام الكاميرات المخفية لاحدى المبيعات فالتقطت له إبان إقدامه على تلك المبادرة فلماً واضحاً بثته جميع القنوات التلفزيونية في العالم. تصوري فظاعة الموقف! ممثل مشهور أحرز ثروة طائلة إضافة الى نجاحه الباهر يسرق من ملبوسات إحدى المبيعات وتلتقط له الكاميرات فلماً أودى بسمعته. هل تعلمين ما معنى ذلك؟ وهل يشير مثل هذا الحدث الى شيء سوى المرض؟ فهل ياترى كان يعاني من فاقة ليعجز عن دفع ثمن ما سرقه من الملبوسات؟ لا تهمني بقية الحكاية ولكنني تطرقت لها لأشعرك بأنك لست الوحيدة التي تعانين من هذا المرض، وأن هنالك من

يقاسي منه مثلك.

شعرت بقسط من راحة البال بسماعها هذا المثال. كأنها كانت قد اطلعت على النبأ ولكنها لم تعرف تفاصيله.

ـ ماذا علي أن أفعل يا دكتور؟ سأصاب بالجنون. لحسن الحظ لم أتعرض لمواقف حساسة جراء ذلك. ولكن ما العمل؟ والى أين سينتهي مصيري؟ لم يتنبه أحد الى الموضوع الى الآن، فزوجي انسان في غاية المروءة ولم ينبس بكلمة واحدة أمام أسرته. ولكنني أشعر بالخجل ازاءه. أهملت جميع أعمالي وشؤون حياتي إثر هذه الحالة. صرت أعجز عن العناية بابنتي. قبل عدة أيام حضرنا مأدبة. كانت ابنتي قد وضعت لعبة صغيرة في جيبها وجاءت به الى الدار. عاتبتها على ذلك وأوضحت لها أن عملها هذا يسمى «السرقة»، والسرقة مبادرة قبيحة للغاية. وبعد ذلك اختليت بنفسي وأجهشت بالبكاء حتى الصباح وأنا أفكر بوخامة الوضع. فأنا أسوأ حالاً من ابنتي وقد لجأت الى الكذب معها وهي ما تزال في السادسة من عمرها، كأنني نسيت الشاعر يقول:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إن فعلت عظيم

أفلتت الزمام وهي تتحدث عما جرى بينها وبين ابنتها فانهمرت دموعها. كانت قد شعرت أن مكانها آمن وأنني أدركها. ترويت لدقائق حتى تستعيد هدوءها. ثم طلبت من زوجها الانضمام إلينا. كانت ايضاحاتها وافية وقد طلبت الزوج لمجرد التعرف عليه. كان كما وصفته رجلاً في غاية المروءة. وقد التفتُّ أنا نفسي لذلك، اضافة الى ثقافته الواسعة وشخصيته المثيرة للاحترام والاجلال.

بعد ذلك طلبت من السيدة «راد» الذهاب الى غرفة «الاختبار» لإجراء ما يلزم. هكذا انتهت الجلسة في ذلك اليوم.

***

تم اعداد نتيجة الاختبارات والفحوصات النفسية للسيدة «راد» حتى الجلسة الثانية وقد أشارت جميعها الى اختلال اضطرابي حاد، الوسواس والاكتئاب.

كان مرضها «هوس السرقة» وهو من الاختلالات الانفعالية.

يتم تعريف هذا المرض بأنه: عجز متواصل عن مقاومة محفزات سرقة بعض الأشياء غير ذات فائدة سواء على صعيد الاستهلاك الشخصي أو القيمة المالية، ثم تلقى المسروقات في سلة المهملات أو تعاد خلسة الى محلها أو يتم اخفاؤها في مكان مجهول.

يشعر المريض قبل المبادرة بتوتر متزايد واثناءها بشعور بالخلاص أو اللذة. لا يقدم المريض على السرقة للتعبير عن الغضب أو الحقد. كما لا يكون لاختلالات الشخصية دور فيها أيضاً.

في مثل هذه الحالات وإن كانت السرقة تتم في ظروف يستبعد تعرضهم للسجن جراءها إلّا أن هؤلاء المرضى يتناسون امكانية تورطهم خلالها. إنهم ربما يتعرضون للاضطراب والشعور بالإثم بعد الفراغ من مبادراتهم إلّا أنهم لا يشعرون بالغضب أو النفور. فالهدف من هذه المواقف هو ارتكاب السرقة لا حيازة المسروقات. وهذا ما نعتبره عاملاً لتشخيص المرض.

يؤكد علم الاجتماع على أن أقل من ٥ ٪ من الأشخاص المتعرضين للسجن جراء السرقة من المبيعات مصابون بهذا المرض. ومع ذلك تودع هذه القضايا في سجل الكتمان نظراً لقبحها والخجل من الافصاح عن حقيقة هذا المرض. إنهم يحجمون عن مراجعة الأطباء لأنهم لا يحسبون هذه الحالة مرضاً يترتب عليهم مراجعة الأطباء للعلاج منه. إنها حالة مرضية تسود لدى النساء أكثر من الرجال.

وعند تقصي جذور هذا المرض لا بد أن نقول: حددت للمرض أسباب مختلفة يعزوها المحللون النفسانيون الى نشأة المريض، فأمور مثل ولادة الطفل دون رغبة أبويه، حرمانه من الاهتمام والعناية، وآلام ومعاناة المريض في مرحلة الطفولة تلعب دوراً فاعلاً في تبلور هذه الحالة. وتشير أبحاث علم الأحياء الى وجود علاقة بين الأمراض العقلية والتخلف العقلي من جهة وجنون السرقة من جهة أخرى. فقد تصاحب هذا المرض أعراض الاضطرابات العقلية الموضعية أحياناً إلّا أن وجود اختلالات في الافرازات الدماغية والوسائط الكيميائية أمر تم التثبت منه.

تظهر لدى هؤلاء المرضى أعراض الاكتئاب، الوسواس، الاضطراب والشعور بالإثم الى جانب تعرضهم للمشاكل على صعيد علاقاتهم مع الآخرين.

التنبه لأعراض المرض أمر مطلوب بحد ذاته ولكن لا يؤدي تلقائياً الى الخضوع للعلاج إلّا لدى عدد قليل من المرضى.

أما عن منهج العلاج فإنني أقول أن العلاج النفسي العقائدي أثبت جدارة عالية في هذا السياق ولكن النجاح منوط بدوافع المريض ومدى تعاونه مع الطبيب. فالمجموعة التي تشعر أكثر من غيرها بالاثم والخجل يتم علاجها على وجه أفضل نظراً لتمتعهم بمحفزات قوية تحقق لهم أهدافاً علاجية طيبة، كما يلعب العلاج السلوكي، والانكفاء التدريجي لفاعلية المحفزات، والاشراط بإثارة النفور وأخيراً مزيج من هذه المناهج دوراً في غاية الفاعلية على هذا الصعيد. ومن الضروري أيضاً العمل على زيادة ثقة المريض بنفسه خلال مراحل العلاج.

تقتضي ضرورة اتباع منهج العلاج بالأدوية للتغلب على الاكتئاب وأعراض الوسواس وكذلك الاضطراب.

بعد الاتفاق مع السيدة «راد» وزوجها، استأنفت علاج الزوجة بمزج العلاج

بالأدوية مع العلاج السلوكي والعلاج النفسي العقائدي. وقد مر شهران على بدء علاجها بإشراف من السيد «راد» نفسه، وإن كانت الزوجة هي ذاتها تتمتع بدوافع قوية للعلاج. إنهما يحسنان التعاون في هذا المضمار وينفذان التعليمات بحذافيرها وقد حققا نتائج رائعة، ولكنني أخبرتهما أن العلاج سيستغرق ما يناهز عاماً من عمر الزمن.

أرى أن السيدة «راد» يمكنها وبسهولة أن تقول لابنتها من هنا فصاعداً أن حمل الاشياء ووسائل اللعب دون استئذان أصحابها عمل قبيح جداً جداً.

على قدر العزائم تبلى السرائر

«آنيتا» شابة يعتبرها أي رجل في مثل عمرها، فتاة جليلة القدر، لبيبة العقل، تنتمي الى أسرة طيبة وجيهة على الصعيد الأخلاقي والدراسي ومرفهة على الصعيد المالي. كانت الفتاة شابة في الثالثة والعشرين من عمرها تتسم بالجاذبية والطابع الاجتماعي الى حد ما. تمكنتُ من حل مشكلتها خلال عدة جلسات زارتني فيها فتخلصت من براثن الاكتئاب الكبير الذي كانت تعاني منه ويعود عادة الى قضايا بيئية، فأحرزت تحسناً مشهوداً وشاملاً تقريباً بعد التغلب على انشغالاتها الفكرية. وفي الجلسة الأخيرة لاحظت وأنا انتظرها تودعني لتواصل حياتها بأفكار جديدة وارادة راسخة انها تململت قليلاً ثم طلبت مني تحديد موعد جديد لها.

ـ عفواً يا دكتور، أريد أن تحدد لي موعداً لعقد جلسة عاجلة.

ـ نظرت اليها مبهوراً، فقلت:

ـ جلسة عاجلة؟ لمن ولماذا؟

ـ لي.

ـ ولِمَ؟

ـ في الحقيقة، هنالك أمر يشغلني ولابد لي ان أعثر على جوابه عاجلاً.

ـ هل طرأ أمر جديد؟

ـ أجل ولا. أجل، لأن هنالك وقائع حدثت تواً. ولا لأن أصل الموضوع

آخذ مساره منذ أمد طويل.

ـ حسناً، أطلبي من سكرتيرتي أن تحدد لك موعداً بين المواعـيد المسـبق تحديدها للأسبوع القادم.

ـ شكراً لك.

ـ استودعك الله.

***

ـ السلام عليك يا دكتور.

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا آنسة «سبهري».

ـ ارجو المعذرة. ربما أثقلت عليك.

ـ أبداً. يسرني أن أقدم العون لك.

كانت تتمتع بمعنويات لا بأس بها. بل كانت في ذلك اليوم مسرورة مبتهجة، فماذا هو ياترى الأمر الطارئ الذي طلبت عقد جلسة عاجلة لأجله؟

ـ أنا في خدمتك يا آنسة.

ـ شكراً يا دكتور، لا أعلم من أين أبدأ الحديث. تقدم لخطبتي منذ سنتين شاب يكبرني بعامين تقريباً وهو من خريجي الهندسة المعمارية. اتفقت أسرتانا حول زواجنا ولكنني أخاف أحياناً نمط تفكير أمير. إنه شاب في غاية الطيبة. وقد أحبه أهلي جميعاً، وأبواه بدورهما يحبانني أيضاً. لا يعكر صفو أفكـاري سوى عقائده الخاصة به. أفكر دوماً: لعلني أخطأت في الموافقة عـلى الزواج منه.

ـ وأية عقائد تعنين؟

ـ لقد انهى دراسته منذ عام يا دكتور ولكنه لم يقدم اطروحته بهدف تأخير التحاقه بخدمة العلم. صمم على عقد اتفاق شراكة مع أحد أقاربه وهو ثري جداً على أمل أن يبدأ معه عملاً يدر بأرباح طائلة بحسب قوله. إنه يرغب في

استئناف عمل يبني به مستقبله خلال عامين على أكبر تقدير. يقول أن الفرصة، ويقصد عودة قريبه الثري من الخارج، فرصة ثمينة وخارقة يتعين استثمارها.

قلت باسماً:

ـ طريف أمره. يرغب في بناء مستقبله خلال عامين. لابد أنه سيبني مستقبله على أفضل وجه ممكن يؤمّن له ثراء لا يبارىٰ!

ـ يا دكتور، قريبه الثري، قدم تواً من الخارج مصطحباً معه عدة مليارات تومان. كأنه ينوي استثمارها هنا. يقول أنه لا يثق بأحد سوى أمير ولهذا يقول أمير أن الحظ قد طرق بابه.

ـ حسناً جداً يا آنسة «سبهري». حتى الآن لم أر إشكالية في الموضوع. الرجلان ينويان العمل معاً. فأي شيء في هذا الموضوع مقلق؟.

ـ لقد مر عام كامل وأمير ما يزال معلقاً كلما اقترح عملاً رفضه شريكه المستقبلي بحجة أو أخرى. في مطلع عودته قال يريد العمل في مشاريع عمرانية لأنها تدر بأرباح كبرى ثم أنها من اختصاص أمير. ولكن بعد عدة حالات تم تدارسها والتقدم فيها حتى مرحلة دفع ثمن الأرض بعد التعاقد حولها، انسحب متذرعاً بدليل ما. يقول: مشاريع البناء لم تعد تدر أرباحاً كافية فالأولى أن نفكر في افتتاح مطعم. ولكن أمير يا دكتور، لا خبرة لديه في إدارة المطاعم. وهلم جرّا يتقدم كل يوم باقتراح جديد. وأمير ألجم لسانه ويذعن له في جميع أقاويله. ثم أنه لا يتابع أياً منها حتى النهاية. إن الزمان يدركنا يا دكتور دون أن ننتفع منه، لا أعرف الى أي مصير سيؤول أمرنا؟ وهذا ما يقلقني ويثير أعصابي بشدة.

قبل أيام ناقشت أميراً حول هذا الموضوع وانتهى الأمر بتخاصمنا.

ـ هل يمكنني أن ألقاه؟

ـ أجل، لقد اقترح عليّ هو ذاته أن أتشاور مع طبيبي حول موضوع أعصابي. إنه يقول: لا داعي لقلقك. إنني أعلم ما أفعل. إنها فرصة استثنائية

يتحتم علي ان لا أهدرها.

ـ حسناً جداً. أطلبي منه رجاء أن يرافقك في الجلسة القادمة.

ـ لا مانع لدي. سنأتي معاً.

***

الجلسة التالية:

مظهر أمير كان يوحي بأنه شاب خجول وحسن الخلق. يمكن ايلاء الثقة به. وإمارات حسن المعشر والحنان بادية عليه أيضاً. ومع هذا بدا لي أنه انسان متقاعس يفتقد الخبرة الى حد بعيد. إنه كما وصفته من زمرة الشباب السذج الذين يطمحون الى تنفيذ مشاريع قرن كامل خلال ليلة واحدة.

ـ من بواعث سروري أن ألقاك يا أمير.

ـ وأنا كذلك يا دكتور.

ـ لقد تحدثنا أنا و «آنيتا» عنك قليلاً. وبما أنني لا أستطيع أن أبدي رأيي بعد الاستماع الى وجهات نظر جانب واحد، كان لزاماً علي أن ألقاك لتتحدث اليّ عن أفكارك ومشاريعك.

ـ لا أعلم عن أي أمور تحدثت اليك «آنيتا».

ـ عن نفس القضايا التي تخاصمتما حولها. عن الأمور التي قد تتسبب في إفناء المشاريع المتعلقة بزواجكما.

التفتت «آنيتا» الى أمير وقالت:

ـ إصغ اليّ يا أمير، لقد تحدثت الى الدكتور عن عملك مع السيد (م)، وأنه أهدر عاماً كاملاً من حياتنا حتى الآن. إن مشكلتي الحقيقية معك تكمن في أنني معلقة لا أعلم في الوقت الراهن ماذا تنوي أن تفعل ومتى ستستأنف عملك؟

التفت إليّ أمير ضاحكاً وقال:

ـ ولكنني أعلم ما أفعل! إلّا أن الأمر يقتضي أن أتدارس الأوضاع سلفاً

لاستأنف عملاً ناجحاً ومبدئياً. لا أعلم الغيب لأُجيب في الحال على ذلك.

كان يتحتم عليّ الحيلولة دون تحول الجلسة الى حوار ثنائي. لذا أمسكت بحبل الحديث، قائلاً:

ـ دعونا نتفق على إطار الجلسة أولاً لتتحدد لنا القضايا التي نود الحديث بشأنها لنتمكن من التوصل الى نتيجة دقيقة. فالحديث المتناثر لا يصلح أمراً، وإن استمر لعشر ساعات.

تعلمان أن زواج أي فتاة وفتى يتطلب في الوهلة الأولى رغبتهما في الزواج من بعض. ومن ثم موافقة أسرة الجانبين على الزواج وقد توفر لكما كلا الشرطين لحسن الحظ.

أما الشرط الثالث فهو أن يتمتع الفتى بظروف نفسية وكذلك مهنية واقتصادية مناسبة لخوض خبرة الحياة المشتركة. وعن زواجكما أرى أنكما مؤهلان معنوياً للزواج. الفتاة هي الأخرى لابد أن تتمتع ببعض الخصائص التي تتسم «آنيتا» بها جميعاً. أما التفاصيل الأخرى من قبيل: الاتزان النفسي، الخصائص الأخلاقية وما إليها فيبدو أنه تم التمحص بها تماماً قبل اعلان كلتا الأسرتين ـ بما لها من خبرات ـ عن موافقتهما. الأمر الوحيد الذي ينبغي تدارسه هو استعداد أمير مهنياً واقتصادياً لبدء الحياة الزوجية. هل توافقاني الرأي؟.

كلاهما كان يوافقني الرأي.

ـ حسناً جداً، الآن لابد لي أن أحيط علماً بخطتك المهنية ـ الاقتصادية يا مهندس وعن الموعد الذي ستتأهب فيه للزواج.

تعجلت «آنيتا» بالجواب، فقالت:

ـ لقد اتفقنا حول هذا الموضوع يا دكتور ووافقت أسرتانا على ذلك. حددنا شهر ايلول (سبتمبر) لعقد القران على أن يتم الزفاف بعد فراغ أمير من خدمة العلم أي بعد سنتين تقريباً. ولكن مع الأوضاع المستجدة لا أعلم ماذا

سيحدث؟

ـ أتوافقها يا أمير؟

ـ أجل يا دكتور، ولكنني لا أريد أن أهدر هذه الفرصة. لقد اتفقنا على هذه الأمور قبل أن يطرأ هذا الحدث. الوضع تغير قليلاً. إنها توافقني الرأي بأنه في صالحنا أن نستأنف العمل. إنه ميلياردير لا يثق بأحد غيري. إنني إن أُصمم على بناء نفسي وحياتي باتخاذ خطوة وئيدة بعد أُخرى فإن الأمر سيكلفني مائة عام لأحقق الثراء لنفسي. وقد لا أوفق لمثل هذا أبداً.

كان لحنه الطفولي في الكلام يوحي بأنه صبي في الثالثة عشرة من عمره. صبي لا كالصبيان القدامى الذين اعتادوا التفكير ملياً والتعاطي بعقلانية أكبر مع الأمور. فأمثال هؤلاء الصبيان كثيرون حالياً، يفتقدون النضج ويتظاهرون بتمامه. يحاولون دوماً نيل كل شيء دون مشقة ويحسبون الأبوين خدماً يتحتم عليهما منحهم كل ما بحوزتهما من أموال وممتلكات.

لفرد هياجه وحماسه تعذر علي أن أقول له: «عزيزي، لقد نأيت عن الواقعية أساساً. إنك بنيت صرح أفكارك حول القضايا الاقتصادية على أساس متداع فارغ. فأي ثري هذا يغامر بوضع رأس ماله تحت تصرف شاب ساذج يفتقد الخبرة الكافية؟ إن كان ثرياً حقاً فلا بد أنه نال ثروته لتمتعه بقدر مشهود من الذكاء والوعي الاقتصادي. إن من يتخبط في تفكيره ويغامر دون وعي لا يعرف للثراء معنى. لو افترضنا أنه استأنف عملاً فإنه لا يسهمك فيه باعتبارك شريكاً له. سيلقي متاعب جميع الأعمال على عاتقك ثم يتخلى عنك ويصرفك عن خدمته أو يسمح لك بمواصلة العمل معه بمرتب عادي. كثير من أمثال هؤلاء يخدعون الآخرين بوعود جوفاء ثم ينصرفون الى أعمالهم كأن شيئاً لم يكن. لا يخفى أن هنالك من يأخذ بيد الضعفاء ويرغب في إسداء أية خدمة إليهم ولكنهم قلة قليلة لا يعقل أن يغامر الانسان بمصيره على أمل هذه الفئة. لا يستبعد أن يكون المخادعون من الأشخاص المقربين لنا. بل تتبلور مثل

هذه القضايا بين الأقارب والمعارف أكثر من غيرهم. فالغريب لا يأمل خيراً في الغريب بل تتبلور الثقة عادة بين الأهل والأقارب فيستغل الانتهازيون مثل هذه الثقة للأسف، في الكثير من الأوقات. لك أن تزور شتى المحاكم في مختلف أرجاء المدينة لتعرف إن البلايا والرزايا المتعلقة بأكثرية السجلات أنزلها المعارف ببعضهم لا الغرباء».

لم يكن بوسعي التحدث اليه مباشرة وبأسلوب منطقي لعلمي أنه لن يصدق كلامي. كان حماسه قد بلغ قمته مما اضطرني لاتباع اسلوب آخر. كان يتحتم على «آنيتا» التجلد معي للوصول الى النتيجة المتوخاة. ولها أن تعرض أميراً بهذه الطريقة الى اختبار عظيم. كنت قد نويت أن أصيب عصفورين بحجارة واحدة. أن أجري اختبار الواقعية لأمير لأحدد إن كان أساساً إنساناً واقعياً أم لا. صحيح أنه كان منغمساً في الخيالات والأوهام إلّا أن سلوكه قد يعزى الى حماس الشباب وفقدان الخبرة. فلو حاولت توجيهه ضمن إطار منطقي يذعن له فإنه إما أن يوفق بحسب الخطة فعندئذ يدرك أن كل مشروع يقتضي تنفيذه وفق خطة دقيقة وأن يواصل عمله على مر اللحظات بأساليب مبدئية وواقعية حتى يحقق الغاية المنشودة.

وإن لم يوفق لذلك، فلا ضير لأنه لم يفقد شيئاً ما بل سيعترف بهفوته وينصرف لمواصلة حياته بعقلانية ومنطقية. أما إذا لم يعتبر من خطئه وأصر على هفواته أو ألق تبعات فشله على الآخرين فإنه سيفشل في اختبار الواقعية وتدرك «آنيتا» بذلك أنه ليس رجلاً جديراً بالحياة الزوجية والأولى لها أن تتركه لأوهامه وأحلامه لتنصرف الى حياتها بعيداً عن هذه المعمعات.

ـ حسناً ايها المهندس. انني أرجو «آنيتا» أن تحتفظ بهدوئها وأن تتروى وتتجلد قليلاً فقد تكون عودة السيد (م) من الخارج وعزمه على إسهامك في أعماله فرصة استثنائية يتعين أن نتجنب إهدارها، ولكن يا عزيزي، قطار الزمان سيفوتك بسرعته البالغة. لم تقدم أطروحتك بعد كما لم تؤد خدمة العلم.

أبقيت «آنيتا» معلقة. لابد أن تحدد موعداً ثابتاً لبدء هذه الشراكة. إذهب إلى الرجل وحدثه بشفافية وبتفاصيل تامة عن مشاكلك. وبما أن فرصتك ستقارب على الانتهاء، أطلب منه أن يتخذ قراره النهائي خلال هذه الفترة، فعليه أن ينطلق من نقطة ما إن كان صادقاً في نيته. ثم لا تستند الى علاقة القرابة بل وثق عملك منذ بدايته بعقد اتفاق دقيق ورسمي، يتعهد الجانبان بالالتزام به. فإن تمت كل هذه المراحل بسلام وخير، عندئذ يمكنك أن تتوقع تحقق ذلك المستقبل الزاهر الذي تحلم به وأن تعد زوجتك به أيضاً.

وإن لم يتيسر لك تحقيق الخطوط العريضة التي رسمتها لمستقبلك في أفكارك فلا تحزن. فقد كسبت خبرة دون أن تتعرض لخسارة فادحة. يكفيك أن تعود الى خططك السابقة.

تقبل كلاهما هذا الاقتراح. الأمر الوحيد الذي لم نتفق عليه بعد هو المدة التي يحددها أمير للسيد (م). اقترح أمير نفسه:

ـ تبق يا دكتور أربعة أشهر أخرى لالتحاقي بخدمة العلم، ربما تكون هذه الفترة مهلة كافية بالنسبة له.

لم توافقه «آنيتا» الرأي، فقالت:

ـ لا، إنها مدة طويلة جداً. أهدرنا حتى الآن أكثر من سنة من حياتنا عبثاً.

أما أنا فقد وافقت على اقتراحه. إن الاحتمال الضعيف في إمكانية كون هذه الفرصة ضرباً من الخطأ طرق بابه كان يفرض علينا أن نوفر له الفرصة الاخيرة لاستثمارها. فأقل من أربعة أشهر تعتبر فترة محدودة لا يمكن خلالها وضع خطة مناسبة. ثم أنه كان اقتراح أمير نفسه ويتحتم علينا الاذعان له لنسد بوجهه أبواب التذرع بحجج واهية فيما لو اصطدم بواقع انقض على صرح أحلامه.

على أية حال اتفقنا على فترة الأربعة أشهر وإن لم يرق الاتفاق للآنسة «سبهري» فقد ودعتني عند ترك العيادة بشيء من الانزعاج. ولكن لا يهم..

سوف تفهم الغرض والغاية مستقبلاً.

***

الجلسة التالية:

بعد شهرين زارتني الآنسة «سبهري» ودار بيننا حوار قصير استوحيت منه أنهما يتابعان الموضوع بلهفة دون أن يثمر ذلك الى تلك اللحظة. طلبت منها الاحتفاظ بهدوئها فقد كان علينا التروي شهرين آخرين.

ـ حدثيني يا آنسة سبهري، هل أعد أمير أطروحته؟ تعلمين أنه يتعذر عليه الالتحاق بخدمة العلم قبل أن يقدم أطروحته.

ـ أجل، لقد قارب على الانتهاء منها.

ـ إذاً، لا تغفلا عن الموعد المحدد لالتحاقه بالخدمة.

ـ لا يا دكتور، لن أنساه.

***

الجلسة التالية:

انقضت أربعة أشهر تقريباً على اتفاقنا وكذلك اتفاق المهندس أمير مع السيد (م).

ـ طيب يا أعزائي، ما هي الأخبار التي تحملانها اليّ؟

قالت آنيتا بلحن المنتصر:

ـ كما توقعت أنا يا دكتور، أهدرنا أربعة أشهر أخرى عبثاً. لم يحدث شيء أبداً.

التفت الى أمير مندهشاً، وقلت:

ـ ألم ينفذ وعده؟

ـ ليس بهذا التعبير يا دكتور، ولكنني لم أرتض العمل الذي أخـذه بـنظر الاعتبار. لقد اقترح عملاً ما ولكنه لم يكن ذاك العمل الذي يأخذ بالألباب.

ـ كيف؟

ـ اقترح عليّ مرتباً لم يرقني.

ـ لم أفهم.

أجابت «آنيتا» قائلة:

ـ في نهاية المطاف اقترح عليه يا دكتور مـشروعاً لسـنة واحـدة. أي أن يشرف أمير على بناء دور سياحية في المحافظات الشمالية إشرافـاً مـتواصـلاً فيستقر في تلك المناطق على مر الأيام مقابل راتب شهري.

قلت مبهوراً:

ـ ولكن هذا ما لا يسمى «شراكة». ألم يكن الاتفاق حول شراكة؟

قالت آنيتا:

ـ أجل، ولكنه ذهب الى القول بأن أميراً لا يمتلك أية خبرة مهنية والأولى أن يكون تعاونهما في المشروع الاول على هذا النحو على أن يكرس له حصة معينة في المشاريع التالية.

ـ طيب، كم هو المرتب المقترح؟

قالت ضاحكة:

ـ دعنا من هذا يا دكتور.

قلت لأمير:

ـ وأنت ألم ترض بذلك؟

ـ لا بالطبع، هو يستدل على ذلك بأنني مهندس أنهيت دراستي تـواً. وأن الراتب المخصص لأمثالي متدني عادة. يعتقد أن هذا المشروع يعتبر في الواقـع بمثابة دورة تعليمية بالنسبة لي. ولكن كل شيء سيتحسن على نحو ملحوظ في المشاريع اللاحقة و...

ومع هذا لم أوافق على هذه الشروط فقد كان اتفاقنا منذ البداية حول الشراكة.

ـ وما هو برنامجك المستقبلي إذاً؟

ـ سألتحق بخدمة العلم أولاً.

ـ وهل قدمت نفسك؟

ـ أجل واستلمت الاستمارات أيضاً.

ـ طيب فليكن الخير فيما وقع إن شاء الله. تضمنت هذه الأحداث خبرة طيبة بالنسبة لك وأنت على أعتاب ولوج المجتمع.

استثمرت «آنيتا» الفرصة المواتية لتوجه عتابها لأمير، فقالت:

ـ قل له يا دكتور أن يستشيرني من هنا فصاعداً حول مبادراته فقد ثبت له أنني أفهم القضايا أكثر منه.

ـ يتحتم على الزوجين بالطبع أن يتشاوروا مع بعض دوماً حول القضايا المختلفة، أما أنك تتفهمين القضايا أفضل منه فهذا ما لا يصح التفوه به ولا ادعاؤه. فالصداقة والعلاقات الزوجية وحياة الزوجين عموماً تحت سقف واحد، يتعين أن لا تتحول الى حلقة ملاكمة ينتصر فيها أحد الزوجين دون الآخر. فأصل موضوع الزواج يدور حول الانسانية، حول التنازل والتضحية والتوعية والتأثير المتبادل. فلنقل أن تفكيرك كان أصوب من تفكيره في هذه القضية ولكن مبادرة أمير عندما تنبه لخطئه واعترافه بذلك وتخليه عن نزعاته الواهية، مبادرة تستحق التقدير والاحترام.

ثم وجهت كلامي الى المهندس وقلت:

ـ طيب يا أمير، ما هو البرنامج المستقبلي الذي قررته لنفسك حالياً؟

ـ وهب لي أبي شقة ثبت صك عقارها باسمي ومن المقرر أن يمدنا أبو آنيتا بمستلزمات البيت. ستلتحق آنيتا بدورة في المحاسبات وتنتسب بعد ذلك الى شركة أحد أصدقاء أبيها للعمل فيها. أما أنا فسأتولى بعد اتمام خدمة العلم

مهمة تقسيم قطعة أرض لنا في إحدى المحافظات الشمالية الى قسمين وبناء دارين فيها، سأكتسب من خلال هذا المشروع خبرة مهنية إضافة الى ما سأحققه من دخل لا بأس به، وسوف نستأنف أنا وأبي بعد ذلك مشاريع البناء بما لدى كلينا من رأس مال. سنحدد مشاريعنا بما ينأى عن المغامرة لنتطور تدريجياً دون أن نعرض أنفسنا الى ضغوط الحياة ولأزماتها النفسية. لقد وضعنا أنا وآنيتا هذه الخطة بالتعاون معاً. ولا أعلم إن كنا أصبنا أو أخطأنا فيها.

ـ إنها صائبة بالتأكيد. إن كنت توليت مهمة التخطيط لكما والبرمجة لحياتكما لما كان بوسعي أن أضع خطة أفضل من خطتكما.

قاطعت آنيتا حديثنا كعادتها وعاجلتنا بالقول:

ـ هنالك طريق آخر فيه الخير الكثير فيما لو تمكنا من سلوكه.

ـ أي طريق؟

ـ ربما وفقنا أن نسافر معاً الى خارج البلاد لمواصلة دراستنا. فلو مهد لنا هذا السبيل، سنختاره لا محالة.

ـ إنها فكرة حسنة، وهل حددتما البلد؟

ـ في الحقيقة، أبي يعمل مع النرويجيين وقد واعدوه على تقديم العون لنا إن رغب في ايفادنا الى هناك. إننا لا نعاني من أزمة مالية يا دكتور وكل ما نحتاجه هو تأشيرات الدخول والمعونات الأولية في السنة الأولى من إقامتنا هناك.. وقد قدموا لنا وعوداً مؤملة.

قلت ممازحاً:

ـ إنها فكرة حسنة جداً ولكن احترزا الانجماد، فقد سمعت ان الظلام يسود جميع أنحاء البلاد في عدة أشهر من السنة فلا أمل في حلول النهار خلالها.

ـ لا بأس. فالتحاقنا بالجامعة يهون علينا تحمل هذه الظروف.

ـ لا ضير، ستسافران وتواصلان دراستكما، المهم أن يكون سلوككما مبدئياً

وعقلانياً.

ودعاني وانصرفا. لم ينته أمير بعد من خدمة العلم. ما يسرني في أمرهما هو توافق الزوجين الشابين وتفاهمهما وأنهما يقضيان حياة سارة.

وفي هذه الفرصة أوجه حديثي الى آلاف الشباب وهم في أعتاب ولوج المجتمع ولا بد لهم من التفكير بعقلانية في شؤون الحياة سواء أكانوا مقبلين على الزواج أم لا:

أعزتي:

في سياق التطور الاقتصادي لا تطمحوا أبداً لاجتياز طريق قرن كامل خلال ليلة واحدة. كونوا على ثقة أن مثل هذا الأمر إن كان ممكناً الكثيرون ممن نالوا خبرة وذكاء أكبر منكم كانوا سيسارعون إليه قبلكم.

إن الطريق الوحيد لنيل النجاح في الحياة هو بذل الجهد وفق خطة صحيحة توضع بعد المشاورة مع أخصائيين في العلوم السلوكية. أخصائيين أثبتوا جدارتهم قبل ذلك وأيقنوا أنه لا حل وسط بين هاتين الطريقتين فببذل الجهود وتحمل الصعاب يتيسر لكم تحقيق هدفكم. لا تشغلوا أنفسكم بوعود الآخرين. فلا أحد يحنو عليكم أكثر من أنفسكم. فلا تكبلوا طاقاتكم بوساوس غير مجدية. فلا أحد يغنى خلال سنتين إلّا اذا انحرفوا عن جادة الصواب واتبعوا أساليب غير مشروعة. فإن كنتم تتسمون ببعد الهمة، انتقوا من الأهداف عظامها واسعوا لتحقيقها ببذل المساعي وإن لم تتسموا ببعد الهمة فلا تنغمسوا في أحلام بعيدة لا طائل لها وارتضوا بأهداف بسيطة وبحياة عادية، فعلى قدر العزائم تبلى السرائر.

نصيبنا من الحياة

ـ ابني يا دكتور عاص متمرد، لا يذاكر دروسه، يسيء الخلق ولا يولي الكبار وكلامهم أدنى احترام. أعيى من الصباح وحتى المساء لإدارة شؤون حياتهم ولكن جميع أتعابي لا تثمر نتيجة طيبة. إنه يزداد عناداً وصلفاً يوماً بعد يوم. لم أعد أعرف ماذا علي أن أفعله! أحاطت به شلة من الأصدقاء يلقنونه ما لا يخطر له ببال. لقد فر حتى الآن من المدرسة عدة مرات لارتياد دور السينما أو التنزه معهم. مدير المدرسة ومعاونوه وسائر المسؤولين فيها يشعرون بالتذمر إزاءه. فكرت أن أراجعك لاستهدي السبيل الى ما ينبغي أن أتخذه من إجراء!.

ـ أرجو المعذرة يا سيد «رحيمي»، كم تبلغ من العمر؟

ـ (٥٣) عاماً يا دكتور.

ـ وزوجتك؟

ـ (٤٧) عاماً.

ـ وكم هم أبناؤك؟

ـ ثلاثة. ابنتي البكر (٢٢) عاماً. وهي طالبة جامعية في فرع «الادارة». والثاني هو علي، في السادسة عشرة والثالث «حسين» في الثالثة عشرة من عمره.

ـ وهل تعاني من صعاب في التعامل مع البقية؟

ـ لا، ليس بهذا الحد. ولكن صعابنا مع علي بلغت حداً متفاقماً.

ـ وكيف يسلك مع سائر أعضاء الأسرة؟ هل يعنف معهم ويؤذيهم؟

ـ لا، ليس كثيراً. إلّا أنه مثلاً إذا طلبت منه أمه أن يذاكر دروسه يتشاجر معها هي الأخرى. إنني بعيد عن أجواء البيت ولكنني اضطررت مراراً أن أترك عملي وأتتبعه فوجدته يعاشر أصدقاء غير أسوياء. إلّا أنه يتنكر لذلك عندما أواجهه. صار يا دكتور يكذب كثيراً. لقد تجرأ عدة مرات على سرقة مقدار من المال ولم يعترف بذلك قط.

ـ ما هي مهنتك يا سيد «رحيمي»؟

ـ إنني موظف بإحدى الدوائر الحكومية ثم أدير مع اثنين من أصدقائي محلاً لنا. ولهذا أخرج من البيت صباحاً ولا أعود إليه إلّا في وقت متأخر من الليل. كل هذه الجهود أبذلها دون أن يثمن علي أتعابي. لقد تدنىٰ مستواه الدراسي أيضاً الى حد كبير. احترت في الحقيقة كيف أسلك معه. لقد أعياني أمره.

ـ وكيف هي العلاقات الأسرية بينكم؟ هل يتمتع بقية أعضائها فيما بينهم وكذلك معك بعلاقات طيبة؟

ـ أجل يا دكتور، اننا لا نعاني من أية مشكلة. همنا الوحيد هو علي.

ـ حسناً يا سيد رحيمي. تقتضي الضرورة أن ألقى علياً في الجلسة القادمة مع احتفاظك بحق تحديد موعدها.

ـ ألا يمكنني أن آخذ عنك تعليمات مثمرة حول نمط سلوكي معه دون إحضاره؟

ـ لا، يلزمني أن ألقاه فنسبة عالية من إمكانية تشخيص الحالات في علم النفس والطب النفسي مناطة بلقاء المريض وتمحيص وضعه عن كثب.

ـ إذاً، لا مانع لدي. سأرافقه في الجلسة التالية.

***

الجلسة الثانية:

لقيت علياً فوجدته مراهقاً خجولاً، إنطوائياً وقليل الكلام. لا يتمتع من الثقة بالنفس إلّا بمستوى متدن جداً منها. فتى نحيف طويل القامة مما يزيد مظهره نحافة. طلبت من أبيه أن يترك الغرفة. ثم التفت إليه وقلت:

ـ طيب يا علي! هل تعرف لماذا طلبت لقاءك؟

ـ لا يا دكتور.

ـ حقاً؟

ـ حقاً.

ـ ألم يتحدث إليك أبوك عن الموضوع؟

ـ لا.

عند مواجهة الناشئة ينبغي اعتماد الصراحة التامة معهم والافصاح لهم عما امكن من الحقائق لاجتذابهم وكسب ثقتهم بالمعالج. إن هذه الفئة تحسن التعاون والتجاوب مع الآخرين بالنظر لتمتعهم بضمير في منتهى النزاهة. وفي حالة تطبع الأسرة بالانسجام اللازم يترشح عن مساعينا معهم نتائج ممتازة. إذاً، يترتب علي أن أكسب ثقته أولاً. الناشئة يرغبون أن يتحدثوا بصراحة وأن يكلمهم الآخرون بصراحة أيضاً. إنهم ينفرون من المقدمات لأنهم يحسبونها دليلاً على انحياز المعالج للكبار. ينبغي إزالة هذه الفكرة عن عقله.

هكذا فطن علي الى أنني أنوي تقديم العون له وأنني سأذعن لصحة ما ينطق به من كلام منطقي.

قلت له:

ـ زارني أبوك يا علي قبل عدة أيام، وأعرب لي عن تذمره من عدم انصياعك لكلام الكبار ومن تقهقرك الدراسي. قال أبوك: «إنه يهدر متاعبنا ويأبى التفكير بمستقبله». ولكنني استشعرت الحاجة للقائك والاستماع اليك قبل إبداء رأيي لأنني لا يمكنني تحديد رأيي بلقاء أحد الجانبين دون الآخر، ولهذا طلبت لقاءك. لا أخفي عليك أنني لا أنحاز لأي منكما ولكنني أطلب الحقيقة

وسأذعن لها إن أخبرتني أنت بها أو حتى طفل في الثامنة من عمره فأبني رأيي بحسبها، وسيكون هذا الرأي صائباً من وجهة النظر العلمية. ستوفق في حياتك متى ما تمسكت بها وبتوجيهاتي اليك. هل ترتضي منهجي في العمل؟

ساند علي كلامي دون ترو. لم يكن فيه ما يتطابق مع وصف أبيه له. بدا لي أنه فتى مطيع منقاد.

ـ إذاً، اسمح أن أبدأ بطرح استفساراتي، هل أنت مستعد؟

ـ أجل يا دكتور.

ـ هل تؤيد صحة كلام أبيك أساساً؟

ـ أي كلام؟

رحت أتكلم معه بلحن أكثر دفئاً تجنباً من إحساسه بالملل وليشعر بالارتياح إزاء أجواء الجلسة:

انك لا تذاكر دروسك وتعاشر أصدقاء غير أسوياء. لا تنصاع لكلام الكبار وتكثر من الجدل والنقاش مع أبيك.

ـ لا يا دكتور. الأمر ليس هكذا.

ـ أبوك أخبرني أنك تجرأت عدة مرات على سرقة النقود من البيت، هل هذا صحيح؟.

قال بخجل:

ـ أجل، إنه خصص لي مرتباً أسبوعياً لا يكفيني يا دكتور حتى لدفع أجرة مواصلاتي وأنا أتنقل بين المدرسة والبيت، لأن التنقل بينهما يكلفني أجرة تتعدى مرتبي بكثير. كنت كلما أخبره بذلك يجيبني: لا إمكانية لدي لزيادة مرتبك. فاضطررت لمثل هذا الأمر.

ـ ألا يزيد مرتبك إن شعر بانصياعك لكلامه؟

ـ لا يا دكتور، فأحد مطالبه الأساسية منا هو أساساً أن لا نطلب منه المال.

ـ ماذا تقصد بـ «منا»؟

ـ أقصد أنا، وأختي، وأمي والجميع.

ـ وكم هو المرتب الاسبوعي لأختك؟

ـ ضعف مرتبي. إنها مريضة تعاني من الروماتيزما ولكنه لا يدعمها لتستأجر سيارة تقلّها في الأيام الشتوية عند هطول الثلوج والأمطار الى الجامعة. إنه لا يكترث حتى بأمي.

ـ قد تتحدد إمكانيته المالية بهذا القدر!

ـ لا يا دكتور، لا تتحدد بهذا القدر. استلم قبل عدة أشهر (٦٠) مليون تومان نصيبه من وراثة أبيه. كما أنه يستلم مرتباً شهرياً عن عمله في الدائرة إضافة الى دخل المحل. كما أن بيتنا ملك لنا. إنه يملك سيارة خاصة ولكننا لا نتنقل بها. إنه يحجم حتى عن شراء الملابس وعن دفع نفقات دراستنا أو حتى مصاريف البيت. العبارة التي تواجهنا كلما اعترضنا هي: لا أملك مالاً.

ـ وهل ينفق من أمواله لنفسه؟

ـ لا، حتى مع نفسه يسلك على ذات الوتيرة.

ـ ألا تسألونه ماذا تفعل بنقودك؟

ـ يقول دفعت بها ديوناً وسلفاً مستحقة. أنفقتها لشؤون المحل و...

قلت مندهشاً:

ـ أوليس للمحل أي دخل؟

ـ يقول أنه يتعرض للخسارة فيه.

ـ فلماذا لا يصرف النظر عنه؟

ـ لا أعلم.

ـ حسناً جداً، من هم أصدقاؤك؟ ما هو رأيك بهم؟

ـ لم يبد منهم شيء سيئ يغيظه. بل همه الوحيد أن لا أزاملهم. يقول دوماً: «وما هي حاجتك أساساً للأصدقاء، اذهب الى مدرستك ثم عد الى الدار لتذاكر دروسك».

ـ يقول أبوك أنه خصص ميزانية كبيرة للمعلمين الذين فوض اليهم أمر تدريسك!

ـ أجل، ولكنني لم أطلب منه ذلك.

ـ ولكنك كنت سترسب في العام الماضي لولا مساعدة هؤلاء المعلمين؟

ـ قلت له: لا تزعجني وسأذاكر دروسي بنفسي. فأنا في غنى عن هؤلاء المعلمين. إنني يا دكتور أهمل دروسي عناداً معه وإلّا فانني أتمكن من إحراز النجاح في امتحاناتي على خير وجه و...

طالب القصة وعرضت.. لم يكن من السهولة انهاؤها ببساطة، فجذورها تسبر في أغوار أبعد مما كانت تبدو لي.

ـ تذكرت أمراً، قال أبوك أنك أخرجت مفتاح الدار خلسة من جيبه واصطحبت اليها أصدقاءك في غفلة منه وقمتم بأعمال عجيبة وغريبة فيها. هل هذا صحيح؟

ـ وماذا عساني أن أفعل عندما يحجم عن تزويدي بمفتاح الدار؟ قد اضطر في بعض الأحيان لأنتظر في الزقاق ساعتين من الزمن ريثما يسعفني أحدهم بعودته الى الدار فيفتح الباب. كما أنني لم اصطحب زملائي الى البيت. كنت أجلس مع أحدهم عند باب الدار نستمع الى الموسيقى.

ـ ياترى، إن عقدت جلسة مع أمك واختك، فهل تؤكدان صدق كلامك؟

ـ أجل، إنهما مستاءتان مثلي من سلوكه.

***

الجلسة الثالثة:

زارني السيد محمودي مع زوجته وعلي وابنته «محبوبة». كنت قد استمعت الى حديث السيد محمودي وعلي الى حد ما فرجوتهما أن يجلسا في غرفة الانتظار. ثم قدمت ايضاحات عامة وموجزة حول ما سمعته للأم والبنت

وطلبت منهما الاعراب عن رأيهما حول تلك الأحاديث.

ثم قلت:

أرغب أن استطلع رأيكما يا سيدتيّ! فهل يعود السبب الى عدم تفهم السيد محمودي لهذا الشاب اليافع؟ أم أن الذنب ذنب علي؟ أم ربما كليهما؟

بدا الهدوء والوداعة على السيدة «رحيمي». محياها كان يوحي بتذمرها من حياتها.

قالت الأم:

ـ الحق مع علي يا دكتور، فأبوه رجل سيئ الأخلاق. يطالبنا أن نكون جميعاً تبعاً لتعليماته غير المنطقية وإلّا فإنه يحرمنا مما نسد به نفقاتنا من المال. أقول له لا تحطم شخصية ابنك أمام أصدقائه. لا تسئ الى سمعته عند الأقارب. وإن أفصحنا أمام المحيطين بنا عن استيائنا من سلوكه بأدنى عبارة فإنه يعاقبنا بالامتناع عن دفع مصاريف البيت عناداً معنا. ولكنه يسيء لعلي أمام القاصي والداني ثم يلقي اللوم في ذلك عليّ أنا. كأن المال وقود قلبه الخافق بين جنبيه. يخاف أن ينفق منه خشية أن يسكن قلبه وتزهق روحه، فمشكلته الأساسية تكمن في إنفاق المال وما سواها أعذار لا غير. يختلقها لتكون ذريعة للإحجام عن الانفاق من ماله. يسمح لنفسه أن ينهال ضرباً على علي، حتى على مرأى الغرباء.

زارني قبل فترة أخي المقيم في خارج البلاد للقاء الأهل والأقارب. في إحدى المآدب تطاول على علي بكل ما في جعبته من عبارات بذيئة ثم سدد اليه عدة صفعات. لماذا؟ لأن علياً قد بث همومه الى خاله وهو يجالسه. فارتأى أخي أن يتحدث قليلاً الى السيد محمودي حول هذا الموضوع.

لم يسع أخي إلّا أن يقول لعلي: لا تنزعج، سأبعث اليك بما يكفيك من النقود ولكن دع أباك وشأنه. ولكنه عصامي يا دكتور، لا يرتضي الاستعانة بالآخرين. ثم أن السيد محمودي يقيم الدنيا ولا يقعدها إن فطن الى أننا نستلم

معونة مالية من شخص مثل أخي فيتهمنا بألف تهمة شنيعة و...

***

انها سنة الحياة، فالمرء ان أبدى رأياً في أية قضية بعد الاصغاء الى أحد الجانبين فانه يجني نتائج تنأى بعيداً عن الحقيقة. إلّا أنه سيذهب الى حكم يختلف كل الاختلاف عنه فيما لو استمع الى رأي الجانبين.

يحدث مراراً أن تزورني بعض النساء ويذكرن لي قضايا عن أزواجهن تستوجب (إن صدقت) أن نقتاد الأزواج الى منصة الاعدام، أو بالعكس يحبك الأزواج مثل هذه الأكاذيب حول زوجاتهم مما تدفع الانسان العجول لادانة الزوجة دون تريث. ولكننا عند الاستماع الى الجانب الثاني نجد أن الوضع يختلف تماماً. ولهذا أناشد الجميع وأؤكد عليهم بشدة أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يحجموا عن البتّ في أية قضية بالنظر في جانب واحد منها، ففي تلك الحالة يغدو كمن يعقد جلسة محاكمة يتمثل فيه القاضي والشاكي ومدعي العموم في شخص واحد فيحكم بشأن المتهم في غيابه ثم يبعث الى المتهم ورقة ابلاغ حكمه. فهل هنالك من يعاضد مثل هذا النوع من الرأي؟ طيب. نحن نركن الى مثل هذا الحكم والقضاء مراراً ومراراً على مر النهار ونستهدي على هذا النحو الى استنتاجات خاطئة غير منطقية.

أذكر أن سيدة من معارفنا زارتني تستمد العون مني بعد أن شب بينها وبين زوجها خلاف حول موضوع ما. أوضحت لها: أن القانون يمنع المحللين النفسانيين وأطباء النفس من تحليل الأصدقاء والأقارب وأنه يحظر علينا عقد مثل هذه الجلسات مع معارفنا والأشخاص المقربين إلينا، فعلاقة القربى والصداقة تعرقل مسيرة العلاج. ولكنني سأبعثك الى شخص متمرس ليتدارس مشكلتك.

كانت السيدة قد اختارت معالجاً آخر غير الذي أوصيتها بمراجعته، وقد

شاء القدر أن يكون شاباً مبتدئاً غير ذي ممارسة أو حنكة، وجهها توجيهاً عاجلاً غير سديد.

بعد فترة من الزمن لقيت تلك السيدة فاستفسرت منها عما آلى اليه مصيرهما، قالت لي مبتهجة:

لم أراجع صديقك، بل راجعت شخصاً آخر كان رشيداً لبيباً لحسن الحظ فأدرك جميع مشاكلي فرأى الحل في طلاقي وأنقذني من شر ذلك الرجل اللعين.

سألتها:

وهل عقد جلسة مع زوجك؟.

ردت علي:

ـ لا، لم يكن بحاجة الى لقائه. إيضاحاتي كانت وافية اكتفى بها.

غني عن الايضاح أن من يلتقي القاضي على انفراد يكسب القضية دوماً و...

***

تنبهت تدريجياً الى أن الاشكالية تكمن في شخصية السيد رحيمي نفسه لا علي، وان كنت لا أبرئ ساحة الفتى مائة بالمائة، إلّا أن أخطاءه تترشح عن خطأ أبيه، وفطنت كذلك الى أن الأمر لا يقتصر على علي فجميع أعضاء الأسرة مستاؤون متذمرون من سلوك الأب. فلي الحق أن أتوقع منه أكثر مما أتوقع من مراهق في السادسة عشرة من عمره.

***

الجلسة الرابعة:

عقدت الجلسة الرابعة مع السيد رحيمي على انفراد.

ـ أقدم لك يا سيد رحيمي نتيجة تحليلي العام. كن واثقاً أنك ستحقق النتائج المرجوة إن نفذت توجيهاتي بدقة.

ـ ماذا عليّ أن أفعل يا دكتور؟

ـ دعني أوجه اليك عدة أسئلة أولاً.

ـ تفضل. أنا في خدمتك.

ـ فيم ترى سعادة الرجل يا سيد رحيمي؟

حدق في وجهي هنيهة. صمته أوحى اليّ بتردده. كان لابد لي أن أوجه أفكاره، ولهذا أردفت قائلاً:

ـ هل تكمن في الفوز بأبناء ناجحين في الحياة؟ وفي حيازة زوجة وفية وتمتع الأسرة بالصحة النفسية والجسمية التامة. وبالدخل المنطقي المألوف، وفي سيادة أجواء زاخرة بالحنان والحب والقرب بين أعضاء الأسرة وانخراطهم في علاقة سوية ومبدئية مع المجتمع و...؟.

ـ بالطبع يا دكتور! انها مطمح كل رجل. حياة مثالية تتحقق فيها كل الآمال.

ـ هل حققتها أنت؟ أم هل نجحت في تحقيق ٥٠٪ منها؟.

ـ لا، إنني لم أحظَ بواحدة من المائة منها.

ـ وما هي الأسباب برأيك؟

ـ لا أعلم.

ـ حاول أنت تفهم موضع خطئك.

ـ الذنب ليس ذنبي يا دكتور. الاشكالية تكمن في شخصية علي، إنه يختلف عن سائر الشباب. لا يميل الى التوافق أو التكيف.

ـ وكيف ترى بقية أعضاء الأسرة؟

ـ إنهم طيبون. لا أعاني من مشكلة معهم.

ـ وما هو موقفهم؟ ألا يعانون هم من صعاب في الحياة معك؟

ـ لا أعلم.. لم يفصحوا لي عن شيء من هذا حتى الآن.

ـ وهل أن امتناعهم عن الشكوى وتحليهم بالنبل واحترامهم لمطالبك دفعك

لتتصور أنهم يوافقونك الرأي؟

ـ وهل حدثوك عن شيء في هذا الخصوص؟

ـ لا، ليس على هذا النحو. ولكن هل تتوقع الشعور بالرضا إزاءك من فتاة مريضة تعاني من آلام الروماتيزما، تضطر الى قطع المسافة بين البيت والجامعة للالتحاق بمحاضراتها في الأيام الممطرة وهي تتنقل بين حافلة وأخرى لأنك لا تمنحها من المال ما يكفيها لاستئجار سيارة تقلّها الى هناك؟ أم تتوقعه من مراهق تمنحه مرتباً أسبوعياً لا يسد نفقات تنقله بين البيت والمدرسة؟ ألا تفكر أنه يتعرض للاحراج أمام أصدقائه. أنه قد يرغب في شراء ساندويشة يسد بها رمقه أحياناً. أو أنه يضطر بدوره الى دعوة صديق له سبق وأن استضافه؟ الوضع كان يختلف فيما لو كنتم فقراء. ولكنكم في وضع مالي لا بأس به.

ـ لا أدعي أنني لا أملك مالاً، بل أملك ولكنني أنفذ به مشاريع لضمان مستقبلهم. شراء نصيبي من المحل استهدفت به ضمان مستقبلهم. أكدّ منذ العصر وحتى منتصف الليل فيه لا لشيء إلّا لضمان مستقبلهم. إنني لا أنفق ريالاً واحداً منه لنفسي.

ـ ولكنك مخطئ تماماً. ولِمَ لا تنفق منها؟ أنفق منها على أسرتك وعلى نفسك أيضاً. تمتع بالحياة يا رجل.. إهنأ بمعيشتك. لم يكن لزاماً عليك أن تبتاع هذا المحل وتلتزم بخطة عشرة أعوام بشأنه. البيت ملك لكم.. تملكون سيارة.. تحظى شهرياً بمرتب جيد. كنت تبتاع شقة بما ورثته من أبيك لتسد بايجارها نفقات أسرتك أو أن تبتاع محلاً آخر أصغر منه يرفدك بدخل يومي تمنحه لأسرتك. لقد نفر الجميع من سلوكك بهذه المنهجية رغم أنك تخطط في غفلة منهم لمستقبل أفضل لهم. ولكنهم لا يرغبون في مثل هذا المنهج لأنهم ينظرون الى مستقبلهم من خلال ظروف حياتهم الراهنة.. دعني أسألك: هل ترى أنك ستحقق ما تصبو إليه بعد انقضاء السنوات العشر؟ ألا يتركُكم علي حتى تلك

الأوان؟ ألا تغدو محبوبة عليلة أسيرة الفراش حتى ذلك الوقت؟ ألا تتخلى عنك زوجتك أو تقضي نحبها ـلا سامح الله ـ لفرط أساها؟ والأهم من كل هذا هل ستقاوم أنت هذه الضغوط العصبية والنفسية ومردود التدخين المتواصل حتى عشرة أعوام أخرى دون أن تلاقي حتفك؟ لا أمل لي في ذلك و...

على أية حال، الأوضاع تأزمت بشدة وعليك الاصلاح فوراً. بالطبع سأبعد عنك في الجلسات التالية خمسين بالمائة من التقصي وأوصد الأبواب بوجه الطعن في شخصيتك أمام أسرتك بالتحدث عن حسن نواياك وبعد نظرك في مصير العائلة باعتبارك أباً لها. ولكن يتعذر عليّ إلقاء اللوم على عاتقهم أمامك. يعلم الله أن الحق الى جانبهم.

ذات يوم قال لي رجل قروي: منحت كل ما أملك إبان حياتي لأبنائي. أخذت كل شيء بالحسبان واعطيته لهم ليهنأوا ويلتذوا به، سواء قليلاً كان أم كثيراً، وليحبوني ولا يتمنوا وفاتي. وها أنا أراني أمام رجل أحرز شهادتي بكالوريوس وخبرة مهنية طويلة و...

نجحت خلال الجلسات اللاحقة في الاصلاح بينهم واتفقنا حول كثير من الأمور. تقرر أن يبيع السيد محمودي نصيبه من المحل، ويبلغ ثلثه، لأحد شركائه ويبتاع بثمنه شقة يؤمن نفقات أسرته من دخل ايجارها ولينعم هو الآخر بقسط من الراحة لعدم اضطراره للعمل حتى منتصف الليل. كانت الزوجة تشعر بالرضا وهي تتوقع قرب تحقق راحة بنيها دون أن تبالي بنفسها وتحسب لها حساباً على حدة. كرسنا الجلسات الأخيرة للخوض في قضايا أخرى مثل مرتب كل من أعضاء الأسرة وحقوقهم المعنوية، مع التأكيد على عظم أهميتها مقارنة مع المزايا المادية، ومنها الاحترام المتبادل، حدود الحرية الطبيعية المفروض منحها لأعضاء الأسرة كل حسب عمره.

وبعد مضي سنتين على تلك الأيام تواصل هذه الأسرة حياة مرضية. وقد نال السيد محمودي من شراء الشقة ربحاً أوفر مما كان يرده من المحل. كما أنه

أقلع عن تدخين السجائر وآلى أمره الى وضع مريح بالنسبة له.

حكايتي مع هذه الأسرة كانت أكثر تفصيلاً مما سردته عليكم، امتنعت عن ذكرها تجنباً لاثارة مللكم.

وأخيراً، أقول: روي أن بخيلاً كان يكتنز مالاً وفيراً ويجمع ذهباً وفضة. اهتدى ابنه الى محل المسكوكات وراح ينال منها وطره فيهنأ بها بعد أن يستبدلها بالحجر ولما نفد الذهب فطن الأب لفعلة ابنه فشق جيبه وهو يقول: ما هذه النكبة التي أنزلتها بأبيك يا ولدي؟!.

فضحك الابن وقال:

الذهب وسيلة للراحة يا والدي. أما للجمع والحصر فلا فرق بين الذهب والحجر.

حساب المفاجأة

ـ زوجتي يا دكتور، تقول: «إنني أمقتك، أنت مريض تسيء الظـن بي. لا أريد الحياة معك، لا أطيق العيش معك من هنا فصاعداً».

ـ معذرة يا سيد «رحماني» أتسمح لي أن أطلع الى حد ما عـلى مجـريات حياتكما؟

ـ بالطبع يا دكتور.

ـ كم تبلغ من العمر؟

ـ ثمانية وأربعين عاماً.

ـ وزوجتك؟.

ـ ثمانية وثلاثين عاماً.

ـ كم طفل لديكما؟.

ـ إثنان، ابني في السابعة عشرة من عمره واسمه «علي» وابـنتي في الثـالثة عشرة واسمها «ملودي»[1].

ـ ما هي مهنتك؟

ـ لي فرن لصنع الطابوق.

ـ وهل زوجتك تعمل خارج الدار؟

---

١ ـ أي «نغمة».

ـ بعمل ثابت، لا. إنها تعمل حالياً في شركة لأخيها.
ـ ما هي مؤهلاتك الدراسية؟
ـ الثانوية.
ـ وزوجتك؟
ـ تحرز شهادتي بكالوريوس. إحداهما في اللغة الانجليزية والأخرى في الحاسوب.

كنت استشف من وجهه الملفح بأنه رجل كادح صامد. قال أنه يحضر محل عمله بعد أداء صلاة الصبح ولا يعود الى الدار قبل الثامنة ليلاً. لم يكن أنيق الملبس. فرغم تمتعه، حسب قوله، بوضع مالي مرفه كان يبدو في مظهر المعوزين. التزمت الصمت هنيهة. وبعد التنسيق ما بين كل هذه المعلومات، استكملت الصورة المتقطعة تقريباً ثم طلبت منه أن يواصل الحديث.

قال:

بدأنا حياتنا المشتركة منذ (٢١) عاماً. كانت آنذاك فتاة لم يتجاوز عمرها السبعة عشر عاماً تقريباً، وكنت في السادسة أو السابعة والعشرين وأعمل منذ سنوات الى جانب أبي في فرن الطابوق الذي كان يملكه. اخترت «شهلاء» من عائلة فقيرة جداً رغم اختلاف طبقاتنا اقتصادياً. كانوا أناساً شرفاء نبلاء يتجرعون شظف العيش، فأبوهم فراش في مصرف باحدى المحافظات. ولما تزوجنا أتيت بها الى طهران ووفرت لها عيشة رغيدة. لقد حازت شهادة الثانوية وهي زوجتي ولما رأيت ولعها بالدراسة شجعتها لمواصلتها حتى نالت شهادتي بكالوريوس خلال عشرة أعوام الى جانب انخراطها في دورات فنية كثيرة في مجال: التجميل، التصوير و...، ولكنها تغيرت تدريجياً فنبذت الحجاب ولم تعد تعلق أهمية على مبادئها السابقة.

انتقت صديقات ومعارف بين نساء لا يعرفن للالتزامات الخلقية معنى. ألقاهن عندما تدعوهن الى بيتنا، فأجدهن نساء غير صالحات. لا أتحمل هذه

القضايا.. ينشب النزاع بيننا بعد انصرافهن. كانت تأخذ علي كل مأخذ: نمط الملابس، تناول الطعام، الاستراحة وحتى مهنتي لم تسلم من لذعات انتقادها. لم أدخر وسعاً من أجلها. حتى بيتنا سجلت صك عقاره باسمها. اشتريت لها سيارة وتقبلت نفقاتها المختلفة دون تذمر. دفعت لها نفقات باهضة أثقل تسديدها كاهلي. حتى غدت تلح بأنني أريد ان أعمل خارج الدار. لم أوافقها الرأي. إنها ليست بحاجة الى عمل فنحن في رفاه تام. كانت تقول: وهل احرزت شهادتي بكالوريوس لاحتفظ بها في الدار؟ترى أن أعمال المنزل تعرض الانسان للمرض. على أية حال انتهجت شتى وسائل الايذاء والازعاج حتى رضخت لها ووافقت على اشتغالها شرط أن ارتضي محل عملها. عثرت على عمل في شركة لايدير شؤونها أناس معتمدون. كانت تقول أن مرتبها مرضي وأرغب في العمل فيها. لم أوافق على عملها فتركت الدار وذهبت الى بيت أبيها. ثم أرغمت على النزول عند رغبتها وزال الضيق بيننا. هكذا واصلت عملها وراحت يا دكتور تفعل كل ما يحلو لها دون أن تحسب لي أي حساب في الدار. ألبت أفكار الابناء ضدي وصاروا مثلها لا يكترثون بي أبداً.

ـ وأي حدث ألجأك لمراجعتي بعد كل هذه السنوات؟

ـ نشب بيننا قبل عدة أيام شجار كبير فتركت الدار واتجهت الى بيت أخيها. تقول: لا أرغب في مواصلة الحياة الى جانبك. طلقني. لم تقتنع بالعودة الى الدار مهما ألححت عليها. لا أعلم ماذا أفعل. راجعتك لعلي استهدي السبيل.

ـ وأين الأطفال؟

ـ في بيتنا.

ـ لابد أنهم يشعرون بضيق شديد لفراق أمهم. أليس كذلك؟

ـ لا، ليس الى هذا الحد. إنهم على اتصال بها ويوافقونها الرأي أيضاً.

ـ نوجز القضية بأنك تزوجت فتاة من سكنة المحافظات ومن طبقة اقتصادية متدنية للغاية، ووفرت لها كافة مستلزمات الحياة وأنك وضعت جل

دخلك في متناول يدها، وأخذت بيدها للوصول الى مستويات دراسية واجتماعية واقتصادية راقية والتزمت معها بطيب المعشر، ولكنها رغم ثقتك بها تغدرك وتنوي تركك بعد الاستحواذ على كل شيء. هذا ما تريد أن تقوله؟

ـ أجل يا دكتور، تقريباً.

ـ والأطفال ينوون الانضمام إليها. اليس كذلك؟

ـ إنها في الحقيقة لا تطالب بالأبناء.

تساءلت في نفسي: وكيف يمكن أن لا ترغب في انضمام الأبناء اليها وهما يفضلان أمهما على أبيهما؟. قلت:

ـ ولم نشب الشجار بينكما هذه المرة؟

ـ لقد تزوجت أختها قبل سنة أو سنتين رجلاً عديم الشخصية ولكنه متعجرف يتكلف في سلوكه الى حد كبير. إن علاقة زوجتي بهذا الرجل حميمة جداً مع الأسف. عندما تجتمع اليه تتهامس معه لساعات وساعات. حل هو وزوجته ضيفين في دارنا قبل أيام. عند تناول العشاء اختارت زوجتي المقعد المجاور له بدلاً من أن تجلس الى جانبي. وراحت تصب العصير وتقدمه له بدلاً من أن تصبه لي ثم اختارت بعد الفراغ من تناول العشاء الأريكة المقابلة له واسترخت في نمط جلوسها أمامه بما لا يليق وشأن سيدة متزوجة. نشب النزاع بيننا بعد انصرافهما إثر احتجاجي على تصرفاتها. قالت: «أنت مريض مصاب بالوسواس الفكري. لم أعد أطيق هذا الوضع».

ـ وهل حدثت كل هذه الأمور على مرأى أخت زوجتك؟ وكيف لم تثرها هذه القضايا؟

ـ هذا ما أذهلني يا دكتور. يبدو أن الثقة بينهما بلغت ذروتها. ربما لا تصدقني ولكنني لا أنطق إلّا بالحقيقة.

كلامه كان مثيراً إلّا أنه لا يمكن الاعتماد عليه تماماً لاتخاذ الموقف المناسب. كان لابد لي أن ألقى الزوجة وأن أجري للسيد رحماني نفسه الاختبارات

النفسية.

***

في الجلسة التالية كانت حصيلة الاختبارات جاهزة وقد أثبتت جميعها نوعاً طفيفاً من الإصابة باختلال البارانويا، وهو اختلال نفسي يتخذ إثره المريض مواقف خاطئة وآراء خاصة يتعذر اقناعه بخطئها وضرورة تركها مهما بذلت المساعي لشدة تمسكه بها.

ويسمى هذا الاختلال في أيامنا هذه «مرض الهذاء». والهذاء اعتقاد باطل ولكنه راسخ يتعذر كما قلنا تغييره. يصاب المريض في هذه الحالة بهذاء واضح إزاء قضية معينة. ففي بعض الحالات يشدد المريض في هذائه على خيانة الزوج ونسمي هذه الحالة المرضية (Erotomania). وقد اطلقت عليه كذلك متلازمة «ساتللو» المستوحاة من حكاية «اتللو»، نوجزها بأن الزوج تملكه اعتقاد باطل حول خيانة زوجته مما حدا به الى قتلها ثم فطن لبطلان اعتقاده.

وفي حالات أخرى تهيمن على المريض فكرة محاولة الآخرين للاضرار به فتتركز أفكاره كلها حول هذا الموضوع مما يثير شكوكه تجاه الناس جميعاً.

وفي حالة مماثلة يتوهم المريض بأنه فقد جميع ممتلكاته وأنه يتخبط في أحضان الفقر والمأساة، فيناله الهم على أمواله المهدورة. كل هذه الأفكار تداهم المريض وهو لا يعاني من أية مشكلة على أي من تلك الأصعدة. وإن تعرض لسوء فيها فإنه لا يبلغ حداً هاماً ومصيرياً. تشير الكتب أيضاً حول حالة خيانة الزوج أن حياة المريض وإن شهدت خيانة ما ولكنه لا يعبأ بها بل ينكب على ذكر براهين ومفروضات بعيدة كل البعد عن تلك الخيانة. وهي أمور لم تحدث على أرض الواقع قط. أي أنه لم يتنبه الى الخيانة الحقيقية بل يشغل باله بحالات أخرى لا تمت الى الحقيقة بصلة. والسبب هو انسدال غشاوة الهذاء على بصيرة المريض حتى يعجز عن التميز بين الحقائق والأوهام.

وفي ضرب آخر من هذا المرض يخيل الى المريض أن شخصية بارزة قد اشغف به حباً فتتخذ أفكاره دوماً مثل هذا الاتجاه، وقد أشرنا الى أنموذج من هذه الحالة في قصة «النجم السينمائي».

على أية حال، اشارت اختبارات السيد «رحماني» الى وجود أعراض مثل هذه الحالة لديه. ولكنني لم أتناسَ هذه الحقيقة الحساسة وهي أن انشغال أفكار المرء إثر تشوش الحقائق المحيطة بحياته قد تلقي به في متاهات الأوهام والخيالات، أي أن عامل المرض وكما ذكرت قد يكون ذا حقيقة قائمة على أرض الواقع ولكن نفس المريض تهوله وتضخمه. وهذا ما تحتم علي أخذه بنظر الاعتبار في حالة السيد «رحماني». كل هذه الأمور ستتم استبانة صحتها خلال جلستي مع زوجته:

ـ حسناً جداً يا سيد «رحماني»، هل لي أن التقي زوجتك خلال جلسة ما؟

ـ لا أعلم، قد تحضر.

ـ بوسعك أن تقول لها: إنني راجعت طبيباً نفسانياً وتحدثت اليه عن جميع مشاكلي وآرائي وقد وجه لك الدعوة لزيارته وتقديم ايضاحاتك ليتمكن عندئذ من إبداء رأيه بدقة. ثم أخبرها بأنك ستذعن لرأي الطبيب مهما كان. ستحضر لا محالة بعد هذه الايضاحات. لا أظنها ترغب في إفناء حياتها الزوجية إن كانت تتمتع بالواقعية والرشاد. سوف تستعيد رغبتها في مواصلة الحياة معك عند التخلص من هذه المشاحنات بحسب قولها.

ـ وإن احجمت عن الحضور؟

ـ سيكون الحق الى جانبك، أو انها تثبت معاناتها من حالة مرضية تسلبها المحفزات الكافية لانتشال حياتها. وفي تلك الحالة سنضطر لاتخاذ اجراء آخر.

***

في الجلسة التالية حضرت السيدة رحماني كما توقعت. لم تبد لي أنها طائشة

أو رعناء. ولكن اختلاف المستوى مشهود بينها وبين زوجها. كانت، كما استنتجت من حديث زوجها، قد قضت العشرين سنة من حياتها الزوجية في محاولة دؤوبة للرقي على الصعيد الاجتماعي والدراسي والاقتصادي. وقد نالت النجاح في ما ترنو اليه الى حد كبير خلافاً للسيد رحماني. انه رغم حبه لها، أعرب عن حبه لها وشغفه بها بمنحها مزايا تفوق استحقاقها، ولم يحاول قط تحقيق شخصيته بالعمل على نيل الرقي الثقافي والاجتماعي والدراسي وبالتالي كسب الثقة بالنفس بل تقهقر دوماً أمام مطالب زوجته لكسب ودها وارضائها، ولم تكن زوجته من جانبها ذات روح متسامية لتستوعب كنه هذه التضحيات والتفاني.

بلغ الأمر حداً لتحسب حياتها المشتركة حصيلة زواج جائر. لم أوافق الزوج رأيه حول تهور المرأة بل فطنت الى أنها انخرطت في حياة لم تألف طبيعتها ونمط ترابط مكوناتها وعناصرها. لم تكن بالطبع حياة بعيدة عن جادة الصواب ولكنها كانت تتنافر تماماً مع ثقافة السيد رحماني. فمثلاً صارت المناقشات الايديولوجية وكذلك الفنية والفلسفية وما اليها أمراً مألوفاً للزوجة. كان لابد لها بطبيعة الحال أن تتبادل الآراء مع الآخرين عند اجتماعها معهم، سيان لديها ان كانوا نساء أو رجالاً، طاعنين في السن أو شباباً. كما في التباحث علمياً حول قضايا تتعلق بالحاسوب وهو ما يدخل في صلب اختصاصها أو التكلم أحيانا بالانجليزية، اللغة التي تحرز شهادة البكالوريوس فيها، وهذا ما لا يروق للسيد رحماني. كان لا يحبذ تحدث المرأة الى الرجال ويعتبره تهوراً منها وطيشاً. كان تحدثها عن أمور لا يفقهها يشعره بالنقص والحطة ويثير انعكاساته السلبية لأنه يرىٰ أنها تمسك بحبل الحديث حول مثل هذه المواضيع استهانة واستخفافاً به فيفسر حديثها بالانجليزية أو مراسلاتها بهذه اللغة عبر البريد الالكتروني باعتبارها سلوكيات ذات مغزى خاص و...

كانت هذه الأمور تدفعه لتهويلها وربطها مثلاً بشجار نشب بينهما قبل عدة

أيام أو بابتسامات زوج أختها يوم أمس و...، فتحولت الى عاصفة عاتية تدك حياتهما الزوجية فتحثه لاتخاذ موقف حاد إزاء زوجته.

من جهتها كان ينبغي للسيدة رحماني أن تسلك ببصيرة وتحجم عما يثير زوجها الى جانب الاستعانة بأطفالها لحث أبيهما نحو الرقي، وأن تكف عن مبادرات يتحسس منها. كان لابد لها أن تنتهج مثل هذا الاسلوب فيما لو كانت متمسكة بحياتها لأنها ستكون الشخص الأكثر تضرراً بل سيفنيها الطلاق، فجل عزّها وتبذلخها تركز في تمتعها بإمكانيات زوجها المالية. وهنا يتجلى بحث نفسي دقيق هو:

١ ـ في حالة تمتع السيدة رحماني بالتقوى والمعنويات الفياضة اضافة الى الثقافة والعلم والبصيرة مثلما تحاول أن تصف نفسها، كان يترتب عليها أن تثمن مساعي الزوج وتفهم مشاعره وتأخذ بيده للتأقلم والتوافق تدريجياً مع الظروف الجديدة وتوجهه للتنبه لفقره الثقافي بلباقة تحفظ له كبرياءه تجنباً لتحطيم شخصيته.

٢ ـ وفي حالة كونها شخصاً عادياً يطمح الى الرفاه، عندئذ كان لزاماً عليها أن تسعى حثيثاً لئلا تجرح أحاسيسه لأنه كان بمثابة مصرف يدر عليها المال وأنه على أقل تقدير يتحمل عبئاً مالياً مضنياً جراء اسرافها في الانفاق دون أي احتجاج أو اعتراض، وانها بعد طلاقها ستعجز عن تأمين مثل هذه النفقات.

إذاً في كلتا الحالتين كانت غير صائبة في سلوكها ويتحتم توجيهها في هذا السياق.

القضية الثالثة التي كان يفترض عليّ أخذها بنظر الاعتبار هي أن السيدة رحماني أكثر ذكاء من أن تغفل عن هذه الحقائق. انها كانت تدرك أن زوجها مغرم بها وأنه لن يتركها لمثل هذا السلوك بل كانت كلما ارتطمت مطالبها بجدار رفضه تحاول أن توحي له بمثل هذه السلوكيات انها قد تطلب منه الطلاق فيرضخ الزوج المسكين بعد فترة قصيرة لجميع مطالبها. هكذا اعتادت أن

تفرض عليه رغباتها كافة.

بهذه المنهجية واصلا الحياة حتى تلك المرحلة. وحتى الأطفال أدركوا جيداً أن هذه الأحداث لا تتضمن ما يثير القلق والازعاج.

***

كرست جلستين للتحدث الى السيدة رحماني. استوثقت خلال الجلسة الأولى من صحة الاحتمال الثالث. وكان لزاماً عليّ في الجلسة الثانية أن أوقظ أفكارها المغرورة لتفهم أنه ليس من الحكمة أن تطمئن النساء الى طبيعة الرجال فثلة كبيرة من النساء وفي ذروة انغماسهن في تعجرفهن وتمتعهن بالهيمنة المتأتية من مثل هذه الطمأنينة الواهية واجهن انتفاض الزوج إزاء هذه الأوضاع ولجوءه الى «أخرى». وخلافاً لتوقعاتها تحسن «تلك الأخرى» فهم الزوجة لأنها تماثلها في الجنس وتفطن لجميع خطط غريمتها ودوافعها قبل مرحلة التجرؤ على الاقبال عليها وتنفيذها، فتنقلب الأوضاع رأسها على عقب وعندئذ تحتار الزوجة وتغلب على أمرها.

وهذا ما قد يحدث للسيد رحماني لاسيما وهو الشاب الثري الذي من شأنه أن يكسب اهتمام وثقة الجنس المغاير. قلت للسيدة رحماني:

واجهت حتى الآن مئات السيدات يجلسن قبالتي على ذات الأريكة التي تجلسين عليها وعدد كبير منهن أكثر نباهة وثقافة وجمالاً منك. وقد سبق لهن التخطيط مثلك. لكن الحقائق أثبتت زيغان توقعاتهن فعلى حين غرة ظهرت الغريمة التي انقضت على الفريسة في طرفة عين. لما تنبهت السيدة رحماني وهي ذات الذكاء الحاد الى غايتي من ذكر هذا الموضوع، رحت أوجهها الى الطريق الصحيح، وكيف يمكنها أن تهتم بنفسها وبأبنائها دون أن تغيظ زوجها. ثم وجهت الدعوة للسيد رحماني وطلبت منه أن يزورني بعد عدة أيام لعقد جلسة ثنائية. لم أكن بحاجة لتذكرني السيدة رحماني برغبتها في كتمان ما دار بيننا من

حديث أمام السيد رحماني لأنه نهجنا في العمل. إننا لا نكشف عن ذلك للجانب الثاني سوى في حالة اثبات إصابة أحد الجانبين باختلالات مرضية خطيرة. ولم تكن السيدة رحماني تعاني من مثل هذه الاختلالات.

إنفردت في الجلسة الأخيرة بالسيد رحماني. قال:

ـ بدأت خلال الأيام الماضية انتهج الطريقة التي أوصيتني بها يا دكتور، حيث زرت زوجتي حاملاً باقة من الزهور واصطحبتها معي الى دارنا. هي الأخرى صارت تحسن سلوكها معي كثيراً.

قدمت للسيد رحماني في تلك الجلسة ما كان يدور في خاطري من وصايا وذكرته بأنه لا ينبغي أن يكيل الاتهامات المشينة لزوجته لأنه كما قد أقر هو نفسه إثم عظيم و... ثم أرغمته في النهاية على حصر ساعات عمله والعمل على ترقية مستواه، سواء على صعيد مظهره أو على الصعيد الثقافي، لتعزيز ثقته بنفسه إزاء أعضاء أسرته.

قلته له ممازحاً:

اجهدت نفسك لسنين متمادية في طلب الرزق وانفاق الدخل، كأنك لم توفق الى النتيجة المنشودة وقد حان الأوان لتهتم بنفسك، فقد تجدي هذه الطريقة أكثر من الأولى.

انصاع الرجل لكلامي وعاهدني أن يبذل ما في وسعه للحفاظ على كيانه الأسري.

***

هنا أرغب أن أوجه كلامي الى جميع الأشخاص الذين يقبلون على استئناف حياة جديدة:

أعزائي الكرام:

ضعوا نصب أعينكم دوماً أن تنتقوا الزوج من ذات الطبقة الثقافية

والشريحة الاجتماعية ففي غير هذه الحالة لا يكتب الاستمرار لتلك الحياة وان تم لها الدوام باحتمال ضعيف فانها سوف لا تكون حياة سارة.

من جهة أخرى، ينبغي عليكما أيها الزوجان وفي حالة انسجامكما على الصعيد الفكري والأسري أن تبذلا جهودكما للحفاظ على هذا الانسجام الأولي وعدم الاخلال به. لا يعني ذلك وقوف كل منكما حائلاً بوجه تقدم الآخر بل عدم التثبت في موقع متخلف عندما تحثون فيه الجانب الآخر للتقدم واكتساب الخبرات في المجالات الأخلاقية والثقافية والعلمية و... لا تسمحوا بظهور الهوة بينكما. كما يقتضي من جهة أخرى على أي منكما يواجه تفاني الآخر في سياق تمهيد شتى السبل لتقدم زوجه، أن تثمنوا جهوده متجنبين تناسيها في خضم الأجواء المستجدة. تذكروا أنكم سحقتم بأقدامكم إبان التقدم الى الأمام الكثير من حقوقه. لا تفسحوا المجال للغرور أن يهيمن على نفوسكم فلكل امرئ واجهتان. احترزوا من طعن الجانب الآخر فقد يبادر فجأة في ذروة غروركم واعتزازكم بأنفسكم الى ما يسيء به لنفسه واليكم أيضاً أو قد تضطركم الحاجة اليه ثانية في موقف مماثل. فسيتخذ حينئذ موقفاً لا يتسم بالوداعة والانصياع.

إذا لا تطمئنوا لطبيعة الآخرين واحسبوا دوماً حساب المفاجأة.

البندقية الهوائية

كان «خدايار» قد عاهد صديقه «داريوش» كراراً أن يصحبه ذات مرة في جولة لصيد الطيور ولكن الفرصة لم تواته لتنفيذ وعده لسبب أو آخر، حتى حل موعده في عيد النيروز في تلك السنة. كان أبو «داريوش» قد ابتاع له بندقية هوائية منذ أمد طويل ولكن شريطة أن لا يستخدمها أبداً في داخل المدينة. ومعنى ذلك أن لا يفكر بالصيد إلّا إبان زيارة القرية بالنظر لعدم توفر المكان الملائم لمثل هذا العمل او الشخص الذي يهدي هذا الفتى المدلل في هذا السياق.

كانت القرية أفضل بيئة يحقق فيها الفتى رغبته لاسيا وأن صديقه «خدايار» قد نشأ في أحضان الجبال والسهول. إنه يكنّ لداريوش حباً شديداً وتربطه به علاقة وثيقة. كل هذا يخول داريوش للالحاح عليه. كانا متقاربين في السن فعمر «خدايار» لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً وكان داريوش في الثانية عشرة من عمره. إنه نجل المهندس «منفرد» وحفيد الحاج «حسين منفرد» المعروف في تلك المنطقة باسم «حسين خان».

قبل إجراء التعديلات في قانون الملكية وتوزيع ممتلكات الاقطاعيين (الخوانين) بين المزارعين، كان لـ «حسين خان» اثنتا عشرة اقطاعية ورثها عن أسلافه. لكنه منحها جميعاً للناس بعد هذه الأحداث واحتفظ لأبنائه بعدة بساتين وعقارات وزعها بينهم. كان «حسين خان» رجلاً ثرياً لم تبق هذه

الوقائع بحوزته ثروة كبيرة ثم لم يرق له ان يشغل باله بجمع الأموال فقد كان مؤمناً مثقفاً. رزقه الله بابنتين زوجهما منذ أمد طويل ومنحهما نصيبهما من أمواله ليشهد هناءهما بحياتهما وهو على قيد الحياة.

كما كان له ابن يصغرهما بعثه منذ سني المراهقة الى خارج البلاد بهدف تثقيفه، على حد زعمه، والابن «ايرج» كان خَلقاً وخُلقاً على شبه كبير مع أبيه وكأنه نسخة مستنسخة منه. حقق طموح الأب في المثابرة واكتساب العلم فتخرج بعد عدة أعوام مهندساً في صناعة النسيج وعاد الى ايران. كان الابن حصيلة عمر الرجل وقد عاد اليه حاملاً شهادة اختصاص في مجال يتمتع هو ذاته بخبرة يسيرة فيه فافتتح معملاً بسيطاً لصناعة الأقمشة ثم منحه لابنه «ايرج» بعد تيسير الأمور فيه والوصول الى مرحلة تثبت العائدات لينفرد في حياته مع زوجته لا يشغل باله بهم، فقد كان من القلة القليلة التي لم تكدر قضية تعديل قانون ملكية الأراضي صفو حياتهم علماً أن سكنة اقطاعياته لم تسرهم هذه الوقائع كثيراً لأنهم كانوا يحسبون حسين خان أباً لهم ويحبونه من صميم القلب لرأفته بهم وتواضعه وصلاحه.

بعد فترة من الزمن التحق حسين خان ببارئه فورث إيرج عنه رئاسة عشيرته وهو ما يزال شاباً، إلّا أنه أخذ عن أبيه نضوجه ومبادئه السامية. هكذا حاز المكانة ذاتها في قلوب سكنة تلك القرى ونال بذلك حظه من ارشادهم وتوجيههم. إلّا أن انشغاله الزائد آلى به أخيراً ليحدد رحلاته بزيارة قرية «حسين آباد» مركز تلك الضياع وكان له بها بستان يتقصى أوضاعه في بعض الأحيان. المبنى الجميل في البستان كان يذكي ذكريات أبيه وجده في مخيلته ولهذا كان يحبه كثيراً.

بعد وفاة حسين خان طلب «ايرج» الى جد «خدايار» البقاء في البستان وتولي شؤونه. وبعد رحيل الجد فوض المهمة الى أبي «خدايار». كانوا قد فضلوا البقاء مع أسرة منفرد ومواصلة خدمتهم.

واصل «العم اسماعيل» أبو خدايار عمله في البستان الكبير وفي دار المهندس اضافة الى تولي مسؤولية ممتلكات أختيه وصار يملك مجموعة من البقار والخراف أيضاً. كان المهندس «منفرد» دليل سكنة القرية وكبيرهم وهو بين الفينة والأخرى يمد لهم يد العون متى ما احتاجوا اليه. كان قد بلغ متوسط العمر وهو كأبيه أب لابن وابنتين، وبطل قصتنا «داريوش» هو ابنه الوحيد وقرة عينيه.

***

بهذه المقدمة يسعنا أن نخلص الى قوة علاقة الصداقة بين داريوش (ذي الاثني عشر عاماً) وخدايار (ذي الثلاثة عشر عاماً) وصفائها لاسيما من قبل الفتى القروي. قال المهندس للعم اسماعيل عدة مرات:

ـ نويت يا عم اسماعيل، أن اصحب خدايار بعد أن يترعرع الى المدينة ليواصل دراسته الجامعية الى جانب ابني داريوش فيتخرجان مهندسين أفوض لهما أمور المعمل.

ويرد العم اسماعيل في كل مرة:

ـ سيدي، الأمر أمرك. وخدايار خادمك. إننا بعد الله عقدنا أملنا فيكم أنتم أسرة المرحوم حسين خان.

***

كان الطقس الجبلي البارد نسبياً في تلك الظهيرة من أيام عيد النيروز (عيد الربيع المصادف لمطلع السنة الهجرية الشمسية) منعشاً للغاية.. السماء صافية لا يكدر زرقتها الخلابة إلّا بقع الغمام البيضاء.. الجبال مكسوة في نصفها العلوي بالثلوج.. النباتات الطبيعية العبقة، البراعم الربيعية وهي تغزو البساتين والسهول، خرير المياه المنسابة من الينابيع، زقزقة العصافير المطربة، كلها تعلن

قدوم الربيع. حماس داريوش بلغ مبلغاً أنفد صبره بمجرد فراغه من تناول الغداء فحمل بندقيته واتجه الى دار «خدايار». كان خدايار في الاصطبل يرعى عجلاً ولد تواً منحه أبوه أياه. تنبه خدايار لقدوم داريوش عند سماع صرير الباب ولنيته عند رؤية البندقية.

ناداه داريوش:

ـ خدايار! الطقس رائع اليوم. الجبال تزدحم في مثل هذا الجو كما تقول بالحمائم والطيور. لا داعي أن تنكث وعدك. هيا بنا الى الصيد، وحالاً.

كان خدايار قد فوجئ تماماً بطلبه فتململ قليلاً ولكنه رضخ له في النهاية وقال:

ـ حسناً جداً، ولكن علي أن استأذن أبي أولاً.

ـ افعل ما تشاء. سأنتظرك هنا ريثما تعود.

اتجه خدايار الى دارهم وتحدث الى أبيه حول الموضوع. كان الأب واثقاً من نباهة ولده وحصافته ولكن هابه تحمل مثل هذه المسؤولية فقال له:

ـ القرار قرار المهندس. امكث هنا حتى استطلع رأيه.

كان المهندس ايرج قد اغتنم الفرصة لينال قسطاً من الراحة في ذلك الطقس الربيعي البديع فاختار الجلوس في شرفة الدار وهو يمسك بكتاب يلقي فيه أحياناً نظرات خاطفة. ولما أبصر العم اسماعيل يقبل نحوه، قال له:

ـ أراك هنا يا عم اسماعيل!

ـ سيدي، داريوش خان يلح على خدايار أن يرافقه لصيد الطيور في ضواحي القرية فماذا ترى؟

ـ لا مانع لدي. شرط أن لا يلحقا سوءاً بنفسيهما أو بالآخرين وأن لا يبتعدا كثيراً عن الدور.

ـ لا، سيتنزهان في ضواحي القرية.

ـ قل لهما أن لا يبتعدا عن شجرة الجوز في أقصى القرية.

ـ أمرك يا سيدي.

***

الساعة شارفت على الثانية من بعد الظهر عندما غادر الفتيان القرية. روعة الطقس ولطافته كانت تنعش الجميع على اختلاف الأعمار فكيف بصبيين مبتهجين ومشاكسين، وقد زال عن الطقس برودته اللطيفة أيضاً بعد أن نالت الأرض نصيباً من دفء الشمس. زقزقة العصافير وترنم الطيور كان يستدرجهما نحو مصدره حتى نسيا الحدود المسموح لهما بالتنزه فيها. ورويداً رويداً صارا في غفلة منهما على مسافة بعيدة من القرية. وغابت القرية عن أنظارهما بعد عبور آخر تل.

كان داريوش قد ابتاع بندقيته تواً ولم يتمرس بعد على الرماية ولكن نفسه كانت تأبى ترك التبذخ أمام خدايار فراح يتظاهر ببراعته في التهديف. وخدايار من جهته لا يعرف شيئاً عن البندقية وقد صحبه باعتباره دليل طريقه لا غير. ولكن كبرياء المراهقة واباء القروي لم تسمح له بأن يستصغر شأنه أمام داريوش.. هكذا جابا الصحراء بحثاً عن الطيور وكلما يخطئان الهدف يتركان المحل الى آخر لعله يوفر لهما حظاً أوفر. كان داريوش في كل مرة يخطئ فيها التصويب يستقصي من خدايار عن أماكن أكثر ازدحاماً بالطيور فيبتعدان عن القرية أكثر فأكثر. وفيما الشمس تجر أذيالها نحو المغيب صارا على مسافة كيلومترات من القرية ودنيا من جبل شاهق تغطي الثلوج المساحة الأكبر من سفحه.

ومع كل ذلك يصر داريوش على مواصلة الجولة. لم يكن على اطلاع بأوضاع المناطق الجبلية. أما خدايار فقد كان يدرك الظروف ويتلقى انذارات الطبيعة عن وعي. أدركه الخوف وهو يفطن لحلول الظلام وما يحمله من معان في تلك المنطقة.

كان داريوش متحمساً لتسلق الجـبل دون اكتراث باشتداد البرودة شـيئاً فشيئاً أو بتوسل خدايار اليه وهو يحذره من الابتعاد أكثر من ذلك عن القرية. راح داريوش يتسلق الجبل ويستدرج خدايار لتتبعه حتى وجدا نفسيهما وسط تلال من الثلوج. في تلك الأثناء صوب بندقيته طيراً مـا ولكـنه فشـل عـن اصابته.. طار الطير نحو أعلى الجبل وراح داريوش يتتبعه. شـعر «خـدايـار» باليأس وهو يحاول عبثاً أن يمنعه من التقدم كأن أُذني داريوش قد صمّتا عن سماع صوت آخر غير صوت الطائر فاسترسل في سيره. وعلى مقربة من الغار غاب الطائر عن انظارهما. كان الطائر قد توغل في الغار وجرّ داريوش وراءه. اختار «خدايار» الانتظار خارج الغار. توسلاته المتواصلة بالعودة لم تلق اذناً صاغية من داريوش فاضطر لتقصيه. كان الجو أكثر برودة في داخل الغار وقد زاد الظلام من رهبته وهلعه. لم يدرك داريوش فداحة الموقف وخطورته نظراً لجهله بمثل هذه الأمور. وجد الصبيان نفسيهما في رواق ممتد لا يطرق أسماعهما فيه صوت طائر. قال داريوش:

ـ لابد لنا أن نرعب الطيور بصيحاتنا لتترك مخابئها.

ـ لا تفعل يا داريوش. انه عمل خطير. سينهار سقف الغار.

ـ الغار كله من الحجر فأنى له أن ينهار؟!.

ـ انهار قسم من هذا الجبل وقضى على حياة عدة أشخاص في العام الفائت.

ـ نحن في داخل الغار. لا يلحقنا انهيار الجبل بسوء.

قال هذا وبدأ يطلق صيحات يهولها ارتطامها بجدران الغار الباردة، فتدوي في أروقته. أيقظت الضجة المفتعلة عدداً من الخفافيش من النوم. فراحت تحلق في الغار لما أصابها من الرهبة وأخذت سبيلها أخيراً نحو خارج الغار. تحمس داريوش لرؤية منظرها وراح يحاول افتعال ضجة أكبر باطلاق صيحات أقوى لايجاد انعكاس أضخم، فتسبب في اهتزاز جدران الغار ومن ثم طبقات الجليد شبه الذائبة في خارج الغار فانزلقت طبقات الجليد المحملة بالمياه الذائبة فوق

بعضها وانسابت تتساقط من أعلى الجبل نحو أسفله وتحولت الى آمينوس عظيم انساق نحو أسفل الجبل، وأخذ يسد فوهة الغار تدريجياً ثم ساد الغار صمت رهيب. لقد انغلقت الفوهة وتحول الغار الى سجن للصبيين. سجن عمه ظلام دامس. ازدادت حدة البرودة والتحمت أسنان داريوش لفرط ما أصابه من خوف رغم أنه لم يفطن لهول الموقف بعد خلافاً لخدايار فقد أدرك حقيقة البلية التي نزلت بهما. لقد آن الأوان للصبي القروي ليلعب دوره كسيد الموقف ولكن.. ماذا عساه أن يفعل وهل يمكنه ان يزيح أكوام الثلج عن فوهة الغار لانقاذ حياتهما؟ لم يكن بوسعه اتخاذ مثل هذا الاجراء، مرت عدة دقائق حتى ثاب الصبيان الى رشدهما وأخذ خدايار يفكر بطريقة انقاذ حياتهما مذهولاً. فقال:

ـ لنتجه الى نهاية الغار لعلنا نعثر على مخرج آخر.. يتراءى لي وميض من النور في الجانب الآخر من الردهات.

تقدما نحو الأمام على أمل الخلاص من هذا المأزق ولكنهما لم يعثرا في النهاية على شيء آخر سوى الجدران الصخرية.

كان هنالك ثغرة ذات قطر يتراوح بين متر أو مترين في سقف الغار ينبعث منها وميض النور الذي لاح لخدايار، إلّا أنها مغطاة بالثلوج والجليد بما يخرج ازاحتها عن وسعهما و...

في خارج الغار أسدل الظلام ستاره تماماً على كل مكان وما هذا الوميض إلّا انعكاس انكسار الضوء بين طبقات الجليد وليس ضياء الشمس. أيقن خدايار أن الغار يخلو من الحيوانات المخيفة وما يهدد حياتهما الآن هو البرد القارص.. ليتهما كانا يتمكنان من اضرام نار تمنحهما قدراً من الدفء. لم يكونا بحاجة في مثل طقس ظهيرة ذلك اليوم لارتداء معاطف سميكة ليتأزرا بها الآن. اخترق البرد أبدانهما وأخذ يعزف على عظامهما بلحن قاس يشعرهما بعظم الخطورة التي تهددهما. كانا يقفان على أعتاب الموت لا يفصلهما

عنـه إلّا خطوات.

***

مع حلول الظلام دب القلق في قلب العم اسماعيل والمهندس منفرد، وبعد ساعة أو ساعتين من الانتظار أنبآ بيأس واضطراب أهل القرية استعداداً للبحث عن الصبيين. سار معهما (١٠ـ١٢) شخصاً من شباب القرية يحمل كل منهم فانوساً أو مشعلاً واختار مسيراً ما. وصحب العم اسماعيل المهندس.

ـ يا عم اسماعيل، أنت أكثر إلماماً مني بالطرق. أية جهة قصدا برأيك؟

قال العم اسماعيل وقد نشّف القلق والاضطراب لسانه:

ـ لا أعلم يا سيدي. خوفي أن يكونا توجها الى جبل «تخت سليمان» (عرش سليمان» لأن خدايار يتحدث أحياناً عن توفر فرص صيد الطيور في تلك المنطقة. عساني أكون أخطأت فذلك الجبل مليء بالثلوج وهو دائم الانهيار في الربيع.

قطع العم اسماعيل كلامه وهو يقرأ امارات الخوف على محيا المهندس ثم التفت الى المهندس وهو يرتعد خوفاً وقلقاً. وقال:

ـ لا تقلق يا سيدي، فخدايار صبي واعي وسيرعى «داريوش خان».

ـولكن.. يا عم اسماعيل، خدايار هو الآخر صبي، وماذا عساه أن يفعل؟!.

كان المهندس رجلاً نبيهاً يعلم مدى قساوة الطبيعة وأن العم اسماعيل إنما ينطق بهذه العبارات ليهدئ روعه. في الحقيقة لم يبق للعم اسماعيل أمل إلّا بالكلب «كركي» حارس قطيعهم. كان الكلب مستأنساً بخدايار كثيراً وقد امتنع خدايار عن اصطحابه في تلك الظهيرة خشية أن تفر الحيوانات عند سماع نباحه. كان الكلب اعتاد استشمام الصبي فولوه مهمة البحث عنه. ولكن هبوب النسمات الباردة كانت تبعثر رائحة خدايار ولكن الكلب الذكي كان يثابر على شق طريقه الى الامام رغم الصعوبة التي يلقاها في تنفيذ مهمته. لم يكن للرجال

حيلة إلّا الاستسلام لتوجيهات الكلب. كانوا قد قربوا ملابس الصبيين الى الكلب ليشمها ويزداد تثبتاً من هدفه المطلوب.

كان العم اسماعيل يزداد قلقاً وهو يرى «كركي» يهتدي نحو جبل «تخت سليمان» فتجاهل الأمر لئلا يلفت انتباه المهندس فيشتد اضطرابه إلّا أن تجاهله لم يكن لينفي الواقع، فالكلب كان يشق طريقه بالضبط نحو ذلك الجبل.

***

ـ افعل شيئاً يا خدايار. أوصالي في طريقها الى التجميد.

ـ تحرك يا عزيزي داريوش. لا تجلس. الرياضة هي الحل الوحيد. السكون يعني التجمد دون شك.

ـ لا رمق لدي للحركة. لقد تعبت. أصاب الخدر قدميّ. لم أعد أتحكم بأصابعي.

ـ ابذل جهدك. إنك رجل. والرجل لا يتخاذل أمام هذه الأمور. قاوم الظرف. سيلتحق بنا أبوك وأبي وأهل القرية وينقذوننا.

ـ ومن أين لهم أن يهتدوا الى مكاننا؟

ـ سيهتدون. الكلب «كركي» سيوجههم الى هنا.

ـ وهل بامكانه أن...

انقطع كلامه. لقد ألجم البرد لسانه. لم يكن خدايار أحسن حالاً منه إلّا أنه كان قد تعلم أن سبيل مغالبة الحياة والطبيعة يتلخص في مجابهتها بثبات وتجلد. انه الدرس الذي تلقنه من بيئته منذ نعومة أظافره. فالضعيف يفنى بالتأكيد. إذاً لابد من بذل الجهد. راح يشحن صديقه بالأمل. يرغمه على الحركة. ولكن البرد القارص كان يتحامل عليهما بلا هوادة. لم يكن وضع خدايار أفضل من وضع داريوش ولكنه لما لاحظ نفاد تحمل داريوش للبرد. خلع رداءه الصوفي وألبسه جسم داريوش المثلج. كان قد صمم على انقاذ نفسه وانقاذ داريوش

ولكنه أولى انقاذ صديقه أهمية كبرى. كان قد عاهد على رعـايته، ويـترتب عليه الإيفاء بعهده الآن. احساسه هذا كان يمده بمشاعر الرجولة. لكنه صـار يشعر كأن البرد ينخر عظامه. لم يركن للراحة قط حتى تـلك اللـحظة إلاّ أن الشعور بالاعياء انقض عليه ولم يعد يقوى على التحرك والسير على قـدميه. النعاس بدأ يغالبه والنوم يتسلل الى جفنيه. أما داريوش فإنه فقد انتباهه لكل شيء. كان أقل خبرة في الحياة من أن يفهم عظمة التفاني الذي كان صديقه قد صمم عليه.

***

الكلب «كركي» أهدى الرجلين الى جبل «تخت سليمان» بينما بقية سكـان القرية يواصلون عمليات البحث في مسارات أخرى. بدأ الكلب يتسلق الجبل والأبوان يتتبعان خطاه. وبرؤية ذلك الأمينوس العظيم يئس كلاهما من العثور على الصبيين احياء. وهل يمكن أن يتحملا كل هذه الأكوام من الثلوج والجليد حتى تلك الساعة دون أن يتعرضا للهلاك؟ استقر الكلب على تل من الثلوج سد فوهة الغار، ففهم العم اسماعيل كنه الموضوع.

قال العم اسماعيل:

ـ سيدي «كركي» يقول أن الصبيين تحت هذه الثلوج.

انسابت دموع المهندس على وجهه المثلج، فقال بيأس:

ـ ادع الرجال لنتعاون من أجل إخراج الجثث.

قال العم يطيب خاطر المهندس دون أن يكون واثقاً من كلامه:

ـ استعذ بالله من هذه الهواجس يا سيدي. هنالك غار تحت هذه الثـلوج. يقوى الاحتمال أن يكونا قد دخلا الغار.

تنفس المهندس الصعداء بسماع هذه العبارات ولمع بريق الأمـل في عـينيه، فقال بسرور لا يوصف:

ـ وهل يحتمل أن يكونا أحياء؟

ـ توكل على الله يا سيدي. الأمر ان شاء الله على هذا النحو.

بعد ذلك راح الرجلان يناديان الصبيين وقد تعالى نباح الكلب «كـركي». سمع خدايار صوتا خافتاً من الخارج فـرد عـليه بـبهجة وحمـاس. احـتضن الرجلان بعضهما لفرط سرورهما بسماع صوت خدايار ثم بعثا كركي ليستدعي الرجال فرافقوه وهم يحملون العدة لإنقاذ الصبيين.

***

استعاد خدايار قواه ولكن داريوش كان قد فقد وعيه. فلم يفهم ما يحدث في ذلك المكان بعد أن عاد البرد يدب في أوصاله.. لم يعد يشـعر بـالبرد بـل بنعاس شديد تعذر عليه مغالبته. لم يتنبه لبهجة خدايار. وعى خدايار الخطر الذي كاد يودي بحياة «داريوش»: الهي! وكيف سأواجه أبي وأباه؟!:

ـ انهض يا داريوش. تحرك، لا تستسلم للنوم. سيتجمد بدنك، لقد اهتدوا إلينا. سينقذوننا خلال لحظات. اصغ اليّ يا داريوش...

لكن الصبي المدلل لم يعد يقوى على الحراك. خلع خدايار أغلبية مـلابسه التي كان يرتديها ولفّ بها جسم داريوش وراح يدعكه ويحركه ويسحبه هنا وهنالك بما تبقى لديه من قوة متلاشية في محاولة لمنع تجمد الدماء في شرايين صديقه.

***

عند اقتراب الصباح فتح سكان القرية فوهة الغار ولما توغلوا فيه عـثروا على جثة خدايار الهامدة مرتمية على داريوش. كان قد اصيب بالانجماد وهو يحتضن صديقه.

أما داريوش فقد كان ما يزال حياً، نجا من الموت المـؤكد في كـنف جـثة صديقه الهامدة.

وعلى مسافة أقدام منه التصقت بالأوحال المتجمدة في قاع الغـار بـندقية هوائية.

***

كانت قصة البندقية الهوائية حصيلة جلسات التحليل النفسي التي خضع لها المهندس «داريوش. ك» خلال ستة أشهر قضاها يراجع عيادتي للتخلص من اضطرابه المرضي والكوابيس الليلية ونوبات الهلع الليلي.

اهتديت إثر الاختبارات والدراسات الجارية خلال تلك الجلسات الى أن عذاب الضمير الناشئ عن وفاة «خدايار» هو المنشأ الأسـاس لجـميع هـذه الاختلالات. ولعلاجه منها انتهـجت اسلوب صقل نفسه مـن هـذه المشـاعر السلبية الى جانب العلاج بالأدوية.

خلال جلسات التحليل النفسي توصلنا سوية الى أنه لم يكن مسؤولاً عن وفاة خدايار فقد أخطأ كلاهما وان كان جل الخطأ يقع في ذمة داريوش. ولكنه كان صبياً في الثانية عشرة من عمره ولا يمكن توقع سداد أكبر من هذا من أمثاله. لم يكن قد بلغ النضوج العقلي ليـتنبه الى عـظمة خـطئه ومـثل هـذه الأخطاء تصدر عن أي انسان في مثل تلك السن. كان طيشاً تـعذر للأسـف استدراكه. والله عفو كريم يصفح عن الأخطاء التي يقدم عليها الانسان عفوياً فكيف بصبي لم يبلغ أكثر من اثني عشر عاماً. ثم أن «خدايار» هو الذي اختار برغبة منه التضحية بنفسه من أجل صديقه. كان رغم صغر سنه يتحلى بروح متسامية وقلب زاخر بالحنان وبشهامة الرجال. وقد بادر الى اجراء يمثل نداء كل انسان شريف صالح. والآن حل دور داريـوش ليـصغي الى هـذا النـداء ويضعه نصب عينيه على مر حياته ليشحذ همته في سبيل الأخذ بيد الآخرين ويواصل درب «خدايار» على أفضل وجه فتسر روح صديقه وترتع نفسه هو بالهدوء والصفح.

قبلة الآمال

ـ لا أقيم في ايران يا دكتور، قدمت إليها لزيارة أهلي فأنا أقيم في اميركا منذ زواجي قبل سنتين. زوجي ايراني الجنسية اختار لنفسه مهنة مربحة هناك حققت له على الصعيد المالي نجاحاً كبيراً. لكن حياتي معه تشوبها مشاكل كثيرة. كثيرة جداً.. جداً.. لا أعلم ماذا أفعل.. حقاً لا أعلم ماذا أفعل!

بعد هذا الكلام لم تتمالك الزوجة الشابة نفسها، إنهمرت من مقلتيها دموع ساخنة احتبست في عينيها ربما منذ أشهر، فراحت تشق دربها على وجنتيها. بينما كانت تمد يدها نحو علبة المناديل الموضوعة على مكتبي تسحب منها منديلاً راحت تكفكف دموعها بيدها الأخرى وتتمتم عبارات لم أتمكن من فهمها إلّا أنني أدركت من سياقها ومن ملامح الحيرة البادية على محياها أنها لم تبح بسرها لأحد حتى الآن. استرسلت في بكائها وهي تعبر بابتساماتها الرزينة عن خجلها لما بدر منها.

ألقيت نظرة في سجلها: السيدة (ف.ح)، ٢٦ عاماً.. بكالوريوس في اللغة الانجليزية، لها أختان وثلاثة إخوة، كلهم من أصحاب المؤهلات الدراسية. أبوها يعمل في التجارة وأمها ربة بيت...

مرت دقائق على هذه الوتيرة.. زيارة أسرتها لي مراراً بهدف التشاور أو العلاج هيأت لي أرضية مناسبة لأضمن من خلالها الكثير من الأمور.. سددت لي هذه المعرفة المسبقة خدمة أخرى وهي أنها تفهم أسلوبي في العلاج وإن

كانت هذه هي المرة الأولى التي تزورني فيها. ولكن كان لها فكرة سابقة عني تخولها أن تثق بي.

ـ أرجو أن لا تتحدث الى أهلي عن هذا الموضوع يا دكتور، لأنني لا أرغب في اطلاعهم على الأمر.

وبعد برهة تمالكت نفسها وكفت عن البكاء.

قلت:

حسناً يا سيدتي. لن يحدث ذلك حتى لو لم تؤكدي على هذه القضية لأننا لا نطلع الأسر على وضع المرضى إلّا عند ابتلاء أبنائهم بأمراض نفسية حادة تفقدهم التحكم بسلوكهم لأنها معنية في مثل هذه الحالات بالإشراف عليهم وإخضاع سلوكهم لمراقبة تامة لتجنب مبادراتهم الخطيرة ـ لا سامح الله ـ.

ـ هذا صحيح، ولكنني لست من هؤلاء المرضى.

ـ أبداً. موضوعك لن يكشف عنه لأحد.

باطمئنانها على هذا الموضوع استلهمت القدرة على سرد تفاصيل أزمتها...

ـ طيب يا سيدتي، الآن ابدأي معي منذ بداية تعرفك على زوجك.

ـ حسناً يا دكتور، قبل حوالي سنتين تقدمت أسرة «حميد» لخطبتي.. أوضحوا لنا أن ابنهم يقيم في اميركا منذ سنوات مديدة وقد افتتح فيها مطعماً كبيراً ويتمتع بوضع مالي مرموق وانه ملتزم الى أبعد الحدود بالقضايا الأخلاقية والعقائدية ولهذا فانه اضافة الى عزوفه عن الزواج حتى ذلك الزمن لم تكن له قط علاقة بأية امرأة.

أكدوا لنا أن اختيارهم وقع عليّ وعلى أسرتي بعد تحقيقات مسهبة سبقت إقبالهم على خطبتي.

أكثروا في الحديث عن محاسن ابنهم ومناقبه بما يغري أية فتاة.. قالوا: «إنه ثري، مثير للاعجاب، طيب الخلق، لم يحدث أن يقضي صلاته حتى الآن. لا يرغب الفتيات الأجنبيات، يريد زوجة ايرانية من عائلة مؤمنة وما إليها من

مزايا اجتمعت برأينا فيكم».

كثيرون تقدموا لخطبتي في الحقيقة ولكنني كنت أرغب أن أرحل الى اميركا وأتم دراستي فيها. كنت أطمح للفوز بمثل هـذه الظـروف لأن أسرتي كـانت تعارض رحيلي الى الخارج قبل الزواج. كانوا يـقولون: تـزوجي أولاً ثم لك ولزوجك أن تقررا بعد ذلك مصيركما بنفسيكما. زواجي من حميد كان يوفر لي الفرصة لأصيب عصفورين بحجارة واحدة.. كان من شأن هـذا الاقـتراح ان يمثل بالنسبة لي فرصة ذهبية.

ـ ورأي أسرتك، ماذا كان؟

ـ كان ارتياحهم لهذا الموضوع يفوق ما أشعر به ولكنهم تركوا لي أمر البت فيه.. بعد عدة زيارات قامت بها أسرة حميد لنا وتعرفي على حميد الى حد ما (عن طريق الهاتف والانترنت) وجدت أنه الزوج المناسب لي لأنني كنت أرى أن الشباب في مستهل هذه المرحلة من العمر ليسوا جديرين باستئناف حياة زوجية. فكرت في نفسي: انه شاب نزيه ما دام لم يمد جسور العلاقات حـتى الآن وهو ابن الثانية والأربعين مع أية امرأة. وبهذا تقرر أن يـقدم حمـيد الى ايران بعد شهرين.

في البدء تحدد الهدف من زيارته بتعميق المعرفة بيننا. ولكـن أسرة حمـيد أبدت تدريجياً رأياً آخر حتى صارت تصر على ابرام عقد الزواج بيننا ان قدم حميد الى ايران لأنه صاحب مهنة حساسة ويتعذر عليه أن يسافر الى ايـران متى ما شئنا لأمر قد يحدث أو ربما لا. رأيهم كان يبدو منطقياً.. كانوا يقولون: «إنك حزت معلومات دقيقة عنه ماذا عساك أن تكتشفي أكثر من هذا. انه ولدنا وكوني على ثقة انه على سر أبيه واخوته، رجل صالح ومحب لأسرته الى حد كبير».

أمه كانت تقول: عزيزتي «فريبا»، لم نتحدث أنا والسيد «أ» (والد حميد) الى بعض دون تكلف ولو لمرة واحدة خلال حياتنا الزوجية على مدى خمسـين عاماً. كل من اخوة حميد وأخواته يتمتع بحياة هادئة وهانئة. وهو ابننا وعلى

شاكلتنا. اطمئني أنه ليس أدنى منا خلقاً ان لم يتفاضل علينا.

مع كل هذه الضغوط والالحاح تقرر أن نبرم عقد الزواج عند قدوم حميد الى ايران بعد شهرين.

ـ هل أيدت أسرتك هذا الرأي؟

ـ أبي لا، كان يقول ينبغي أن لا تعاهديهم على مثل هذا. فاللقاء عن كثب ضرورة أولية. أمي كانت في حيرة من أمرها تعلم من ناحية أنني ارتضيته زوجاً وأرغب بالزواج بمن في ظروفه، ومن جهة أخرى تصطخب القلق من صميم قلبها. اخوتي وأخواتي كانوا بدورهم موافقين تقريباً، ومع هذا كنت أنا صاحبة القرار الأخير. كنت قد أعجبت به.

ـ أعجبتِ به أم بظروفه؟

قالت ضاحكة:

ـ بكليهما.

ـ ولكنك لم تكوني قد التقيتيه مباشرة، فكيف أعجبت به؟

ـ لا أعلم. خيل الي أنني حزت معلومات كافية عنه.

كان يفترض عليّ أن لا أنأى عن الموضوع كثيراً، فقلت:

ـ حسناً، وماذا بعد؟

صمتت وسرحت مع أفكارها هنيهة ثم استأنفت حديثها قائلة:

ـ على أية حال، أجريت مراسيم العقد بعد قدومه الى ايران وقمنا برحلة شهر عسل قصيرة، رحلنا بعدها الى اميركا فوراً بتأشيرة الزواج قبل حصولي على بطاقة اللجوء، لنواصل معاً هناك حياتنا المشتركة الى جنب بعض.

سارت الأمور على ما يرام في الأيام الأولى لاسيا وأنني كنت أجيد اللغة الانجليزية مما هيأ لي التكيف سريعاً مع البيئة المحيطة بي. كانت طموحاتي قد تحققت: العيش في خارج البلاد وزوج طيب وحياة مرفهة.

خلال الأشهر الأولى تنبهت الى أن زوجي قد سبق له الزواج مرة واحدة.

ولما سألته، أجابني: اضطررت قبل سنوات عديدة أن أتزوج زواجاً صورياً بهدف الحصول على بطاقة اللجوء فاقنعت فتاة أن تسدد لي هذه الخدمة مقابل أجر دفعته لها. اقتنعت بأنه كان اجراء اقتضته المصلحة، لا غير، فتركت الموضوع. ولكن سرعان ما تناهى اليّ أنه قد تزوج مرة أخرى من فتاة هجينة (فلبينية ـ مكسيكية). صعقت للأمر. أنكر في الوهلة الأولى ولما شعر أنه لا مفر له من هذه الحقيقة. قال: كنا نتقاسم العيش في دار واحدة ولم يكن موضوع الزواج قائماً بيننا. كنا نعيش كالاخوة. كنت أعلم أنه كاذب ولكنني لم أتابع القضية. فكرت في نفسي أنه لا ينبغي علي التشدد، اننا نحيا في اميركا وهذه الأمور مألوفة هنا. ثم أنه ربما، ربما يكون صادقاً. المهم هو المستقبل والمستقبل ملك لي. إلّا أن حميداً لم يترك لي فرصة التلذ فيها بحياة هانئة. بدأ يسيء الخلق والسلوك منذ الأشهر الأولى. صار يضربني ضرباً مبرحاً ولما أتوسل اليه ليكف عني يتذرع بحجج واهية ويأخذ عليّ أموراً عجيبة وغريبة فيأمرني أن أعتذر منه فافعل لافلت من قبضته رغم أنني لا أعرف علام أعتذر! وبذلك اعترف بتقصيري في أمور لا أعلم ما هي، فتهدأ ثورته ويطيّب خاطري ويعود لسلوكه الطيب الرؤوف.

ذات مرة استغلّ جهلي ببعض المواضيع وقدم لي ورقة طلب مني توقيعها. ادّعى أنها ضمان لسلفة تتطلب منه ضمان شخصين. قلت: ولكنني يا عزيزي حميد غير عاملة ليوافقوا على ضماني. قال: لا ضرورة لذلك هنا. يكفي أن يكون الضامن مقيماً في اميركا. شعرت أنها حيلة يستدرجني بها للتوقيع. أدركت فيما بعد أن تلك الوثيقة سلبتني حقي في ٥٠٪ من ممتلكات زوجي فقانون اميركا كما تعلم يا دكتور ينص أن يتقاسم الزوجان عند الطلاق ممتلكاتهما نصفين لكل منهما النصف. ولكنني لا أملك في الوقت الراهن مثل هذا الحق.

مشكلتي الاخرى يا دكتور شذوذه الجنسي الذي يعاني منه حتى الساعة. كان في الأشهر الاولى يضبط نفسه ولكن شيئاً فشيئاً بدأت أعراض السادية تظهر وتتأزم لديه. إنه مثلاً يطلب الي عند ممارسة العلاقة الزوجية أن أتحدث

اليه حول علاقاتي مع غيره من الرجال لأرضي رغبته.

ـ وهل كان لك مثل ذلك قبل الزواج؟.

ـ ماذا تقول يا دكتور؟ انني إنسانة ملتزمة لم أكن قط على اتصال عادي مع الرجال فكيف بمثل هذه القضايا؟!! إنه مريض. يرغمني للتحدث عن هذه السخافات وإلّا فما أسوأ حالي.

لن أشغلك يا دكتور، انه يأبى أن يزودني بالمال، له علاقات مع نساء أخريات، يكيل لي عبارات الاهانة والتحقير.

ـ وهل هو مدمن؟

ـ نعم، على الكوكايين.

ـ إذن، يصرف مبالغ طائلة في هذا السياق.

ـ أجل، إنه ثري، يخصص ما يتجاوز عن الألف دولار شهرياً لنفقات إدمانه، وربما أكثر، أكثر بكثير، لا أعلم.

ـ لابد أنكما تخاصمتما وهذا هو سبب قدومك الى ايران.

ـ لا يادكتور، وافق إثر توسلاتي والحاحي في الطلب أن أزور ايران وأمكث فيها شهراً ونصف شهر. يقول أنه لا يقوى على العيش بعيداً عني. يدّعي أنه يحبني وأنه بحاجة إليّ. لما تقرر أن أزور ايران تحسنت أخلاقه وسلوكه كثيراً خلال الأشهر الثلاثة التي سبقت زيارتي. صار زوجاً مثالياً. لا أعلم، لا أعلم ماذا أفعل، هل ياترى سيتحسن؟ هل أعود؟ هل أطلب الطلاق؟ تعلم يا دكتور.. انني أحبه، أنه رجل طيب ذاتياً.

ـ وكيف لم تتنبه أسرتك قط؟

ـ لأنه يلتزم منتهى الأدب والطيب في تعامله معهم. انه ممثل بارع، يسهل عليه أن يفتن الآخرين. انك ستلقي تبعات هذا الوضع عليّ بالتأكيد ان زارك وتحدث اليك.

ـ وهل فاتحت أسرته بهذا الموضوع؟

ـ ببعض الأمور، مثلاً أنه متزوج، يقولون أنهم كانوا يجهلون ذلك. ويردون بنفس الرد حول إدمانه. ولكنني لم أستطع أن أصارحهم بشيء حول القضايا الجنسية. انهم أناس في غاية الطيبة يا دكتور. رؤوفون، كرماء النفس، أسخياء فما أغلى الهدايا التي يقدمونها لي و...

التف الموضوع بهالة من التعقيد. كانت غير راغبة في الطلاق لأسباب خاصة، رغم ما واجهته من نوائب في حياتها مع حميد. كانت ستواصل حياتها معه دون ريب فيما لو كانت تتمتع بطاقة أكبر على تحمله.

هل ياترى أنها مصابة بالماسوشية (إيذاء النفس)؟

هل انها من النساء اللواتي يفضلن الحياة المرفهة على كل ما سواها؟

هل كانت ترغب في الإقامة في اميركا مهما كلفها الأمر؟ أم انها قررت تحمل حميد حتى يحين موعد استقلالها عنه لتفكر بعد ذلك بالطلاق وتواصل حياتها على انفراد في ذلك المجتمع.

قد تكون كل هذه القضايا وليدة خيالها وأوهامها المرضية أي انها هي المعانية من مرض نفسي لا زوجها!

***

الجلسة الثانية:

أجريت الاختبارات النفسية فلم تشر أي منها الى أعراض مرضية لدى السيدة «حسيني». ولما تحدثت الى أُختها وهي الوحيدة التي ائتمنتها السيدة حسيني على سرها واطلعتها على القضية بحذافيرها لأنها كانت مأمن أسرارها وملاذها الصابر، استوثقت من صدقها فيما حدثتني به وعندئذ تمكنت من تقييم الموضوع بحصافة.

***

الجلسة الثالثة:

التقيت في ذلك اليوم مع السيدة حسيني ثانية، كأنها كـانت قـد أحـاطت خلال الأيام الماضية أبويها علماً بالقضية الى حد ما.

ـ حسناً يا سيدتي، بامكاني الآن أن أجيب على استفساراتك.

ـ سؤالي الأول هو هل بوسعي أن أواصل الحياة معه أم لا؟.

ـ استفسارك هذا عام وفي منتهى الكلية والاجابة عليه تخرج عموماً عن دائرة مسؤولياتي. بامكاني أن أصور لك مستقبلك بشكل عام أما عن إمكانية مواصلتك الحياة معه أو استحالة ذلك فهذا ما يتعلق في الواقع بك أنت. هنالك من يواصل الحياة في مثل هذه الظروف ومن ينهيها عند هذا الحد. وفريق آخر يواصل الحياة بشروط خاصة.

إن هذا القرار يرتبط بمعنوياتك وظروفك الأسرية ومدى رغبتك سيدتي في مواصلة الحياة في خارج البلاد. فهنالك كما قلت لك من يواصل الحياة رغبة في الاقامة في اميركا مثلاً أو لاستحالة التجائهم الى أسرتهم الأولى بينما أشخاص من نمط ثان لا يطيقون قط هذه الحياة المشحونة بالاضطراب والتوتر ويأبون اهدار سني شبابهم الثمينة برأيهم في خوض المعمعات مع مثل هؤلاء الازواج وقد حباهم الله من ناحية أخرى بأسرة طيبة تستقبلهم بحنان ورأفة. وهنالك نمط آخر يعربون عن استعدادهم لمواصلة الحياة شرط الحصول على ضمان بأن يكف الزوج عن سلوكياته المشينة.

والآن حان دورك لتجيبيني على سؤالي: الى أي الأنماط تنتمين؟

ـ لقد أخبرني أبواي يا دكتور عندما حدثتهم عن الموضوع بأنهما كان قد تنبها لبعض الأمور ولكن لم يخيل اليهما انها بمثل هذه الفظاعة. وقـالا القـرار مفوض اليك وسنؤازرك فيما ترتأين فيه مصلحتك. انني أتمتع يا دكتور بوجود أسرة في غاية الطيبة الى جانبي. انهم جداً رؤوفون ولهم القـدرة أيـضاً عـلى مساعدتي سواء مادياً أو معنوياً.

ـ حسناً. إذاً أخبريني ما هو قرارك؟

ـ ولكنك لم ترسم لي بعد معالم شخصية زوجي يا دكتور ليكون بوسعي أن

أتخذ قراراً صائباً.

ـ شخصية زوجك يا سيدتي فيها احتمالان: اما أنه مريض نفسي مما يحتم علينا تفسير خصائصه من خلال مرضه النفسي مثل سلوكياته الجنسية الشاذة وافتقاده التوازن في تصرفاته الأخلاقية كما في لجوئه الى الضرب والسباب دون مبرر، والتعذيب النفسي، وتضييق الخناق مالياً على الآخرين.

والموضوع الثاني يخص أعمالاً قد تنبثق من حالة نفسية أو لا تنبثق عنها. فاستجرارك للتنازل عن غفلة منك عن ٥٠٪ من ممتلكاته قد يوصف احتيالاً وربما ينشأ عن اختلال نفسي، فالمريض المصاب بالبارانويا مثلاً يستغرق دوماً في أوهامه حول تآمر الآخرين ضده ومحاولاتهم لخداعه واستغلاله.

ـ ولكنه قال لي أنني قدمت على مثل هذا السلوك لأمنع استحواذك على ما أملك مثلما فعلت زوجتي السابقة. انني على ثقة من طيب أخلاقك ولكن لا ضير من الاحتياط.

ـ إذاً سلوكه يعتبر تحايلاً فلو كان الأمر ناشئاً عن حالة نفسية فانه كان سيقول انك خططت للاستحواذ على ممتلكاتي وهذا ما دفعني لمثل هذه المبادرة.

ـ حسناً، ما هو موقفنا الآن؟ ماذا ينبغي أن نفعل؟ انني أتساءل هل يمكن أن يعود الى السواء؟ أو بعبارة أوضح كيف يمكن اعادته الى السواء؟

ـ من قبلك؟ لا سبيل لذلك. أديت ما عليك. فشخصية الرجل لا تتغير في مثل هذا العمر لا سيما أنه مرتاح تماماً لأعماله. لو كان يقر بأن بعض سلوكياته ناشئة عن معاناة نفسية تتطلب العلاج ويعتلج الرغبة في التخلص منها، فانه بوسعه بالطبع أن ينال تحسناً مشهوداً بالعلاج الطبي النفسي، ولكن المشكلة تكمن في كونه لا يقر بمرضه ومن جهة أخرى لا يعود الكثير من سلوكياته الى حالة مرضية بل أنه يقبل عليها عن وعي وبارادته.

إذاً نجمل الحالة بأنه رجل في الثانية والأربعين يعاني من أفكار مرضية كما

انه ليس بمنأى عن الأساليب التحايلية ويبادر الى جميع هذه السلوكيات على مرأى زوجته.

تذكرت أن أسألك ماذا كان اقتراح أبويك بعد أن اطلعتيهما على مجريات الأمور؟

ـ إنهما.. إنهما يعتقدان أن عليه أن يقدم الى هنا ويقدم الضمانات للكف عن ممارساته. عندئذ يكون بوسعي العودة الى اميركا ومواصلة الحياة معه.

ـ إذاً من الأرجح أن اعقد جلسة معهما.

ـ لا مانع لدي. سيزورانك متى ما شئت.

***

الجلسة الرابعة:

السيدة «حسيني» الأم سيدة رزينة بما في الكلمة من معنى. والسيد «حسيني» هو الآخر رجل ذو شخصية طيبة يبدو أنه أنعم بحياة هانئة هادئة.

جلسا قبالتي. بعد تبادل التحيات المألوفة استطلعت رأيهما حول هذه القضايا قائلاً:

ـ حسناً جداً أيها الأعزاء. ما هو رأيكما حول هذه القضايا؟ ما هو القرار الذي يفترض على ابنتكما اتخاذه برأيكما؟

أجابت السيدة حسيني الأم:

ـ لابد أن يأتي زوجها ويقدم التعهدات هنا.

ـ التعهد بِمَ؟

ـ بأنه سيكف عن أعماله.

ـ ومن سيضمن ايفاءه بهذه الالتزامات؟ أقصد سيأخذ شرطكم على عهدته هنا ويقفل عائداً الى اميركا. ماذا سيضمن التزامه بهذه التعهدات هناك؟ ستكون الكرة خارج ملعبنا فماذا عسانا أن نفعل؟

تسمرت السيدة «حسيني» هنيهة في وجهي ثم تمتمت بارتياب:

ـ إذاً ما العمل؟

ـ ما هو رأيك يا سيد «حسيني»؟

أجاب السيد حسيني وقد أثارت هذه الأمور اعصابه الى حد ما، قائلاً:

ـ قلت لزوجتي قبل هذا. لابد أن يقدم الموجبات المالية هنا وسنطالبه قضائياً بدفع المهر.

ـ وكم هو المهر؟

ـ ألف مسكوك ذهبي من مسكوكات «ربيع الحرية».

ـ وهل يملك ما يمكن تقاضيه بدلاً عن المهر؟

ـ لا، ولكن يجب أن نستدرجه الى ايران.

ـ وإن أبىٰ؟.

أحنى السيد «حسيني» رأسه والتزم الصمت.

ـ وكم قدمتم له جهازاً؟

ـ عندما سافرت اليه ابنتي قدمت لها عشرة آلاف دولار.

ـ وأين هو هذا المبلغ حالياً؟

ـ كأنها دفعته الى زوجها.

ـ إذاً، خلت أيديكم منه أيضاً.

ـ ربما!.. صحيح.

قالت السيدة حسيني:

ـ أسرته جميعاً أعربوا عن امتعاضهم إزاءه وطالبوه أن يقدم الى ايران ويقدم الاعتذار عما فعل.

ـ نِعْمَ الاقتراح.. إن فعل سيكون بمقدورنا أن نفهم إن كانت ممارساته مرضية أو تحايلية. ولكن ما العمل إن أبىٰ؟ انني أخاله يأبىٰ، لأنه ليس صبياً

صغير السن ليهاب العتاب والنهر. ماذا هو رأيكم؟

قال السيد حسيني:

ـ أنا كذلك يخيل إليّ أنه سوف يحجم عن القدوم الى ايران.

أمسكت «فريبا» بحبل الحديث وكانت تجلس صامتة حتى آنذاك، فقالت:

ـ يتحتم عليّ أن أعود الى أميركا بعد خمسة عشر يوماً يا دكتور، هل ستكون عودتي مبادرة صائبة؟

ـ لا، بالتأكيد.

ـ إذاً كيف أتعامل معه عندما يتصل بي هاتفياً خلال هذه الأيام؟ هل ألتزم جانب الحدة أم اللين؟

ـ لا هذا ولا ذاك. اسلكي معه كما اعتدت. تحرزي الحدة كي لا يرتاب في أمرك فيمتنع عن القدوم الى ايران إن كان قد نوى باحتمال ضئيل تلبية طلبكم. وتجنبي اللين كذلك لأنه سيمنحه الجرأة أكثر فأكثر. على فكرة، هل تحدثتم الى اسرته عن خطتكم؟

ـ لا، اكتفينا بالقول بأن عليه أن يقدم الى ايران ويتدارك أخطاءه ويزيل بواعث الضيق لأنني أنوي مواصلة حياتي الزوجية ولا أرغب في الطلاق.

ـ هذا هو رأيكم يا سيد حسيني؟

ـ تماماً.

ألقى هم عظيم ظلاله على محيا «فريبا» المسكينة ثم أفلتت الزمام وفقدت القدرة على ضبط نفسها فراحت تبكي. وبكت الأم لبكاء ابنتها، ولكن السيد حسيني نجح في كبح مشاعره وضبط نفسه.

مرت دقائق على هذه الحال. ثم التفتت إليّ السيدة حسيني وقالت: ما هو رأيك يا دكتور؟ ماذا علينا أن نفعل؟

ـ إننا جميعاً مجتمعون على القول بأنه ليس من الحكمة مواصلة الحياة على هذا المنوال وأن قدوم الزوج الى ايران لابد منه لتحسن الأوضاع. إذاً، إن لبى

الطلب وتمكنتم من الزامه بموجب مالي، كأن يسجل عقاراً باسمها، فستضمنون الى حد ما ايفاءه بوعوده الأخلاقية وان رفض حتى في حال قدومه تقديم مثل هذا الضمان فسيكون بوسعكم مطالبته قضائياً بتقديم مهرها لأن سلوكه سيوثق الرأي بأنه راغب في الاصطراع. ولتعجله في العودة الى اميركا ستلزمونه بتوقيع وكالة الطلاق مما يمكنكم من إجراء مراسيم الطلاق. اما ان أبى فسيتعذر عليكم تحقيق أي من هذه الأمور ومن الأصوب أن تبادروا لكسب موافقة المحاكم على طلاق ابنتكم غيابياً والكف عن إهدار الزمن أكثر من هذا. كونوا واثقين أنه لن يقدم الى ايران. إنه لم يعد لديه ما يلزمه للسفر الى ايران. وهل سيفعل ذلك ليضطر الى دفع ألف مسكوك ذهبي إليكم؟ وهل يقيم وزناً للالتزامات الخلقية؟ إن كان يعير هذه الأمور أدنى اهتمام لكان تجنب ممارساته تلك. طبعاً هنالك طريق ثالث وهو أن تعود ابنتكم وتغضي على القذى متجاهلة كل هذه الحقائق والأحداث وتتظاهر باقتناعها بالعهود التي تقطعها أسرته على نفسها وتخبره بأنها وافقت على العودة احتراماً لأهله وبناء على وعودهم دون أن تتوقع أدنى سلوك إنساني أو اصلاح من زوجها وتقضي فترة من الزمن على هذا النحو حتى تتعرف تماماً على نمط الحياة هنالك وتتمكن بعد حيازة بطاقة اللجوء من مواصلة حياتها على انفراد في اميركا. سيكون بمقدور أقاربكم في اميركا أن يرشدوها ويأخذوا بيدها في هذا السياق لتتمكن من مواصلة دراستها هناك وتتخلص من براثن حميد.

قالت «فريبا»:

ـ هذا ما لا يمكن، لأن بطاقة لجوئنا أمدها سنتان ويتم استبدالها بعد ذلك فيما لو لم يحدث الطلاق فيمنحوننا أخرى أطول أمداً وإلّا فانها ستفقد اعتبارها.

ـ يمكن تدارك هذه القضية، فبوسعك أن تتحملي حتى انتهاء السنتين أو انك تقبلين على الطلاق وتختارين محامياً ينفذ الاجراءات اللازمة للحصول على اجازة إقامة لك. لا تقلقي. هل أخبرك حميد بمثل هذه الأمور؟.

ـ أجل.

ـ انه حاول إحاطة الموضوع بهالة غامضة تزيدك خوفاً. بالامكان حل المشكلة بالتشاور مع محامين دوليين في ايران أو مع المقيمين في اميركا.

***

انصرفت الأسرة على أن يختاروا بعد التشاور إحدى الطرق الثلاث. وتناهى إليّ بعد ذلك أن حميداً أبى السفر الى ايران مما اضطر السيد حسيني لسلوك الطريق الثاني.

كان من حسن الحظ أنهما لم ينجبا بعد، مما يسر أمر طلاقهما. لا يخفى أنه حادث محزن بالنسبة للزوجة الشابة ولكنه كان سيزداد إيلاماً وحسرة في حالة الانجاب.

***

أوجه هنا كلامي الى الفتيات الشابات اللواتي يسوِّغ لهن تفكيرهن الساذج بأن يندفعن وراء تحقيق طموح العيش في خارج البلاد بالقاء أنفسهن في قبضة المرائين المحتالين دون مبالاة بالظروف أو اجراء أي تحقيق دقيق أو الحصول على ضمان وثيق سوى الوعود الذهبية الواهية. قد يكون فريق منهم طيبين نزيهين ولكن هذا لا يستبعد احتمال المعاناة من أمراض نفسية أو التخبط في تبعات افلاس مالي أو التسكع أو التسيب واللا مبالاة أو أية حال لا تتطابق مع واقع ما يدعونه.

أعزتي..

العيش في خارج البلاد لا يعتبر أمراً مشيناً، فمن شأنه أن يكون ملذاً للغاية كما انه لا يُستنكر أخلاقياً، ولكن لابد أن يتم عن دراية وحكمة وبعد التشاور مع الضليعين فبمقدور الكبار الواعين والاخصائيين في العلوم السلوكية أن يزودوكم إلماماً في المجالات المختلفة. إذاً، لا تستغنوا عن استشارتهم ولا تجازفوا بمصيركم. فالمرء لا يحيا لأكثر من مرة واحدة فلا تهدروا هذه الفرصة بالمجازفة.

تصورات واهية

تريثت السيدة «حسامي» قبل أن تغادر الغرفة ثم قالت:

ـ حجزت موعداً لأخي وزوجته يا دكتور، سنزورك معاً. مشكلتهما.. مشكلتهما يا دكتور هي، مع الاعتذار، البرود، انهما تزوجا منذ عام ولكن لم...

لما لاحظت صعوبة الخوض في الموضوع بالنسبة لها تنبهت لطابع المشكلة. فانه يتعذر على أمثالها التحدث عن هذه القضايا. قررت أن أعينها، فقلت:

ـ أجل مثل هذه القضايا سائدة في بداية الحياة الزوجية. البرود العاطفي بين الزوجين.

كنت قد أسعفتها.. تنفست الصعداء وابتسمت قائلة: هو كما تقول يا دكتور.

ـ لا مانع لدي، تفضلوا في الموعد المحدد.

***

بعد أسبوعين، زارني أربعتهم: السيدة حسامي في الحادية والثلاثين، مثقفة وعلى درجة عالية من الرزانة والوعي، وأخوها جواد في الرابعة والعشرين، تبدو على قسماته ملامح الخجل والأدب العالي جلس مطأطئاً رأسه يستمع إليّ أتبادل مع أخته وزوجها التحيات، وزوجة الأخ «مهري» فتاة حديثة السن.

كأن الممارسات الزوجية كانت تنعدم بينهما بسبب رهبة الفتاة رغم مرور عام كامل على زفافهما.

طرحت استفسارات عامة طبق المنوال ثم قلت: ينبغي اجراء الاختبارات النفسية لكليهما أولاً ثم أعقد جلسة خاصة مع الزوجين أُبين لهما فيها الاساليب العلاجية وما اليها... أكّدتُ لهما وانا ارافقهما نحو غرفة الاختبار بأن حالتهما غير شاذة بل انها تسود بين الكثير من الازواج الشباب ولكن يتم التغلب عليها ببساطة.

الجلسة الثانية:

بينت الاختبارات انعدام اية حالة نفسية خاصّة لدى الزوجين ولا سيما حالة الرهاب لدى الفتاة، إلّا أن الملفت للانتباه كان المنحنى (L) الذي سجل ارتفاعاً عالياً لدى مهري مما اثبت ان الزوجة العروس لم تجب على استفساراتي كما يفترض اي انها لم تصدق القول. ما هو ياترى حافزها للكذب؟ ربما يكون انعدام الدقّة في الاجابة أو عدم ادراك الغاية من الاسئلة او انها تجنبت الصدق لانها تأبى الافصاح عن مكونات قلبها لاحد. اخترت التفاؤل وبنيتُ الاحتمال على انها صادقة في قولها حتى اثبت خلاف ذلك. فلم اتحدث عن شيء من هذا القبيل.

قلت:

اعزائي الامر لا يعود لحسن الحظ لحالة مرضية خاصة فرهبة مهري لا اساس لها وسأزودكما بمعلومات حول الاسلوب الصحيح للممارسات الزوجية الى جانب وصفة سأكتبها لكما تنقذك يا سيدتي الشابة من هذا القلق والاضطراب فتتغلبان باذن الله على مشكلتكما ببساطة. وجهت لهما التعليمات العلمية الخاصة بالمرحلة الاولى من العلاج ووضعت لهما برنامجاً دقيقاً للشهر القادم فان كلّلت مساعيهما بالنجاح فبها وسندخل المرحلة الثانية من العلاج ان لم يحدث شيء من هذا القبيل.

انتهت الجلسة فودعاني وانصرفا. الموضوع الذي شغل بالي كان الوضع

النفسي ونمط شخصية كل من الشابين. كان جواد ذا شخصية ضعيفة وذكاء دون المتوسط ومهري تتمتع من جهتها رغم نشأتها الريفية وسنّها الصغير بذكاءٍ حاد وارادة راسخة. لم يكن الزوجان متوافقين في أي من خصائصهما: الزوج شاب خجول وساذج الرؤى والتفكير والزوجة خلافاً له جادة وذات خبايا مكتومة وانبساطية المشاعر. احدهما عاطفي والآخر جاف وعنيف. الفتاة تثير الاعجاب رغم كونها لم تتجاوز الخامسة أو السادسة عشر من عمرها ولكنها حظيت بنموٍ سريع جعلها سيدة متكاملة. اما الزوج فانه رغم كونه في الخامسة والعشرين من عمره إلّا انه يبدو كمراهق ساذج يفتقد اية خبرة في الحياة. كان تجاهل الزوج والاستخفاف به باديين بوضوح على نظرات الفتاة، والحب والتعلق الشديدان على نظرات زوجها. لم ينبس أي منهما طول هذه الفترة بكلمة واحدة حول مشكلتهما: الزوجة لعدم اكتراثها بمصير حياتها الزوجية وجواد بسبب الخجل والحياء. لم أقرأ معاني الخجل في صمت مهري بل الأنفة والتدبير المسبق امّا جواد فانه...

الجلسة الثالثة:

زراتني السيدة حسامي وأخوها دون أن ترافقها مهري. قالا بأنها القت جميع الادوية في سلة المهملات وهي تقول بأنها ليست مجنونة لتتعاطى مثل هذه الادوية. كانت تقول انني لست متأهبة لمثل هذا الامر، عليكم الانتظار حتى يحين اوانه. حدثتني السيدة حسامي بهذه الاحاديث بينما جواد يتطلع الي في نظرت مصحوبة بابتسامة حزينة. ولكنه كان يفتقد ما يلزمه من ثقة بالنفس ليتحدث بنفسه عن هذه القضايا.

ـ هل هذا صحيح يا جواد؟ هل صحيح ما تقوله اختك؟

شحب لونه واجابني بعد تململ طويل كتلاميذ الابتدائية:

ـ اجل، يا دكتور.

ـ الم تطالبها بجدٍّ ان تنصاع لتعليماتي؟

ـ فعلت بالتأكيد.. ولكن..

سارعت الاخت للتدخل في حديثنا:

ـ يا دكتور..

اومأت اليها ان تلتزم الصمت ليواصل جواد كلامه.

ـ ولمَ لا؟ ولكنها لم تنصَعْ لي.

عندئذ تبين لي ملامح الاختبار وسبب ارتفاع المنحنى (L).. كانت الفتاة قد اختارت الرهبة غطاءً لعدم رغبتها في التمكين.

التحدث الى جواد كان لا يثمر إلّا اهدار الوقت فطلبت اليه ان ينتظر اخته خارج الغرفة ثمّ التفت اليها وقلت:

ـ اصغي الي يا سيدتي. إنك امرأة مثقفة وصاحبة خبرة في الحياة تخولك ان تفهمي الامور ربما افضل مني. أزيدك علماً أنني منذ الجلسة الأولى تنبهت عند لقاء الزوجين الى عمق الفجوة بين هذين الزوجين ولكني أجريت الاختبارات تجنباً للوقوع في الخطأ ولو باحتمال ضئيل فأيدت الاختبارات رأيي. ولأستوضح الامور تماماً امهلتها شهراً طلباً لتقييم أكثر دقة وعلمية ولأتجنب التأثّر بخبراتي العلاجية السابقة. فكرت في نفسي عساني اكون ان شاء الله مخطئاً. ولكن ظني كان في محله للأسف وانا واثق انك تذهبين الى ما ذهبت اليه لانك سيدة مثقفة وواعية، تحسنين استيعاب معنويات النساء.

لا أعلم يا سيدة حسامي من اين اتيتم بهذه الفتاة، ولكنها لا تنسجم قط مع اسرتكم (قلت هذا لأنني كنت قد لقيت بعض اعضاء اسرتها من ذي قبل). اخترتم فتاة صغيرة كتومة تعوزها المشاعر لتكون زوجة شاب مشاعره في منتهى الرهفة، ضعيف الارادة والشخصية. انه في الحقيقة لم يتجاوز مرحلة الطفولة بعد. لا أعني انه متخلف ولكنه يُصنَّف من ناحية الخصائص الفكرية وملامح الشخصية في قائمة الضعاف. بينما تتمتع الفتاة بوعي من يكبرها بعشر

سنوات ولم تنشأ نشأة صحيحة توجهها لاستثار ذكائها وثقتها بالنفس بشكل بنّاء بل اتخذت هذه المزايا مرتكزاً للتلاعب بمشاعر الآخرين. النبل هو الخصيصة الحميدة الوحيدة التي اكتسبتها على مرّ حياتها وهذا ما لا يمكن انكاره. انها عفيفة حقاً إلّا ان العفاف والنبل لا يكفيان في الحياة.

انها لا تمكّن نفسها من زوجها لأنها لا تحسبه زوجاً لها ولا تقيم له وزناً. لا أعرف تفاصيل الحكاية ولكنها نقاط عامة توصلت اليها فعرضتها عليك.

سكتت السيدة حسامي هنيهة إلّا أنها لم تفاجأ بكلامي. كانت قد استوعبت جميع هذه الأمور. قالت بعد دقائق:

ـ تشخيصك صائب تماماً وهو ما ذهبت اليه أنا أيضاً ولكنها امور خطط لها واصرّ عليها أبي.

ـ حسناً اطلعيني على تفاصيل القضية إن امكن لأتمكن من التوصل لحل للمشكلة.

ـ وهل ابدأ منذ البداية؟

ـ منذ بداية زواجها..

ـ اننا يا دكتور وكما تعلم اخوان واختان. ابي يحظى بوضع مالي مرموق. منذ ان اتم جواد وهو ابنه البكر خدمة العلم قبل سنتين أو ثلاث كان أبي يتعجل في تزويجه. كان تواقاً لرؤية جواد عريساً دون ان يبالي لنا ونحن نصر على ان الاوان لم يحن بعد ليبادر جواد الى تأسيس اسرة مستقلة فيجيبنا: أنا الآخر اعلم ذلك ولكن شاب خجول كثير الحياء ينبغي عليه ان يتزوج وليصبح رجلاً انه ما زال صبياً. والطريق الى ذلك ان نختار له زوجة ليشعر بمسؤولية ازاءها. كان يقول انه اختار الطريق الصحيح لذلك. فتيات المدن المتبجحات لا يناسبنه، علينا ان نختار فتاة صغيرة تستوعب مفاهيم الحياة بين اعضاء اسرتنا والى جانب جواد فتترعرع على اخلاقياتنا وستكون زمام امورها بيدنا. خيل اليه ان بمقدوره ان يختار فتاة منصاعة اليفة مطيعة لزوجها.

انطلاقاً من هذه التصورات الخاطئة اختيرت هذه الفتاة من قرية تنتسب اليها اسرتنا لتكون زوجة لجواد، كانت في الرابعة أو الخامسة عشر من عمرها تتمتع بجمال يثير الاعجاب ولكنها من عائلة معدمة. سارت الامور في الأشهر الاولى على ما يرام كما يبدو ولكن اتضح تدريجياً كأن مهري لا تولي جواداً احتراماً ولا تقيم له وزناً. لم تفلح نصائح الكبار حتى ابويها في كبح هذه الحالة ورغم كل ذلك نتابع الموضوع بجد لاننا كنّا نجد جواداً من جهته مولعاً بها ومنذ شهرين أو ثلاثة تنبهنا بأن مهري ما تزال باكراً وعند الاستفسار اتضحت لنا التفاصيل فاصطحبتها لزيارتك.

الحكايات القديمة تم احياؤها ثانية على ارض الواقع. فالرأي السائد بان الناشئات في أجواء المدينة حريصات مشاغبات موضوع لا اساس له من الصحة وبالنظر لعدم امكانية الذهاب الى سوء خصائص مهري كنا بحاجة للتعرف عليها اكثر لنتمكن من البت في أمرها.

ـ حسناً يا سيدة حسامي، لابد أن تصحبي مهري معك في الجلسة التالية لاتحدث اليها على انفراد فاستطلع مكنون قلبها.

الجلسة الرابعة:

انفردت بمهري بينما كانت السيدة حسامي تجلس في غرفة الانتظار ولم يصحبها جواد.

كان يبدو ان الفتاة جيء بها رغم انفها. كانت تهاب السيدة حسامي لا لسوء اخلاقها أو عنف طباعها بل لدرايتها ونضوجها الخاص وشخصيتها المتميزة. كانت تصطخب القلق والحيرة في بداية الجلسة فجلست قبالتي صامتة تسدل جفنيها وتعقد اصابع يديها مع بعضها وتسندها الى ركبتيها كما اطبقت ركبتيها وقدميها مع بعض. كانت تجلس كملتزمي الحداد لدقائق في مجلس عزاء وهو بالضبط ما تعنيه هذه الجلسة بالنسبة لها. كان لابد لي أن اكسب

ثقتها اولاً وان اوضح لها انني استدعيتها لآخذ بيدها لحل المشكلة لا ان أصدر حكماً جائراً بحقها فاستطلع بذلك مكنون قلبها واقدم العون لها ولجواد. استغرقت مهمتي في كسب ثقتها ثلاث جلسات كاملة خلال فترة ثلاثة اسابيع، اطلعت من خلالها على انها رضخت للزواج من جواد بسبب الفقر المدقع الذي تتخبط فيه اسرتها. كان يرغبون في نيل المساعدات المالية للسيد حسامي فوافقوا على زواج ابنتهم من جواد دون أن تكون لمهري ادنى رغبة فيه إلّا انه خيل اليها أنها ستنقذ اسرتها بمثل هذه التضحية. وفي الاشهر الاولى من الزواج انبهرت شأنها شأن جميع بنات شريحتها بمظاهر الحياة في المدن فشعرت بالرضا. ولمّا تبينت لها تدريجياً الاختلافات الفكرية والشخصية وحتّى الظاهرية بينها وبين جواد لم تعد قادرةً على كتمان تذمرها من هذه الحياة.

كانت قد استأذنت ابويها مراراً بالعودة بل توسلت اليهما ان يطلبا طلاقها من جواد. وجوبهت في كل مرة بسلوك عنيف من ابيها. كانوا قد اخبروها بانه يتعذّر اليها طلب الطلاق ما دامت تفكر في انتشال اهلها من هذا الفقر. قالوا لها: ليس امامك سوى طريقين امّا البقاء أو القضاء هناك.

كانت مهري البائسة اتخذت في سريرتها الطفولية قرارها الحاسم بان تبق باكراً حتى يترعرع اخوتها واخواتها ويذهب كل منهم الى حال سبيله فتطلب عندئذ الطلاق بفراغ بال من جواد ولعلها تتزوج بمن يتقدم لخطبتها حباً فيها وتسكن اليه مشاعرها.

الجلسة الخامسة:

عقدت تلك الجلسة مع السيدة حسامي على ان اطلعها على تقريري الوافي واعلن عن رأيي النهائي.

ـ لقد استكملنا الآن صورتنا المتقطعة: اسرة مرفهة تقطن المدينة ولها ابن قليل الذكاء، ضعيف الارادة. كان يخيل اليهم انهم سيعززون بناء شخصيته

وشعوره بالمسؤولية ازاء الحياة بزواجه لأن انفسهم تأبى الاذعان بانه مُجبَل فطرياً على هذا الوضع وان الزواج لا يرمّم هذا الثلم في شخصيته. لم يمنحوه الفرصة ليختبر على مدى عدّة اعوام قضاياه الاجتماعية والفردية اكثر من ذلك لعله يتغلب على بعض نقاط ضعفه. ولتجنب تورط ابنهم مع فتاة بعيدة الآمال شريرة لجأوا الى القرية وعثروا فيها على فتاة ريفية صغيرة يمكنهم ضبطها بحسب تصوراتهم الواهية. ارادوها جميلة فاتنة تزيدهم افتخاراً امام القاصي والداني في غفلة منهم بان هذه الفتاة ستبصر الواقع بعد فترة من الزمن شاؤوا أم أبوا وتدرك الاختلاف الشاسع بينها وبين زوجها. وحدث ذلك فشعرت الفتاة ان الاسرتين (اسرتها واسرة زوجها) قد خدعوها ولكن الوقوف بوجه الكبار امر لا يتيسر لها فقررت الثأر لكل ذلك من زوجها البائس وهو البريء من التقصير أكثر من أي عضو آخر من اعضاء هذه المجموعة.. هكذا تأججت نيران هذه المشكلة.

في الخطوة التالية قد يرتأي هؤلاء الاشخاص أن يقدموا للزوجين نصائحهم بالانجاب في محاولة خاطئة لاخماد ثورة الزوجة المتمردة، مما يزيد الطين بلّة لأن مشكلة الطفل ستضاف الى قائمة المشاكل الحالية لأن الزوجة تحسب الجميع اعداءً لها وتكبت هذا الشعور في نفسها وسرعان ما تظهر ذلك في اول فرصة تسنح وان اخفت ذلك فترة من الزمن فستثأر من الزوج البريء سواء باسلوب مباشر أو غير مباشر كتجاهله والاستخفاف به.

ـ حسناً يا دكتور، وما العمل الآن؟

ـ ما هو رأيك؟

ـ أليس هنالك طريق لاصلاح الاوضاع؟

ـ الاصلاح ممكن فيما لو كان بمقدور جواد ان ينفذ تعليماتي ولكنه يعجز عن ذلك.. فلولا نمط شخصيته لما وصلت اوضاعه الى ما هو عليها. ان هذه الفتاة لا تنسجم معكم يا سيدتي. انها حياة لا حاصل لها باحتمال ٩٠٪. قد تستمر

ولكنها ان استمرت سوف تتطبع بالمرارة والعداء والحزن. الاحتمال بامكانية تحسن الوضع تماماً في المستقبل لا يتعدى ١٠٪ وليس هنالك انسان ناضج لبيب يغامر بحياته على امل لا يتجاوز الـ(١٠٪).

ينبغي على جواد ان يعزف عن الزواج لعدة سنوات حتى يزداد نضجاً. وان تختار الفتاة زوجاً يناسبها. يتحتم عليكم منحها جميع حقوقها عند طلاقها واعادتها الى اسرتها لان كلتا الاسرتين اجحفتا حقها. هذا هو رأيي النهائي. (٩٠٪) لا امل من هذه الحياة و ١٠٪ يُتوقع لها الخير.

ـ حسناً سأطلع أبي على هذه القضايا رغم انني استبعد اقتناعه بالموضوع لانه لا يعير هذه الامور أدنى اهتمام.

ـ اصطحبيه الى عيادتي فسأحدثه بنفسي.

ـ لا يادكتور، انه لن يأتي.

ـ حسناً، انا في خدمتكم ان وسعني ان اقدم لكم اية خدمة.

انصرفت السيدة حسامي وهي تؤيدني في رأيي تماماً. ولكن ما جدوى تأييدها أو عدمه بالنسبة للزوجين الشابين؟ الّا انه قد ينفع تلك الفئة التي لم تستأنف هذا المسلسل التمثيلي ان كانت لهم اذن صاغية بدلاً عن رأي متعجرف لا اثر للنقاش فيه.

صدأ الادمان

في ذلك اليوم جلس «بهرام» و «جلنار»[1] قبالة بعض بينما انشغل الكبار والبهجة تعمهم بالتخطيط لمستقبل العريسين بعد تحديد البرامج السارة الخاصة بمراسيم عقدهما وزفافهما. لا أحد كان يفكر يومها أن الحياة الزوجية لهذين الزوجين المرحين ستزخر بمثل هذه المعاناة والمشاق.

الفتاة جلنار ذات الخمس والعشرين سنة أنهت دراستها الثانوية وهي ابنة عائلة مؤمنة والشاب بهرام في السابعة والعشرين من عمره يحمل شهادة البكالوريوس وهو الآخر ينتمي الى أسرة مؤمنة ملتزمة بالمبادئ الخلقية، كانا على أعتاب استئناف حياتهما الزوجية. كل ما سمعته جلنار من بهرام كان منطقياً يثير الحب والاحترام. جلنار لم تتحدث إلّا بكلام يسير فقد آثرت الاستماع لبهرام.. كان يتحدث بأسلوب شيق أبت أن تقاطعه باستفسارات لا محل لها. ثم أن بهرام أوضح جميع الأمور المتعلقة به وبطموحاته ومشاريعه المستقبلية بأسلوب أغناها عن الاستفسار. كلامه كان يوحي برغبته في حياة طيبة هانئة وهادئة. كان حتى آنذاك ابن الأسرة والرغبة تحدوه ليتسلم دوره باعتباره رب أسرته. كان يعزف عن ممارسة أي نشاط خارج الدار سوى العمل، فلا يغادرها إلّا للعمل، كان يرغب في قضاء أوقات فراغه كلها مع

---

١ ـ اسم انثى يعني «زهر الرمان».

أسرته وابنائه دون غيرهم. آماله تشده نحو حياة لا يترك الكذب بصماته عليها بل يسودها الصدق والوضوح وينأى عنها التمويه والنفاق والكتمان.

اتضح من كلامه أنه والى جانب رغبته في احترام رأي الكبار خلال حياته الزوجية واذعانه بضرورة التشاور معهم. عقد العزم أن يشيدها على أساس قراراتها النهائية المشتركة. كان يقول: لابد أن يعتبر كل منا أقارب زوجه أقاربه وأن نطلع بعضنا على مجريات الأمور ونتشاور حولها فيما لو اعترت حياتنا أية شائبة.

قال لجلنار: «وضعي المالي لا بأس فيه، ومع ذلك ينبغي أن لا تتوقعي مني الكثير خلال سنيّ حياتنا الأولى وأن تثقي بأن جميع ما أبذله من مساعي هو في سبيلك أنت وابنائنا فلا تعترضي دربي، ابذلي جهدك لتحمل الصعاب في بداية حياتنا الزوجية ففيها الخير والضمان لمستقبلنا..».

بدت جلنار في ربطة الرأس الوردية الموردة وثوبها المنسجم في ألوانه مع الغطاء في حلة متناسقة مع اسمها وبشرتها المتوهجة. ذكاؤها أوحى لها أن مثل هذه الحلة تعينها في مثل هذه المجالس لتخفي احمرار وجهها الزائد تحت طائل ثقل نظرات الآخرين إليها. أمّا في تلك اللحظات فقد غفلت عن اخفاء تورد وجنتيها لشدة هياجها وهي تجلس امام بهرام تصغي الى كلامه. كانت تقول في نفسها: حقاً انه ضالتي التي أبحث عنها إن ثَبُت صدق كلامه. أمّا قلبها فقد اطمأن لكونه انساناً صادقاً.

بعد تلك الليلة تتالت اللقاءات التي ضمت الاسرتين. ثم أجرت اسرة الفتاة تحقيقات مسهبة أردفوها باعلان موافقتهم على هذه الزيجة بعد الوثوق من نتائجها الايجابية.

تمت مراسيم الخطوبة والعقد والزفاف على خير ما يرام خلال عام واحد كأنه قضي في طرفة عين. استأنف العريسان حياتهما الزوجية في منتهى السعادة وصفاء المشاعر القلبية. قضيا السنة الأولى منها حياة مثالية نزيهة. كانت

جلنار فتاة واعية فثابرت خلال تلك السنة لتعميق معلوماتها عن بعض وارجأت الحمل والانجاب حتى السنة الثانية فبحلولها حان اوان الانجاب برأي الزوجين. كان ولعها ببهرام يحدو بها أن تحسب انجابها طفلاً يكون بهرام أباه مدعاة فخر واعتزاز بالنسبة لها. وزوجها كان يضاهيها بل يتلهف اكثر منها شوقاً لمثل هذه الاحداث. ومع بداية السنة الثالثة رزقهما الله بطفلة اسمياها (پريا).

مع ولادة بريا بلغت سعادة الزوجين ذروتها. تزامن ذلك مع تعرف بهرام على شاب كان يقول بأنه ابن أحد كبار الاثرياء. كانت جلنار رغم تحدثها عن ادبه واطرائها المدح على لطافة معشره تصطخب مشاعر غامضة ازاءه، كانها كانت تلمح خطر الادمان من مظهره. كان جمشيد شاباً أعزب في مثل عمر بهرام ولكنه نحيف البنية شاحب الوجه. هواجسها دفعتها أن تصارح بهرام عدة مرات قائلة: عزيزي بهرام، يبدو لي ان معاشرته لنا وصداقتك معه ليس امراً صائباً..

كان بهرام يجيبها: أنا بدوري تنبهت نوعاً ما الى مثل هذا الموضوع ولكنني بحاجة الى جمشيد وأبيه، فالسيد (ن) والد جمشيد رجل صاحب مركز كبير احتاج مثله لانجاز مشاريع كبرى تدرُّ ارباحاً طائلة.

لم تقتنع الزوجة الشابة بكلامه فكانت تجيبه في كل مرة:

ـ ولكنني يا عزيزي لست ذات طموح بعيد ولا اتوقع ان تؤمن لي حياة ارستقراطية، فما حاجتك لخوض مثل هذه المغامرات؟ أمن اجل زيادة في المال؟

فيرد بهرام:

ـ زوجتي العزيزة، اعرفك حق المعرفة، واعلم انك لست بعيدة الطموح ولكن لا تنسي ان الشباب مرحلة قصيرة من الحياة ويتحتم على الانسان بذل ما في وسعه قبل بلوغ الاربعين التي يودع الانسان فيها مرحلة البناء ويبدأ

مرحلة صيانة ما حازه في سني الشباب ولا داعي لقلقك. لم أعد في سن انزلق فيه نحو هاوية الادمان وليرتاح بالك تماماً سأترك منذ اللحظة تدخين السجائر رغم انني لا ادخن الّا القليل منها يومياً.

لم تقتنع جلنار بكلام بهرام في تلك الليلة ولكنها لم ترتأي اطالة الحديث أكثر من ذلك. في تلك الايام طرأ حدث مفاجئ استحوذ على بال جلنار بشكل كامل وكان حملها دون رغبة منها. سُرَّ بهرام لسماع النبأ سروراً عظيماً ونجح في ازالة القلق والهواجس عن افكار زوجته بالتحدث اليها عن مستقبلهم الزاهر الجميل الذي يؤمّن سعادة اسرتهم باعضائها الأربعة.

راح الزوجان يستعدان لاستقبال طفلهما الثاني فرزقهما الله ذكراً اسمياه علياً. نضمام علي الى الأسرة اشغل جُلَّ وقت الزوجة فرعاية بريا ذات السنة ونصف السنة وعلي الرضيع مسؤولية لم يبق تحملها ايَّ مجال للزوجة لتضبط سلوك زوجها كما كانت تفعل. فابتعدت الزوجة عن دائرة علاقات بهرام وتبادله الزيارات الوديّة مع اصدقائه. وتزامن ذلك مع تحول علاقة بهرام وجمشيد الى صداقة جدُّ حميمة زادت معها زياراتهما واعتاد بهرام ان يزور صديقه جمشيد في شقته الخاصة احياناً مما ازاح التكلّف بينهما فصار جمشيد يتعاطى مخدراته على مرأى بهرام دون إباء.

حدث مراراً ان يسدد بهرام النصح لجمشيد قائلاً: ثناؤك خسارة، تتمتع بامكانيات مالية كبرى لك ان تلتذ بها، فلماذا تفني حياتك وكيانك بهذه المادة القاتلة؟

في كل مرة يجيبه جمشيد بردّ بعيد عن المنطق حتى آل الأمر ان يتركه بهرام وشأنه لأنه لم يكن يفكر في الواقع بصداقته مع جمشيد على قدر تفكيره بتحقيق أغراضه المادية من صداقته مع جمشيد. كان يريده مرتكزاً يتكئ عليه لا غير.

طالت مناقشات الصديقين حول الادمان والمخدرات اكثرية لقاءات هذين الشابين. وبعد اماطة اللثام عن الواقع واعتراف جمشيد بادمانه على الهيروئين

صار بهرام يمطره بوابل نصائحه وجمشيد يحاول في كل مرة تبرير ادمانه باستدلالات خاوية لا اساس لها منها: «انها غير فتاكة كما يخيل اليك فالمرء ان احسن ممارسة الرياضة ورعاية صحته واعتماد نظام صحيح في تغذيته يكون بوسعه الحفاظ على نشاطه من جهة والتمتع بحياة طيبة وبنفسية منتعشة من جهة أخرى».

لم يخفَ على بهرام ان هذا الكلام وهذه التبريرات لا صلة لها بالمنطق قط وان هذه العبارات المنمّقة لا تتعدى كونها خداعاً للنفس وان الاضرار الفتاكة والمهلكة التي تتأتى من تعاطي المخدرات ولا سيما الهيروئين ومضاعفاته الهدّامة في جسم ونفس متعاطيها اظهر من نار على علم. ومع ذلك يحلو له الاستماع الى هذه التبريرات كأنها بدأت تداعب قلبه.

في يوم من ايام الصيف الملتهبة اندلعت مشادّة لفظية عنيفة بين بهرام وأحد ارباب عمله بعد ان طلب اليه ان يستخدم مواد انشائية لا تتطابق مع المعايير الدولية في البناء للتخفيف من نفقات البناء والّا سيصرفه من العمل ويستعيض عنه بغيره.

احتار المهندس الشاب من أمره فهو ممّن تعاف نفسه الغش والتلاعب بالضوابط المقررة ولكنه بحاجة ماسّة لعمله من جهة اخرى فاستشاط غضباً. وفي مثل هذه الظروف النفسية الحرجة زاره جمشيد ولمّا اطّلع على مجريات الحدث قال له:

ـ لا تنزعج يا بهرام. سيحلُّ لك أبي هذه العقدة. سأحلُّ مشكلتك. والآن انهض معي لنذهب الى شقتي لتنال قسطاً من الراحة في جوها الهادئ والبارد حتى اعثر على أبي واحدد لك موعداً للقائه.

تفاءل بهرام خيراً بدعوة جمشيد وكأنه ملاك بُعث به من السماء لينقذه فرافق جمشيد.

وبعد قليل استلق الصديقان على الأرائك في شقة جمشيد وراحا يرتشفان

المشروبات الغازية بتوؤد. كان جمشيد قد فرغ تواً من تنسيق اللقاء بين أبيه وبهرام، وكلاهما استغرق في هدوء خاص، عندها قال جمشيد لبهرام:

ـ حسناً يا مهندس بهرام، انها خير فرصة مناسبة تندمج معي.

اقترح جمشيد على بهرام أن يشاركه في مأدبة الموت والانهيار. قال بهرام وهو يلقي عليه نظرات تذمر وتهكم:

ـ أراك بدأت تارة أخرى.

ـ لا تخف يا أسير النساء، لن تسقط في الادمان بتعاطيها مرة واحدة. كن واثقاً انني لا أقدم تقريراً بذلك لزوجتك. ولكنني أريدك أن تختبر التعاطي مرة واحدة.. مرة واحدة لا غير.. هيا.. هيا بنا واختبر الانتعاش مرة واحدة. ان راق لك فهو المطلوب وإن ساءك فستزداد ثباتاً على رأيك.

اعترت بهرام وساوس عجيبة. أوقعه اغراء جمشيد في الريبة. عم حب الاستطلاع والرغبة في اختبار المجهول كيانه. واصل جمشيد الحاحه وبهرام يحاول عدم اغاظته وازعاجه برفض اقتراحه نظراً لحاجته اليه والى أبيه ومخافة أن يفقد مؤازرتهما له. هكذا استسلم بهرام له واتخذ خطواته الأولى نحو الدمار والفناء. وهكذا عثر جمشيد على رفيق دربه بينما أوضاع بهرام نفسه وسعادته في حلكة المخدرات ودخانها.

***

لم تمض فترة طويلة حتى لاحت ملامح الادمان على سلوك بهرام وطباعه: علاقته الوثيقة مع جمشيد ولا مبالاته إزاء جلنار والأطفال وإهماله لشؤون عمله والأعراض الجسمية البادية عليه كلها أمور دقت أجراس الانذار في أُذني جلنار تعلن انهيار زوجها.

لم تثمر مخاوف الزوجة الشابة وهواجسها وكذلك محادثاتها الودية مع بهرام. تحولت حياتها رويداً رويداً الى مشاهد أكاذيب ومشاجرات

ومشاحنات و...، لم تنل حياتهما نصيباً منها لولا ادمان الزوج. لم يعد بهرام ذلك الزوج حسن السلوك الملتزم المتمسك بمسؤولياته. صار لا يعود الى الدار إلّا بفاصل عدة أيام تهرباً من أزماته الأسرية. فشل أقارب كليهما في اعادة المياه الى مجاريها. اقتنع بهرام مراراً أن يراجع طبيباً نفسانياً بهدف التخلص من الادمان، ولكن سرعان ما يعود الى سابق عهده لأنه لم يعقد العزم على الاستغناء عن هذه المادة الجهنمية. يئس الجميع من عودته الى حياته الطبيعية. كان يزداد انغماساً في ادمانه وانهياراً في شخصيته كلما تمادى في انسياقه وراء الادمان.

***

بعد خمس سنوات من بداية حكاية بهرام مع الادمان زارتني جلنار ترافقها أمها السيدة «اخوان» بهدفين أولهما علاج اكتئاب الزوجة الشابة والثاني التشاور معي حول ادمان بهرام والطريقة المثلى لمواجهة مشكلته.

من البديهي أن علاج حالة جلنار كان يستلزم استئصال جذور المرض فعلاج الاكتئاب دون سبر الأغوار واستيعاب الجذور غير ممكن. كنت أواجه زوجة في مقتبل العمر تتحمل أعباء مسؤولية طفلين لم يختبرا قط حنان الأب فكل ما يحملانه من ذكريات في حياتهما يتحدد بذكرياتهما في دار الجد. فكيف لها احتواء حالة اكتئابها بتعاطي عدة أقراص مضادة للاكتئاب وهي ترسم في مخيلتها طموحاتها التي ذهبت أدراج الرياح وأحلامها الجميلة وزوجها الطيب.. كيف لها ان تنسى خمس سنوات مريرة قضتها في أحلك الظروف النفسية؟!

ـ انه يرغب في التخلص من الادمان ولكنه يعجز عن تحقيق رغبته الا توجد طريقة تخلصه منها وتشعره بامتعاض دائم ازاء هذه المواد الفتاكة؟

ـ اصغي اليّ يا سيدتي. بامكاننا تخليصه من براثن الادمان ببساطة ثم

نحاول باساليب التحليل النفسي، العلاج النفسي وربما العلاج الدوائي احياناً علاج حالاته النفسية المستترة تحت غطاء إدمانه الحالي أو المتأتية منه. وبذلك نجنبه الى نهاية حياته شر الادمان وأية مشاكل نفسية أخرى ولكن ينبغي أن يكون بهرام ذاته راغباً في ترك الادمان من صميم القلب. امّا عن طلبك في اشعاره بالامتعاض الدائم ازاء المخدرات فانني اقول ان العلم لم يهتد حتى الآن لطريقة تحقق لنا مثل هذه الغاية بتناول عدة أقراص مثلاً. الطريق الوحيد لخلاصه هو ما ذكرته. رغبة المدمن الحقيقية ومن صميم القلب أولاً والثاني ان يستأنف بعد مرحلة قصيرة من العلاج يتخلص اثرها من الادمان، علاجاً نفسياً طويل الامد تحت اشراف طبيب نفساني ومعالج نفساني لاستئصال الجذور النفسية التي تشده نحو الادمان من اعماق نفسه. لم يتوصل العلماء لأية طريقة أخرى حتى الآن. اما عن رغبة المدمن القلبية ودافعه لانتشال نفسه من هذا المأزق يكفيه ان يحظى بدرجة ولو واطئة من الضمير والانصاف تحثه للتفكير بأسرته، بزوجته.وبأطفاله وبمصيرهم أو التفكير بسمعته المهدورة و... فهل هناك حافز أقوى من رغبة المرء في التخلص من شعوره بالخجل ازاء اطفاله؟

على أية حال اوصيتها بأن لا يهدرا سنيّ حياتهما على امل الخلاص كمن ينكب على تدهين آلة افسدها الصدأ على امل عودتها الى عملها الطبيعي فقلت:

ـ أفضل منهج لك يا سيدتي هو أن تحددي له أجلاً معيناً، ثلاثة أو ستة أشهر خلال جلسة تعقدانها بحضور كبار الأسرتين ليأخذوا عليه عهوده فان ثاب الى رشده وانتشل نفسه من المستنقع فهذا ما يحقق رغبتك وان لم ينفذ وعوده فتأهبي عندها لمتابعة المراحل القضائية التي تضمن لك حقوقك.

قالت أم جلنار:

ـ هذا بالضبط ما اقترحه انا عليها يا دكتور.

اردفت جلنار:

ـ هذا صحيح يا دكتور، ولكن ما هو مصير الابناء؟ كيف لي أن أتعهد بشؤون رعايتهما دون اشراف أبيهما؟

ـ سيدتي، لا عليك الّا أن تتابعي مسيرتك معهما حتى الآن. اننا نتحدث عن دور الأبوة والأمومة في حياة الابناء لما للأبوين من دور بناء لا هدّام في حياتهم. على أية حال بمقدورك متابعة القضية قضائياً وسيضمن لك القانون حقوقك ما دمت تقولين ان بهرام قد تسبب على مر هذه الفترة في تخبطك انت والأطفال في متاهات الرزايا والتعذيب النفسي. لفظة الأب تضم من لم يتورط بالادمان وتناسي المسؤوليات الملقاة على عاتقه. لا تأخذك الهواجس مخافة ان تصدر المحكمة حكماً بطلاقكما لأنك تحظين باسرة طيبة ستدعمك وتقف الى جانبك كما انك امرأة جديرة كفوءة.

نهضت جلنار كأنها كانت بحاجة للاختلاء بنفسها.. ما أقسى تزاحم الافكار في مخيلتها، كل تلك الطموحات الذاهبة ادراج الرياح، الاحلام الحلوة التي حطمتها عواصف الادمان. تسمرت في اجواء بعيدة واكتظت مقلتاها بالدموع فانفلتت وسالت على وجنتيها.

قلت لها:

ـ لا تحزني، الحياة دوماً هكذا، اتراح وافراح، من الافضل أن تسارعي لانهاء الاتراح لاستئناف الافراح، انك راسخة الارادة وقد أديت واجبك وتدعمك اسرة طيبة، سوف لن يزداد وضعك سوءاً. ان اصدرت المحكمة حكماً بطلاقكما سواء قررت الزواج ثانية أم لا، شرط ان تركني دوماً للتشاور مع الكبار ولا تتركي مشاعرك وحالاتك النفسية تجعلك فريسة لها.

قالت ضاحكة:

ـ وهل ابلغ من الصلافة ان افكر ثانية بالزواج، اصارحك يا دكتور بأنني صرت اكره الرجال جميعاً. انهم كاذبون مخادعون، جميعهم هكذا.

استطردت الام ضاحكة ممتعضة نوعاً ما:

ـ ما هذا الكلام الذي تنطقين به امام الدكتور يا جلنار؟

قلت ممازحاً:

ـ تقصد سوانا انا واباها!.

انتهت تلك الجلسة ثم انقضى أمر الثلاثة أشهر المحددة لبهرام دون ان تثمر. كان بهرام رجلاً طيباً ولكن الطيبة لا تكفي بمفردها لإدارة شؤون حياة الأسرة. ولهذا اتفقا بوساطة الكبار على الطلاق بعد عدة أشهر.

انقضت ثلاثة أعوام على طلاقهما. قضت فيها جلنار وولداها حياة رائعة حسب معلوماتي. كأن بهرام فقد رغبته حتى بلقاء الابناء شهرياً أو ان حبه لما يتعاطاه يفوق حبه لابنائه. حسناً. هذا ما ينبغي ان تتفاءل جلنار به خيراً فمثل هذا الاب أفسد صدأ الادمان معدن شهامته وفراقه أفضل من لقائه.

اعرف الحياة كما هي

زارتني السيدة «ك» تشكو من مرض الاكتئاب الكبير. طلبت الي ان أعالجها بالدواء. كانت تعزف عن اللجوء الى المناهج التشخيصية في التحليلات النفسية والطب النفسي وعن تقصي جذور الحالة والتشاور حول مشاكلها. كانت تقول أنها لا تعاني من أية أزمة قد تتسبب في مرضها ولا حاجة لها لمثل هذه الأمور. لم يسعني الّا أن اثق بها وأبدأ العلاج بناءً على طلبها.

شهدت حالة السيدة «ك» تحسناً مشهوداً بعد تعاطيها وصفتين وفي الجلسة لثالثة نظمت برنامج تعاطيها للأدوية بعد اجراء الفحوصات والتوصل الى معلومات وافية حول حالتها ووضعها النفسي ودفعت اليها الوصفة.

تساءلت السيدة «ك»:

ـ والى متى يتحتم عليّ أن اتعاطى هذه الأدوية؟

قلت باسماً:

ـ حتى تنتهي مراحل علاجك.

ـ أعني متى تنتهي مراحل علاجي واتمكن من مواصلة حياتي الطبيعية عموماً دون الأدوية؟

ـ اصغي إليّ يا سيدتي، سوف تنالين العلاج وتعودين الى ما كنت عليه مئة بالمئة بعد حوالي ثلاثة أشهر شرط ان لا تتعرض حياتك لازمات نفسية فمن شأنها أن تؤدي الى تبلور جميع الأعراض تارة اخرى. انك تعانين من ضرب

انفعالي أي ان المشاكل البيئية تعتبر العامل الاساس في تبلور هذه الاعراض خلافاً للاكتئاب الخلقي، فالظروف البيئية لا تلعب دوراً يـذكر في الاكـتئاب الخلقي بل تعود الاصابة به الى قضايا وراثية. ولكن اكتئابك يُصنّف ضمن النوع الأول.

بدت عليها علامات الحيرة والأسى وقالت:

ـ ولكنني لا اعاني من مشكلة ما يا دكتور. كل شيء يسير في حياتي على ما يرام.

لم تكن اول مرة اواجه فيها تمادي المرضى في التنكر لظروفهم البيئية فالكثير من المرضى يحاولون تجاهل حقائق حياتهم بانكارها، وقد يحدث ذلك عفوياً أي تحت طائل لجوء الضمير اللا واعي (العقل البـاطن) الى آليـات دفـاعية نفسية خاصة مثل الانكار أو العزل، فينكر الحقائق في الاولى ويجهد في الثانية لتناسي التفكير بها للتخفيف أكثر فأكثر من عبئها العاطفي. كل هذا والحقائق قائمة تعرض كالصدأ نفس الانسـان ومـعنوياته عـلى مـر السـاعة للـتآكـل والاضمحلال إن لم يتم التغلب عليها. انها آليات قد تستجر المرء الى حالات نفسية خفية ومستعصية تنتج عن انهدار الفرص البناءة في الحياة. ومـع هـذا اقول أن هذه الآليات تعتبر في اطـارها المـعقول والمـتوازن مـن الخـصائص الطبيعية للانسان، تدعمه بشدة عند مواجهة الرزايا والنوائب في حياته. كانت احدى مريضاتي سيدة تطلّقت من زوجها فاودع طفلها لزوجها. كانت تجهد عفوياً ان لا تفكر بالطفل في محاولة منها للتخفيف قدر المستطاع عـن العبء العاطفي الذي تتعرض له وهذا ما قدّم لها عوناً كبيراً. ولكنها طريقة ينبغي ان لا تخترق الأطر الطبيعية.

الأمر بالنسبة للسيدة «ك» أيضاً كان على هذه الوتيرة. كنت في غنى عـن اجراء الاختبارات النفسية للتوصل الى هذه النتيجة. فمغالاتها في الالحاح بأنها لا تعاني من أية مشكلة ومطالبتي بمعالجتها عن طريق الدواء يمثل سلوكاً مثيراً

للريبة لدى أي طبيب نفساني، فهل ياترى هنالك من تخلو حـياته مـن ايـة مشكلة.

قلت لها باسماً:

ـ أهنئك على ذلك فانك الانسان الوحيد الذي لا يعاني من اية مشكلة في حياته.

أثارتها عبارتي الأخيرة فضحكت وهي تقول بما ينم عن تنازلها قدراً عن موقفها المتزمت:

ـ لا، الامر ليس كذلك. فلكل امرئ مشاكله كما تقول. ولكني تزوجت منذ اربع سنوات واتبادل مع زوجي مشاعر الحب. اننا نحيا حياة هانئة تقريباً. لا أعاني مشكلة مع اسرتي واشعر برضى تام ازاء عملي. اذاً، لا أفهم ما تقول يا دكتور.

لم تكن لديّ رغبة في الاطلاع على شؤون حياتها في محاولة لتجنب فـهم قضايا لا يحلو لها اطلاعي عليها ولأنها لم تكن على استعداد لخوض مثل هذه الخطوات فاصرار على استفهامها سـوف يـدعوها لترك مـراحـل العـلاج في منتصف الطريق مما يعرضها لخـطر جسـيم. فـعلماء الطب النـفسي والخـبراء النفسانيون يقولون: ان كنت واثقاً من قدرتك على احتواء هذا البركان الثائر وكبح جماحه نفّذ ما عقدتَ العزم عليه والّا فاحجم عن أية مبادرة تجنباً لزيادة الطين بلّة. كما ينبغي التوثّق من مدى رغبة المريض في خوض مراحل العلاج. هل ينوي خوضها حتى النهاية؟ لأنّه ان تركها قبل ذلك فسيطلع على قسم من اساليب العلاج ويجهل قسماً آخر، وفي النهاية يحاول التغلب بنفسه على مشاكله باعتماد معلومات ناقصة فيزيد الوضع تأزماً.

صارحتها بكل ما يجول في خاطري وقلت لها:

ـ سأكون في خدمتك ان رغبت في العلاج. فكّري جيداً ثم حدّدي بالتنسيق مع سكرتيرتي موعداً لجلسات المشاورة والعـلاج النـفسي في مـا لو قـررتِ

خوض هذه المراحل.

تركت الغرفة بعد أن اتفقنا أن تفكر بكل شيء بجد. ولكن... بعد دقائق اطلعتني السكرتيرة بأن السيدة «ك» ما زالت في العيادة وانها تطلب موعداً عاجلاً للمشاورة. لا أعلم ما هي النتيجة التي توصلت اليها مما حدا بها لاتخاذ قرارها بمثل هذه السرعة ربما أبصرت جمعاً كبيراً من المراجعين خارج الغرفة مما حفزها لاستثمار الفرصة المتاحة بأسرع ما يمكن فطلبت كغيرها موعداً عاجلاً. تملكني الضحك وأنا أتذكر مثلاً المانياً يقول: يرغب الناس في التخلص من الكثير من وسائل العيش ولكنهم يندمون عندما يتذكرون أن الجيران قد يحملونها الى دارهم فيعودون للتفكير بأنها كانت ثمينة دون ريب ولكنهم لم يعرفوا قدرها.

وبعد اسبوع:

ـ لا أعرف عم أتحدث يا دكتور. في الحقيقة لم أحضر مثل هذه الجلسات حتى الآن ولا أعلم من أين أبدأ.

ـ من حيث تتصورين أن القضية شغلت بالك.

ـ في الحقيقة.. في الحقيقة...

ـ حسناً سأعينك ان كنت راغبة في ذلك.

ـ أجل. وهو الأفضل.

ـ قلت لي في الجلسة السابقة أنك تشعرين بالرضا ازاء كل ما يحيط بك وازاء حياتك عموماً. أليس كذلك؟

ـ أجل يا دكتور.

ـ وهل لك أن تتحدثي اليّ بأكثر من هذا عن نفسك والمحيطين بك لازداد معرفة بهم وإلماماً بحياتك؟

ـ أجل يا دكتور، أبي مهندس بناء وله من العمر ستة وخمسون عاماً. أمي

ربة بيت في الثامنة والأربعين من العمر، تحمل شهادة البكالوريا. لي أخ واحد متزوج وله طفل واحد، يكبرني بعامين. مؤهله العلمي بكالوريوس محاسبة، يعمل موظفاً في منظمة «...». يحظون جميعاً بحياة طيبة ولكنني لا أتمتع بعلاقات حميمة معهم. أفكارنا تتعارض مع بعضها ورغم ذلك يسود الاحترام والود علاقاتنا.

ـ وكيف؟ ألا تشعرين عاطفياً ونفسياً بالارتياح في علاقاتك معهم؟

ـ لا يا دكتور. أرغب في بث همومي الى زوجي وأن تكون علاقتي حميمة معه أكثر منهم.

ـ وهل تتمتعين بمثل هذه العلاقة معه؟

ـ أجل، ولكنه.. ولكنه يخصص أغلبية أوقاته لعمله والمهمات التي تفوض اليه وما تبقى منه لإقامة الضيافات أو تلبية الدعوات. اننا في الواقع لا نقضي ساعة واحدة الى جنب بعض. انني أقضي أوقاتي اما وحيدة أو منهمكة باستقبال ضيوفه وهذا ما يرهقني وينهك قواي.

ـ يمكنك اشغال اوقات فراغك الى حد كبير بالانجاب؟

ـ حاولت ذلك، كأن هناك اشكالية تعرقل الأمر. الأطباء يقولون انه عقيم.. اننا نجتاز مراحل العلاج حالياً.

ـ وهل تحدثت الى الاطباء المعالجين لتستوثقي من وجود الأمل أو عدمه؟

ـ لا، ليس كما تقول. انه يراجع الأطباء منفرداً. رافقته مرة واحدة ولكنه عجز عن تنفيذ التعليمات الخاصة التي اوصاه الطبيب باتباعها.

ـ اية تعليمات؟

ـ انه يعاني نوعاً ما من البرود الغريزي، استميحك عذراً لخوضي في مثل هذه الاحاديث. أعني بذلك اطلاعك على وضع حياتي والّا فانها قضايا لا اعلق عليها اهتماماً قط. فالحياة لا تقوم على اساس هذه الأمور.

ـ ولم تتصورين انها قضايا غير هامة؟ انها حاجة غريزية يشعر بها

الانسان. إن الانجاب، تناول الطعام، رعاية النظافة، التنفس، ارتداء الملابس و... كلها تعتبر من ضرورات الحياة الطبيعية، بعضها يتطلبها جسم الانسان وبعضها الآخر روحه نفسه. وقد امرنا الله سبحانه وتعالى ان نستفيد مما وضعه في متناول ايدينا باسلوب صحيح.

ـ لا اعلم يا دكتور.

سرحت مع افكاري قليلاً. ساد الغرفة صمت ثقيل لدقائق.. كلانا كان يلتزم السكوت. تنبهت الى انطلاقة معاناتها من الاكتئاب. كان عليها ان تختار اما ان تتقبل الوضع الحالي عن طيب خاطر وبهدوء نفسي وتجهد الى جانب ذلك لحل مشكلتها دون أن تستبعد فشل جميع هذه المساعي وامّا ان تحدّد اجلاً معيناً لحل مشكلتها فتنتهي حياتها الزوجية عند انتهائها فيما لو لم تحقق خلالها اهدافها المرجوة.

ـ اصغي إليّ سيدتي. الحياة تتذبذب بين اقبال وادبار، لا شك في ذلك فهي زاخرة بالأفراح والاتراح. كل هذه الأمور طبيعية ولكن قد تطرأ أحياناً احداث يفوق تحمّلها طاقة المرء فتهدد الكيان الاسري. انك الآن تواجهين حالات ثلاثاً. أولها الانجاب والثاني الوحدة القاتلة والثالثة انعدام الممارسات الزوجية المرضية في حياتكما حسب قولك..

بعض النساء يتحملن هذه الاوضاع ويواصلن الحياة والكثير منهن لا يطقن الوضع فيلجأن الى الطلاق. القرار يعود اليك أنت، امّا انا فبوسعي ان اهديك الطريق لاتخاذ قرار صائب بأن نقيّم جزئيات القضية معاً ونحيط علماً وافياً بمختلف جوانبها عندئذ يكون بامكانك سيدتي ان تتخذي قراراً صائباً لا يصحبه تلكؤ ولا يعقبه ندمٌ. اطلاع ابويك على الموضوع ومسيرة القضايا ضروري بطبيعة الحال لأنهم خلافاً لي التقوا زوجك ويعرفونه وانهم من جهة أخرى كبار اسرتك ويتحتم اطلاعهم على الموضوع وستكون لآرائهم البناءة آثار في غاية الأهمية. لا تنسي ان الخيار الاول فيه احتمالان:

الاحتمال الاول هو ان ترزقي طفلاً فيدرك زوجك مشاعرك وينجح في التوفيق بين العمل والاصدقاء والضيافات من جهة وبينك من جهة اخرى فترضين الحياة معه وتحظين بحياة زوجية سوية (وهذا ما لا يحدث الاّ نادراً فالاحتمال ضعيف بحدوث تطورات ايجابية هامة).

والاحتمال الثاني هو انك تفشلين في تحقيق اي من هذه الاهداف او بعضها. يفترض عليك ان تحددي موقفك ازاء فشلك في تحقيق هذه الاهداف. هل انك على استعداد لقضاء بقية حياتك على هذا المنوال؟ هل انت واثقة من انك لن تندمي عند منعطف الطريق على اتخاذ القرار بشأن مواصلة مرحلة الحياة مع زوجك عندما تبلغين من العمر خمسة وثلاثين عاماً مثلاً؟ هل لديك شهامة اتخاذ مثل هذا الموقف وتقديم مثل هذه التضحية؟ ان كان جوابك ايجابياً فلا حاجة لنا لبقية الاحتمالات وان كان سلبياً فرجائي ان تستوعبي هذا الموضوع منذ اللحظة فلك في مثل عمرك ان تختبري الحياة الزوجية تارة اخرى بينما يصعب عليك تحقيق ذلك بعد عشرة اعوام. ستزدادين اكتئاباً آنذاك وتتحول حياتك الى جحيم لشعورك بأنك غدوتِ ضحية. وعند التخبط في مثل هذه المشاعر ينتهي امر الانسان الى ما لا يحمد عقباه.

امّا الخيار الثاني والذي يبدو اكثر منطقية فهو ان تلجأي بعد التشاور مع ابويك لعقد جلسة معه هو وبمشاركة ابويه فتجتمعون في جلسة ودية اسريّة، انت وكبار اسرتك وهو وكبار اسرته. لابد أن تطرحي في تلك الجلسة مشاكلك بصراحة وبأريحية تامة. وان تحددي اجلاً معيناً ان تحقق لك ما ترومين اليه خلاله فهذا ما نطلبه وان لم يحدث ذلك تتفقان بود وعن تفاهم على الطلاق فإن وافق فبها وإن أبى فهنالك القوانين يسعك اللجوء اليها للوصول الى حقوقك. اؤكد عليك ان تصارحيه بادئاً وقبل كل هذه المبادرات بأنك تعانين من مرض نفسي حدّثيه عن بواعث هذه المشاكل بوضوح. القي عليه الحجة، اسلكي معه باسلوب لا يثير امتعاضه لعله يقول مستقبلاً كان عليك ان

تصارحيني بالأمر وتتحدثي الي قبل غيري. قد يدلي زوجك بايضاحات خاصة تأخذ بأيديكما للتغلب على الكثير من المشاكل والتوصل الى نتائج طيبة. ولكن أنصحك مع ذلك ان تطلعي ابويك على الأمر. استغرقت جلستي معها ساعة ونصف الساعة حتى اتضحت معالم القضية لها ثم تلتها ثلاث جلسات توصلنا خلالها الى خطة استراتيجية دقيقة لحل قضايا السيدة «ك». اخترنا خطة رزينة تتسم بالعقلانية فانصرفت في الوقت ذاته لتنفذ تلك الخطة.

***

بعد ستة أشهر

زارتني السيدة «ك» مع أمها. فأخبرتني انها نفّذت الخطط المرسومة بحذافيرها دون ان تثمر وانها صممت على الطلاق. قالت ان «بهزاد» (زوجها) بدوره لا مانع لديه وانه يقول: انني أتمنى لك السعادة. وقد عقدت العزم على المبادرة لطلب الطلاق. كانت الام تؤيد رأي ابنتها ويبدو ان الأب ايضاً يوافقهما الرأي. انصرفت السيدتان وبعد ثلاثة أشهر أوصدت تلك الحياة غير المتسقة أبوابها ثم تزوجت السيدة «ك» بعد سنة ورزقت طفلاً أضاء اركان حياتها. أعربت لي عندما لقيتها ذات مرة عن شعورها بالرضا ازاء حياتها وأنها تشعر بالسعادة والهناء.

قالت: شعوري بالرضا في هذه المرة يختلف عن المرة السابقة فانه شعور حقيقي لا واهي.

لقد اسعفها الحظ بأنها أدركت مبكراً ماذا عليها ان تفعل.

واوجّه بالمناسبة حديثي للذين يكبتون آلامهم في انفسهم ولا يبوحون بها لأي شخص فيتنبهون بعد فوات الاوان وانقضاء الشباب بأن الوضع ازداد سوءاً. على فكرة لا أنسى أن اؤكد ان تلجأوا الى اشخاص خيرين أو الواعين من الاخصائيين ان صممتم على التشاور مع الآخرين.

لا تبح بالأسرار

رسم الجمع المنساب وراء جثمان احد كبار المدينة ضمن مراسيم تشييعه علامات الحزن والأسى على قسماتهم احتراماً للفقيد الراحل وهم يخطون وراء تابوته المسجى. عم الزحام جميع الطرق المؤدية الى كبرى ساحات المدينة. علا صوت القارئ يرتل القرآن الكريم وكذلك نحيب اقرباء المتوفى المقربين يبكون فقدانه. ارتبكت الاوضاع في مركز المدينة وحدث زحام عجيب في شوارعه على حين غرة ظهر بين المشيعين رجل يرتدي هندام النساء، جعل يغني اغان مطربة ويرقص ويدبّك. فجأة تشوشت مراسيم التشييع الى حدّ ما.. غاب الحدث المؤلم عن بال الجميع فراحوا يحدقون في الرجل بفمٍ فاغر. غالب الضحك مجموعة منهم ففقدوا القدرة على تمالك انفسهم.. وآخرون استشاطوا غضباً والرجل الغريب يواصل غناءه ورقصه دون مبالاة بأحد. يبدو أن رحيل الفقيد الوجيه لم يلدغ العواطف، كان متقدماً في السن وقد قضى سنوات مديدة معتلاً طريح الفراش فكان الجميع يرتقبون لحظة وفاته. اما هذه المراسيم فقد كانت إجراءً روتينياً مطلوباً لا عزاء حقيقياً.

على أية حال حضرت قوات الشرطة وساهم اقارب المرحوم في كبحه وسحبه جانباً وهو منهمك في غنائه ورقصه. نقل الرجل الى مركز الشرطة.. كان قد واصل طوال الطريق ترديد القول: رحم الله الحاج... رحل وفسح المجال امام مجموعة لتهنأ في عيشها. جئت الى هنا لأهنئ هذه المجموعة. عليهم ان

يكافئوني لأنني ساهمت في مراسيم ابتهاجهم.

الكثيرون كانوا يعرفون الرجل فقد صيرته حالته النفسية المزمنة وجهاً معروفاً ولهذا تنازل أقرباؤه عن شكواهم وانصرفوا ثم نقل الرجل الى أحد مراكز العلاج النفسي ليتلقى العلاج الميسور. كان السيد (ر) من زبائن ذلك المركز وله فيه سجل طبي سميك كان حصيله خضوعه عدة مرات للعلاج في هذا المركز بعد تشخيص ابتلائه بالذُّهان المسي لم يكن بين مرضى وموظفي ذلك المركز من لم يلقَه من قبل. وأنا بدوري رغم حداثة عهدي بالعمل في تلك المدينة سبق لي ان كتبت له وصفة بعد لقاء قصير جزئي بيننا. كان زملاؤه يسردون عنه حكايات طريفة لا حصر لها منها انه اودع المركز في المرة الاخيرة قبل عام بعد ان ورد مطعماً للكباب بالأرز ودعا جميع الحضور لتناول الطعام على حسابه الخاص وقبل ذاك كان ذات مرة قد باع كل ما في محلّه بتخفيف ٥٠٪ من السعر فعرض اسرته لخسارة قصمت ظهرهم جراء ذلك. وفي مبادرة اخرى اعترض درب رئيس بلدية المدينة معرباً انه ألهم بأن صاحب الامر والزمان (عج) سيظهر بعد شهرين، وراح يلح على رئيس البلدية ان يعلن ذلك على عامة الناس ليستعدوا لاستقباله. مسكين رئيس البلدية خيل جهله بحالة السيد (ر) ان هذا الرجل ينوي تشويش افكار الناس وبعد تقصي الامر من المحيطين به ادرك ان الرجل مريض فحوّله مع خطاب رسمي الى مستشفى للامراض النفسية في المدينة.

قال لي احد الاطباء: في كل دفعة يزور عيادتي فيها يستغرق امداً طويلاً في الثرثرة وفي احاديث لا اول لها ولا آخر ولكنها طريفة ولهذا اتركه يتحدث مدة من الزمن لأنه بذلك ينفس عن معاناته النفسية الى حد كبير وأنا بدوري أنال قسطاً من الراحة واستعيد قواي النفسية لاستقبال مرضاي اللاحقين. هذا هو سر الرجل وسبب اعتباره الدكتور سر الطبيب الحقيقي الوحيد في المدينة واذعانه حسب قوله لرأيه وتعليماته.

اثارت هذه الانباء ضجة في المدينة وصار الناس يتداولونها في كل لقاء

واجتماع. كنت قد سمعت اخباراً متقطعة عنه فطلبت لقاءه. ورد الغرفة بوداعة وهدوء يرافقه احد منتسبي المركز. ارتأيت باستفساراتي العامة ان استوضح حقيقة افكاره وغمطها، فسألته:

ـ ما هو رأيك يا سيد (ر) حول احداث الأمس؟

قال بصوت جاد:

ـ رحيل الحاج ادخل السرور على قلوب الكثيرين وقد اردت مشاركتهم في افراحهم.

ـ وسط مراسيم العزاء؟

ـ هذا كلام فارغ. هل كانوا يبكون؟ فلماذا لم ير أحد دموعهم؟

ـ من محاسن الصدف انني مررت بالامس من مكان الحادث وقد رأيت مجموعة من المشيعين ينحبون ويذرفون الدموع.

ـ انك لا تعرف القوم. رطبوا اجفانهم ببصاقهم. أنا أعرف هؤلاء الناس.

ـ حتى لو كانوا مبتهجين، هل كان تصرفك عقلانياً؟ لقد أربكت المراسيم.

ـ لم أكن السبب. أديت واجبي. وقد اعترضوني دون مبرر...

ـ ولكن لا يمكن التصريح بكل شيء.

ـ لم أتكلم قط.

ـ حسناً، أعني لكل مقام مقال.

ـ هل تعني انه يتحتم عليّ ان أستأذن الجميع في كل عمل أريد المبادرة اليه؟

ـ لا، لا أقصد ذلك ولكن ينبغي احترام مراسيم الآخرين.

ـ الشارع لم يكن ملكاً لهم.

ـ هذا صحيح. ولكن اخبرني لماذا كنت ترتدي ملابس نسائية؟

ـ وما المانع من ذلك؟ الا يحدث في بعض المسرحيات ان يرتدي الرجال ملابس نسائية؟

ـ أجل ولكنك لم تكن تقدم مسرحية.

ـ ألم تشهد اجراء مسرحيات على الهواء في طهران والمدن الكبرى.. ناهيك عما يحظى به اصحاب مثل هذه البرامج من احترام واجلال. فتبادر الصحف والاذاعة والتلفزيون لاجراء لقاءات وحوارات معهم. ولكن مؤسسة الاذاعة والتلفزيون في مدينتنا يسامح الله منتسبيها لم تجر معي حتى الآن أي لقاء.. سيثمنونني عندما ارحل الى طهران وأنال الشهرة هناك.

كان قد ابتعد عن محور الحديث ومن واجبي ان احول دون ذلك فمن اعراض هذا المرض اسهاب المرضى في الثرثرة والانحراف نحو المواضيع الجانبية والانتقال المفاجئ بينها..

قلت:

ـ ومع ذلك فانهم لا يفعلون ذلك الّا باجازة رسمية وعلى اساس تنسيق مسبق مع المسؤولين حول زمان ومحل عرض مسرحياتهم.

ـ أنا ايضاً سوف استحصل من هنا فصاعداً اجازة قبل البدء.

ـ ولكنك فعلت ما فعلت بالامس دون اجازة.

ـ وهل تنفذ جميع العروضات الشعبية باجازة رسمية؟

ـ ولكنها لا تنفذ وسط مراسيم عزاء الآخرين!

ضاق ذرعاً بكلامي فقال باسلوب منطقي وكأنه يحادث طفلاً:

ـ أتعلم يا دكتور، انكم درستم مادة ما ثم اتيتم الى هنا لتختبروا معلوماتكم عن طريقنا. كل ما تعلمتوه هراء وأنا اتصرّف عن حكمة. ان اذعاني للجلوس هنا والاستماع اليك إنما كان احتراماً لانتسابك لرسول الله ﷺ وليس احتراماً لك. اذاً هيا ايها السيد اطلب اليهم ان يتركوني وشأني. سيظهر صاحب الامر والزمان (عج) بعد يومين.

عندها حدق في ركن من الغرفة ونهض احتراماً لشخص ما ثم جلس ثانية واستطرد قائلاً: في خضم تلك الاحداث سيتضح للجميع من يتمتع بالشهامة والرجولة ومن يتجرد عنها.

كان يعاني من تشوش فكري حاد فيترك حديثه باستمرار ليخوض في غيره دون اتمام الأول. وهذاءات الأنفة والغرور الفارغ بادية عليه بوضوح. تحدث عن لقاءاته مع صاحب الزمان (عج) وأنه اكثر فهماً وتمرساً من مائة طبيب. ثقته بالنفس كانت تتجاوز الحدود فيرى في نفسه امكانية انجاز المستحيلات، وكل هذه تعتبر من اعراض مرضه. حيث ترجم العرض تحت عنوان

شخصت الحالة بأنها معاودة الذهان المسي، بقي ان احدد درجته واقدم ايضاحات حول هذا المرض لطلاب الطب الحاضرين في الغرفة.

عادوا به الى غرفته. طلبت اسرته راجياً حضورهم في اليوم التالي لاعقد معهم جلسة خاصة.

وفي اليوم التالي حضرت السيدة (ر) وابنها البكر. كان شاباً من العشرين وامه تبدو في الأربعين.

ـ حسناً يا سيدة «ر» منذ متى عادت أعراض مرض زوجك للظهور؟

ـ منذ خمسة عشر يوماً.

ـ وما هي الاجراءات التي اتخذتموها حتى الآن.

ـ لم نتخذ أي اجراء يا دكتور، أعني لا يسمح لنا بذلك، اما هو فانك ترى حاله وتصرفاته. لا يكف عن الكلام منذ الصباح حتى المساء. صار قليل النوم الى حدّ كبير. يوقظنا جميعاً في منتصف الليل. قبل عدة ايام كان قد ابتاع عدة اكياس من الرز من محل في زقاقنا ثم وزعها حسب قوله بين الفقراء.

ـ حسناً ولماذا لم تراجعوا طبيبه المعالج ليهديكم السبيل؟ إنكم تعلمون انّ امتناعه عن تعاطي دوائه يؤدي الى معاودة المرض ويحتمل في كل مرة أن يعرض نفسه أو الآخرين الى اخطار جسيمة أدناها أن يهدر كل ما يملك بمبادرة مالية غير حكيمة.

التزما الصمت مطأطئين رأسيهما.

قلت:

اصغي الي يا سيدتي. زوجك يعاني من مرض مزمن يتطلب خضوعه للعلاج حتى نهاية حياته فبخضوعه للعلاج يمكنكم جميعاً خوض حياة طبيعية الى جانبه. وباستغنائه عن العلاج لا يعلم الّا الله فداحة الرزايا التي ستتعرضون لها. أقول هذا لاطلعكم على مسؤوليتكم ازاءه. انني واثق أن بقية زملائي قد تحدثوا اليكم مراراً حول هذا الموضوع.

ـ لا يا دكتور، لم يقدم لنا طبيبه أية ايضاحات من هذا القبيل.

انه اسلوب يتقمصه الكثير من المرضى وذووهم يلقون اللوم على عاتق اطبائهم فراراً من تحمل اعباء مسؤولياتهم ازاء هفواتهم. كنت واثقاً انهم لم يصدقوا القول في عبارتهم الأخيرة فالذهان المسي الاكتئابي مرض معروف لا يغيب عن بال طبيب نفسي أن يقدم التعليمات الخاصة لاسرة المريض وتنبيههم الى واجبهم إزاءه. إن الاطباء النفسانيين لا يستقبلون اساساً هؤلاء المرضى على انفراد لأنهم واثقون ان مساعيهم لن تثمر بهذا النحو فالتعليمات المهنية تحتم علينا استقبالهم برفقة أحد اعضاء اسرتهم.

ـ سيدتي. انني اعرف الدكتور «..» وانا واثق انه ادى واجبه في هذا السياق. ومع هذا فانني أعدت الكرة الآن على أمل ان تتوخوا دقةً أكبر في المستقبل.

كنت قد طلبت ارقاده في المستشفى. وفي اليوم التالي كنت منهمكاً بفحص مرضاي في القسم. قرأت في تقرير الممرضين الخفر حول الليلة الماضية بأن السيد (ر) استجر بعض المرضى ليتبعوه في شبه مسيرة وهم يرددون الشعارات بعد ان أعلن نفسه مبعوثاً خاصاً وراح يصدر الاوامر والنواهي للمرضى وهو يلقي بطانَيته على كتفيه مثل شال ويحمل مكنسة ذات ذراع طويل شد عليها قميصه باعتبارها راية مجموعة. والطريف ان مجموعة من المرضى كانوا قد اعترفوا به رئيساً لهم.

جاء في التقرير: ينهض في أوقات مختلفة من الليل ويجمع المرضى ليتحدث اليهم. كما جاء فيه: اضطررنا لحقنه عدة مرات بمهدئات قوية الفاعلية. بعد

الفراغ من مطالعة التقرير حددت له مقداراً مضاعفاً من الدواء في جرعاته المختلفة.

وفي جلسة ضمّتني مع طلاب الطب طلبت لقاءه ليتعرف الطلاب عن كثب على حالة الذهان المسي الاكتئابي. ولما دخل الغرفة صافحنا وتبادل التحيات معنا فرداً فرداً.. كنا حوالي عشرين شخصاً. ثم اختار ركناً وقف فيه. قال: كرسيي في وسط الغرفة وليس من الادب أن اجلس وانا ادير ظهري لعدد من الزملاء. نقلنا مقعده الى مكان مناسب قرب الجدار فجلس.

لم يكن أي من الطلبة قد التقى مريضاً مصاباً بهذه الحالة وكل ما لديهم من معلومات حول خصائص هذا الاختلال اكتسبوها نظرياً عن طريق الكتب فكانوا ينظرون اليه وكأنه مخلوق عجيب نادر.. وفجأة نهض واقفاً والتفت اليهم قائلاً: لماذا تحدقون بي هكذا وهل أبصرتم قروناً على رأسي؟ ألم تلتقوا حتى الآن انساناً وجيهاً؟

اومأت اليهم بتجنب اثارته وان لا يلقوا اليه نظرات مباشرة.

قلت:

ـ الاخوة والاخوات من طلاب الطب يا سيد (ر) وقد رغبت في تعميق معرفتنا ببعض.

استلطف اطرائي عليه فعاد اليه هدوؤه. ثم قال بحزن واريحية:

ـ هل تعلم ايها السيد، لم يفهم احد جدك رسول الله ﷺ والآن اتحدث عن حفيده ولكن لا أحد يفهمه حتى أنت. فدع هذه الالاعيب جانباً واتركني لانصرف فقد تأخرت كثيراً عن انجازي مهامي.

التفتّ الى الطلاب وقلت:

ـ السيد (ر) يحسب نفسه من المبعوثين الخواص وسيعلن رسمياً عن قريب بأنه...

قاطعني فوراً وهتف:

- لا تبح بالاسرار. لا تبح بالاسرار. ينبغي ان نبقى في الخفاء.

تذكرت مرحلة دراستي يوم رقدت في القسم فتاة استغرقت في هذاءاتها حتى خيّل اليها أنها بطلة فيلم سينمائي، كانت قد اتخذت بطلة تاريخية ذات شخصية دينية مقدسة اسوة لها تقلد سلوكها واقوالها باستمرار.

خضع السيد (ر) للعلاج حتى أُحكم ضبط حالته بعد شهر كامل فزالت اعراض المرض لديه. فترك المستشفى وأودع اسرته بعد تقديم التعليمات الوافية اليهم حول نمط السلوك معه.

ان الذهان المسي الاكتئابي اضطراب يبدأ بالتبلور في العشرين من العمر وبنفس النمط لدى الذكور والإناث فيكتسب الشخص المصاب خلال نوبات المرض معنويات مسيّة (مطربة) غير طبيعية فيغدو سريع الانفعال. وباشتداد الحالة يخف تجلي فرط الهياج المرح لدى المريض بينما يزداد في توجهه الانفعالي والاندفاع للتحامل على الآخرين، كما تسود اعراض الأنفة وقلة النوم والثرثرة الزائدة وفرط الشهوة الجنسية والتشوش الفكري لدى المصابين بهذه الحالة. يلاحظ لديهم كذلك عدم التركيز وزيادة السلوكيات المقصودة. ومن خصائص هذه الحالة فرط الهياج المرح كما قلنا، فيقدم المريض على اعمال لا يفكر بنتائجها المؤلمة ومن أكثرها شيوعاً التمادي في انفاق الأموال، عدم الدقة في الممارسات الجنسية أو مخالفة القانون. ان تبعات المرض تبلغ مبلغاً يشوش الحياة المهنية والاجتماعية للمرضى بما يسود لديهم من اوهام وهذاءات تتطلب ارقاد المريض في المستشفى. وقد يضفي المرض طابعاً فظيعاً على مظهر المريض ونمط هندامه وهي تغييرات أكثر شيوعاً لديهم من الاعراض السابقة ويرافق المرض عادة نوبات الاكتئاب حيث يتضمن تاريخ المرض تعرضهم دورياً لنوبات تتراوح بين المرح.والاكتئاب.

على أية حال اؤكد اخيراً ان المعالجات الحالية المتداولة كفيلة بضبط هذا المرض ببساطة ولكن يفترض بطبيعة الحال تجنب عودة الاعراض.

وهل في السماء من ينظرنا؟!

كان محمد علي اكبر يراجعني منذ سنين لعلاج زوجته. كان عاملاً افغانياً يعمل في أحد بيوت تكثير الأزهار في مدينة محلات. زوجته كانت تشكو الاكتئاب وتعاني كذلك من مرض في الجهاز الهضمي ومن فقر الدم ايضاً. كنت أعالج اكتئابها واحاول التغلب على الحالتين الأُخريين بما يجيزه لي علم الطب وعند شعوري بالحاجة لاتخاذ اجراءات طبية أكثر دقة لعلاجها أستعين بزملائي الأُخصائيين في تلك الفروع.

كان للزوجين ثلاثة اطفال. ابنتاهما «گل بهار» و «گل حسرت» في الحادية عشر والتاسعة من العمر وابنهما محمد في السادسة. كان ثلاثتهم كاللآلئ الوضاءة، يموج في نواظرهم الذكاء والفطنة الذاتية. كان محمد علي اكبر قد لجأ الى ايران فاراً من مزار شريف. العراقة والاستقامة رسمتا معانيهما في تقاطيع وجهه. الاكتئاب الشديد وروح الانزواء كانا باديين عليه. كنت استغرقت في جلستي معهم متى ما زاروني أكثر من جلساتي المألوفة وفي كل مرة يقدم لي باقة من الازهار. لم تكن الازهار مدعاة تثميني لمبادرته بل لأنه كان يحملها اليّ من مسافة بعيدة متحملاً في سبيل تسليمها يانعة اليّ، مشاق كثيرة.

كنت ابتهج بملء قلبي عند لقائهم فلم أكن اعتبرهم غرباء فالمطلعون على تاريخ هذه البقعة من الكرة الارضية يعلمون ان افغانستان كانت حتى امد غير بعيد جزءاً لا يتجزأ من ايران يسكنها حالياً شعب ايراني يتمسك بطقوس

واعراف وكذلك بمبادئ ايرانية وينطق باللغة الفارسية الحالية المسماة باللغة الفارسية الدّرّية. ان الكثير من الشخصيات الايرانية البارزة التي سجلت لبلدنا تاريخاً عريقاً ضمن تاريخ العلم والمعرفة ولدوا في هذه المناطق. فافغانستان كانت جزءاً من قطاع خراسان الشاسع المتوج على مر الدهر بتاريخه الزاهر، أوليس خراسان موطن ابن سينا والفارابي وابي ريحان والرودكي والخوارزمي و...؟ اذاً لا يمكن تناسي هذه الجذور لأن الاستعمار بادر لعزل هذه المنطقة بخط فاصل ثم أسمى الجزء المنفصل افغانستان وما تبقى ايران.

كنت اعتبرهم دوماً ابناء بلدي المتشردين وأرى ان المروءة تفرض عليّ أن آخذ بيدهم إن أمكنني ذلك بأن أخفف عنهم وطأة الغربة وازيل عنهم صدأ الحرمان من العش الهانئ بكلام دافئ على أقل تقدير لا أن أهول مخالفة البعض منهم للقانون. وهل يمكن ان تطهر جالية تتكون من عدّة ملايين نسمة من وجود الآثمين؟

كنا نتسامر حول مزار شريف وجمالها الرائع ومناخها فأبثهم الامل فأقول لهم: هنالك في السماء من ينظركم وسوف يسعدكم باعادة حقكم اليكم فتعودون بعد الخلاص من الظلمة الجائرين الى دوركم ودياركم.

كنت اسرح مع ذكرياتي إبان اغترابي عن ايران وشوقي العميق لكل بقعة من بقاعها رغم توفر جميع مستلزمات الراحة لي. كان أحد أصدقائي يقول: اننا بنو الانسان حتى وان اخترنا السكنى في فندق من الدرجة الاولى لا نعتبره داراً لنا فيشدنا الحنين دوماً للعودة الى دورنا وان كانت أكواخاً بسيطة ولن ينزاح عن كاهلنا عبء الحرمان إلّا عند العودة اليها.

هذا ما كان يعتلجه محمد علي اكبر ايضاً بفارق انه كان يعاني من شظف العيش ايضاً. كان عاملاً بسيطاً في أحد بيوت تكثير الازهار في مدينة محلات.

كنت الى جانب وصفتي العادية اكتب له وصفة أخرى تتضمن أدوية مقوية. فجميع اعضاء الاسرة يعانون من فقر الدم. بلغ تثمينهم لمتاعبي واحترامهم لي

مبلغاً يهزُّ مشاعري ازاء توددهم.

على اية حال، كانت علاقتي بهم متواصلة. ذات مرة زرت مدينة محلات ورغم كثرة اصدقائي فيها كنت راغباً في لقاء محمد علي اكبر واسرته فرحت استفسر عنهم حتى عثرت عليهم وقضيت ساعات من الزمن الى جانبهم في تلك الغرفة الرطبة الضيقة. بلغ التذاذي بصفاء مشاعرهم وعلاقاتهم الحميمة ذروته. كان يوماً ممتعاً بالنسبة لي.

ذات مرة زارني محمد علي اكبر برفقة أسرته. لمحت الدموع تحلق في عينيه وهمّ عظيم يسخر كيانه، حتى صار يحدق باستمرار في ركن ما. قدم لي باقة رائعة من الازهار سلمتها لي «گلبهار» باسمة. كانت «گل حسرت» العظيمة الشبه لأبيها قد تسمرت بعينيها المتلألئتين في وجهي وانهمك ضياء الدين في تناول بسكويت كان يمسك به. كانت حالة الزوجة قد تحسنت كثيراً مقارنة مع ما كانت عليه قبل عامين. ارتسمت على شفتيها ابتسامات حزينة وهي تتطلع الى زوجها فهي نعم الزوجة الصبور المؤازر بالنسبة لمحمد علي اكبر.

ذكرتني بمشهد سينمائي رائع جميل. كان الزوج الكادح يخطو الى الأمام شاقاً طريقه بين الثلوج فتقفو زوجته الوفية أثره واضعة اقدامها على آثار اقدامه فيخيل للناظر الى الثلوج ان شخصاً واحداً قد اجتاز المكان. ما أروع الحياة عندما يغدو الزوجان وحدة متكاتفة تشحن فيها الزوجة زوجها بالامل والمعنويات وتعده لمواجهة الصعاب ثم تتبع خطاه وتأبى على مرّ حياتها ان تتركه وحيداً. أوَليس المرء لا يستغني قط عن حاجته الى ام وان طبيعة الانسان لا تحتم ان تكون.هذه الام «اماً بايولوجية لحمية» بل قد تكون زوجة طيبة حنوناً واعية لا تنسى دورها في مؤازرة الزوج أبداً.

كان كلا الزوجين ساهمين يفكران في موضوع واحد. قلت باسماً:

ـ ماذا دهاك يا رجل؟ اراك غرقت في احزانك.ترى هل ذبلت ازهار «محلات»؟

ابتسم وقال بلهجته الحلوة:

ـ يخيم على قلوبنا شوق رهيب يا دكتور، ننوي الرحيل، سنعود الى افغانستان.

قلت بدهشة:

ـ ولم؟ هل حدث طارئ ما؟

ـ لقد هرم ابوانا واضنتهم الوحدة كما فعلت الغربة بنا هنا. صممنا على العودة الى ديارنا. سأعمل مزارعاً هناك وليفعل الله ما يشاء وعليه توكلت.

ـ الا تفكر يا رجل بالحرب القائمة هناك؟ الناس يتعرضون لإبادة جماعية.

ـ لا ضير. سنرحل وننصاع اليهم على أية حال. لا أخالنا سنتعرض لسوء هكذا.

ـ لا اعلم. لك ما تشاء فافعل ما تراه في مصلحتك.

ولأني كنت اشعر بالقلق ازاءهم اقترحت عليه:

ـ اذهب لوحدك واترك زوجتك والاطفال هنا فترة من الزمن ثم عد واصطحبهم متى ما استقرت اوضاعك وأمنت لهم ظروفاً مناسبة.

ـ إنهم لا يطيقونِ الحياة بعيداً عني حيث لا أحد لهم هنا ثم أنني لا أملك مالاً اتركه لهم ليديروا به شؤون معيشتهم كما انهم يلحون على العودة، سنرحل ونكون معاً مهما حلّ بنا.. سيكون في رحيلنا الخير ان شاء الله.

شعرت ان آلام غربتهم قد فاقت تحملهم فقلت مضطراً:

ـ حسناً جداً.. استودعكم الله.

ـ ما يقلقني هو موضوع ادوية زوجتي. فكيف لي أن أعدها؟

ـ لا عليك يا صديقي. سأكتب لك وصفة لثلاثة أشهر وسأبعث لك بمجموعة منها مع كل من يزورنا من معارفك. لك أن تبعث لي برسالة أو تتصل بي هاتفياً او على أي نحو آخر ان عرض طارئ ما فسوف أمدّكم بادويتها.

ـ سررت كثيراً يا دكتور، لقد كسحت عن قلبي هماً كبيراً. ثم أردف:

ـ سنزور ضريح الامام الرضا اولاً ثم نشد الرحال الى «تايباد». فينفرج الهم عن قلوبنا مع اطلالتنا على جبال افغانستان في تايباد.

الفرح عمّ الاطفال. كانوا يجهلون واقع الحال هناك فقد اوحت اليهم حكايات امهم ان تلك الديار جنة من جنان الله على الأرض.

تمنيت لهم السعادة والهناء وقدمت هدايا صغيرة للاطفال فانصرفوا بعد ان ودعتهم.

انصرفوا ولكن.. منظرهم وأنا اودعهم في اللحظة الاخيرة ظل مرسوماً في مخيلتي. رحت افكر بسيمائهم واوضاعهم. بدا لي وانا اتبادل القبلات مع محمد علي اكبر عند وداعهم انه شدّ الرحال الى حيث لا رجعة فيه. صرت وأنا أتذكر عيني «گل حسرت» المتلألئتين وبسمات گلبهار الحلوة ووجه ضياء الدين محمد الدائري الوسيم، أردّد مع نفسي:

ما أصعب امتهان الأعزّة فقد كان محمد علي اكبر ينتسب الى اسرة عريقة معروفة يكن لها سكنة تلك المناطق احتراماً بليغاً.

استلمت على مر عامين عدة رسائل من محمد علي اكبر كما زارني خلالها اقاربه فبعثت اليه بأدوية زوجته واتصل بي هاتفياً مرتين حتى انقطع الاتصال بيننا.

ومنذ العام (٢٠٠١) غابت عني اخبار محمد علي اكبر. لا أعلم ماذا حل به. هل هو حي يرزق أم ودع الدار الفانية؟

كل ما أعرفه أن الدهر قد سن سننه في هذا الشعب البريء بأن تتسلم زمام امورهم مجموعة ما تعرضهم للابادة الجماعية على أبشع صورة ممكنة ثم تتنازل عن سلطتها لمجموعة اخرى بعد فترة من الزمن. المثير أن جميع هذه المجموعات تتسلم السلطة بادئاً تحت شعار إغاثة الشعب الافغاني البائس وكل منها أكثر بطشاً وأقل ثقافة من سابقتها.

ربما تساءلت گلبهار من أمها مراراً: لأي ذنب يقتلوننا هكذا يا أمي

العزيزة؟ وليس هنالك من يغيثنا؟

وبطبيعة الحال كانت گل حسرت تكرر سؤالها من أبيها: لماذا نتعرض للابادة سواء من قبل طالبان أو الاميركيين والانجليز ألا يدعون أن طالبان مجموعة بذيئة وانهم يريدون ان يفتحوا أمام الافغان طريق الخلاص؟ يرغبون في قتلنا أكثر من الطالبان؟ ما هو ذنبنا؟ هل صدر منا عمل سيئ؟.

ضياء الدين هو الآخر تدور في باله استفسارات يوجهها للناس في العالم بأسره.. إلّا انه يوجهها بلسان نشفته نوائب الدهر. انه يتساءل: هل يعاني الاطفال في اميركا وانجلترا من الجوع والعطش ومن التشرد في الصحاري صيفاً وشتاءً مثلنا؟ ماذا يقول محمد علي نفسه؟ لعله يرفع في هذه الأيام رأسه الى السماء باستمرار وهو يقول: وهل في السماء من ينظرون؟

قد تكون أسرة محمد علي اكبر سُجيت تحت اطنان من الاتربة والاحجار اثر قصف وحشي شنّه الاميركيون والانجليز فانطمرت نواظر گل حسرت تحت الاطلال وهي ما زالت تتطلع في الأفق بانتظار ازهرار الورود في ربيع مزار شريف وربما قطعت العيارات النارية للطالبان أوصالهم قبل أشهر من هذا فأدمت شفاه گلبهار المنفرجة عن ابتساماتها الجميلة. وربما تجد ضياء الدين محمد يحتضن بسكويته في أحد مخيمات الصليب الأحمر الدولي بوجه ذابل ساهم، يفكر في أهله الراحلين؟

لا علم لي بمثل هذه الأمور إلا انني واثق بأن في السماء من ينظرنا وهو العادل الذي لا يغيب عنه شيء.

العام السابع

ـ السلام عليك يا دكتور.

ـ وعليك السلام يا سيدتي. تفضلي اجلسي.

ـ شكراً.

دخلت الفتاة الشابة باسمة وجلست امامي.

ـ لا أعرف كيف ابدأ يا دكتور. لم اراجع طبيباً نفسياً حتى الآن.

قلت بحنو مبتسماً:

ـ خذي راحتك. وابدأي من حيث شئت.

ـ في الحقيقة مشكلتي عاطفية.

ـ حسناً، كلي اذن صاغية.

مع تبادلها هذه العبارات معي راحت ابتسامتها تضمحل شيئاً شيئاً وتحل محلها آثار عبرة قديمة احتبست لديها منذ امدٍ طويل ما عتمت ان انفجرت فسالت دموعها عفوياً حتى اغرورق وجهها بدموعها الساخنة. كانت تحاول تغطية وجهها بمنديل حريري في يدها فقد اعتراها الخجل لبكائها فور دخولها وان كانت تبكي بصمت. أطبقت ساقيها وركبتيها واسندت مرفقيها الى ركبتيها وامسكت المنديل امام وجهها تكفكف به دموعها وقد احنت رأسها قليلاً. راحت ترفع رأسها باستمرار في محاولة تفشل فيها لاطلاق ابتسامة فتنكس رأسها ثانية وتواصل بكاءها.

تريثت قليلاً حتى تستعيد هدوءها وبعد هنيهة امسكت بحبل الحديث وقالت:

ـ تعرفت قبل ست سنوات يا دكتور على احد زملائي في الكلية، كنا ندرس هندسة البناء معاً. كنا أقراناً في العمر وقد راحت افكارنا وتصوراتنا لبعض حتى تبلورت مشاعر الحب بيننا. وصممنا على الزواج ليكون زفافنا بعد اتمام مرحلة الدراسة. اسرتي كانت مطلعة منذ البداية على قرارنا فارتضت الأمر ووافقت على زواجنا. العائق الوحيد امام زواجنا كان الاختلاف الطبقي الفاحش بين اسرتي واسرة جواد الثرية المتمولة وفيما عدا ثراءهم لم يتميزوا عنا من أية ناحية أخرى. ولكنها كانت قضية هامة. كانوا حسب قول جواد يرغبون ان يقترن ابنهم مع فتاة من شريحتهم. كنا اسرة عادية فأبي موظف وامي معلمة واخي الوحيد كان آنذاك طالباً في السنة الاولى من المتوسطة. انه الآن طالب جامعي في السنة الاخيرة من الهندسة الميكانيكية.

كان جواد يقول: لا يهمني موقف اسرتي الحالي سيرضخون للأمر في النهاية. منحني الاطمئنان بأنه سيتمكن من اقناعهم عندما يحين الأوان وجعلني افكر بالمستقبل بعيداً عن الاضطراب والقلق.

قضينا اوقاتنا معاً باعتبارنا خطيبين وكان كثير الزيارات لأهلي حتى ألفنا وجوده في بيتنا على أنه زوجي المستقبلي. كنت آنذاك في الثانية والعشرين من عمري فاستمرت علاقتنا على هذا المنوال على مر العامين التاليين حتى أتممنا دراستنا. قضينا أياماً ممتعة معاً حتى ذلك الوقت! كنا نذاكر دروسنا، نخرج معاً ونحضر المآدب الى جانب بعضنا. كنت أتصور دائماً مستقبلاً وضاءً لحياتنا الزوجية واسرح مع المشاريع والافكار الجميلة التي سنتبناها وكان هو بدوره يتحدث دوماً عن افكاره وطموحاته. ما كان احلاها. لم يكن امامنا ما يعرقل مسيرتنا فكان المستقبل الهانئ بانتظارنا. واخيراً فرغنا من دراستنا الجامعية وحان الأوان ليفاتح جواد اهله بالموضوع.

التزمت الفتاة الصمت هنيهة. اكتظت عيناها ثانية بالدموع ثم اطلقت العنان لدموعها من جديد. كانت تسرد حكايتها على خير وجه فكنت في غنى عن اللجوء لاساليب التحليل النفسي لاستدراجها نحو الكلام. فحدقت فيها بهدوء وحنو ولكي لا يؤلمها صمتي قلت:

ـ من شأن البكاء أن يهدئ الانسان كثيراً في بعض الأحيان.

هدأت لسماع هذا الكلام فانزاح عنها احراجها لبكائها وخف عنها خجلها فاسترسلت في حديثها قائلة:

ـ كانت أسرة جواد قد أعلنت عن موقفها المتزمت في معارضة زواجنا فنهوه عن هذه المبادرة وقد تنبهت الى أنهم لم يتورعوا حتى عن تهديد جواد. لما تناهى الموضوع إليّ طلبت منه أن ننهي العلاقة بيننا. كنت رغم حبي الشديد له قررت انهاء الموضوع ما دام الوضع على تلك الحال لانني وكذلك أبويّ كنا نولي موافقة أسرته أهمية كبرى ونعتبرها الشرط الاساسي في زواجنا بينما كان خلافاً لنا لا يعيرها مثل هذا الاهتمام. كان يقول:

ـ لا تكترثي لموقفهم سألتحق بخدمة العلم واستدرجهم خلال هذين العامين للموافقة على زواجنا ثم أنني لا أعتبر معارضتهم مشكلة تعيق زواجنا فقد نضجت وصرت قادراً على اختيار زوجتي المستقبلية بنفسي. استمر النقاش بيننا أسابيع عديدة حتى اقنعني برأيه وكسبت بدوري موافقة أهلي الى حد ما رغم معارضة أبي ولكني تحملت أعباء المسؤولية على عاتقي.

انقضت سنتان أُخريان. لم يعد جواد يزورنا كما سلف عهده فالخجل كان يمنعه من جهة وأبواي لا يرغبان في لقائه من جهة أخرى. ومع ذلك كنا نلتقي دوماً ونقضي ساعات من كل ليلة نتحدث فيها هاتفياً الى بعض. تعلق به كان قد أنساني التفكير بأي شيء وأي شخص آخر. وهو كان يبدو كذلك. تمت خدمة العلم وحلّ الزمان المناسب لزواجنا.

لم يلِنْ موقف أسرته خلال هذه الفترة كما تناهى لي فيما بعد بل ازدادت

تحمساً في معارضة الموضوع ولكنه أخفى عني هذه الحقيقة طوال تلك الفترة حتى اضطر للبوح بها عندما واجه الحاحي وبكائي قبيل انتهاء خدمة العلم. اقترحوا عليه السفر الى كندا، ربما كان هدفهم التخلص مني. فاستقبل جواد اقتراحهم بالترحيب. كان يقول:

ـ دعيني اسافر وأنظم شؤون معيشتي هناك خلال سنة أو سنتين عندئذ اعود لنبرم عقد الزواج واصحبك معي سواء رضوا أم أبوا. سنتحرر من هذه القيود الأسرية ونكون في حل من الأزمات الاقتصادية. كان الكيل قد طفح ولم أعد أطيق الصبر وأراني أتقدم في العمر وقد اضطررت لرفض أفضل الخاطبين وصرت من جهة أخرى عرضة لهمزات القاصي والداني ولكنني كنت أحب جواداً ولا اقوى على العيش دونه. وماذا كان عليّ ان افعل؟ كان يتحتم علي أن أتجلد. اصدقائي كانوا يلومونني واهلي قد استشاطوا غضباً وأنا اعجز عن انهاء قصة هذا الحب والتعلق اللعينين فقررت ان اثق به.

ودعت جواداً بدموع ساخنة فرحل الى كندا بعد سنة قضاها في تدبير قضايا سفره وأنا الى جانبه ارافقه في مراجعاته ومساعيه بل انجزت نصف الاجراءات بنفسي.

رحل جواد منذ عام كنا نتحدث الى بعض عن طريق الانترنت يومياً خلال الاشهر الأولى ولكنه بعد ذلك قلص من اتصالاته يوماً بعد يوم حتى وصلتني منه رسالة عبر البريد الالكتروني قبل شهرين.

فتحت الفتاة حقيبتها ودفعت الي ورقة لاقرأها. كانت رسالة جواد جاء فيها باسلوب لا ينم عن عاطفة حارة:

عزيزتي پرستو:

استميحك عذراً لتأخيري في الاتصال بك. كنت مشغولاً الى حد بعيد لم تترك لي امتحانات الانتساب الى الجامعات فرصة للاتصال بك. لقد قدمت لي مارغريت واخوها عوناً كبيراً. كنت سأعجز عن اداء أي من اعمالي لولاهما.

هما الآن الى جانبي. ويبلغانك تحياتهما. ليتك كنت معنا ولكني يؤسفني ان ذلك غير ميسور. لقد تقصيت الموضوع من جميع الابواب ولكن يظهر ان قدومك الى هنا لا يتيسر إلّا بالزواج وهو غير ممكن حالياً. ابواي هدداني بحرماني من مساعداتهما المالية ان فكرت بالزواج منك وانا عاجز عن العمل ومواصلة التحصيل في آن واحد. إذاً لابد ان نتجلد. سأزورك بعد اتمام دراستي لاصحبك معي الى هنا، أو نستأنف هناك حياتنا مشتركة جميلة. قد يكون نصيبنا من الحياة ان نكون خطيبين أبديين ولكن.. لابد أن ننبذ اليأس عن انفسنا.

المحـــب

جواد

سلمتها الرسالة بهدوء باسماً. يظهر انها انزعجت من ابتسامتي فقالت:

ـ ما الذي يضحكك يا دكتور؟

قلت بحنو:

ـ افكاري وذكرياتي، قضية تكرار هذه الحكاية بين الشباب وفي قلوبهم.

ـ أية حكاية؟

كان لابد لي ان اتجنب الابتعاد عن محور الموضوع.

ارتسمت على شفتي ابتسامة أعرض من سابقتها فقلت ممازحاً:

ـ حسناً ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لم يحدث امر هام. لقد تقلصت اتصالاته. ولم يعد متحمساً كما سبق له لكنه لم يخلف وعده. لا اعلم ما هي حكايته مع مارغريت؟ أشعر ان تغييراً ما طرأ على جواد. كلامه لم يتغير ولكن.. ولكنه تجرد عن احاسيسه. هذا ما استوحيه من اتصالاته. انني خائفة. لا أعلم ماذا أفعل؟.. إحدى صديقاتي نصحتني بمراجعتك. قالت من شأنك أن تأخذ بيدي.

هدأ روع الفتاة. ساد الصمت بيننا هنيهة. قلت:

ـ حسناً. علام عقدت العزم؟

ـ اريدك ان تهديني السبيل لأستعيد جواداً وأجذبه نحوي ثانية؟
ـ تقصدين يعود الى ايران؟
ـ ليس مهماً. المهم ان نكون معاً.
ـ من هي «مارغريت»؟ افهم من كلامه انك تعرفينها.
ـ انها ابنة صاحب الدار التي يقيم فيها جواد كأنها قدمت عوناً كبيراً لجواد.
ـ وهل تتصورين ان جواداً قد نسيك بعد رؤية تلك البيئة والاوضاع؟
ـ لا، لا ارى ذلك في كلامه. انه ما زال ملتزماً بموقفه.
ـ هذا هو ظاهر الأمر. وهل تؤيد مشاعرك ايضاً هذا الرأي؟
ـ مشاعري؟!.. لا، لا أعلم. لقد هبط وزني (١٥) كيلوغراماً خلال الشهر الماضي.. حاولت الانتحار مرتين. سوف تعدو حياتي بلا معنى ان فقدت جواداً. قلبي تحطم، اهدرت سمعتي وسمعة اسرتي وافضل فرص الزواج والحياة المشتركة التي عرضت علي. اشعر انني انتهيت.

كانت الفتاة تتخبط في متاهات ظروف عسيرة، راحت ستة اعوام من عمرها سدى. قلبها كان يوحي اليها بأن سجل علاقتها مع جواد قد انطوى ولم تعد لهذه الاتصالات الجافة الباردة أية قيمة ولكنها عاجزة عن تقبل هذه الحقيقة المرة فذلك يكلفها ما لا طاقة للفتاة البائسة به.

كان يفترض علي ان اوضح لها وبشكل غير مباشر الحقائق الى حدّ ما بأن القي اليها كلاماً كلياً يحفز افكارها ويهديها السبيل لاتخاذ القرار الصائب ثم اترك لها فرصة كافية تستوعب خلالها كلامي جيداً فالزمن يمثل عاملاً هاماً في هذا المضمار.

ـ اصغي اليّ يا آنسة «پرستو»: سنبحث في هذه الجلسة عدة امور على ان نتطرق في الجلسة التالية لباقي القضايا.

اول هذه الملاحظات هي ان جواداً يحبك وان لا تكوني مرتابة في حبه لك والثاني هو انه لا ينوي ولن ينوي خيانة مشاعرك. والثالث هو انه لا يتحمل

بمفرده وزر هذه الاحداث بل انك تشاركينه في التقصير وانه يتحتم على الانسان ان يثمن كل شيء على قدر استحقاقه لا أكثر ولا أقل، أي ان لكل شيء قيمة ينبغي ان لا نتجاوزها عند تثمين ذلك الشيء.

فكري في هذه الامور حتى الجلسة اللاحقة وسنبحث موضوعك فيها اكثر فأكثر وسأدلك باذن الله لنيل الهدوء التام ولكني بحاجة الى عونك فسوف أعجز عن اتخاذ أية خطوة لولا مسايرتك لي.

آخر ملاحظة اذكرها في هذه الجلسة هي: عندما تفشلين عدة مرات في حل قضية ما اتركي الموضوع فالمطلوب اولاً اجراء تعديلات على اصل القضية لأن الفشل المتواصل يؤكد حتمية وجود خطأ ما يتطلب اجراء تعديل له.

وجهت لها هذا الكلام لأخفف من العبء العاطفي الملق على كاهلها لأنني واثق بأنها تصغي الى المحيطين بها وهم يقولون لها مراراً: جواد لم يكن يحبك ولا يحبك. لقد تركك. كان يتلاعب بمشاعرك، يريد الآن ان يتزوج مارغريت.. انها عبارات تسحق روح الفتاة الشابة ومعنوياتها وتحطم كبرياءها. وهذه هي المشكلة الاساسية التي يعاني منها أي محب لا سيما وان كانت فتاة شابة. فالمحب مستعد لتحمل أية رزية ينزلها به الحبيب ولكن بعيداً عن الاحراج ازاء وجود المنافس أو التفكير بأن الجانب الآخر قد تلاعب به وبفكره ومشاعره طول هذه الفترة.

شعرت انها نالت قسطاً من الهدوء، لم اوجه ضربة لمشاعرها الباطنية لأنني كنت واثقاً ان «پرستو» كغيرها من المحبين تفكر دون ريب ان جواداً لم يخنها ابداً، ابداً. فالصعاب وسوء التفاهم هما سبب تبلور هذه الاوضاع وكان من المتعذّر عليّ اختراق دائرة الخطر هذه.

وبعد اسبوع:

كانت اكثر هدوءاً، كان الاكتئاب بادياً عليها دون ان يشوشها ويعرضها للاضطراب كما في الجلسة السابقة:

ـ آنسة پرستو، هل فكرت في الملاحظات التي حددتها لك؟
ـ اجل يا دكتور.
ـ حسناً. ما هو رأيك في الملاحظة الاولى؟
ـ حول هل ان جواداً كان يحبني أم لا؟
ـ اجل.
ـ كان يدعي ذلك وما زال. انه لا يصرح بغير هذا.
ـ بالضبط كما تقولين. انه كان يحبك وما زال ولكنه يفتقد الشهامة الرجالية التي تمكنه ان يقنع ابويه ان يبادر الى الزواج بمفرده مستقلاً عن اسرته وهذا ما ارهقه من جهة كما ابعد تغيير البيئة افكاره عن الموضوع. وهذا امر طبيعي وسوي من وجهة النظر النفسية.
حسناً دعينا ننتقل الى الملاحظة الثانية: ماذا كانت؟
ـ انه لم يخنّي.
ـ هل لك قناعة في ذلك؟
ـ ان كان الامر كما تقول انت يا دكتور، لا. لأنه كان يعلم ان زواجنا غير ميسور على هذا النحو فلماذا تصرف معي بهذا الاسلوب؟
ـ كان يريد تحقيقه ولكنه عجز وقد منعه كبرياؤه ان يقر بأنه عاجز عن اقناع اهله كما انه لا يتمكن من قطع اتصاله بهم في سبيل الزواج منك. انني أجدك أنت الاخرى لا ترتضين الاذعان بأن سجل جواد قد فقد مصداقيته ولا داعي للابقاء عليه رغم انك استشعرت ذلك منذ أشهر إلّا انك تتجاهلين ذلك فراراً من الرضوخ للحقيقة. ان تصرفه يماثل تصرفك فان سميته خيانة فاعلمي انك خنت نفسك بالاندفاع وراء الاحلام الفارغة.
كانت اللحظة المناسبة لاحدد فيها نقطة ضعفها فتذعن لها.
– وماذا عن الملاحظة الثالثة؟
ـ ان كلانا مخطئ.

ـ هل تعترفين بذلك؟

ـ أجل.

ـ وما كان خطأك؟

ـ انني تماديت في التمسك به.

ـ بالضبط. ولهذا قلت ان لكل شيء قيمته ويفترض ان لا يثمن بأكثر من ذلك وقد ثمنت علاقتك مع جواد بأكثر من قيمتها. كان يتحتم عليك انهاء العلاقة بينكما عندما عجز عن الايفاء بوعده بعد اتمام مرحلة الدراسة بأن تحددي له طريقين: انهاء العلاقة أو اقناع اسرته خلال اجل معيّن، ثلاثة اشهر مثلاً. وهو ما اراده ابوك ولكنك أبيت ان تصغي لكلامه.

بعد اسبوعين:

ـ لقد اتصل بي يا دكتور بالامس.

قلت ضاحكاً:

ـ طيب. وماذا كان يقول؟

ـ لا شيء، نفس الكلام.

ـ حسناً، وماذا قلت أنت؟

ـ وأنا كذلك، نفس الكلام.

ـ وماذا اجاب؟

فطنت الى انني امازحها فقالت بانزعاج.

ـ أراك اتخذتني العوبة.

قلت ضاحكاً:

ـ كلنا نغدو العوبة الآخرين احياناً.

ـ هل ترى ان انهي الموضوع سواء ارادني أم لا. هل أحسنت فهمك؟

ـ لا. بل ارى انك ان صممت على الابقاء على احترام خطبته لك ان تتأهبي

لخوض مغامرة احتمال فشلها ٩٠٪. لك ان تبقي على علاقتك معه ان كنت تتمتعين بمثل هذه الجرأة وان تتخلي عنه في غير هذه الحالة.

ـ تعني ان احتمال الفشل ٩٠٪ والنجاح ١٠٪؟

ـ تقريباً.

ـ ماذا تقرر لو كنت في مثل ظروفي؟

ـ لا اخوض فيما يتجاوز احتمال فشله ٥٠٪.

ـ ولما كنت في عمري؟

ـ كنت أتأهب لمواجهة الفشل كما قررت المضي في مثل هذا الطريق أي انني احدد انعكاساتي إن تعذر عليّ تحقيق ما أرنو اليه. ينبغي على المرء ان يحدد سبل الفرار والخلاص بادئاً قبل دخوله اية غرفة.

ـ ولكنني.. لم افعل.

سرحت «پرستو» في افكار بائسة.. راحت تفكر في ستة اعوام هدرت من عمرها، في حب لا يروق لقلبها المتأوه ان يتخلى عنه. ثم جعلت تتمتم بصوت اقدر على سماعه:

ـ حتى أنت عجزت عن مساعدتي.

قالت ذلك ثم اكتسحت الدموع محياها المبهوت.

ـ هل اختبرت الحب حتى الآن يا دكتور؟

ـ اي انسان قد يختبره في مرحلة من مراحل حياته.

ـ اختبرته أم لا؟

ـ اختبرته.

ـ وهل تمكنت من التخلي عنه بمثل هذه القساوة الضارية كما تنصحني؟

ـ عندما فكرت ان هذا الحب سيسحق كبريائي وهو ما اراه فوق كل شيء، اجل تخليت عنه. فالانسان عندما يتجرد عن كبريائه ويتحول الى كائن منهار يفقد اية قدرة على اثارة الاعجاب، سيان لنفسه أو الجانب الثاني او لأي

شخص آخر.

ـ إذاً كنت في برهة ما مفعماً بالمشاعر مثلي.

ـ وما زلت.

ـ ولكني لا أجد في كلامك ملامح المشاعر والعواطف القلبية.

ـ انني انسان عاطفي ولكني روضت نفسي على ان لا ابذل مشاعري لأي شخص.

وكيف نجحت في التخلي عنها؟

ـ بارادتي. بما وهبني الله من قوة فبه استيعن في كل ظرف وفي جميع الاحوال. كما كان لي استاذ يهديني السبيل.

ـ هو ذلك الذي ذكرته في احدى قصصك؟

ـ أجل.

ـ هل ما زال على قيد الحياة؟

ـ لماذا تسألين هذا السؤال؟

ـ أريد أن أزوره.

ـ انك تزورينه.

ومع اطلاق ابتسامة ذكية برق في عينيها وميض فقالت:

ـ إذاً، كان اسلوباً من اساليب استقطاب جميع القراء.

ـ لا.

ـ اذا ماذا تقول؟

ـ لقد مدني بكل ما لديه فلا حاجة لك بزيارته هو.

ـ هل أنت جاد؟

ـ اجل. ولكن على صعيد القضايا النفسية والتشاورية لا على الأصعدة الأخرى.

ـ وهل كانت لديه قابليات أخرى؟

ـ كان عبداً من عباد الله المخلصين، الواعين، اللبيبين لا اتجرأ أن اقارن نفسي به. وهبني من علومه هذا النصيب. كان يقول: انت طبيب نفساني ولابد لك ان تتحرك داخل اطار اختصاصك. لا تنأ عنه ولكن تمرس فيه تاماً.

ـ وهل فعلت؟

ـ لا، الانسان كائن مجهول يتعذر معرفة كل شيء عنه. انني اجهد دوماً لزيادة معلوماتي، لا أعلم الى أي حد وفقت لذلك؟

ـ ولكنك لا تقنعني؟

ـ لانك ترغبين ان أويد آراءك ومن جهتي لا أستطيع ان ادلك على طريق غير صائب..

دعيني اسرد عليك حكاية. ذات يوم زار رجل «بوذا». كان راهباً وقد عقد النية ان يكون الى جانب الاستاذ ليمارس الرياضات الروحية فيما بقي من حياته. سأله «بوذا»: ايها الراهب، هل احببت امرأة حتى الآن؟ ارتبك الراهب للحظات ثم أجاب مندهشاَ: لجأت اليك يا استاذ لاترك الدنيا لعلني أنال الحب الالهي وأنت تحدثني عن الحب المادي؟ قال «بوذا»: اجل يا ايها الراهب، اجل. انك لو لم تختبر الحب المادي يتعذر عليك اختبار الحب الالهي. اذاً، انصرف واختبر الحب المادي اولاً ثم عد اليّ.

اذاً الحب لا يعتبر اثماً. الأثم ان يضيع الانسان في معمعاته اللا متناهية دون ان يحاول انقاذ نفسه.

قالت بصوت حزين:

ـ هذا فيما لو تمكنت من الابقاء على حياتي.

ـ تتمكنين.. كما فعل الملايين.

في تلك الأمسية تركت «پرستو» غرفتي مذهولة تجوب افكارها اجواء مليئة بنفحات الحب والعرفان. كانت فتاة ذكية فالى جانب كونها مهندسة بناء،

لها خبرة في شؤون الفن والعرفان. لقد نلت ثقتها بنفسي.

استغرقت پرستو ثمانية اشهر من الزمن حتى عادت الى حياتها الطبيعية قلت لها: لا تتصوري ان بامكانك نسيان الموضوع يوماً. فسوف تذكرينه دوماً بفارق انه سينضم الى قائمة ذكرياتك المرة ولكن الزاخرة بالعبر ستشغل هذه الذكريات ركناً من افكارك الى الأبد. اتمنى ان تتخذي سبيلك من خلال هذا الحب للوصول الى حب حقيقي لا تغدين فيه ضحية حياة مادية بعيدة عن المعنويات.

كانت حكاية الآنسة «پرستو» اكثر قساوة مما ذكرته بايجاز عن تفاصيلها الطويلة المعقدة.

الأمر الوحيد الذي كان يسرها هو انها توصلت الى الاسلوب الوحيد لمواجهة مشكلتها رغم انها اهدرت الكثير من الفرص الثمينة التي فسحت امامها مما اضطرها للتخلي عن الكثير من طموحاتها في الحياة. لم يكن جواد على الهيئة التي رسمتها له. فقد كان شاباً أنانياً قاسياً أصلح ظاهر وضعه في محاولة للم جراح نفس الفتاة ومعنوياتها. كان علي ان اجنبها الشعور بأنها أضاعت ستة اعوام من عمرها في حب رجل يفقد الضمير والشعور بالمسؤولية.

وكلامي اوجهه لجميع الفتيات بل الفتيان الشباب ايضاً: أعزتي، كونوا واعين وحددوا لكل شيء قيمة واقعية لا تتجاوزوها تجنباً لاهدار سبع سنوات من اعماركم كما فعلت «پرستو».

الفهرس